المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم
جامعة الملك سعود
كلية التربية
قسم الدراسات الإسلامية

جامعة الملك سعود
King Saud University



بحوث

المؤتمر الدولي عن الرحمة في الإسلام

The International Conference on Mercy in Islam

الجزء الثالث


بسم الله الرحمن الرحيم

اسم الله «الرحمن» في القرآن الكريم
جَمْع ودراسة

إعداد:
د. محمود محروس محمود إبراهيم



المقدمة

هذا البحث هو دراسة بيانية لمفردة قرآنية.

أهدافها:

تطمح الدراسة إلى الوقوف على بعَض دلالات اقتران اسم الله (الرحمن) باسمه (الرحيم) في المواضع التي اقترن فيها الاسمان الكريمان في القرآن الكريم، وإلى محاولة تجلية شيء من حِكَم اختيار اسم الله "الرحمن" في المواضع التي ورد فيها منفردًا؛ إسهامًا في دراسة البيان القرآني، وتأصيلًا لخلق الرحمة في الإسلام.

إشكاليتها:

محاولة الإجابة عن السؤالين التاليين: من خلال السياق القرآني، ما دلالات اقتران اسم الله (الرحمن) باسمه (الرحيم) في المواضع التي اقترن فيها الاسمان الكريمان في القرآن الكريم؟ ولِمَ كان اختيارُ اسمه (الرحمن) في المواضع التي ورد فيها منفردًا؟

منهجها:

انتهجت الدراسة منهجًا يقوم على استقراء المواضع التي ورد فيها اسم

الله (الرحمن) في القرآن استقراءً كاملًا، وتتبُّع وتحليل كلام العلماء[1] في هذه المواضع، واختيار ما يتناسب منها مع تجليات هذا الاسم من خلال السياق القرآني، لاسيما مع ضعف أغلب الآثار التي اعتمد عليها كثير من المفسرين في تفسير هذا الاسم الكريم، كما أثبته العلامة أحمد شاكر في تحقيقه لتفسير ابن جرير الطبري.

خُطتها:

قد تألفت الدراسة من مقدمة، وثلاثة مباحث، وخاتمة: جعلت المقدمة لبيان أهداف البحث ومنهجه وإطاره النظري، وكان المبحث الأول للتأصيل اللغوي لكلام المفسرين عن هذا الاسم الكريم، وفي الحواشي كان التأصيل لاسمه (الرحيم)، وكان المبحث الثاني للحديث عن بعض لطائف اقتران اسم الله الرحمن باسمه الرحيم في المواضع الستة التي اقترن فيها الاسمان الكريمان في القرآن الكريم، وكان المبحث الثالث للوقوف على بعض لطائف اختيار اسم الله (الرحمن) في كل موضع ورد فيه الاسم الكريم منفردًا، وأخيرًا كانت الخاتمة لإجمال أهم نتائج البحث وتوصياته، تلاها مسرد بما اعتمدتْ عليه الدراسة من مصادر ومراجع.

(١) كلام العلماء الذي نتتبعه في هذه الدراسة إنما هو دقائق لغوية أو لطائف بيانية أو إشارات تفسيرية، نراعي في اختيارها ألَّا تتعارض من الناحية العَقَديَّة مع ما كان عليه رسولُ الله ﷺ وصحبُهُ الكرام ﷺ وتابعوهم بإحسان إلى يوم الدين، ونبرأ إلى الله ﷻ من كل ما يخالف معتقد سلفنا الصالح.

المبحث الأول
الدراسة اللغوية

لَمَّا كان اسم الله «الرحمن» عَلَمًا لدلالته على الباري نفسِه ﷻ، ووَصْفًا لدلالته على اتصافه ﷻ بالرحمة [1]، ولَمَّا كان هذا الاسم الكريم على بناء (وزن) «فَعْلان»، ولَمّا كان له تميُّزٌ في الرسم الإملائي- كان الكلام عن بناء فعلان علمًا، وعنه وصفًا، وعن الرسم الإملائي لاسم الله (الرحمن)، فانتظم بذلك هذا المبحثُ ثلاثَ مسائلَ:

الأولى: في نوع بناء «فعلان» وصفًا:

للعلماء في تحديده اتجاهان، يتكاملان في توضيح كلام المفسرين حول هذا الاسم الكريم:

الاتجاه الأول:

(رحمن) صفة مشبهة من الفعل «رحِم يرحَم» المتعدي إلى مفعولٍ به واحد، "لكن بعد العدول به إلى « فَعُل» بضم العين (بغرض المدح)[2]، أو

(١) ما قيل عن «الرحمن» ينطبق على «الرحيم»، فهو قاعدة مطردة تنسحب على كل أسماء الله الحسنى، ومَنْ لم يفطن إليها ظنّ «الرحمن»، أو «الرحيم»، أو غيرهما من الأسماء الحسنى أعلامًا فقط، أو صفات ليس إلا. يُنْظَر في هذه القاعدة: ابن القيم: بدائع الفوائد: ٢٤/١، وابن عثيمين: القواعد المثلى ص١١.

(٢) يقول السيوطي في نواهد الأبكار ١٤٦/١ «الفعل المتعدي قد يُجعل لازمًا بمنزلة الغرائز، فيُنقل إلى فَعُل بضم العين، ثم تُشْتَقّ منه الصفة المشبهة، وهذا مطرد في باب المدح والذمّ». والعدول بالكلمة عن بنائها إلى بناء آخر لغرض بلاغي، كالمبالغة، أو التعظيم، أو التعجب، هو من سنن العرب في كلامها، ينظر في ذلك: ابن جرير الطبري: تفسيره ١٢٦/١، وابن جني: الخصائص ٢٧٠/٣، ٢٧١، وابن فارس: الصاحبي ص ٥١.

بعد تنزيل الفعل المتعدي منزلة اللازم...؛ لأنّ الصفة المشبهة لا تصاغ من متعدٍّ"[1]، و"الصفة المشبهة تدل على ثبوت الصفة لصاحبها ثبوتًا زمنيًّا عامًّا، يشمل الماضي والحاضر والمستقبل، وعلى دوام ذلك الثبوت أو ما يشبه الدوام، دوامٌ يقتضي أنَّ ثبوت الصفة لصاحبها ليس أمرًا حادثًا الآن، ولا طارئًا ينقضي بعد زمن يسير، وإنما هو أمرٌ دائم ملازمٌ لصاحبه طول حياته أو أطول مدة فيها، حتى يكاد يكون بمنزلة الدائم"[2]. ومن معاني «فَعْلان» التي يمكن حمل اسم الله (الرحمن) عليها:

١. الامتلاء والسعة: يقول الزجاجي: "يقال: غضبان للممتلئ غضبًا، وعطشان للممتلئ عطشًا، وكذلك (الرحمن) ذو النهاية في الرحمة، الذي وسعت رحمتُهُ كلَّ شيء"[3]، ويقول ابن عطية عن «فعلان»: "ومعناها أنه انتهى إلى غاية الرحمة، كما يدل على الانتهاء «سكران» و«غضبان»"[4]، ويقول ابن القيم "مع ما في اسم الرحمن الذي هو على وزن فعلان من سعة هذا الوصف، وثبوت جميع معناه للموصوف به، ألا ترى أنهم يقولون: غضبان للممتلئ غضبًا؟.... فبناء فعلان للسعة والشمول"[5]، ويقول الشيخ خالد: "«فَعْلان»... فيما دل على الامتلاء... كـ«شبعان»، و«ريان»"[6]، ويقول أبو البقاء الحنفي: "«فعلان» مبالغة في كثرة الشيء"[7].

(١) ما قيل في «الرحمن» من الاشتقاق والنقل (العدول)، يقال في « الرحيم». ينظر في ذلك: الشيخ خالد الأزهري: شرح التصريح ٧/١. وهذا القول بِكَوْن رحمان ورحيم صفة مشبهة هو الرأي الأشهر، يقول الآلوسي في روح المعاني ٦١/١ "الرحمن الرحيم المشهور أنهما صفتان مشبهتان، بنيتا لإفادة المبالغة، وأنهما من رحم مكسور العين، نُقل إلى رحم مضمومها بعد جعله لازما، وهذا مطرد في باب المدح والذم".

(٢) ينظر في معنى الصفة المشبهة: الأستاذ عباس حسن، النحو الوافي٢٨٣/٣ - ٢٨٤.

(٣) الزجاجي: اشتاق أسماء الله الحسنى ص ٤٠.

(٤) ابن عطية: المحرر الوجيز ٦٣/١.

(٥) ابن القيم: مدارج السالكين ٥٦/١، ٥٧.

(٦) الشيخ خالد: شرح التصريح ٤٠/٢، وينظر: السيوطي: الهمع ٣٢٧/٣.

(٧) أبو البقاء الحنفي: الكليات ٤٦٨.

٢. الاستمرار المتجدد: ويقصد به "الأوصاف التي لا تفارق صاحبها، ولكن آثارها لا تظهر إلا في مناسبات خاصة بها، فمثلها يطرأ ويزول، ثم يتجدد... ومن هذا النوع كثير من العادات والسجايا، كالفرح والغضب والشبع... فهذه صفات تظهر في مناسباتها...."[١]، ويقول الراغب: "فالرحمن هو الذي كثرت رحمته، وتكررت، ووسعت كل شيء، ولذلك فُسِّر بأنه الذي يكون منه تعطف بعد تعطف"[٢]، ويقول الأستاذ محمد عبده: "إنَّ صيغة فعلان تدل على وصف فيه معنى المبالغة... وهو في استعمال اللغة للصفات العارضة، كعطشان وغرثان وغضبان"[٣].

- وهذا التأصيل يوضح بعض أسرار الجمع بين اسمي الله (الرحمن)، و(الرحيم)، ومنها أنَّ "صيغة فعلان تفيد الحدوث والتجدد، وصيغة فعيل تفيد الثبوت، فجمع الله ﷻ لذاته الوصفين؛ إذ لو اقتصر على (الرحمن) لظن ظانٌّ أنَّ هذه صفة طارئة قد تزول، كعطشان وريان، ولو اقتصر الوصفين؛ إذ لو اقتصر على (الرحمن) لظن ظانٌّ أنَّ هذه صفة طارئة قد تزول، كعطشان وريان، ولو اقتصر على رحيم، لظن أنَّ هذه صفة ثابتة، ولكن ليس معناها استمرار الرحمة وتجددها، إذ قد تمر على الكريم أوقات لا يَكْرُمُ فيها، وقد تمر على الرحيم أوقات

(١) الاستاذ عباس حسن: النحو الوافي ٣/٢٨٣حاشية ٢.
(٢) الراغب: تفسير الراغب ١/٥٠
(٣) محمد رشيد رضا: تفسير المنار ١/٣٩. أما معنى بناء « فعيل » الذي جاء عليه اسم الله الرحيم مع اعتباره صفة مشبهة، فهو "من أبنية الغرائز والسجايا اللَّازمة، كـ «كبُر، وصغُر، وحسُن، ولطُف»، وَنَحْو ذَلك. وَلهَذَا كَان «حبيب» أبلغ من «مَحْبُوب»؛ لأن الحبيب الَّذي حصلت فيه الصِّفَات وَالْأَفْعَال الَّتي يُحَبُّ لأجلها، فَهُوَ حبيبٌ في نفسه، وَإِنْ قُدِّر أنَّ غيره لا يُحبهُ، لعدم شعوره به، أَو لمَانع مَنعه من حبه، وَأما المحبوب فَهُوَ الَّذي تعلق به حب الْمُحب فَصَارَ محبوبًا بِحُبِّ الْغَيْر لَهُ، وَأما الحبيب فَهُوَ حبيب بِذَاته وَصفاته، تَعَلَّقَ به حبُّ الْغَيْر أَو لم يتَعَلَّق، وَهَكَذَا الحميد والمحمود، فالحميد هُوَ الَّذي لَهُ من الصِّفَات وَأَسْبَاب الْحَمد مَا يَقْتَضِي أنْ يكون مَحْمُودًا، وَإِنْ لم يحمده غَيره، فَهُوَ حميدٌ فِي نَفسه، والمحمود مَنْ تعلق بِهِ حمدُ الحامدين" ابن القيم: جلاء الأفهام ٣١٦.

كذلك، والله ﷻ متصف بأوصاف الكمال، فجمع بينهما حتى يَعْلَمَ العبدُ أنَّ صفته الثابتة هي الرحمة، وأنَّ رحمته مستمرة متجددة لا تنقطع، حتى لا يستبد به الوهم بأنَّ رحمته تعرض ثم تنقطع، أو قد يأتي وقت لا يرحم فيه ﷻ، فجمع الله كمال الاتصاف بالرحمة لنفسه"[1].

وقد يدل هذا التأصيلُ أيضًا على أنَّ اسم الله (الرحمن) يجمع بين الجمال والجلال، خلافًا لما قد يتبادر للذهن من كون (الرحمن) من صفات الجمال[2] فقط، وهذا ربما يفسر لنا سرًّا من أسرار ذكر اسم الله (الرحمن) في سياقات الجلال والعظمة، مثل قوله تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴿٦٨﴾ ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا ﴿٦٩﴾﴾ [مريم] ونحو قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا ۖ لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴿٣٨﴾﴾ [النبأ]، وهو أمر يشبه فيه اسمُ الله (الرحمن) اسمَه "الله"، فكلاهما يدل على الجلال والجمال معًا، ربما يؤيد ذلك قولُ البقاعي: "ولَمَّا كان في (الرحمن) جمالٌ ظاهرٌ و[3] في باطنه جلال... كان لذلك جامعًا لجميع الأسماء الحسنى والصفات العلى"[4]، وقول السيوطي: "و(الرحمن) أبلغ من (الرحيم)، فإنه أي: (الرحيم) مُشْعِرٌ باللطف والرفق، كما أنَّ (الرحمن) مُشْعِرٌ بالفخامة والعظمة"[5].

(١) د. فاضل صالح السامرائي: معاني الأبنية، ص ٨١. وينظر في هذا المعنى ما نقله الأستاذ محمد رشيد رضا عن الإمام محمد عبده في تفسير المنار ١/ ٤٠، وقد سبق إلى هذا أبو البقاء الحنفي في الكليات ص٤٦٨، وقد سبقه ابن جماعة في كشف المعاني ص ٨٥.

(٢) يقول الشيخ الشعراوي: "لله ﷻ صفات جمال وصفات جلال، صفات الجمال، كالرحمن، والرحيم، والباسط.... وصفات الجلال، كالقهار والجبار وغيرها، مما نخاف منه". ينظر في ذلك: تفسير الشعراوي ١٩/ ٩٦٨٦.

(٣) لابد من هذه الواو كي يستقيم المعنى، وإنْ لم تكن في الكتاب المطبوع.

(٤) البقاعي: نظم الدرر ١١/ ٥٣٨.

(٥) السيوطي: معترك الأقران ١/ ٢٩٦.

الاتجاه الثاني:

وذهب فريقٌ آخرُ من العلماء إلى أنَّ بناء «فعلان» هو من أبنية المبالغة، يقول ابن الشجري: "وعدلوا عن «فاعل» إلى «فعلان» في قولهم: الرحمن، فالرحمن أبلغ في الوصف بالرحمة من الرحيم، والرحيم أبلغ من الراحم، فلشدة المبالغة في الرحمة اختصَّ بالرحمن القديم ﷻ"[1]، ويقول السهيلي: "(الرحمن) من أبنية المبالغة كغضبان ونحوه، وإنما دخله معنى المبالغة من حيث كان في آخره ألف ونون كالتثنية، فإنَّ التثنية في الحقيقة تضعيف"[2]، وفي اللسان: "فعلان بناء من أبنية المبالغة"[3]، ويقول الآلوسي، قاصدًا الرحمن والرحيم: "الأصح أنهما من أبنية المبالغة الملحقة باسم الفاعل، وأُخِذا من فعلٍ متعدٍّ"[4]، ويقول الإمام محمد عبده: "والذي أقول: إنَّ صيغة فعلان تدل على وصف فيه معنى المبالغة كـ«فَعَّال»"[5].

- اسم الله (الرحمن) على وزن فعلان، و(رحمن) وصفًا ممنوعٌ من الصرف -على الأرجح[6]- ومن خصائص هذا الاسم أنَّ العرب لم يضعوا له مؤنثًا على «فَعْلَى»، ولا على «فَعْلانة»، خلافًا لما هو غالبٌ في بابه، يقول البيضاوي: "والأظهر أنه غير مصروف، وإنْ حَظَر اختصاصُهُ

(١) ابن الشجري: أمالي ابن الشجري ٣٤٦/٢
"وبناء «فعيل».... في المبالغة يدل على معاناة الأمر وتكراره، حتى أصبح كأنه خلقة في صاحبه وطبيعة فيه" (السامرائي: معاني الأبنية ١٠٣). وقد تتفاوت صيغ المبالغة الخمس المشهورة في المبالغة، "فـ«فَعول» لمن كثر منه الفعل، و«فَعَّال» لمن صار له كالصناعة، و«مِفْعال» لمن صار له كالآلة، و«فعيل» لمن صار له كالطبيعة و«فَعِل» لمن صار له كالعادة" (الهمع ٧٦/٣).
و«فعيل» تعمل عمل الفعل المضارع عند سيبويه، خلافًا للكوفيين ولجمهور البصريين. (ينظر في هذه المسالة: السيوطي الهمع ٧٥/١ وفي تفصيل الكلام فيها ينظر: الزجاجي: اشتاق أسماء الله الحسنى ص٤٠.

(٢) السهيلي: نتائج الفكر ص ٤٢.

(٣) ابن منظور: اللسان باب الميم فصل الراء مع الحاء ٢٣٠/١٢، وفيه أنَّ رحيم منها أيضًا فهو «فعيل بمعنى فاعل» (٢٣٠/١٢).

(٤) الآلوسي: روح المعاني ٦٣/١.

(٥) محمد رشيد رضا: تفسير المنار ٣٩/١.

(٦) ينظر في الخلاف في هذه المسألة: السيوطي: نواهد الأبكار ١٥٣/١، والهمع ١١١/١.

بالله ﷻ أنْ يكون له مؤنث على «فعلى»، أو «فعلانة»، إلحاقًا له بما هو الغالب في بابه"[١]، وبقول الرضي عن العرب: "لأنهم خصصوا هذا اللفظ بالباري ﷻ، فلم يطلقوه على غيره، ولم يضعوا منه مؤنثًا، لا من لفظه بالتاء، ولا من غير لفظته، أعني «فعلى» - فيجب أنْ يكون غير منصرف"[٢]، مع أنَّ "(رحمن) بغير ألف ولام، ودون نداء، ولا إضافة غيرُ مستعمل"[٣].

- و(أل) الداخلة على (رحمن) باعتباره وصفًا تفيد الاستغراق والعهد[٤].

الثانية: في بناء فعلان عَلَمًا:

- يذهب جمهور العلماء القائلين بعلمية بناء «فعلان» إلى أنه عَلَمٌ بالغَلَبَة، مشتقٌّ من الرحمة، لم يستعمل في غير (الله) ﷻ، جاء على بناء لا يكون في النعوت، ويدل على علميته وروده غير تابع لاسم قبله في القرآن الكريم، ونسب أبو حيان هذا القول للأعلم الشنتَمري[٥]، وهو قول الزمخشري في الكشاف[٦]، وابن مالك،[٧] وأبي القاسم السهيلي [٨].
- واستعمال هذا البناء عَلَمًا يبدو أنه كان من الأمور النادرة عند العرب قبل الإسلام؛ "قال ابن خالويه: لم نجد في كلام العرب لـ«ندمان» نظيرًا

(١) البيضاوي: تفسير البيضاوي ٢٦/١.
(٢) الرضي: شرح كافية ابن الحاجب ١٧٢/١، طبعة جامعة الإمام محمد بن سعود.
(٣) ابن مالك: شرح الكافية الشافية ٩٨/١.
(٤) القرطبي: الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى ص ١٢٦. وهو نفس معنى (أل) الداخلة على «رحيم».
(٥) أبو حيان: البحر المحيط ٣٠/١.
(٦) الزمخشري: الكشاف ٧/١.
(٧) كما نسبه له ابنُ هشام في المغني ٦٠٢/١.
(٨) السهيلي: نتائج الفكر ص ١٦٠ - ١٦١، ويراه بعضهم معربًا أعجمي الأصل، ينظر في تفصيل ذلك: الزجاجي: اشتقاق أسماء الله الحسنى ص٤١. وينظر في هذا المعنى القرطبي: تفسير القرطبي ١٠٤/١. ويراه آخرون عربيًا إلا أنه جامد غير مشتق، ينظر في تفصيل ذلك: القرطبي: تفسير القرطبي ١٠٤/١، والرازي: مفاتيح الغيب ٦٠/١.

إلا أربعة أحرف، يقال: نديم ونادم وندمان، وسليم و سالم وسلمان، ورحيم وراحم ورحمان، وحميد وحامد وحمدان، وهذا نادر"[١].

- و(رحمن) عَلَمًا ممنوعٌ من الصرف -على الأرجح- كحاله وصفًا، يقول ابن يعيش: "وأمّا الأعلام، نحو: (مَرْوان)، و(عَدْنان)، و(غَيْلان)، فهي أسماءٌ لا تنصرف للتعريف وزيادة الألف والنون"[٢]. أما البناء نفسه (الوزن) ممنوع من الصرف -على الأرجح- سواءٌ أكان وزنًا لوصف أم لعلم؛ لأنَّ الأبنية (الأوزان) تأخذ نفس أحكام موزوناتها[٣].
- و(أل) في بناء «فعلان» عَلَمًا بالغَلَبَة، هي (أل) التي للغلبة، وهي نوع من أنواع (أل) الزائدة، إلا أنها لازمة، لا تفارق الاسم الذي دخلت عليه إلا لنداء أو إضافة[٤].

الثالثة: حول الرسم الإملائي لاسم الله (الرحمن):

أولًا: من الأمور التي اتفق فيها اسم الله (رحمن) واسمه (الله) حَذْفُ الألف تخفيفًا لكثرة الاستعمال في البسملة وغيرها[٥]، وشرط صحة هذا الحذف في اسم الله (رحمن) "ألا يتجرد من الألف واللام، فإنْ جُرد منهما كتب بالألف، نحو: رحمان الدنيا والآخرة"[٦]، "ولا يجوز حذف الياء من الرحيم؛ لأنَّ حذف الألف من الرحمن لا يُخِلُّ بالكلمة، ولا يحصل فيها التباس، بخلاف حذف الياء من الرحيم"[٧].

(١) السيوطي: المزهر ٢/٩٤، وينظر فيه أيضًا ٢/٧٢.
(٢) ابن يعيش شرح المفصل ١/١٨٧، وينظر في الخلاف في هذه المسألة: الرضي: شرح الكافية ١/ ١٦٩ - ١٧٤ طبعة جامعة الملك محمد بن سعود.
(٣) ينظر في هذه القاعدة: السيوطي: نواهد الأبكار ١/١٥٢.
(٤) ينظر في هذا المعنى الاستاذ عباس حسن: النحو الوافي ١/٤٣٥.
(٥) الرضي: شرح الشافية ٢/١٢٨.
(٦) السيوطي: الهمع ٣/٥٢٠.
(٧) الرازي: مفاتيح الغيب ١/١٠٤.

ثانيًا: يتكون هذا الاسم من ناحية الرسم الإملائي من الحروف المقطعة في أوائل بعض السور، وتقع في ثلاثة مقاطع، هي: الر، حم، ن، ونُسب هذا الملحظ إلى ابن عباس [١]، وسعيد بن جبير رضي الله عن جميع الصحب الكرام [٢]، ومن الجدير بالملاحظة أنَّ ترتيب هذه المقاطع في اسم الله الرحمن موافق لترتيبها في كتابه القرآن، والجدول التالي يوضح ذلك:

المقطع	الر	حم	ن
رقم السورة الوارد فيها المقطع وفق ترتيب المصحف، واسمها	١٠ – يونس ١١ – هود ١٢ – يوسف ١٥ – الحجر	٤٠ – غافر ٤١ – فصلت ٤٢ – الشورى ٤٣ – الزخرف ٤٥ – الدخان ٤٦ – الجاثية ٤٧ – الأحقاف	٦٨ – القلم
ملاحظات حول المقطع	١ – جزء من آية. ٢ – وارد في صدور سور متقاربة، ومتقدمة عن سور المقطع الثاني.	١ – آية مستقلة. ٢ – وارد في صدور سور متتالية، وواقعة بعد سور المقطع الأول، وقبل سور المقطع الثالث.	٢ – جزء من آية. ٢ – وارد في سورة واحدة، بعد سور المقطع الثاني.

(١) البيضاوي: تفسيره ٣٤/١٥.
(٢) الرازي: مفاتيح الغيب ٢٥٣/٢.

المبحث الثاني
مواضع اقتران اسم الله "الرحمن" باسمه "الرحيم"

١. قوله تعالى ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝١﴾ [الفاتحة]:

فيه خمس مسائل:

الأولى: في الفرق المعنوي بين الاسمين الكريمين:

يرى الطبري أنَّ الرحمن أشد مبالغة من الرحيم؛ لأنه أشد عدولًا عن بناء فعله (فَعِل يفعَل)، فهو أقوى في إفادة المدح من الرحيم[١]، ويرى الراغب أنَّ الرحمن يدل على كثرة الرحمة وتكرارها، فهو الذي يكون منه تعطف بعد تعطف، وتفضل بعد تفضل، ولا يطلق على غيره، كلفظ «الله»، فإنهما اسمان اختص بهما الباري ﷻ. والرحيم يدل على كثرة الرحمة، ويسمى به غيره[٢]، ويقول الغزالي: "الرحمن هو المنعم بما لا يتصور صدور جنسه من العباد، والرحيم هو المنعم بما يتصور صدور جنسه من العباد"[٣]، ويرى الزمخشري أنَّ الرحمن أشد مبالغة من الرحيم؛ لزيادة المبنى في الرحمن عنه في الرحيم، ولدلالة بناء فعلان على الامتلاء، كما أنَّ الرحمن لم يستعمل عَلَمًا مع غير الله ﷻ[٤]، ويقول ابن عطية: "الرحمن صفة مبالغة

(١) الطبري: تفسير الطبري ١/١١٤.
(٢) الراغب: تفسير الراغب ١/٥٠، ٥١.
(٣) الغزالي: المقصد الأسنى ص٦٣، والرازي: مفاتيح الغيب ١/٢٠١.
(٤) الزمخشري: الكشاف ١/٧، وابن عاشور: التحرير ١/٢١٠ ونسبه الأخير للجمهور.

من الرحمة، ومعناها أنه انتهى إلى غاية الرحمة... وهي صفة تختص بالله، ولا تطلق على البشر، وهي أبلغ من فعيل، وفعيل أبلغ من فاعل؛ لأنَّ راحمًا يقال لمن رحم ولو مرة واحدة، ورحيمًا يقال لمن كثر منه ذلك"[1]، ويرى ابن جماعة أنَّ الرحمن يدل على عظمة الرحمة، ولكن لا يدل على دوامها، بينما الرحيم يدل على دوام الرحمة[2]، ويرى أبو حيان أنَّ جهة مبالغة "فعلان" من حيث الامتلاء والغلبة، بينما جهة مُبَالَغَة فَعِيل مِنْ حَيْثُ التَّكْرَار وَالْوُقُوعُ بِمَحَالِّ الرَّحْمَةِ، وَلِذَلِكَ لَا يَتَعَدَّى فَعْلَان، وَيَتَعَدَّى فَعِيل [3]، ويقول السيوطي: "الرحمن أبلغ من الرحيم؛ فإنه (الرحيم) مشعر باللطف والرفق، كما أنَّ الرحمن مشعر بالفخامة والعظمة"[4]، ويقول الإمام محمد عبده "الرحمن الدال على منتهى الكمال في اتصافه بها، واسم الرحيم الدال على أنها من الصفات النفسية المعنوية مع تَعَلُّقها بالحق تعلقًا تنجيزيًّا، كقوله تعالى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمۡ رَحِيمًا﴾ [النساء:٢٩] و﴿وَكَانَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب:٤٣]"[5].

الثانية: في لطائف اشتمال البسملة على الاسمين الكريمين:

نُقل عن المُبَرِّد أنَّ البسملة أمان ورحمة[6]، لذا لم تبدأ بها سورة براءة، ونقل القرطبي عن بعض العلماء أنَّ: "﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ قَسَمٌ من ربنا أنزله عن رأس كل سورة، يقسم لعباده: إنَّ هذا الذي وضعت لكم يا عبادي في هذه السورة حق، وإني أوفي لكم بجميع ما ضَمَّنْتُ في هذه السورة من وعدي ولطفي وبري"[7]، ويقول البيضاوي: "إنما خص البسملة بهذه الأسماء ليعلم العارف:

(١) ابن عطية: المحرر الوجيز ١/٦٣.
(٢) ابن جماعة: كشف المعاني ٨٥، محمد عبده: المنار ١/٣٩، والقاسمي: محاسن التأويل ١/٢٢٦، والعكبري: الكليات ١/٤٦٨.
(٣) أبو حيان البحر المحيط ١/٣٢.
(٤) السيوطي: معترك الأقران ١/٢٩٦.
(٥) محمد رشيد رضا: المنار ١/٦٣.
(٦) ونسب لعلي بن أبي طالب، وابن عباس من الصحابة، كما نسب لسفيان بن عيينة من التابعين. القرطبي: تفسير القرطبي ٨/٦٣.
(٧) القرطبي: تفسير القرطبي ١/٩١.

أنَّ المستحق لأنْ يُستعان به في مجامع الأمور هو المعبود الحقيقي المولِي النعمَ كلَّها، عاجلها وآجلها، جليلها وحقيرها"[1]، ويقول ابن جماعة سائلا ومجيبًا: "لم اختصت البسملة بهذه الأسماء الثلاثة [الله، والرحمن، والرحيم]؟ أما الأول: فلأنه اسم المعبود المستحق للعبادة دون غيره، والموجِدُ لعباده، والثاني والثالث: تنبيهٌ على المقتضِي لسؤال الاستعانة به، وهو سعة رحمته لعباده"[2]، ويقول ابن القيم "وأما الرحمة، فهي التعلُّق والسبب الذي بين الله وبين عباده، فالتأليه منهم له، والربوبية منه لهم، والرحمة سببٌ واصلٌ بينه وبين عباده، بها أرسل إليهم رسله، وأنزل عليهم كتبه، وبها هداهم، وبها أسكنهم دار ثوابه، وبها رزقهم وعافاهم وأنعم عليهم، فبينهم وبينه سبب العبودية، وبينه وبينهم سبب الرحمة"[3]، ويقول الإمام محمد عبده عن البسملة: "القرآن إمامنا وقدوتنا، فافتتاحه بهذه الكلمة إرشادٌ لنا بأنْ نفتتح أعمالنا بها، فما معنى هذا؟ ليس معناه أنْ نفتتح أعمالنا باسم من أسماء الله ﷻ بأنْ نذكره على سبيل التبرك أو الاستعانة به، بل أن نقول هذه العبارة ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ فإنها مطلوبة لذاتها"[4]، ويقول محمد رشيد رضا: "بدءُ كل سورة بالبسملة التي لم يوصف اسم الذات (الله) فيها بغير الرحمة الكاملة الشاملة هو إعلامٌ منه ﷻ بأنه أنزله رحمة للعالمين، كما قال مخاطبًا لمن أنزله عليه ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء:١٠٧]"[5]. وافتتاح القرآن الكريم بهذين الاسمين الكريمين فيه من حسن الابتداء، وبراعة الاستهلال [6] ما لا يخفى.

الثالثة: في فوائد اقتران الاسمين الكريمين:

يقول المبرد عن فائدة الجمع بينهما: "إنه تَفَضُّلٌ بعد تفضل، وإنعامٌ

(١) البيضاوي: تفسير البيضاوي ١/٢٦.
(٢) ابن جماعة: كشف المعاني ٨٤.
(٣) ابن القيم: مدارج السالكين ١/٥٨.
(٤) محمد رشيد رضا: المنار ١/٣٤.
(٥) محمد رشيد رضا: المنار ١/٦٣، ٦٤.
(٦) ينظر في معنى كل من المصطلحين والفرق بينهما: البغدادي: خزانة الأدب، مقدمة الكاتب ١/١٩، ٣٠، وما بعد كل منهما على الترتيب.

بعد إنعام، وتقوية لمطامع الراغبين"[١]، ويقول ابن جماعة: "فكأنه قيل: العظيمُ الرحمةِ الدائمُها"[٢]، ويقول ابن القيم: "وأما الجمع بين (الرحمن)، و(الرحيم)، ففيه معنى... أنَّ (الرحمن) دالٌّ على الصفة القائمة به ﷻ، و(الرحيم) دالٌّ على تعلقها بالمرحوم، فكان الأول للوصف، والثاني للفعل، فالأول دال على أنَّ الرحمة صفته، والثاني دال على أنه يرحم خلقه برحمته"[٣]، ويقول البقاعي: "والمراد بهما هنا أنه ﷻ يستحق الاتصاف بهما لذاته"[٤]، ويقول ابن عاشور: "(الرحمن الرحيم) يشمل أصول التشريع الراجعة للمكلفين"[٥].

الرابعة: في دلالات تقديم لفظ الجلالة (الله) على (الرحمن الرحيم):

يقول الرازي "(اللّه) إشارة إلى القهر والقدرة والعلو، ثم ذكر عقيبه (الرحمن الرحيم)، وذلك يدل على أنَّ رحمته أكثر وأكمل من قهره"[٦]، ويقول البقاعي "ولَمَّا كان اسم الجلالة عَلَمًا، وكان جامعًا لجميع معاني الأسماء الحسنى، أُولِيَه (الرحمن) من حيث إنه كان كالعَلَم في أنه لا يوصف به غيره، ومن حيث إنه أبلغ من الرحيم، فأَوْلَى الأبلغَ الأبلغَ"[٧].

الخامسة: في أسباب تقديم (الرحمن) على (الرحيم):

يقول ابن جُزَي: "إنما قدم «الرحمن» لوجهين اختصاصه باللّه، وجريانه مجرى الأسماء التي ليست بصفات"[٨]، ويقول ابن عاشور:

(١) القرطبي تفسير القرطبي ١/١٠٥.
(٢) ابن جماعة: كشف المعاني ص٨٥، وأبو البقاء الحنفي: الكليات ١/٤٦٨.
(٣) ابن القيم: بدائع الفوائد ١/٢٤.
(٤) البقاعي: نظم الدرر ١/٢٦.
(٥) ابن عاشور: التحرير والتنوير ١/١٣٤.
(٦) الرازي: مفاتيح الغيب ١/١٥٣.
(٧) البقاعي: نظم الدرر ١/٢٥، ٢٦. وينظر في هذا المعنى: ابن خالويه: إعراب ثلاثين سورة من القرآن الكريم ص١٣، الرازي: مفاتيح العتب ١/١٥٣، وابن كثير: تفسير ابن كثير ١/١٢٦.
(٨) ابن جزي: التسهيل ١/٤٩، وينظر في هذا المعنى: ابن خالويه: إعراب ثلاثين سورة ص١٣، ١٤، والقرطبي: تفسير القرطبي ١/١٠٦، والشيخ زكريا الانصاري: فتح الرحمن ١/٩، والآلوسي: روح المعاني ١/٤٧.

"وتقديم الرحمن على الرحيم؛ لأنَّ الصيغة الدالة على الاتصاف الذاتي أولى بالتقديم في التوصيف من الصفة الدالة على كثرة متعلقاتها"(١).

٢. قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣﴾ [الفاتحة:٣]:

فيه ثلاث مسائل:

الأولى: في لطائف تكرار (الرحمن الرحيم):

بَيَّنَ الرازي أنَّ الحقَّ ﷻ كَرَّرَ في الفاتحة الرحمن الرحيم مرتين، ولم يكرر الأسماء الثلاثة الأخرى الواردة فيها؛ اللّٰه، ورب العالمين، ومالك يوم الدين، وذلك: "كأنه قيل: اذكر أني إلهٌ وربٌّ مرةً واحدة، واذكر أني رحمن رحيم مرتين، لتعلم أنَّ العناية بالرحمة أكثر منها بسائر الأمور، ثم لَمَّا بَيَّنَ الرحمة المضاعفة، فكأنه قال: لا تغتروا بذلك، فإني مالك يوم الدين"(٢)، ويقول أبو حيان: "وفي تكرار الرحمن الرحيم... تنبيهٌ على عظم قدر هاتين الصفتين، وتأكيد أمرهما... والترتيب القرآني جاء في غاية الفصاحة؛ لأنه ﷻ وصف نفسه بصفة الربوبية وصفة الرحمة، ثم ذكر شيئين: أحدهما ملكه يوم الجزاء، والثاني العبادة، فناسَبَ الربوبية الملك، والرحمةَ العبادَةَ، فكان الأول للأول والثاني للثاني"(٣)، ويقول ابن القيم: "وكَرَّرَ إيذانا بثبوت الوصف وحصول أثره وتعلقه بمتعلَّقاته"(٤)، ويقول الشيخ زكريا الأنصاري "ذكَرَ في الآية الأولى [البسملة] المنعِم دون المنعَمَ عليهم، فأعادها مع ذكرهم بقوله ﴿رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾"(٥)، وقال محمد رشيد رضا: "وقد كررها مرةً ثانيةً، تنبيهًا لنا على أمره إيانا بتوحيده وعبادته؛ رحمةً منه ﷻ بنا؛ لأنه لمصلحتنا ومنفعتنا"(٦).

(١) ابن عاشور: التحرير والتنوير ١/ ٢١٠.
(٢) الرازي: مفاتيح الغيب ١/ ٢٠٨.
(٣) أبو حيان: البحر المحيط ١/ ٣٥، ٣٦.
(٤) ابن القيم: مدارج السالكين ١/ ٥٧.
(٥) الشيخ زكريا الأنصاري: فتح الرحمن، ص٩.
(٦) محمد رشيد رضا: المنار ١/ ٣١.

الثانية: في فوائد اقتران ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ بـ ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾:

يقول ابن جماعة: "فائدة إعادتها بعد الحمد التنبيه على الصفات المقتضية لحمده وشكره، وهي سعة رحمته ﷻ لعباده"(١)، ويقول ابن القيم "واقتران ربوبيته برحمته، كاقتران استوائه على عرشه برحمته، فـ ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه] مطابقٌ لقوله ﴿رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾؛ فإنَّ شمول الربوبية وسعتها، بحيث لا يخرج شيءٌ عنها أقصى شمول، [كشمول](٢) الرحمة وسعتها فوسع كل شيء برحمته وربوبيته"(٣)، ويقول ابن عاشور "وإجراء هذين الوصفين العليين على اسم الجلالة بعد وصفه بأنه رب العالمين، لمناسبة ظاهرة للبليغ؛ لأنه بعد أنَّ وُصِفَ بما هو مقتضَى استحقاقه الحمد من كونه رب العالمين، أي مدبر شؤونهم ومبلغهم إلى كمالهم في الوجودين الجثماني والروحاني، ناسب أنْ يُتْبِع ذلك بوصفه بالرحمن، أي الذي الرحمة له وصف ذاتي تصدر عنه آثاره بعموم واطراد، فلما كان ربًّا للعالمين، وكان ترقبهم إياها من الموصوف بها بالذات ناجحًا.... فكانت الربوبية نعمة، والنعمة قد تحصل بضرب من الشدة والأذى، فأتبع ذلك بوصفه بالرحمن، تنبيهًا على أنَّ تلك النعم الجليلة وصلتْ إلينا بطريق الرفق واليسر، ونفي الحرج حتى في أحكام التكاليف والمناهي والزواجر، فإنها مرفوقة"(٤).

الثالثة: في دلالات اقتران ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ بـ ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾:

يقول ابن الزبير الغرناطي: "إنه ﷻ خصص هذه الأمة بخصائص الاعتناء والتكريم، وقال تعالى: ﴿كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران:١١٠]، وجعل

(١) ابن جماعة: كشف المعاني ص ٨٤، والبقاعي: نظم الدرر ١/ ٢٨.
(٢) لابد من هذه الزيادة كي يستقيم المعنى.
(٣) ابن القيم: مدارج السالكين ١/ ٥٨.
(٤) ابن عاشور: التحرير والتنوير ١/ ٢١٠، ٢١١، وينظر في هذا المعنى: القرطبي ١/ ١٩٣، والقاسمي: محاسن التأويل ١/ ٦٢، ٦٣، ٢٢٧، ومحمد رشيد رضا: المنار ١/ ٤٤.

نبينا ﷺ سيد ولد آدم، والمصطفَى من كافة الخلق، والتابعُ مُشَرَّفٌ بشرف المتبوع، وقد خاطبه ﷻ بخطاب الرحمة والتلطف والاعتناء، فقال تعالى ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾ [التوبة:٤٣]، فقدم العفو بين يدي ما صورته العُتْب، لئلا يتصدع قلبه ﷺ، فكذلك تلطف لعباده من أمة هذا النبي الكريم، وأمَّنهم من خوفهم، وإشفاقهم من عرض أعمالهم وحسابهم، فقال: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝١ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾، لَمَّا كان ﷻ قد وصف هذا اليوم بأنه: ﴿تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ [إبراهيم:٤٢]، ﴿وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ﴾ [الحج:٢]، قدم هنا تعريفهم بأنه هو الرحمن الرحيم، وأنه ملك ذلك اليوم، فآنس هذه الأمة، كما آنس نبيها، وذلك أَبْيَنُ شيء"[(١)]، ويقول ابن القيم: "في ذكر هذه الأسماء ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ بعد الحمد، وإيقاع الحمد على مضمونها ومقتضاها، ما يدل على أنه محمودٌ في ربوبيته، محمودٌ في رحمانيته، محمودٌ في ملكه، وأنه إلهٌ محمودٌ، وربٌّ محمود، ورحمنٌ محمود، وملكٌ محمود، فله بذلك جميع أقسام الكمال، كمالٌ من هذا الاسم بمفرده، وكمالٌ من الآخَر بمفرده، وكمالٌ من اقتران أحدهما الآخر"[(٢)].

٣. قوله تعالى: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة:١٦٣]:

يقول الفخر الرازي: "وَاعْلَمْ أَنَّهُ سُبْحَانَهُ إِنَّمَا خَصَّ هَذَا الْمَوْضِعَ بِذِكْرِ هَاتَيْنِ الصِّفَتَيْنِ لِأَنَّ ذِكْرَ الْإِلَهِيَّةِ وَالْفَرْدَانِيَّةِ يُفِيدُ الْقَهْرَ وَالْعُلُوَّ فَعَقَّبَهُمَا بِذِكْرِ هَذِهِ الْمُبَالَغَةِ فِي الرَّحْمَةِ تَرْوِيحًا لِلْقُلُوبِ عَنْ هَيْبَةِ الْإِلَهِيَّةِ، وَعِزَّةِ الْفَرْدَانِيَّةِ وَإِشْعَارًا بِأَنَّ رَحْمَتَهُ سَبَقَتْ غَضَبَهُ، وَأَنَّهُ مَا خلق الخلق إلا للرحمة والإحسان"[(٣)]، ويقول أبو حيان: "ذَكَرَ هاتين الصفتين مُنَبِّهًا بهما على

(١) ابن الزبير الغرناطي: ملاك التأويل ١/١٩، ٢٠، وينظر في إيجاز ذلك المعنى: ابن جزي: التسهيل ١/٦٥.
(٢) ابن القيم: مدارج السالكين ١/٥٨.
(٣) الرازي: مفاتيح الغيب ٤/١٥٢، والقاسمي: محاسن التأويل ١/٤٥٧.

استحقاق العبادة له؛ لأنَّ مَنْ ابتدأك بالرحمة إنشاءً بشرًا سويًّا عاقلًا، وتربيةً في دار الدنيا، موعودًا الوعد الصدق بحُسن العاقبة في الآخرة - جديرٌ بعبادتك له، والوقوف عند أمره ونهيه، وأطمعك بهاتين الصفتين في سعة رحمته، وجاءت هذه الآية عقيب آية مختومة باللعنة والعذاب لمن مات غير موحد له ﷻ[1]، إذ غالب القرآن أنه إذا ذكرتْ آية عذاب، ذكرتْ آية رحمه، وإذا ذكرت آية رحمة ذكرت آية عذاب"[2]، ويقول ابن عاشور "قوله "الرحمن الرحيم" ... وهما وصفان للمدح، وفيهما تلميح لدليل الألوهية والانفراد بها؛ لأنه منعم، وغيره ليس بمنعم. على أنَّ في ذكر صفة الرحمن إغاظة للمشركين، فإنهم أبوا وصف الله بالرحمن، كما حكى الله عنهم بقوله: ﴿قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ [الفرقان:٦٠]"[3].

٤ - قوله تعالى حكاية لكلام ملكة سبأ: ﴿إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [النمل:٣٠]: يقول ابن عاشور "افتتاح الكتاب بجملة البسملة يدل على أنَّ مرادفها كان خاصًّا بكتب النبي سليمان، أن يُتْبِع اسمَ الجلالة بوصفي الرحمن الرحيم، فصار ذلك سنة لافتتاح الأمور ذوات البال في الإسلام، ادخره الله للمسلمين من بقايا سنة الأنبياء بعد أنْ تنوسي ذلك، فإنه لم يُعرف أنَّ بني إسرائيل افتتحوا كتبهم باسم الله الرحمن الرحيم"[4].

٥. قوله تعالى: ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢﴾ [فصلت:١-٢]:

يقول الرازي: "كَوْنُ ذلك التنزيل من الرحمن الرحيم يدلُّ على كون ذلك التنزيل نعمة عظيمة من الله ﷻ؛ لأن الفعل المقرون بالصفة لا بد وأنْ يكون مناسبًا لتلك الصفة، فكونه ﷻ رحمانَ رحيمًا صفتان دالتان على كمال

(١) هي قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ۝١٦١﴾ [البقرة].
(٢) أبو حيان: البحر المحيط ٢/٧٦، ٧٧.
(٣) ابن عاشور: التحرير والتنوير ٢/٧٥، ٧٦.
(٤) ابن عاشور: التحرير والتنوير ١٩/٢٦٠.

الرحمة، فالتنزيل المضاف إلى هاتين الصفتين لابد وأنْ يكون دالًّا على أعظم وجوه النعمة"[1]، ويقول ابن عاشور: "وإيثار الصفتين "الرحمن الرحيم" على غيرهما من الصفات العلية للإيماء إلى أنَّ هذا التنزيل رحمةٌ من الله بعباده... والجمع بين صفتي الرحمن الرحيم... إيماء إلى استحماق الذين أعرضوا عن هذا الكتاب بأنهم أعرضوا عن رحمة"[2].

٦. قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الحشر:٢٢]:

يقول ابن عاشور: "وضمير هو الرحمن الرحيم ضميرِ فصل يفيد قصر الرحمة عليه ﷻ، لعدم الاعتداد برحمة غيره لقصورها ...، ووجه تعقيب صفة عموم العلم بصفة الرحمة - أَنَّ عموم العلم يقتضي أنْ لا يغيب عن علمه شيء من أحوال خلقه وحاجتهم إليه، فهو يرحم المحتاجين إلى رحمته، ويمهل المعاندين إلى عقاب الآخرة... وقد كثر اتباع اسم الجلالة بصفتي الرحمن الرحيم في القرآن، كما في الفاتحة"[3].

(١) الرازي: مفاتيح الغيب ٢٧/ ٥٣٧، ٥٣٨.
(٢) ابن عاشور: التحرير والتنوير ٢٤/ ٢٣٠.
(٣) ابن عاشور: التحرير والتنوير ٢٨/ ١٢٠.

المبحث الثالث
مواضع انفراد اسم الله "الرحمن"

١. قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ أَرۡسَلۡنَٰكَ فِيٓ أُمَّةٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهَآ أُمَمٞ لِّتَتۡلُوَاْ عَلَيۡهِمُ ٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَهُمۡ يَكۡفُرُونَ بِٱلرَّحۡمَٰنِۚ قُلۡ هُوَ رَبِّي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ مَتَابِ﴾ [الرعد:٣٠]: يقول البقاعي: "قوله (بالرحمن) إشارة إلى كثرة حلمه وطول أناته، وتصوير لقبيح حالهم في مقابلتهم الإحسان بالإساءة، والنعمة بالكفر بأوضح صورة، وهم يَدَّعون أنهم أشكر الناس للإحسان وأبعدهم عن الكفران، ولَمَّا تضمن كفرهم بالرحمن كفرهم بالقرآن ومَنْ أُنْزِلَ عليه، وكان الكفر بالمنعم في غاية القباحة، كان كأنه قيل: فماذا أفعل حينئذٍ أنا ومَن اتبعني؟ فقيل: لا نتمنى إجابتهم إلى مقترحاتهم إلا رجاء إيمانهم"(١)، ويقول القاسمي: "وهم يكفرون بالرحمن... أي يكفرون بالبليغ الرحمة، والذي وسعت رحمته كل شيء، والعدولُ إلى المُظهَر الدال على الرحمة، إشارةٌ إلى أنَّ الإرسال ناشئ منها، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء:١٠٧]، وإلى أنهم لم يشكروا نعمة هذا الوحي، الذي هو مدار المنافع الدينية والدنيوية، وإلى أنَّ الرحمن من أسمائه الحسنى، ونعوته العليا وقد كانوا يتجافون هذا الاسم الكريم... وقالوا: ما ندري ما الرحمن"(٢).

(١) البقاعي: نظم الدرر ١٠/٣٣٩.
(٢) القاسمي: محاسن التأويل ٦/٢٨٤، وابن عاشور: التحرير والتنوير ١٣/١٤١

٢. قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُواْ ٱلرَّحْمَٰنَ ۖ أَيًّا مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء:١١٠]: يقول البقاعي: "كأنَّ المعاندين من العرب... بعد ما قام من الأدلة، قالوا: آمنا، فَعَلِّمْنَا كيف ندعو؟ وبأي اسم نهتف؟ ولَمَّا كان الجلالة هو الاسم الجامع لجميع معاني الأسماء الحسنى... وكانت الرحمة دنيوية وأخروية... قد كُرِّرتْ في هذه السورة[١]... وكان ذلك ظاهرًا في إرادة عمومها، فكان اسم (الرحمن) به أليق - وقع الجواب بقوله تعالى: ﴿أَوِ ٱدْعُواْ ٱلرَّحْمَٰنَ﴾، في معنى استغراقه بالرحمة... فاهتفوا بهذا الاسم الدال على الجلال واستحقاقِ مسماه الدعاءَ لذاته، أو بهذا الاسم الدال على الجمال، واستحقاقه الدعاء لإنعامه"[٢]، ثم بَيَّنَ رحمه الله: لِمَ جاء اسم الله الرحمن في معادلة اسمه (الله) في هذا الموضع؟ فقال: "لَمَّا كان في (الرحمن) جمالٌ ظاهرٌ، [و][٣]، في باطنه جلال... فكان لذلك جامعًا لجميع الأسماء الحسنى والصفات العلى سَبَبٌ عن ذكر كل من الاسمين: العلم الجامع والوصف الواقع موقعه"[٤].

فائدة: في كثرة ورود اسم الله (الرحمن) في سورة مريم: قال ابن جماعة: "وأما تكرار لفظ الرحمن في هذه السورة... فإنه لَمَّا افتتحَ أول السورة بقوله تعالى: ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ۝٢﴾ [مريم:٢] - نبه بتكرار لفظ الرحمن على عظم رحمته وعمومها، وأنَّ ذلك ليس خاصًّا بأنبيائه وخواصه"[٥]، ويقول ابنُ عاشور: "وقد تكرر في هذه السورة صفة الرحمن ست عشرة مرة، وذُكر اسم الرحمة أربع مرات،

(١) كما في قوله تعالى: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ﴾ [الإسراء:٨]، و﴿جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ﴾ [الإسراء:٢٤]، و﴿وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا﴾ [الإسراء:٢٤]، و﴿ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ﴾ [الإسراء:٢٨]، و﴿رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ ۖ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ﴾ [الإسراء:٥٤]، ﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ [الإسراء:٥٤]، و﴿إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ [الإسراء:٨٧]، و﴿خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّىٓ﴾ [الإسراء:١٠٠].
(٢) البقاعي: نظم الدرر ١١/٥٣٧، ٥٣٨.
(٣) لابد منها ليستقيم المعنى، وليست في الكتاب المحقق.
(٤) البقاعي: نظم الدرر ١١/٥٣٨.
(٥) ابن جماعة: كشف المعاني ٢٤٨.

فأنبأ بأنَّ من مقاصدها تحقيقُ وصفِ اللهِ ﷻ بصفة الرحمن، والرد على المشركين الذين تَقعَّروا بإنكار هذا الوصف، كما حكى اللهُ ﷻ عنهم في سورة الفرقان[1]"[2].

٣. قوله تعالى: ﴿قَالَتْ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا﴾ [مريم:١٨]: يقول الآلوسي: "وإنما ذَكَرَتْهُ ﷻ بعنوان الرحمانية؛ تذكيرًا لِمَنْ رأتْه بالرحمة؛ ليرحم ضعفها وعجزها عن دفعه، أو مبالغةً للعياذة به ﷻ، واستجلابًا لآثار الرحمة الخاصة، التي هي العصمة مما دهمها"[3].

٤. قوله تعالى: ﴿فَكُلِى وَٱشْرَبِى وَقَرِّى عَيْنًا ۖ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِىٓ إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا﴾ [مريم:٢٦]: فيه إيماءٌ إلى أنّ ما هي فيه، إنما هو نعمة من الرحمن: الذي عمت رحمته، فأدخلها فيها على ضعف قُواها، وخصها بهذه الكرامات[4].

٥. قوله تعالى على لسان إبراهيم عليه السلام: ﴿يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا﴾ [مريم:٤٤]: يقول ابن جماعة: "فيه تعظيم أمر الكفر، الذي كان عليه أبوه؛ لأنّ مَنْ عظمت رحمته وعمت لا يُعَذِّبُ إلا على أمرٍ عظيم بالغ في القبح، فنبه على عظم ما عليه أبوه من الكفر، ورجاء قبول توبته من الرحمن"[5]، ويقول أبو حيان: "وكان لفظ (الرحمن) هنا تنبيهًا على سعة رحمته، وأنَّ مَنْ هذا وصفه هو الذي ينبغي أنْ يعبد ولا يُعْصَى، وإعلامًا بشقاوة الشيطان حيث عصى مَنْ هذه صفته، وارتكب بذلك ما طرده من هذه الرحمة"[6].

٦. قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ

(١) في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ [الفرقان:٦٠].
(٢) ابن عاشور: التحرير والتنوير ١٦/٥٩، ٦٠.
(٣) الآلوسي: روح المعاني ٨/ ٣٥٩.
(٤) ينظر في هذا المعنى: البقاعي: نظم الدرر ١٢/١٩١.
(٥) ابن جماعة: كشف المعاني ص١٢٤٨، ابن عاشور: التحرير والتنوير ١٦/١١٧، ١١٨.
(٦) أبو حيان: البحر المحيط ٧/٢٦٩.

وَلِيًّا ﴾ [مريم:٤٥]: يقول الآلوسي: "إنما قال مِنَ الرَّحْمنِ؛ لقوله أولًا: كانَ لِلرَّحْمنِ عَصِيًّا، وللدَّلالة على أنه ليس على وجه الانتقام بل ذلك أيضًا رحمة من الله ﷻ على عباده، وتنبيهٌ على سبق الرحمة الغضبَ، وأنَّ الرحمانية لا تنافي العذاب"(١).

٧. قوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا ۚ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَٰنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾ [مريم:٥٨]: "وَالْمُرَادُ بِآيَاتِ اللَّهِ مَا خَصَّهُمُ اللَّهُ تَعَالَى بِهِ مِنَ الْكُتُبِ الْمُنَزَّلَةِ عليهم"(٢)، وذِكْرُ الرحمن هنا مناسب لما أفاض عليهم من جلائل النعم، التي ذكرها في الآيات السابقة [مريم:٤١-٥٨]، فإنها من فيض رحمانيته، وفيه بشارة بما أعد لهم في الآخرة من كريم الجزاء.

٨. قوله تعالى: ﴿جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَٰنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ ۚ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا﴾ [مريم:٦١]: وصفُ الجنات "بـ﴿وَعَدَ الرَّحْمَٰنُ عِبَادَهُ﴾؛ لزِيَادَة تَشْرِيفِهَا وَتَحْسِينِهَا"(٣). واختيار اسم الرحمن هنا فيه إيماءٌ إلى أنَّ وعدَهم المحقق بجنات عدن، وقبولَ توبتهم بعد إضاعتهم الصلاة، واتباعهم الشهوات، إنما هو من فيض رحمانيته.

٩. ﴿أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا﴾ [مريم:٦٩]: "وَذكر صفة الرحمن هُنَا لتَفْظِيع عُتُوِّهِمْ؛ لأنَّ شَدِيد الرّحمة بالخلق حَقِيقٌ بِالشُّكْرِ لَهُ وَالْإِحْسَان، لَا بِالْكُفْرِ بِهِ وَالطُّغْيَان"(٤)؛ ففيه إيماءٌ إلى أنَّ ما بهم من قوة إنما هو من فيض رحمانيته، وهو الذي رحمهم "بإنزال الكتاب وإرسال الرسل وتعريف مضار الشهوات بالعقل والنقل"(٥)، وهم مع ذلك

(١) الآلوسي: روح المعاني ٨/٤١٥.
(٢) الرازي: مفاتيح الغيب ٢١/٥٥١.
(٣) ابن عاشور: التحرير والتنوير ١٦/١٣٦.
(٤) ابن عاشور: التحرير والتنوير ١٦/١٤٨.
(٥) القاسمي: محاسن التأويل ٧/ ١٠٨.

آثروا الشهوات، وخالفوا رسله، فاستحقوا الجُثوَّ في جهنم، ومع ما للرحمن من واسع الرحمة، إلا أنه يعذب مَنْ يستحق العذاب، وفي ذلك إشارة إلى أنَّ (الرحمن) دالٌّ على الجمال والجلال معًا.

١٠. ﴿فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَٰنُ مَدًّا﴾ [مريم:٧٥]: "أي: فليدعه في ضلالته، وليمله في غيه"(١)، وفي لفظ الرحمن إشارة "إلى التحلي لهم بصفة الإحسان... في العاجلة بالبسط في الآثار، والسعة في الديار، والطول في الأعمار، وإنفاقها فيما يستلذ من الأوزار الكبار، فيزيده العزيز الجبار بذلك ضلالة"(٢)، فما هم فيه من إمهال في النعم مع انغماسهم في الغي والضلال إنما هو من فيض رحمانيته، وهي لا تتعارض مع استدراج الغارق في الضلالة، فهي صفة جلال وجمال. ويقول الآلوسي "والتعرض لعنوان الرحمانية لِمَا أنَّ المَدَّ من أحكامها"(٣).

١١. قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَـٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا﴾ [مريم:٧٧-٧٨]: يقول الآلوسي: "والتعرض لعنوان الرحمانية؛ للإشعار بِعِلِّيَّة الرحمة لإيتاء ما يدعيه"(٤)، ويقول ابن عاشور: "واختير هنا من أسمائه الرحمن؛ لأنَّ استحضارَ مدلوله أجدرُ في وفائه بما عهد به من النعمة المزعومة لهذا الكافر، ولأنَّ في ذكر هذا الاسم توركًا (٥)، على المشركين الذين قالوا: ﴿وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ [الفرقان:٦٠]"(٦).

(١) بيان الحق: باهر البرهان ٨٩٥/٢. وينظر في أقوال المفسرين في هذه الآية: القاسمي: محاسن التأويل ٧/ ١١٠
(٢) البقاعي: نظم الدرر ٢٣٩/١٢.
(٣) الآلوسي: روح المعاني ٤٤٢/٨.
(٤) الآلوسي: روح المغاني ٤٤٦/٨.
(٥) إفحامًا لهم، وإقامةً للحُجة عليهم، يقول ابن منظور في اللسان، باب الكاف، فصل الواو مع الراء ٥١٢/١٠: "والتَّوْرِيكُ: تَوْرِيكُ الرَّجُلُ ذَنْبَهُ غَيْرَهُ كأنه يُلْزِمُه إياه، ووَرَّكَ فُلَانٌ ذَنْبَهُ عَلَى غَيْرِه تَوْرِيكًا إذا أضافه إليه وقَرَفَه به. وإنه لَمُوَرَّكٌ في هَذَا الأمر، أي لَيْسَ لَهُ فِيهِ ذَنْبٌ. ووَرَّكَ الذنبَ عَلَيْهِ: حَمَلَه".
(٦) ابن عاشور: التحرير والتنوير ١٦١/١٦.

١٢. ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا﴾ [مريم:٨٥]: يقول أبو حيان: "وعُدِّي (نحشر) بـ (إلى الرحمن)؛ تعظيمًا لهم وتشريفًا، وذكر صفة الرحمانية التي خصهم بها كرامةً؛ إذا لفظ الحشر[١]، فيه جمعٌ من أماكن متفرقة وأقطار شاسعة على سبيل القهر، فجاءت لفظة الرحمن مؤذنةً بأنهم يحشرون إلى مَنْ يرحمهم"[٢]، ويقول السيوطي: "ولمَّا كان الرضوان والسلام والرؤية والخلود للمتقين، وهو أكبر من الجنة خصّهم بذكر الرحمن؛ لأنَّ شوقهم إليه ورجاءهم فيه، فدلهم عليه لتسكن نفوسهم"[٣].

١٣. قوله تعالى: ﴿لَّا يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا﴾ [مريم:٨٧]): إيماء إلى أنَّ الإذن في الشفاعة إنما هو من فيض رحمانيته، وإشارة إلى شيء من عظمة وجلال الرحمن الذي كفر به مشركو مكة.

١٤. ١٥. ١٦. ١٧. ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾ [مريم:٨٨-٩٣]: يقول الزمخشري: "وفي اختصاص الرحمن وتكريره مرات من الفائدة أنه هو الرحمن وحده، لا يستحق هذا الاسم غيره، من قبل أنَّ أصول النعم وفروعها منه"[٤]، ويقول ابن عاشور "وتكرير اسم الرحمن أربع مرات إيماءٌ على أنَّ وصفه الرحمن الثابت لله، والذي لا ينكر المشركون ثبوت حقيقته لله، وإنْ أنكروا لفظه - ينافي ادعاء الولد؛ لأنَّ (الرحمن) وصفٌ يدل على عموم الرحمة وتكثرُّها، ومعنى ذلك، أنها شاملة لكل

(١) أري لفظ الحشر في هذه الآية فيه بشارة بكثرة عدد الفائزين.
(٢) أبو حيان: البحر المحيط ٧/ ٢٩٨.
(٣) السيوطي: معترك الأقران ٢/ ٥٤٧.
(٤) الزمخشري: الكشاف ٣/ ٤٥، وينظر في هذا المعنى: الرازي: مفاتيح الغيب ٢١/ ٥٦٧، وأبو حيان: البحر المحيط ٧/ ٣٠٣.

موجود، فذلك يقتضي أنَّ كل موجود مفتقر إلى رحمة الله ﷻ، ولا يتقوَّم ذلك إلا بتحقق العبودية فيه؛ لأنه لو كان بعض الموجودات ابنًا لله ﷻ، لاستغنى عن رحمته؛ لأنه يكون بالنبوة مساويًا في الإلهية المقتضية الغنى المطلق؛ ولأنّ اتخاذ الابن يتطلب به متخذه بر الابن به ورحمته له؛ وذلك ينافي كون الله مفيض كل رحمة. فذكرُ هذا الوصف عند قوله: ﴿وَمَا يَنۢبَغِي لِلرَّحۡمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ۝٩٢﴾ [مريم]، وقوله: ﴿أَن دَعَوۡاْ لِلرَّحۡمَٰنِ وَلَدًا ۝٩١﴾ [مريم]، تسجيلٌ لغباوتهم. وذكره عند قوله: ﴿وَمَا يَنۢبَغِي لِلرَّحۡمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ۝٩٢﴾ [مريم]، إيماءٌ إلى دليل عدم لياقة اتخاذ الابن بالله. وذكره عند قوله: ﴿إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدًا﴾ [مريم:٩٣]، استدلالٌ على احتياج جميع الموجودات إليه، وإقرارها له بملكه إياها"[١].

١٨. ﴿سَيَجۡعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وُدًّا﴾ [مريم:٩٦]: المعنى عند الجمهور "أنهُ تَعَالَى سَيُحْدِثُ لَهُمْ فِي الْقُلُوبِ مَوَدَّةً وَيَزْرَعُهَا لَهُمْ فِيهَا مِنْ غَيْرِ تَوَدُّدٍ مِنْهُمْ، وَ لَا تَعَرُّضٍ لِلْأَسْبَابِ الَّتِي يَكْتَسِبُ النَّاسُ بِهَا مَوَدَّاتِ الْقُلُوبِ؛ مِنْ قَرَابَةٍ أَوْ صَدَاقَةٍ أَوِ اصْطِنَاعِ مَعْرُوفٍ أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ، وَ إِنَّمَا هُوَ اخْتِرَاعٌ مِنْهُ تَعَالَى وَابْتِدَاءٌ تَخْصِيصًا لِأَوْلِيَائِهِ بِهَذِهِ الْكَرَامَةِ كَمَا قَذَفَ فِي قُلُوبِ أَعْدَائِهِمُ الرُّعْبَ وَالْهَيْبَةَ إِعْظَامًا لَهُمْ وَإِجْلَالًا لِمَكَانِهِمْ"[٢]، "والتعرض لعنوان الرحمانية لِمَا أَنَّ الموعود من آثارها"[٣].

١٩. قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه]): يقول ابن القيم: "استوى على عرشه باسم الرحمن؛ لأنَّ العرش محيط بالمخلوقات قد وسعها، والرحمة محيطة بالخلق واسعةٌ لهم... فاستوى على أوسع المخلوقات بأوسع الصفات"[٤]، ويقول ابن عاشور قاصدًا اسم الله (الرحمن):

(١) ابن عاشور: التحرير والتنوير١٦/١٧٣.
(٢) الرازي: مفاتيح الغيب ٢١/٢٦٧.
(٣) الآلوسي: روح المعاني ٨/٤٥٨.
(٤) ابن القيم: مدارج السالكين ١/٥٧.

"وَاخْتِيرَ وَصْفُ الرَّحْمن لتعليم النَّاسِ بِهِ؛ لِأَنَّ الْمُشْرِكِينَ أنكروا تَسْمِيَته تَعَالَى الرحمن... وفي ذكره هنا، وكثرة التذكير به في القرآن بعثٌ على إفراده بالعبادة؛ شكرًا على إحسانه بالرحمة البالغة"(١).

٢٠. قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِن قَبْلُ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ ۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓا۟ أَمْرِى﴾ [طه:٩٠]: يقول الرازي: "وإنما قال: ﴿وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾، فخص هذا الموضع باسم الرحمن؛ لأنه كأنه ينبئهم بأنهم متى تابوا قبلَ اللّهُ توبتهم؛ لأنه هو الرحمن الرحيم"(٢).

٢١. قوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ لَا عِوَجَ لَهُۥ ۖ وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾ [طه:١٠٨]: وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ، أي: "ارتخت وخفيت وخفضت وتطامنت لخشوع أهلها"(٣)، وفي اختيار لفظ (الرحمن) إشارة إلى شيء من مظاهر جلاله، فالخلق مجتمعون لا يستطيعون الجهر بالكلام فيما بينهم، مع توافر دواعيه، من فرط مهابتهم له ﷻ، وفيه تعريض بمشركي العرب، إذ قالوا كفرًا وعنادًا: وما الرحمن، وفيه إيماءٌ إلى أنّ (الرحمن) صفة جلال وجمال معًا.

٢٢. قوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا﴾ [طه:١٠٩]: فيه إيماءٌ إلى أن الإذن بالشفاعة ذلك اليوم إنما هو من فيض رحمانيته (٤).

٢٣. قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾ [الأنبياء:٢٦]: اختيار اسم الله (الرحمن) هنا، هو "حكاية لجناية فريق من المشركين لإظهار بطلانها وبيان تنزهه ﷻ عن ذلك، إثر بيان

(١) ابن عاشور: التحرير والتنوير ١٨٦/١٦.
(٢) الرازي: مفاتيح الغيب ٩٣/٢٢.
(٣) البقاعي: نظم الدرر ١٢/ ٣٤٧.
(٤) لمزيد من التفصيل ينظر الموضع الأخير من هذا المبحث.

تنزهه ﷻ عن الشركاء على الإطلاق، وهم حي من خزاعة قالوا: الملائكة بنات الله ﷻ"[1].

٢٤. ﴿وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ وَهُم بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ هُمْ كَٰفِرُونَ﴾ [الأنبياء:٣٦]: "روي أنها نزلت حين أنكروا لفظ الرحمن"[2]، وقال ابن عاشور: "وعبَّر عن الله ﷻ باسم الرحمن تورُّكًا عليهم، إذ كانوا يأبون أن يكون الرحمن اسمًا لله ﷻ"[3].

٢٥. قوله تعالى: ﴿قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحْمَٰنِ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء:٤٢]: "مَعْنَى مِنَ الرَّحْمنِ: مِنْ بَأْسِهِ وَعَذَابِهِ"[4]، وفي تعليل اختيار (الرحمن)، يقول الرازي: "إنما خص هنا اسم "الرحمن" بالذكر تلقينًا للجواب، حتى يقول العاقل، أنت الكالئ يا إلهنا لكل الخلائق برحمتك، كما في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ۝٦﴾ [الانفطار]، إنما خص اسم الكريم بالذكر تلقينًا للجواب"[5]، "وقيل: إنه إيماءٌ إلى شدته، كغضب الحليم، وتنديمٌ لهم حيث عذبهم مَنْ غلبت رحمته. ودلالةٌ على شدة خبثهم"[6].

٢٦. قوله تعالى: ﴿قَٰلَ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ ۗ وَرَبُّنَا ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ [الأنبياء:١١٢]: يقول ابن عاشور: "(الرحمن)... المراد به هنا الاسم (العَلَم) لا الوصف، تورُّكًا على المشركين؛ لأنهم أنكروا اسم الرحمن"[7].

(١) الآلوسي: روح المعاني ٩/٣٣.
(٢) أبو حيان: البحر المحيط ٧/٤٣٠، وابن عطية: المحرر الوجيز ٤/٨٢.
(٣) ابن عاشور: التحرير والتنوير ١٧/٦٦.
(٤) ابن عاشور: التحرير والتنوير ١٧/٧٤، وهذه العبارة إيجاز لمضمون ثلاثة أوجه، ذكرها الرازي في مفاتيح الغيب ٢٢/ ١٤٦.
(٥) الرازي: مفاتيح الغيب ٢٢/١٤٦، وأبو حيان: البحر المحيط ٧/٤٣٠ وابن عطية: المحرر الوجيز ٤/٨٢.
(٦) القاسمي: محاسن التأويل ٧/١٩٦، والبيضاوي تفسير البيضاوي ٤/٥٢.
(٧) ابن عاشور: التحرير والتنوير ١٧/١٦٧.

٢٧. قوله تعالى: ﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ۚ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا﴾ [الفرقان:٢٦]: اختيار (الرحمن) للإيماء إلى أنه "العامُّ الرحمة في الدارين، ومن عموم رحمته... أنْ يَسُرَّ قلوبَ أهل وُدِّه بتعذيب أهلِ عداوته، الذين عادوهم فيه، لتضييعهم الحق باتباع الباطل، ولولا اتصافه بالرحمة لم يدخل أحد الجنة"(١).

٢٨. ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٩﴾﴾ [الفرقان]: بالإضافة لما سبق بيانه عند قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ يقول الزمخشري: "وقيل: الرحمن اسمٌ من أسماء الله مذكور في الكتب المتقدمة، ولم يكونوا يعرفونه، فقيل: فسل بهذا الاسم من يخبرك من أهل الكتاب حتى يعرف من ينكره، ومن ثمة كانوا يقولون: ما نعرف الرحمن إلا الذي باليمامة، يعنون مسيلمة، وكان يقال له: رحمان اليمامة"(٢).

٢٩. ٣٠. قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا﴾ [الفرقان:٦٠]: يقول الرازي: "أما قوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَٰنِ﴾ فهو خبرٌ عن قوم قالوا هذا القول. ويحتمل أنهم جهلوا الله ﷻ، ويحتمل أنهم وإنْ عرفوه لكنهم جحدوه، ويحتمل أنهم وإنْ اعترفوا به لكنهم جهلوا أنَّ هذا الاسم من أسماء الله ﷻ، وكثيرٌ من المفسرين على هذا القول الأخير(٣)... والأقرب أنَّ المراد إنكارهم لله لا للاسم؛ لأنَّ هذه اللفظة عربية، وهم كانوا يعلمون أنها تفيد المبالغة في الإنعام..." (٤).

٣١. قوله تعالى: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ

(١) البقاعي: نظم الدرر ١٣/ ٣٧٣.
(٢) الزمخشري: الكشاف ٣/ ٢٨٩، وينظر في هذا المعنى: الآلوسي: روح المعاني ١٠/ ٣٨.
(٣) منهم: البيضاوي في تفسيره ٤/ ٢١٦، وابن جزي في التسهيل لعلوم التنزيل ٢/ ٨٥.
(٤) الرازي: مفاتيح الغيب ٢٤/ ٤٧٩.

﴿ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا﴾ [الفرقان:٦٣]: يقول ابن عطية: "لَمَّا جعلتْ قريش سؤالها عن الله ﷻ وعن اسمه الذي هو الرحمن سؤالًا عن مجهول، نزلت هذه الآية مصرحةً بصفاته التي تُعرِّفُ به، وتوجب الإقرار بربوبيته"(١).

٣٢. قوله تعالى: ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهُ مُعْرِضِينَ﴾ [الشعراء:٥]: يقول ابن الزبير الغرناطي: "هذه الآية مبنية على تأنيس النبي ﷺ، وإعلامه أنَّ توقف قومه عن الإيمان إنما هو بقدرته ﷻ عليهم ولو شاء لأراهم آية تبهرهم، كشق الجبل فوق بني إسرائيل، وإلى هذه الإشارة بقوله ﴿إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ﴾ [الشعراء:٤]، ثم رجع الكلام إلى تعنيف المكذبين، فلما كان بناء الآية على التأنيس والتلطف بنبينا ﷺ، وإعلامه بأنَّ تأخير العذاب عنهم إنما هو إيفاء منه ﷻ، ليستجيب مَنْ قدر له الإيمان منهم، فأشار إلى هذا، وناسبه اسمه الرحمن، فقال تعالى: ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهُ مُعْرِضِينَ﴾"(٢).

٣٣. قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ ۖ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾ [يس:١١]: يقول الفخر الرازي: "﴿وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ﴾ فيه لطيفة، وهي أنَّ الرحمة تورث الاتكال والرجاء، فقال: مع أنه رحمان ورحيم، فالعاقل لا ينبغي أنْ يترك الخشية؛ فإنَّ كل مَنْ كانت نعمته بسبب رحمته أكثر فالخوف منه أتم، مخافة أن يقطع عنه النعم المتواترة"(٣)، ويقول ابن عاشور: "والتعبير بوصف الرحمن دون اسم

(١) ابن عطية: المحرر الوجيز ٢١٧/٤، وأبو حيان: البحر المحيط ١٢٤/٨.
(٢) الغرناطي: ملاك التأويل ٣٤٥/٢، ٣٤٦، وينظر قريبًا من هذا المعنى: الخطيب الإسكافي: درة التنزيل ٢٦٩، ٩٦٣، والكرماني: البرهان ١٧٧/١، الفيروزآبادي: بصائر ذوي التمييز ٣١٩/١، وابن عاشور: التحرير والتنوير ٩٨/١٩.
(٣) الرازي: مفاتيح الغيب ٢٢٧/٢٦.

الجلالة لوجهين: أحدهما: أنَّ المشركين كانوا ينكرون اسم الرحمن، كما قال تعالى: ﴿قَالُواْ وَمَا ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ [الفرقان:٦٠]، والثاني: الإشارة إلى أنّ رحمته لا تقتضي عدم خشيته، فالمؤمن يخشى الله مع علمه برحمته"[١].

٣٤. قوله تعالى: ﴿قَالُواْ مَآ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحۡمَٰنُ مِن شَيۡءٍ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا تَكۡذِبُونَ﴾ [يس:١٥]: يقول الرازي: "(الرحمن) إشارة إلى الرد عليهم، لأن الله لَمَّا كان رحمان الدنيا، والإرسالُ رحمةٌ، فكيف لا ينزل رحمته وهو رحمن؟"[٢].

٣٥. قوله تعالى: ﴿ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدۡنِ ٱلرَّحۡمَٰنُ بِضُرّٖ لَّا تُغۡنِ عَنِّي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا يُنقِذُونِ﴾ [يس:٢٣]: يبين الرازي أنه اختيار (الرحمن) هنا؛ لأن السياق الذي وردت فيه الآية سياق رحمة؛ إذ قد سُبقت بقوله تعالى: ﴿وَمَا لِيَ لَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي﴾ [يس:٢٣]، فالخَلْقُ (الفَطْرُ) "نعمةٌ هي شرط سائرِ النعم"[٣]، وفيه إيماء إلى أنَّ الرحمن هو المنعم بالعافية، والكاشف للضر، لا آلهتهم.

٣٦. قوله تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰوَيۡلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرۡقَدِنَاۜ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلۡمُرۡسَلُونَ﴾ [يس:٥٢]: على قول مَنْ قال: إنَّ قوله تعالى: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾، حكايةٌ لكلام الملائكة يكون الغرض من اختيار لفظ الرحمن هو التبكيت والتوبيخ لمنكري البعث[٤]. وعلى قول مَنْ قال من المفسرين: إنه حكايةٌ لكلام منكري البعث، يكون الغرض التحسير لهم، يقول ابن عاشور: "وأتوا في التعبير عن اسم الجلالة بصفة الرحمن إكمالاً للتحسر على تكذيبهم بالبعث، بذكر ما كان مقارنًا للبعث في تكذيبهم، وهو إنكار هذا الاسم، كما قال تعالى: ﴿قَالُواْ وَمَا ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾"[٥].

(١) ابن عاشور: التحرير والتنوير٢٢/٣٥٤.
(٢) الرازي: مفاتيح الغيب ٢٦/٢٦١.
(٣) الرازي: مفاتيح الغيب ٢٦/٢٦٧.
(٤) ينظر في هذا المعنى: الشيخ زكريا الأنصاري: فتح الرحمن ٤٧٤.
(٥) ابن عاشور: التحرير والتنوير ٢٣/٣٨، ٣٩.

٣٧. قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ [الزخرف:١٧]: يقول البقاعي: "عدل عن الوصف بالربوبية؛ لأنه قد يُدَّعَى المشاركة في مطلق التربية، إلى الوصف الدال على عموم الرحمة، فتأمُّلُهُ بمجرده كافٍ في الزجر عن سوء قولهم، فقال: ﴿لِلرَّحْمَٰنِ﴾ أي الذي لا نعمة على شيء من الخلق إلا وهي منه"(١).

٣٨. قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا ۚ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ﴾ [الزخرف:١٩]: "الإضافة إلى اسم الرحمن تفيد تشريفهم، قال تعالى: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴾ [الأنبياء:٢٦]"(٢).

٣٩. قوله تعالى: ﴿ وَقَالُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم ۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴾ [الزخرف:٢٠]: اختيار اسم (الرحمن) هنا في قول المشركين ﴿لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم﴾ تعضيدٌ لاحتجاجهم الباطل بالقدر في تسويغ عبادتهم الأصنام، يقول ابن الزبير الغرناطي: "اختصاصهم من أسمائه (الرحمن) عَضُدٌ لتعلقهم وتقويةٌ لما رأوا الاحتجاج به، وكأنهم قالوا: إذا كان متصفًا بالرحمة، ولا استبداد لأحدٍ من الخلق بشيء من أفعالهم، وإنما يجري ما يصدُرُ عنهم بحسب مشيئته وإرادته، وقد جرى منا ما نحن عليه من عبادة أصنامنا وما اتخذناه من معبوداتنا، وليس لنا استبداد بما يصدر عنا، فهو مرادٌ له وبمشيئته، وهو رحمةٌ لأنه الرحمن، لا يكون منه إلا ما هو رحمة، وإنما الفعل له لا لنا، فلو شاء ألا نعبدها ما عبدناها، فلما تعلقوا بما يبدو منه أنه لديهم عِلْما، أخبر ﷻ نبيَّه ﷺ أنه لا علم عندهم، ولا قالوا ذلك عن معتقد تركن إليه قلوبهم، إنما هو تخرص قولي لا علم وراءه، ومن وحي الشياطين لأنهم أولياؤهم... إذ الكلام في القدر وأحكامه، وإنَّ

(١) البقاعي: نظم الدرر ١٧/٤٠١.
(٢) ابن عاشور: التحرير والتنوير.

الإرادة تخالف الرضا، وإنَّ الآمر قد يأمر بما لا يريده، وإنه ﷻ قد يريد إيقاع ما لا يرضاه"[1].

٤٠. قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾ [الزخرف:٣٣]: اختيار اسم الله (الرحمن) هنا توبيخٌ وتقريع لمشركي مكة؛ لإنكارهم هذا الاسم، ﴿قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ﴾[2].

٤١. قوله تعالى ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ﴾ [الزخرف:٣٦]: إضافة الذكر الذي هو القرآن[3] إلى اسمه ﷻ (الرحمن) هي إضافة تشريف، ومزيد من الثناء على القرآن الكريم[4]، وفيها إيماءٌ إلى أنَّ "نزوله رحمة للعالمين"[5].

٤٢. قوله تعالى: ﴿وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ﴾ [الزخرف:٤٥]: من حكم اختيار اسم الله (الرحمن) هنا توبيخ وتقريع مشركي مكة، كما يدل عليه سياق الآية، بما اشتملت عليه من همزة الاستفهام الاستنكاري التوبيخي، ومن الظرف "دون"، الدال على حقارة كل معبود غير الله ﷻ.

٤٣. قوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ﴾ [الزخرف:٨١]: اختيار اسم الله (الرحمن) هنا هو استمرار لتبكيت مشركي مكة وتقريعهم، ختم به السورة، كما بدأ به واستمر عليه؛ فقد "تقدم أول السورة تبكيتهم والتعجب منهم في ادعائهم لله ولدًا من الملائكة وهددهم بقوله تعالى: ﴿سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ﴾، وذكر

(١) ابن الزبير الغرناطي: ملاك التأويل ٤٣٩/٢.
(٢) ينظر في هذا المعنى: ابن عاشور: التحرير والتنوير ٢٠٤/٢٥، ٢٠٥.
(٣) وقيل: ذِكر الرَّحْمَن مصدرٌ أضيف إلى فاعله. الآلوسي: روح المعاني ٨٠/١٣.
(٤) ينظر في هذا المعنى: ابن عاشور: التحرير والتنوير ٢٠٩/٢٥.
(٥) الآلوسي: روح المعاني ٨٠/١٣.

شُبَههم في قوله: ﴿لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم﴾، وجهَّلهم فيها بقوله: ﴿مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ ونفى أنْ يكون لهم على ذلك دليل سمعي بقوله منكرًا موبخًا ﴿أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا﴾، ومَرَّ في توهية أمرِهم في ذلك وغيره بما لَاحَمَ بعضُهُ بعضًا"(١).

٤٤. قوله تعالى: ﴿مَّنْ خَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ﴾ [ق:٣٣]: يقول الرازي: "قال تعالى هاهنا ﴿خَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ﴾ مع أنَّ وصف الرحمة غالبًا يقابل الخشية - إشارةً إلى مدح المتقي، حيث لم تمنعه الرحمة من الخوف بسبب العظمة... وإشارةً إلى ذم الكافر، حيث لم تحمله الألوهية المنبئُ عنها لفظةُ (الله)"(٢)، ونقل البقاعي عن القشيري ملمحًا آخر للتعبير باستخدام اسم الله (الرحمن): "والتعبير بذلك للإشارة على أنها خشية مقرونة بالأنس، يعني الرجاء، كما هو المشروع....ولذلك لم يقل: (الجبار) أو (القهار)"(٣)، "وفيه تعريضٌ بالمشركين الذين أنكروا اسمه (الرحمن) ﴿قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ﴾"(٤).

٤٥. قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝٢﴾ [الرحمن]: يقول الرازي مبينًا مناسبة هذه السورة لسورة القمر قبلها، شارحًا لوجه افتتاحها بهذا الاسم الجليل في ملحوظتين: الأولى أنه ﷻ "افتتح هذه السورة بذكر معجزة تدل على الرحمة والرحموت، وهو القرآن الكريم، ثانيًا: أنه ﷻ ذكر في السورة المتقدمة ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ﴾[القمر] غير مرة، وذكر في هذه السورة ﴿فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ مرةً بعد مرة، لما بينا أنّ تلك السورة سورة إظهار الهيبة،

(١) البقاعي: نظم الدرر ١٧/٤٨٧.
(٢) الرازي: مفاتيح الغيب ٢٨/١٤٦، ١٤٧، وينظر: أبو حيان: البحر المحيط ٩/٥٤٠.
(٣) البقاعي: نظم الدرر ١٨/٤٣٣، وينظر: القشيري: لطائف الإشارات ٣/٤٥٤، تحقيق: إبراهيم البسيوني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الطبعة الثالثة.
(٤) ابن عاشور: التحرير والتنوير ٢٦/٣٢٠.

وهذه السورة سورة إظهار الرحمة، ثم إنَّ أول هذه السورة مناسبٌ لآخر ما قبلها، حيث قال في آخر تلك السورة: ﴿عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ [القمر:٥٥]، والاقتدار إشارة إلى الهيبة والعظمة، وقال ها هنا: الرحمن، أي: عزيزٌ شديدٌ منتقمٌ مقتدرٌ بالنسبة إلى الكفار والفجار، رحمنٌ منعمٌ غافرٌ للأبرار"[١].. ويقول البقاعي: "ولما ختم ﷻ سورة القمر بعظيم الملك وبليغ القدرة، وكان الملك القادر لا يكمل ملكه إلا بالرحمة، وكانت الرحمة لا تتم إلا بعمومها، قصر هذه السورة على تعداد نعمه على خلقه في الدارين... وصَدَّرَهَا بالاسم الدال على عموم الرحمة؛ براعةً للاستهلاك وموازنةً لما حصل بالملك والاقتدار من غاية التبرك والظهور والهيبة"[٢]، ويقول ابن عاشور: "من بديع أسلوبها افتتاحها الباهر باسمه (الرحمن)، وهي السورة الوحيدة المفتتحة باسم من أسماء الله لم يتقدمه غيره"[٣].

٤٦. قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ﴾ [الملك:٣]: يقول الزمخشري: "وضع مكان الضمير قوله ﴿خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾[٤]، تعظيمًا لخلقهن [السماوات] وتنبيهًا على سبب سلامتهن من التفاوت، وهو أنه خلق الرحمن، وأنه بباهر قدرته هو الذي يخلق ذلك الخلق المتناسب"[٥]، ويقول ابن عاشور: "والتعبير بوصف الرحمن دون اسم الجلالة إيماءٌ إلى أنَّ هذا النظام

(١) الرازي: مفاتيح الغيب ٣٣٥/٢٩، وينظر: أبو حيان: البحر المحيط ٥٤/١٠، وذكر فيه وجهًا أجمل للربط بين ﴿مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ في آخر القمر، و﴿ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ هنا، قال: "ولما ذكر قوله ﴿عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ فأبرز هاتين الصفتين بصورة التنكير، فكأنه قيل: من المتصف بذلك، فقال ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝٢﴾ فذكر ما نشأ عن صفة الرحمة، وهو تعليم القرآن".

(٢) البقاعي: نظم الدرر ١٤١/١٩.

(٣) ابن عاشور: التحرير والتنوير ٢٢٩/٢٧.

(٤) لو كان الكلام خارج القرآن لقيل: ما تري فيهن.

(٥) الزمخشري: الكشاف ٥٧٦/٤، وينظر: الرازي مفاتيح الغيب ٣٢/٣٠، أبو حيان: البحر المحيط ٢٢١/١٠.

مما اقتَضته رحمته بالناس، لتجري أمورهم على حالة تلائم نظام عيشهم، لأنه لو كان فيما خلق الله تفاوت، لكان التفاوت سببًا لاختلال النظام فيتعرض الناس بذلك لأهوال ومشاق... وأيضًا في ذلك الوصف تورك على المشركين، عندما أنكروا اسمه ﷻ الرحمن"[1].

٤٧. قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَٰنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ﴾ [الملك:١٩]: من حكم اختيار (اسم الله الرحمن) في هذه الآية أنها "لَمَّا انطوتْ على ذكر حالين للطائر من صَفِّ جناحيه وقبضهما، وهما حالتان يستريح إليهما الطائر، فتارة يَصُفُّ جناحيه كأنه لا حركة به، وتارة يقبضهما إلى جنبيه حتى يلزقهما بهما، ثم يبسطهما ويقبضهما موالاة بسرعة، كما يفعل السابح، فناسب هذا الإنعام منه ﷻ ورود اسمه (الرحمن)"[2]، "وفي هذا إيماءٌ إلى أنَّ الذي أمسك الطير عن الهُوي المفضي إلى الهلاك، هو الذي أهلك الأمم الذين من قبل هؤلاء، فلو لم يشركوا به، ولو التزموا بطاعته لأنجاهم من الهلاك، كما أنجى الطير من الهُوِيِّ"[3].

٤٨. قوله تعالى: ﴿أَمَّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ الرَّحْمَٰنِ إِنِ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ ﴿٢٠﴾﴾ [الملك]: ومن لطائف اختيار اسم الرحمن في هذه الآية الكريمة، تهديد الكافرين وتقريعهم بالإشارة إلى علو صاحب هذا الاسم عن كل شيء، وظهوره على كل شيء، فإنه "لَمَّا كانت المراتب متضائلة عن جنابه، متكثرةً جدًا، قال ﷻ مشيرًا بالحرف ﴿مِّن﴾ والظرف ﴿دُونِ﴾ إلى ذلك، منبهًا على ظهوره ﷻ فوق كل شيء، ولم يقدر أحد ولا يقدر أنْ ينازعه في ذلك، ولا في أنه مستغرقٌ لكل ما

(١) ابن عاشور: التحرير والتنوير ١٨/٢٩.
(٢) ملاك التأويل ٣٠٥/٢، ٣٠٦، وينظر في نفس المعني الرازي: مفاتيح الغيب ٣٩٣/٣٠.
(٣) ابن عاشور: التحرير والتنوير ٣٩/٢٩، وينظر قريبا من هذا المعنى: بيان الحق: باهر البرهان ١٥٨٤/٣.

دونه من المراتب. قال: ﴿مِّن دُونِ ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ إنْ أرسل عليكم عذابه، وأظهر ولم يضمر بعثًا على استحضار ما له من شمول الرحمة، وتلويحًا إلى التهديد بأنه لو قطعها عن أحد ممن أوجده، عَمَّهُ الغضبُ كُلُّه"[1]، فلولا رحمته ﷻ بالعاصي فضلًا عن الطائع ما نجا من الهلاك أحد، وهم مع ذلك يقولون كبرًا وعنادًا: ﴿وَمَا ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾، "فمن جملة عنادهم إنكارهم اسم الرحمن، فلما لم يرعووا عَمَّا هم عليه ذُكِرَ وصفُ الرحمن في هذه السورة أربع مرات"[2].

٤٩. قوله تعالى: ﴿قُلۡ هُوَ ٱلرَّحۡمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيۡهِ تَوَكَّلۡنَاۖ فَسَتَعۡلَمُونَ مَنۡ هُوَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ [الملك:٢٩]: مناسبة هذا الاسم الجليل هنا واضحة، ومنها أن الذين "آمنوا بالرحمن فهم مظنةٌ أنْ تتعلق بهم هذه الصفة، فيرحمهم الله في الدنيا والآخرة، فيعلم المشركون علم اليقين أيَّ الفريقين في ضلال، حين يرون أثر الرحمة على المسلمين وانتفاءها عن المشركين في الدنيا وخاصةً في الآخرة"[3]، وفي اختيار هذا الاسم دعوة للذين قالوا: ﴿وَمَا ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ ليؤمنوا به، فالرحمن برحمته وحده هو القادر على أنْ يعمهم بنعمه في الدنيا، وأنْ ينجيهم من عذابه في الآخرة"[4].

٥٠. قوله تعالى: ﴿رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا ٱلرَّحۡمَٰنِۖ لَا يَمۡلِكُونَ مِنۡهُ خِطَابٗا﴾ [النبأ:٣٧]: خُصَّ اسم الله الرحمن بالذكر في هذه الآية دون غيره من أسمائه الحسنى، لأنّ في معناه إيماءً إلى أنَّ ما يفيضه من خير على المتقين في الجنة هو عطاء رحمان بهم، وفيه تعريضًا بالمشركين، إذ أنكروا اسم الرحمن[5]، وفيه تعليمًا لهؤلاء الجاحدين

(١) البقاعي: نظم الدرر ٢٠/٢٥٥.
(٢) ابن عاشور: التحرير والتنوير ٢٩/٤٠.
(٣) ابن عاشور: التحرير والتنوير٢٩/ ٥٤.
(٤) ينظر في هذا المعنى: البقاعي: نظم الدرر ٢٠/٢٥٩.
(٥) ابن عاشور: التحرير والتنوير ٣٠/٤٩.

بأنّ الرحمن الذي كفرتم به هو رب السماوات والأرض وما بينهما، وأنكم أنتم ومَنْ هم ﴿أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا﴾ [التوبة:٦٩]، لا تملكون خطابا.

٥١. ٥١ - قوله تعالى: ﴿رَّبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَٰنِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ﴿٣٧﴾ يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴿٣٨﴾﴾ [النبأ] في اختيار اسم الله (الرحمن) "إيماءٌ إلى أنَّ إذن الله لمن يتكلم - في الكلام أثرٌ من آثار رحمته، لأنه إذنٌ فيما يحصل به نفعٌ لأهل المحشر من شفاعةٍ أو استغفارٍ"(١)، وفيه إشعارٌ بأنَّ (الرحمن) دالٌّ على الجلال، كما أنه دالٌّ على الجمال، فلا تعارض بين رحمانيته وبين عرضه الناس للحساب، ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة:٧-٨].

(١) ابن عاشور: التحرير والتنوير ٣٠/٥٣.

الخاتمة

وبعد، فقد توصل الباحث لنتائج منها:

١. توضيح معاني البناء الصرفي الذي عليه اسم الله (الرحمن) وصفًا، وعَلَمًا، واستنتاج أنَّ (الرحمن) قد يكون صفة جلال كما أنه صفة جمال.

٢. إثبات أنَّ: أحرف اسم الله (الرحمن) من ناحية الرسم الإملائي، ينتظمها ثلاث مقاطع، "هذه المقاطع ترتيبها في اسم الله (الر) (حم) (ن) هو نفس ترتيبها في كتاب الله القرآن.

٣. إظهار الكثير من الفروق بين الاسمين الكريمين.

٤. بيان الكثير من فوائد اقتران الاسمين الكريمين.

٥. بيان بعض لطائف تقديم (الرحمن) على (الرحيم).

٦. توضيح بعض بدائع تكرار الاسمين الكريمين تارةً أخري في الآية الثالثة من سورة الفاتحة.

٧. إظهار بعض دلالات اقتران الاسمين الكريمين بـ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾.

٨. توضيح بعض فوائد اقتران الاسمين الكريمين بـ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾.

٩. تقديم تفسيرات لاختيار اسم الله (الرحمن) في كل موضع من

المواضع التي ورد فيها منفردًا في القرآن الكريم.

وأخيرًا يتقدم الباحث ببعض التوصيات للمجتمعات المسلمة، أفرادًا، ومؤسساتٍ؛ لعلها تسهم في انتشار خُلُق الرحمةِ فيها:

١. المزيد والمزيد من العناية بالقرآن الكريم؛ حفظًا، وتحفيظًا، وترتيلًا، وتفسيرًا، واستنباطًا لتشريعات، وإثباتًا للإعجاز، واستخراجًا للعِبَر والعظات، فإنه كتاب رحمة، ﴿تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، وإنّ العلم المستنبط من مِشْكاته لهو العلم المؤدي إلى الرحمة، وكلما ازداد العبد منه علمًا ازداد رحمةً، لذلك كان أبو بكر الصديق رضي الله عنه أرحم هذه الأمة[1].

٢. عرض جميع النظريات التربوية التي مصدرها العالم الغربي على الشريعة الإسلامية، فما قبلته منها أخذناه، وما رفضته لفظناه، وما أرشدتْ إلى تعديله هذبناه، فإنّ أصول التربية في هذه الشريعة الغراء مستمدة من اقتران اسمه ﷻ (الرب) بالاسمين الجليلين مجتمعين (الرحمن الرحيم)، فهي تقوم على الثواب والعقاب المستمدين من اسمه (الرب) وعلى الرحمة المضاعفة المستمدة من (الرحمن الرحيم)، على أنَّ (الرحمن) من رحمانيته عقاب المسيء، كما أنَّ منها إثابة المحسن.

٣. العمل على تحقيق التوحيد، فهو مفتاح الرحمة، بدليل اقترانه بها في قوله تعالى ﴿وَإِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة:١٦٣]، وفي قوله تعالى ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِۖ هُوَ ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الحشر:٢٢].

(١) ينظر في هذا المعنى: ابن القيم: إغاثة اللهفان ٢/١٧٣.

فهرس المصادر والمراجع

١. الآلوسي، شهاب الدين محمود بن عبدالله الحسيني (المتوفى: ١٢٧٠هـ): روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، تحقيق: علي عبدالباري عطية، دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ.

٢. الأشموني، على بن محمد بن عيسى، أبو الحسن، نور الدين، (المتوفى: ٩٠٠هـ): شرح الأشموني على ألفية ابن مالك، دار الكتب العلمية بيروت- لبنان، الطبعة الأولى ١٤١٩هـ- ١٩٩٨م.

٣. أبو البقاء الحنفي: أيوب بن موسى الحسيني القريمي الكفوي، أبو البقاء الحنفي (المتوفى: ١٠٩٤هـ): الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية، تحقيق: عدنان درويش - محمد المصري، مؤسسة الرسالة - بيروت.

٤. البقاعي، إبراهيم بن عمر بن حسن الرباط بن علي بن أبي بكر البقاعي (المتوفى: ٨٨٥هـ): نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، دار الكتاب الإسلامي - القاهرة.

٥. البيضاوي: ناصر الدين أبو سعيد عبدالله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي (المتوفى: ٦٨٥هـ) أنوار التنزيل وأسرار التأويل، تحقيق: محمد عبدالرحمن المرعشلي، دار إحياء التراث العربي - بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ.

٦. بيان الحق، محمود بن أبي الحسن (علي) بن الحسين النيسابوري الغزنوي، أبو القاسم، الشهير ب (بيان الحق) (المتوفى: بعد ٥٥٣ه): باهر البرهان في معاني مشكلات القرآن، تحقيق سعاد بنت صالح ابن سعيد بابقي، جامعة أم القرى - مكة المكرمة، ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م.

٧. ابن جرير الطبري، محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري (المتوفى: ٣١٠هـ): جامع البيان في تأويل القرآن، تحقيق: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م.
٨. ابن جُزي، أبو القاسم، محمد بن أحمد بن محمد بن عبدالله، ابن جزي الكلبي الغرناطي (المتوفى: ٧٤١هـ): التسهيل لعلوم التنزيل، تحقيق: د. عبدالله الخالدي، شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم - بيروت، الطبعة الأولى - ١٤١٦هـ.
٩. ابن جماعة، أبو عبدالله، محمد بن إبراهيم بن سعد الله بن جماعة الكناني الحموي الشافعي، بدر الدين (المتوفى: ٧٣٣هـ): كشف المعاني في المتشابه من المثاني، تحقيق: الدكتور عبدالجواد خلف، دار الوفاء المنصورة، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ.
١٠. ابن جني، أبو الفتح عثمان بن جني الموصلي (المتوفى: ٣٩٢هـ): الخصائص، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الطبعة الرابعة.
١١. أبو حيان، محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان أثير الدين الأندلسي (المتوفى: ٧٤٥هـ): البحر المحيط في التفسير، تحقيق: صدقي محمد جميل، دار الفكر - بيروت، ١٤٢٠هـ.
١٢. ابن خالويه، الحسين بن أحمد بن خالويه، أبو عبدالله (المتوفى: ٣٧٠هـ): كتاب إعراب ثلاثين سورة من القرآن الكريم، مطبعة دار الكتب المصرية (١٣٦٠هـ -١٩٤١م).
١٣. الشيخ خالد الأزهري، خالد بن عبدالله بن أبي بكر بن محمد الجرجاويّ الأزهري، زين الدين المصري، (المتوفى: ٩٠٥هـ): شرح التصريح على التوضيح أو التصريح بمضمون التوضيح في النحو، دار الكتب العلمية -بيروت-لبنان، الطبعة الأولى ١٤٢١هـ- ٢٠٠٠م.

١٤. الخطيب الإسكافي، أبو عبدالله محمد بن عبدالله الأصبهاني المعروف بالخطيب الإسكافي (المتوفى: ٤٢٠هـ): درة التنزيل وغرة التأويل، دراسة وتحقيق وتعليق: د. محمد مصطفى آيدين، جامعة أم القرى، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م.

١٥. الراغب الأصفهاني، أبو القاسم الحسين بن محمد (المتوفى: ٥٠٢هـ).

- تفسير الراغب الأصفهاني، جزء ١: المقدمة وتفسير الفاتحة والبقرة، تحقيق ودراسة: د. محمد عبدالعزيز بسيوني، كلية الآداب - جامعة طنطا، الطبعة الأولى: ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م.
- المفردات في غريب القرآن، تحقيق: صفوان عدنان الداودي، دار القلم، الدار الشامية - دمشق بيروت، الطبعة الأولى - ١٤١٢هـ.

١٦. الرضي الإستراباذي، محمد بن الحسن، نجم الدين (المتوفى: ٦٨٦هـ).

- شرح الرضي لكافية ابن الحاجب، تحقيق د. حسن بن محمد إبراهيم الحفظي، طبعة: جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية.
- شرح شافية ابن الحاجب، تحقيق الأساتذة: محمد نور الحسن، ومحمد الزفزاف، ومحمد محيي الدين عبدالحميد، دار الكتب العلمية بيروت - لبنان

١٧. الرازي، أبو عبدالله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين الرازي خطيب الري (المتوفى: ٦٠٦هـ): مفاتيح الغيب، دار إحياء التراث العربي - بيروت، الطبعة الثالثة - ١٤٢٠هـ.

١٨. الشيخ زكريا الأنصاري، زكريا بن محمد بن أحمد بن زكريا الأنصاري، زين الدين أبو يحيى السنبكي (المتوفى: ٩٢٦هـ): فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن، تحقيق: محمد علي الصابوني، دار القرآن الكريم، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٠٣هـ.

١٩. ابن الزبير الغرناطي، أحمد بن إبراهيم بن الزبير الثقفي الغرناطي، أبو جعفر (المتوفى: ٧٠٨هـ): ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظ من آي التنزيل، وضع حواشيه: عبدالغني محمد على الفاسي، دار الكتب العلمية، بيروت.

٢٠. الزجاجي، عبدالرحمن بن إسحاق البغدادي النهاوندي الزجاجي، أبو القاسم (المتوفى: ٣٣٧هـ): اشتقاق أسماء الله الحسنى، تحقيق: د. عبدالحسين المبارك، مؤسسة الرسالة، الطبعة الثانية، ١٤٠٦هـ-١٩٨٦م.

٢١. الزمخشري، د. أبو القاسم محمود بن عمر بن أحمد، الزمخشري جار الله (المتوفى: ٥٣٨ه): الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، دار الكتاب العربي - بيروت، ط٣ - ١٤٠٧هـ.

٢٢. السامرائي، فاضل صالح السامرائي (الدكتور): معاني الأبنية في العربية، دار عمار، الأردن، الطبعة، ١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م.

٢٣. السهيلي، أبو القاسم عبدالرحمن بن عبدالله بن أحمد السهيلي (المتوفى: ٥٨١هـ)، دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة الأولى: ١٤١٢-١٩٩٢م.

٢٤. السيوطي، عبدالرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (المتوفى: ٩١١هـ):

- معترك الأقران في إعجاز القرآن، دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان، ط١، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.
- المزهر في علوم اللغة وأنواعها تحقيق: فؤاد على منصور، دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ.
- نواهد الأبكار وشوارد الأفكار = حاشية السيوطي على تفسير البيضاوي، جامعة أم القرى، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٥م.

• همع الهوامع في شرح جمع الجوامع، تحقيق: عبدالحميد هنداوي، المكتبة التوفيقية – مصر.

٢٥. ابن الشجري، ضياء الدين أبو السعادات هبة الله بن على بن حمزة، (المتوفى: ٥٤٢هـ): أمالي ابن الشجري، تحقيق: الدكتور محمود محمد الطناحي، مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤١٣هـ- ١٩٩١م.

٢٦. الشعراوي، محمد متولي الشعراوي (المتوفى: ١٤١٨هـ): تفسير الشعراوي، مطابع أخبار اليوم، ١٩٧٧م.

٢٧. ابن عاشور، محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي (المتوفى: ١٣٩٣هـ): التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر – تونس، ١٩٨٤هـ.

٢٨. عباس حسن (المتوفى: ١٣٩٨هـ): النحو الوافي، دار المعارف، ط١٥.

٢٩. ابن عثيمين، محمد بن صالح بن محمد ابن عثيمين (المتوفي ١٤٢١هجرية): القواعد المثلى في صفات الله وأسمائه الحسنى، تحقيق: أشرف بن عبدالمقصود بن عبدالرحيم، مصر، ١٤١٠هـ.

٣٠. ابن عطية، أبو محمد عبدالحق بن غالب بن عبدالرحمن بن تمام ابن عطية الأندلسي المحاربي (المتوفى: ٥٤٢هـ): المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تحقيق: عبدالسلام عبدالشافي محمد، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة الأولى – ١٤٢٢هـ.

٣١. الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي (المتوفى: ٥٠٥هـ): المقصد الأسنى في شرح معاني أسماء الله الحسنى، تحقيق: بسام عبدالوهاب الجابي، الجفان والجابي – قبرص، الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ – ١٩٨٧م.

٣٢. ابن فارس، أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي، أبو الحسين

(المتوفى: ٣٩٥هـ): الصاحبي في فقه اللغة العربية ومسائلها وسنن العرب في كلامها، الطبعة الأولى ١٤١٨هـ-١٩٩٧م.

٣٣. الفيروزآبادي، مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب الفيروزآبادى (المتوفى: ٨١٧هـ): بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، تحقيق: محمد علي النجار، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية - لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة.

٣٤. القاسمي، محمد جمال الدين بن محمد سعيد بن قاسم الحلاق القاسمي (المتوفى: ١٣٣٢هـ): محاسن التأويل، تحقيق: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة الأولى - ١٤١٨هـ.

٣٥. القرطبي، أبو عبدالله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي (المتوفى: ٦٧١هـ)

- تفسير القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤م.
- الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى وصفاته العلى، تحقيق: الشحات الطحان، مكتبة فياض - المنصورة - مصر، الطبعة الأولى، ١٤٢٧هـ -٢٠٠٦ م.

٣٦. ابن القيم، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (المتوفى: ٧٥١هـ):

- إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان، تحقيق: محمد حامد الفقي، مكتبة المعارف، الرياض، المملكة العربية السعودية
- جلاء الأفهام في فضل الصلاة على محمد خير الأنام، تحقيق: شعيب الأرناؤوط وعبدالقادر الأرناؤوط، دار العروبة - الكويت، الطبعة الثانية، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.

• بدائع الفوائد، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان.
• مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، تحقيق: محمد المعتصم بالله البغدادي، دار الكتاب العربي - بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م.

٣٧. ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي (المتوفى: ٧٧٤هـ)، تفسير القرآن العظيم (ابن كثير)، تحقيق: محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، منشورات محمد علي بيضون - بيروت، الطبعة الأولى - ١٤١٩هـ.

٣٨. الكرماني، محمود بن حمزة بن نصر، أبو القاسم برهان الدين الكرماني (المتوفى: نحو ٥٠٥هـ): البرهان في توجيه متشابه القرآن لما فيه من الحجة والبيان، تحقيق: عبدالقادر أحمد عطا، مراجعة وتعليق: أحمد عبدالتواب عوض، دار الفضيلة.

٣٩. ابن مالك، محمد بن عبدالله، ابن مالك الطائي الجياني، أبو عبدالله، جمال الدين (المتوفى: ٦٧٢هـ): شرح الكافية الشافية، تحقيق: د. عبدالمنعم أحمد هريدي، جامعة أم القرى - مكة المكرمة، الطبعة الأولى

٤٠. محمد رشيد بن علي رضا بن محمد شمس الدين بن محمد بهاء الدين ابن ملا علي خليفة القلموني الحسيني (المتوفى: ١٣٥٤هـ): تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٠م.

٤١. ابن منظور، محمد بن مكرم بن علي، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفعي الإفريقي (المتوفى: ٧١١هـ): لسان العرب، دار صادر - بيروت، ط٣ - ١٤١٤هـ.

٤٢. أبوهلال العسكري، الحسن بن عبدالله بن سهل بن سعيد بن يحيى بن مهران العسكري (المتوفى: نحو ٣٩٥هـ): الفروق اللغوية، حققه

وعلق عليه: محمد إبراهيم سليم، دار العلم والثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة – مصر.

٤٣. ابن هشام، عبدالله بن يوسف بن أحمد بن عبدالله ابن يوسف، أبو محمد، جمال الدين، ابن هشام (المتوفى: ٧٦١هـ)، مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، تحقيق: د. مازن المبارك/ محمد علي حمد الله، دار الفكر – دمشق، الطبعة السادسة، ١٩٨٥م.

٤٤. ابن يعيش، يعيش بن على بن يعيش ابن أبي السرايا محمد بن علي، أبو البقاء، موفق الدين الأسدي الموصلي، (المتوفى: ٦٤٣هـ): شرح المفصل للزمخشري، قدم له: الدكتور إميل بديع يعقوب، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، الطبعة الأولى١٤٢٢هـ – ٢٠٠١م.

الرحمة بالأطفال
وآثارها التربوية
من خلال السنة النبوية

إعداد:
محمد عباس محمد عرابي



المبحث الأول
الإطار العام للدراسة

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، القائل في كتابه الكريم ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾ [الأنبياء] والصلاة والسلام على نبي الرحمة محمد ﷺ القائل (إنما بُعثتُ رحمة)[1] وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد، فحري بكل مجتمع مسلم يسعى لتنشئة أبنائه تنشئة صالحة، وتربيتهم تربية راشدة، أن يقتفي أثر منهجه ﷺ، ويتخذ من رحمته الآخرين، وخاصة الأطفال دستورًا يمشي عليه، ويسير على هداه؛ ليغرس معاني التقوى والفضيلة في نفوسهم وأرواحهم، وتصبح تلك المعاني سجية لهم، ومَعلمًا أصيلًا لشخصيتهم.[2]

وإن من المشاعر النبيلة التي أودعها الله في قلبي الأبوين، شعور الرحمة بالأولاد، والرأفة بهم، والعطف عليهم، وهو شعور كريم، له في تربية الأطفال وفي إعدادهم وتكوينهم أفضل النتائج، وأعظم الآثار؛ لهذا نجد الشريعة الغراء قد رسخت في القلوب (الرحمة)، وحضت الكبار من آباء ومعلمين ومسؤولين على التحلي بها والتخلق بأخلاقها،

(١) أخرجه الإمام مسلم في «صحيحه» برقم (٢٥٩٩) من حديث أبي هريرة ﷺ

(٢) طرابيش، علي ناجي: الأساليب التربوية النبوية في التعامل مع الأطفال وتطبيقاتها في المرحلة الابتدائية، رسالة ماجستير، جامعة أم القرى، كلية التربية، ١٤٢٩، ص١٤

والرحمة إذا حلت قلب الأبوين، وترسخت في نفسيهما قاما بما يترتب عليهما من واجب، وأديا ما عليهما من حق تجاه من أوجب الله عليهما حق الرعاية، وواجب المسؤولية، ألا وهم الأطفال[1].

ولقد استغرق الأطفال مكانًا واسعًا من السنة النبوية، فقد اعتنى علماء الحديث الجامعون للسنة المطهرة بهذا الجانب، فاهتموا بالأحكام والآداب الخاصة بالطفل في مؤلفاتهم.

ومنهج السنة النبوية هو أفضل المناهج في التعامل مع الطفولة، ذلك أنها تربية ربانية المصادر إلاهية المبادئ، فقد أرسل الله الرسل، وأنزل الكتب، وسن الشرائع، ليهدي الناس إلى النجدين: طريق الخير وطريق الشر، ويعلمهم ويزكيهم، ويربيهم على الهدى والتقوى والصلاح. إنها تتميز بشموليتها لجوانب شخصية الإنسان، وهي أيضًا ذات خصوصية في غاياتها وأهدافها وأساليبها ذلك أنها تنطلق من منطلقات ربانية، وتسير في منهجية إسلامية دعامتها الكتاب والسنة[2].

فالأحاديث النبوية مليئة بالدروس والعبر، التي كان يتمثلها النبي ﷺ سلوكًا حيًّا أمام الصحابة الكرام رضي الله عنهم، كي يستفيدوا منها في تربية أبنائهم وتعليمهم تعاليم الدين الحق، وأن يكون ذلك نبراسًا لهم في تعايشهم مع أهليهم، ومع مجتمعهم والمجتمعات الأخرى، ومعاملتهم برفق ولين ورحمة، وخاصة في الوقت الراهن، الذي كثرت فيه ظاهرة العنف في التعامل مع الأطفال.

مشكلة الدراسة

من بين كل القيم التي تشتمل عليها منظومة القيم الأخلاقية الإسلامية

(١) علوان، عبدالله ناصح: تربية الأولاد في الإسلام، ط١٩، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٩٠م، ج١/ص ٤٥.

(٢) العلوي، محمد صالح: خطاب النبي ﷺ للطفل المسلم وتطبيقاته التربوية، رسالة ماجستير،، جامعة أم القرى، كلية التربية، ١٤٣١م، ص (ج)

قيمة رفيعة القدر، بالغة الأهمية، تتصدر هذه المنظومة، وترتفع فوق قمتها، ألا وهي قيمة الرحمة، ولكننا نفتقد هذه القيمة العظيمة في كثير من تعاملاتنا اليومية، فالقسوة قد حلت محل الرحمة في كثير من علاقات الناس اليومية، وتعاملاتهم الحياتية، والأمثلة على ذلك كثيرة، منها: الأب الذي يقسو على أبنائه[١]. ومن الأمور التي يكاد يجمع عليها علماء التربية، أن الطفل إذا عومل من قبل أبويه ومربيه المعاملة القاسية، وأُدب من قبلهم بالضرب الشديد والتوبيخ القارع، وكان دائمًا الهدف في التحقير والازدراء، والتشهير والسخرية، فإن ردود الفعل ستظهر في سلوكه وخلقه، وإن ظاهرة الخوف والانكماش ستبدو في تصرفاته وأفعاله[٢].

وتُعدُّ ظاهرة العنف ضد الأطفال في البيت والمدرسة والشارع من أبرز الظواهر الاجتماعية، التي انتشرت بصورة كبيرة في الآونة الأخيرة، وسببت العديد من الآثار السلبية على الأطفال، مما يفرض على كل من يتعامل مع الأطفال البعد عن العنف؛ فالإسلام يأمر كل من في عنقه مسؤولية التوجيه والتربية، ولاسيما الآباء والأمهات منهم، يأمرهم جميعًا بأن يتحلوا بالأخلاق العالية، والملاطفة الرصينة، والمعاملة الرحيمة، حتى ينشأ الأطفال على الاستقامة، ويتربوا على الجرأة واستقلال الشخصية. ومن ثم يشعرون أنهم ذوو تقدير واحترام وكرامة، لذا يجب معاملة الأطفال بأساليب تربوية تقوم على الرفق واللين والرحمة، والإسلام بتعاليمه القويمة الخالدة، والسنة النبوية مليئة بهذه الأساليب، وبيانًا لهذه الأساليب كانت هذه الدراسة المعنونة بـ (الرحمة بالأطفال وآثارها التربوية من خلال السنة النبوية).

(١) زقزوق، محمود حمدي: الإنسان والقيم في التذوق الإسلامي، مجمع البحوث الإسلامية، القاهرة، رمضان ١٤٣٦هـ، ص١٥٩

(٢) علوان، عبدالله ناصح: تربية الأولاد في الإسلام، مرجع سابق، ج١/ص ١٣٥.

أهداف الدراسة: تهدف هذه الدراسة إلى:

١. التعرف على مظاهر الرحمة بالأطفال في السنة النبوية.

٢. بيان التطبيقات التربوية المستفادة من الرحمة بالأطفال في السنة النبوية.

أسئلة الدراسة:

تحاول هذه الدراسة الإجابة عن السؤالين التاليين:

١. ما مظاهر الرحمة بالأطفال في السنة النبوية؟

٢. ما التطبيقات التربوية المستفادة من الرحمة بالأطفال في السنة النبوية؟

منهج الدراسة:

استخدم الباحث المنهج الوصفي التحليلي: "وهو المنهج الذي يقوم على دراسة الواقع أو الظاهرة كما هي، وذلك بوصفها وصفًا دقيقًا، والتعبير عنها كميًا أو كيفيًا، أو كلاهما معًا"(١). فهو منهج يقوم فيه الباحث ببذل أقصى جهد عقلي ونفسي عند دراسة النصوص، بهدف استخراج مبادئ تربوية مدعمة بالأدلة الواضحة، وفي ضوء هذا المنهج قام الباحث بوصف وتحليل ما ورد في السنة النبوية بخصوص جوانب الرحمة في السنة النبوية، ومظاهر الرحمة بالأطفال في السنة النبوية، وقام باستنباط التطبيقات التربوية المستفادة من الرحمة بالأطفال في السنة النبوية من خلال اعتماده على الطريقة الاستنباطية، التي هي محاولة لاستنباط « المبادئ والأحكام والآراء والقيم والعبر والأساليب والوسائل التربوية من الأحاديث النبوية.(٢)

(١) عبيدات، ذوقان، وآخرون: البحث العلمي، « مفهومه وأدواته وأساليبه «، دار أسامة، الرياض، ١٤٢٤هـ، ص٢٤٧ .

(٢) يالجن، مقداد: مناهج البحث وتطبيقاتها في التربية الإسلامية، دار عالم الكتب للطباعة والنشر والتوزيع، الرياض، السعودية، ١٤١٩، ص٣٤.

مصطلحات الدراسة:

الرحمة: يعرفها علوان بأنها: (رقة في القلب، وحساسية في الضمير، وإرهاف في الشعور تستهدف الرحمة بالآخرين، والتألم لهم، والعطف عليهم، وكفكفة دموع أحزانهم وآلامهم، وهي التي تهيب بالمؤمن أن ينفر من الإيذاء، وينبو عن الجريمة، ويصبح مصدر خير وبر وسلام للناس أجمعين)[١].

الرحمة بالأطفال: يعرفها الباحث تعريفًا إجرائيًا بأنها: سمة يتسم بها الآباء والمربون في تعاملهم مع الأطفال، وتتمثل مظاهر ها في السنة النبوية في العديد من الجوانب منها: تقبيل الأطفال، ملاطفتهم، الدعاء لهم، عدم الدعاء عليهم، العدل بينهم، الإنفاق عليهم، وتركهم أغنياء، والسلام والعطف عليهم، الرفق بهم، والرحمة بالأطفال اليتامى.

السنة النبوية: كل ما أُثر عن النبي ﷺ من أقواله وأفعاله، وتقريراته، وهيئاته، وصفاته الخلقية، وشمائله، وكل ما نسب إلى النبي ﷺ قبل الرسالة أو بعدها، سواء أثبتت حكمًا شرعيًا أم لم تثبت.[٢]

مباحث الدراسة:

تشتمل دراسة الرحمة بالأطفال وآثارها التربوية من خلال السنة النبوية، على ثلاثة مباحث وخاتمة، تتضمن نتائج الدراسة وتوصياتها، وجاءت مباحث الدراسة على النحو التالي:

المبحث الأول: الإطار العام للدراسة.

المبحث الثاني: مظاهر الرحمة بالأطفال في السنة النبوية، وهو يجيب عن السؤال الأول من أسئلة الدراسة.

(١) علوان، عبدالله ناصح: تربية الأولاد في الإسلام، مرجع سابق، ج١/ص ٣٦١.
(٢) إسماعيل، شعبان محمد: مصادر التشريع الإسلامي وموقف العلماء منها، دار المريخ، الرياض، السعودية، ١٤٠٥، ص١٧٣.

المبحث الثالث: التطبيقات التربوية المستفادة من الرحمة بالأطفال في السنة النبوية، وهو يجيب عن السؤال الثاني من أسئلة الدراسة.

الدراسات السابقة:

تناول العديد من الباحثين السنة النبوية، وذلك لاستنباط التطبيقات التربوية المستفادة منها، التي تساعد على حسن التعامل مع الأطفال، وتربيتهم تربية سوية.

ومن هذه الدراسات: دراسة بانبيلة (١٤٠٨هـ)[١]، وفيها تناول بعض القيم والأساليب التربوية من الخطب النبوية وأهميتها، وأنها من أشد أنواع الإقناع تأثيرًا، ويُلاحظ أن الباحث استخدم وتناول جانبًا واحدًا وهو استخدام الرسول ﷺ الأساليب التربوية والتوجيه من خلال الخطب فقط، ووضح الباحث أنواع الخطب، وأن للخطابة أثرًا مهمًّا في حياة المجتمعات؛ لأن الغاية منها إرشاد الناس إلى الحقائق، ثم ذكر بعض القيم التي تتناولها الخطب منها قيم الطاعة والمحبة وقيمة الإيمان بكرامة الإنسان، وقيم الحياة الزوجية، وذكر الباحث بعض القيم المعنوية، ومنها: قيمة الصدق والأمانة والحياء.

ومن الأساليب التربوية في خطبه ﷺ كما ذكرها الباحث بانبيلة، توجيهه للهمم إلى معالي الأمور والإصلاح العملي لنموذج سلوكي منحرف، وكذلك الحوار، والتوازن بين متطلبات الروح والجسد، كما بيَّن بانبيلة موقف الرسول ﷺ من العلم والمتعلم.

وأجرى حسن دراسة (١٤١٠هـ)[٢] تناولت الأساليب التالية: أسلوب

(١) بانبيلة، حسين عبدالله: بعض القيم والأساليب التربوية المستنبطة من خطب المصطفى ﷺ، رسالة ماجستير، كلية التربية، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، ١٤٠٨هـ.

(٢) حسن، محمد حسن: الأساليب التربوية في السنة النبوية، رسالة ماجستير، كلية التربية، الأزهر، القاهرة، مصر، ١٤١٠هـ.

القدوة، وأسلوب التربية العملية، وأسلوب الأمثال، وأسلوب القصة، واستخدمت منهج البحث الوصفي التحليلي، وتوصلت إلى عدة نتائج منها: إبراز أسلوب القدوة من خلال السنة النبوية في التربية وفي دروس العلم، واعتبرت الدراسة أسلوب التربية العملية من أهم أساليب التربية؛ لأنه يعتمد على النشاط الذاتي للفرد، وبه يكتسب الفرد المعارف والمهارات والخبرات اللازمة للتعلم.

ونفذ أبو دف (١٤١٧هـ) دراسة هدفت إلى الكشف عن بعض الأساليب التربوية التي تضمنتها السنة النبوية المطهرة، وقد حدَّد الباحث الأساليب التربوية، كما جاءت في السنة النبوية في ثلاثة أساليب، هي: أساليب متعلقة بوظائف المربي، وأساليب متعلقة بآراء المربي، وأساليب متعلقة بعلاقة المعلم بالمتعلم، وقد استخدم المنهج الوصفي التحليلي، وقد توصلت إلى ضرورة الاقتداء بالرسول ﷺ في مجال التربية، وتعدد وتنوع الأساليب التربوية التي كان يستعملها الرسول ﷺ في تربيته وشمولها لجميع جوانب الحياة.[١]

وأما دراسة دبابش (١٤٢٩هـ) فقد كان الهدف منها توضيح الأساليب التربوية التي استخدمها ﷺ في تربيته لأصحابه من خلال سيرته النبوية، تقديم تصور مقترح للاستفادة من منهج الرسول التربوي، وقد استخدمت الباحثة المنهج الوصفي التحليلي، وكان من أهم نتائج الدراسة ما يلي: أن أساليب تربية النبي ﷺ لأصحابه تميزت بالتنوع والمرونة والتكامل والشمول مما جعلها صالحة لكل زمان ومكان ولكل فئات البشر، ومن هذه الأساليب (التربية بالقدوة والتربية بالقصة، والتربية بالأحداث، والتعليم بضرب الأمثال.[٢]

(١) أبو دف، محمود: بعض الأساليب التربوية المستنبطة من خلال السنة النبوية، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة الأزهر، مصر، ١٤١٧هـ.

(٢) دبابش، منال موسى: منهج الرسول في التربية من خلال السنة النبوية، رسالة ماجستير، الجامعة الإسلامية بغزة، كلية التربية، ١٤٢٩هـ.

وقام العلوي (١٤٣١هـ) بدراسة هدفت إلى التعرف على معالم خطاب النبي ﷺ للطفل المسلم، وبيان كيفية توظيف خطاب النبي ﷺ للطفل المسلم تربويًا، واستخدم الباحث المنهج الوصفي التحليلي، والطريقة الاستنباطية، وقد توصلت إلى أنه: تضمنت السنة النبوية نصوصًا صريحة للخطاب النبوي الموجه للطفل فشكلت بمضامينها قيمًا وأساليب لتربية الطفل المسلم وتوجيه سلوكه.[1]

وقام طرابيشي (١٤٢٩هـ) بدراسة هدفت إلى التعرف على الأساليب التربوية النبوية في صورة عملية تساعد معلم المرحلة الابتدائية في رفع مستوى تعامله مع أبنائه الطلاب، وفق منهجية إسلامية صحيحة، وتقديم تطبيقات تربوية يمكن الإفادة منها في المرحلة الابتدائية،، واستخدمت المنهج الوصفي، وقد توصلت لعدة نتائج أبرزها: أن السيرة النبوية غنية بالأساليب التربوية التي تفيد المربين والمعلمين، والتي تهتم بتنمية جميع جوانب الإنسان وصقلها، تعدد الأساليب التربوية التي مارسها الرسول ﷺ مع الأطفال من خلال ميادين عدة، شملت جوانب شخصية الطفل.

التعليق على الدراسات السابقة: تتفق الدراسة الحالية مع الدراسات السابقة في تناولها تربية الأطفال في ضوء السنة النبوية، وفي منهج الدراسة: المنهج الوصفي التحليلي، والطريقة الاستنباطية، وتختلف عنها في موضوع الدراسة، حيث إن هذه الدراسة تتناول الرحمة بالأطفال وآثارها التربوية من خلال السنة النبوية، بينما ركزت معظم الدراسات السابقة على الأساليب التربوية التي استخدمها ﷺ في تربيته لأصحابه: كدراسة حسن دراسة (١٤١٠هـ) ودراسة أبو دف (١٤١٧هـ)، ودراسة طرابيشي (١٤٢٩هـ)، ودراسة دبابش (١٤٢٩هـ)، وأما دراسة العلوي

(١) العلوي، محمد صالح: خطاب النبي ﷺ للطفل المسلم وتطبيقاته التربوية، رسالة ماجستير،، جامعة أم القرى، كلية التربية، ١٤٣١م.

(١٤٣١هـ)، فقد تناولت معالم خطاب النبي ﷺ للطفل المسلم، وأما دراسة بانبيلة (١٤٠٨هـ)، فقد تناولت بعض القيم والأساليب التربوية من الخطب النبوية، ولكنها لم تتناول قيمة الرحمة، حيث تناولت قيم الطاعة والمحبة، وقيمة الإيمان بكرامة الإنسان، وقيم الحياة الزوجية، وقيمة الصدق والأمانة والحياء، وقد استفادت الدراسة الحالية من الدراسات السابقة في منهج الدراسة، وخطواتها الإجرائية.

المبحث الثاني
مظاهر الرحمة بالأطفال في السنة النبوية

الأحاديث النبوية هي المصدر الثاني من مصادر التشريع الإسلامي؛ لكونها جاءت وحيًا من الله ﷻ، أجراه على لسان رسوله ﷺ، ولقد تحقق في شخصية النبي ﷺ المثل الأعلى والنموذج الأسمى للكمال الإنساني، وهذه الشخصية المعجزة الخاتمة التي جمعت تمام القيم وعظيم المُثُل تظل دومًا قدوة مُثلى ونموذجًا يُحتذى وأسوة حسنة في شتى مجالات التربية وجوانب التنشئة.

فشخصية النبي ﷺ تُمثل وتُجسد تعاليم وتربية الإسلام قولًا وأداءً وتعاملًا في مختلف شئون حياته من عباداتٍ ومعاملاتٍ؛ سواءً أكان ذلك الأداء قوليًّا، أو فعليًّا، أو موافقةً منه ﷺ لما صدر عن بعض أصحابه ﷺ من الأقوال أو الأفعال؛ فإن هذا يعني أنه ﷺ بمثابة "المثال الإنساني المتفرد، الذي يُعدُّ اتِّباعُه والتأسي به جزءًا أساسيًّا من التكليف الإلهي المتكامل الوارد في الكتاب والسُنة، سواءً في أثناء بعثته، أو بعد موته، وإلى يوم القيامة.. وهو المثال الذي ينبغي أن يُحتذى في كل ما ثَبَتَ أنه فعله، أو قاله، أو قرَّره، دون أن يطمح أحدٌ في بلوغ مرتبته، سواءً في الأداء، أو في الإحسان، أو في الثواب".[1]

(١) رمزي، عبدالقادر هاشم: النظرية الإسلامية في فلسفة الدراسات الاجتماعية التربوية، دار الثقافة، الدوحة، ١٤٠٤، ص٥٨.

وشخصية النبي ﷺ؛ هي الشخصية الإنسانية المثالية التي يجد فيها الإنسان مربيًّا عظيمًا ذا أُسلوبٍ تربوي فذّ، يُراعي حاجات الطفولة وطبيعتها، ويأمر بمخاطبة الناس على قدرٍ عقولهم، أي يراعي الفروق الفردية بينهم، كما يُراعي مواهبهم واستعداداتهم وطبائعهم، يُراعي في المرأة أنوثتها، وفي الرجل رجولته، وفي الكهل كهولته، وفي الطفل طفولته، ويلتمس دوافعهم الغريزية.[1]

ولقد قام علماء الأمة بمحاولة تصنيف الأحاديث النبوية، وجمع ما كان له علاقةٌ بالجانب التربوي في عددٍ من الكتب والمؤلفات التي تتحدث عن بعض الملامح والتوجيهات والدروس المستفادة من هدي التربية النبوية، ومنهجها العظيم، وأهدافها السامية، وأساليبها المتعددة في جوانب مختلفة من الحياة.

وليس هذا فحسب؛ فهناك كثيرٌ من الدراسات والاجتهادات التي ركَّزت على المضامين والمفاهيم والأبعاد والآداب والدروس التربوية النبوية؛ فكُتبت الكتب وأُلفت المؤلفات، وأُعدَّت الدراسات المتنوعة التي توضح بما لا شك فيه أن السُّنة النبوية المطهرة مصدرٌ تربويٌ رئيسٌ وزاخرٌ بالكثير من المبادئ والقيم والأهداف والأساليب والمضامين والدروس، ذات العلاقة بحياة الإنسان والمجتمع المسلم[2]، ومن أبرزها قيمة الرحمة: عن عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «من لم يرحم صغيرنا، ويعرف حق كبيرنا»[3] وعن أبي قتادة الأنصاري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ كان يصلي وهو حامل أمامة بنت زينب رضي الله عنها بنت رسول الله ﷺ،

(١) النحلاوي، عبدالرحمن: أصول التربية الإسلامية وأساليبها. ط (٢٣)، دار الفكر، دمشق، ١٤٢٦هـ، ص ص٢٦-٢٧.

(٢) عرابي، محمد عباس: دور الخطاب الديني النبوي في علاج مشكلات الشباب، دار الهدى، مصر، ١٤٣٢هـ، ص ٢٩.

(٣) أخرجه أبو داود) ٤٩٤٣ (، وهو في «صحيح الجامع» (٦٥٤٠) .

فإذا سجد وضعها، وإذا قام حملها [١] وعن أنس ﷺ عن النبي ﷺ قال: «ما من الناس من مسلم يتوفى له ثلاثة لم يبلغوا إلا أدخله الله الجنة، بفضل رحمته إياهم».[٢]

ومظاهر الرحمة بالأطفال في السنة النبوية كثيرة، فقد كان النبي ﷺ أرحم الناس بالأطفال، وقد ثبتت عنه أحاديث كثيرة في الرحمة بالأطفال ذكورًا وإناثًا، وتتمثل مظاهر الرحمة بالأطفال في السنة النبوية في العديد من الجوانب منها: تقبيل الأطفال، ملاطفتهم، الدعاء لهم، عدم الدعاء عليهم، العدل بينهم، الإنفاق عليهم، وتركهم أغنياء، السلام والعطف عليهم، الرفق بهم، والرحمة بالأطفال اليتامى، وفيما يلي عرض موجز لهذه الجوانب:

- **تقبيل الأطفال:**

فمن الأحاديث التي وردت بشأن تقبيل الأطفال، ما رواه أبو هريرة ﷺ أن الأقرع بن حابس أبصر النبي ﷺ يقبل الحسن، فقال: إن لي عشرة من الولد ما قبلت واحدًا منهم، فقال رسول الله ﷺ: «إنه من لا يَرحم لا يُرحم».[٣]

وعن عائشة ﷺ قالت: قدم ناس من الأعراب على رسول الله ﷺ فقالوا: أتقبِّلون صبيانكم؟! فقالوا: نعم، فقالوا: لكنا -والله- ما نقبِّل، قال رسول الله ﷺ «أوَ أملِك إن كان الله نزع منكم الرحمة»؟![٤]

- **ملاطفة الأطفال:**

وورد في هذه الملاطفة أنه كان رسول الله ﷺ يصلي، فإذا سجد

(١) أخرجه البخاري (٥١٦) .
(٢) أخرجه البخاري (١٣٨١).
(٣) أخرجه البخاري (٥٩٩٧)، ومسلم (٢٣١٨) .
(٤) أخرجه البخاري (٥٩٩٨)، ومسلم (٢٣١٧) .

وثب الحسن والحسين على ظهره، فإذا أراد الناس أن يمنعوهما؛ أشار إليهم أن دعوهما، قال أبو هريرة: كنا نصلي مع رسول الله ﷺ العشاء فكان يصلي، فإذا سجد وثب الحسن والحسين على ظهره، وإذا رفع رأسه أخذهما بيده من خلفه أخذا رفيقًا فوضعهما وضعًا رفيقًا، فإذا عاد عادا فلما صلى وضعهما على فخذيه جعل واحدًا هاهنا وواحدًا هاهنا..! قال أبو هريرة: فجئته فقلت: يا رسول الله ألا أذهب بهما إلى أمهما؟ قال: «لا»..!"[1].

وعن أنس بن مالك قال: كان رسول الله ﷺ أحسن الناس خلقًا، وكان لي أخ يقال له أبو عمير، فكان إذا جاء رسول الله ﷺ فرآه قال «أبا عمير ما فعل النغير؟»[2].. والنغير طائر صغير كان أبو عمير يلعب معه!

- **الدعاء للأطفال:**

حيث كان النَّبِيُّ ﷺ يدعو للأطفال ومن ذلك ما روته عائشة: أن رسول الله ﷺ كان يؤتى إليه بالصبيان "فيبرّك عليهم -أي يدعو لهم بالبركة، "ويحنكهم"[3]- أي يضع في أفواههم التمر اللين الذي مضغه في حنكه الشريف.

وقال البراء: رَأَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ وَالْحَسَنُ بْنُ عَلِيٍّ عَلَى عَاتِقِهِ، يَقُولُ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أُحِبُّهُ فَأَحِبَّهُ»[4].

وعن أسامة بن زيد عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ كَانَ يَأْخُذُهُ وَالْحَسَنَ، وَيَقُولُ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أُحِبُّهُمَا فَأَحِبَّهُمَا»[5].

(١) الألباني: السلسلة الصحيحة (٣٣٢٥).
(٢) أخرجه البخاري، (٥٨٥٠)، ومسلم (٢١٥٠).
(٣) (٢٤) رواه مسلم (٢١٤٧).
(٤) أخرجه البخاري، (٣٤٦٦).
(٥) أخرجه البخاري، (٣٤٦٤).

وعن ابن عباس قال: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يُعَوِّذُ الْحَسَنَ وَالْحُسَيْنَ وَيَقُولُ: «إِنَّ أَبَاكُمَا إبراهيم عليه السلام كَانَ يُعَوِّذُ بِهَا إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ: أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللَّهِ التَّامَّةِ مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ وَهَامَّةٍ، وَمِنْ كُلِّ عَيْنٍ لَامَّةٍ»[١].

- **عدم الدعاء على الأطفال:**

لقد نها النبي ﷺ عن الدعاء على الأطفال عن جابر رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «لا تدعوا على أولادكم، لا توافقوا من الله ساعة يسأل فيها عطاء فيستجيب لكم»[٢].

- **العدل بين الأطفال:**

لقد أمر النبي ﷺ بالعدل بين الأطفال: عن أنس رضي الله عنه قال: كان مع رسول الله ﷺ رجل، فجاء ابن له فقبَّله وأجلسه على فخذه، ثم جاءت بنت له، فأجلسها إلى جنبه، فقال: «فهلا عدلت بينهما»[٣] وعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «سألت ربي ألا يعذب اللاهين من البشر فأعطانيهم»[٤].

- **الإنفاق على الأطفال، وتركهم أغنياء:**

حث النبي ﷺ بالإنفاق على الأطفال، وتركهم أغنياء، فعن عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «كفى بالمرء إثمًا أن يضيع من يقوت»[٥]، أي: يترك النفقة على من تلزمه النفقة عليهم، كالأولاد الصغار.

وعن ثوبان رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «أفضل دينار ينفقه الرجل، دينار ينفقه على عياله».[٦]

(١) أخرجه البخاري، (٣١٢٠).
(٢) أخرجه مسلم (٣٠٠٩).
(٣) الألباني: «السلسلة الصحيحة» (٣٠٩٨).
(٤) أخرجه الطبراني في «الأوسط» (٥٩٥٧)، وهو في «صحيح الجامع» (٣٥٩٢).
(٥) أخرجه أبو داود (١٦٩٢)، وهو في «صحيح الجامع» (٤٤٨١) .
(٦) أخرجه مسلم (٩٩٤).

وعن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال له: «إن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تذرهم عالة، يتكَفَّفون الناس».[١]

- **السلام على الأطفال والعطف عليهم:**

لقد كان النبي ﷺ يسلم على الأطفال في الطرقات، ويمسح على رؤوسهم ووجوههم، فعن جَابِرِ بن سَمُرَةَ، قَالَ: صَلَّيْتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ الأُولَى، ثُمَّ خَرَجَ إِلَى أَهْلِهِ، وَخَرَجْتُ مَعَهُ فَاسْتَقْبَلَهُ وِلْدَانُ الْمَدِينَةِ، فَجَعَلَ يَمْسَحُ خَدَّيْ أَحَدِهِمْ وَاحِدًا وَاحِدًا، قَالَ: وَأَمَّا أَنَا فَمَسَحَ خَدِّي فَوَجَدْتُ لِيَدِهِ بَرْدًا وَرِيحًا، كَأَنَّمَا أَخْرَجَهَا مِنْ جُونَةِ عَطَّارٍ ﷺ.[٢]

- **الرفق بالأطفال بتخفيف الصلاة:**

يقول (كولن): "كانت صلاة رسول الله ﷺ طويلة، ولا سيما النوافل منها؛ إذ كانت تتجاوز طاقة الصحابة، ولكنه عندما يقف للصلاة يريد إطالتها ويسمع بكاء طفل في أثنائها؛ إذ به يخفف صلاته ويتَجوَّز فيها؛ ذلك لأن النساء كن يقفن للصلاة خلف رسول الله ﷺ أي يشتركن في أداء صلاة الجماعة خلفه، فخوفًا من أن تكون أم ذلك الطفل موجودة بين المصليات فإنه كان يخفف صلاته، ويسرع بها، لكي يريح قلب تلك الأم"[٣]. وعن أَنَس بْن مَالِك قال: مَا صَلَّيْتُ وَرَاءَ إِمَام قَطُّ أَخَفَّ صَلَاةً وَلَا أَتَمَّ مِن النَّبِيِّ ﷺ، وَإِنْ كَانَ لَيَسْمَعُ بُكَاءَ الصَّبِيِّ، فَيُخَفِّفُ مَخَافَةَ أَنْ تُفْتَنَ أُمُّهُ.[٤]

وعن ابن ربعي يقول النبي ﷺ: «إني لأقوم في الصلاة أريد أن أطول

(١) أخرجه البخاري (١٢٩٥)، ومسلم» (١٦٢٨).
(٢) رواه الطبراني في المعجم الكبير، (١٩١١)، وصححه الألباني في مشكاة المصابيح، (٥٧٨٩).
(٣) محمد فتح الله كولن: النور الخالد محمد ﷺ مفخرة الإنسانية، ترجمة وتحقيق: لينا عبدالقدوس أبو صالح، بيروت، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، ١٩٩٩، ٣//.
(٤) أخرجه البخاري، (٦٦٧).

فيها، فأسمع بكاء الصبي، فأتجوز في صلاتي كراهية أن أشق على أمه»[١].

- **الرحمة باليتامى:**

لقد اعتنت السنة النبوية بالطفل اليتيم عناية خاصة، هذا اليتيم الذي ابتلي بموت أحد والديه وهو صغير، إذا لم يجد اليد الحانية التي تحنو عليه، والقلب الرحيم الذي يعطف عليه، وإذا لم يجد من الأوصياء المعاملة الحسنة التي ترفق به والرعاية الكاملة، التي ترفع من مستواه، والمعونة التامة التي تسد جوعته، لا شك أن هذا اليتيم سوف يصبح أداة هدم وتخريب لكيان الأمة[٢]، لكن السنة النبوية أمرت الأوصياء وكل من له صلة قرابة باليتيم، أن يحسنوا معاملته وأن يقوموا على أمره وكفالته وأن يشرفوا على تأديبه وتوجيهه؛ حتى يتربى على الخير، وينشأ على المكارم الخلقية والفضائل النفسية الكريمة.

وصحت عن النبي ﷺ أحاديث كثيرة في الرحمة باليتامى منها: عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال له: «إذا أردت أن يلين قلبك، فاطعم المسكين، وامسح رأس اليتيم»[٣].

وعن أبي الدرداء أن النبي ﷺ قال: «أتحب أن يلين قلبك، وتدرك حاجتك؟ ارحم اليتيم، وامسح رأسه، وأطعمه من طعامك؛ يلِنْ قلبك، وتدرك حاجتك»[٤].

وعن سهل بن سعد رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «أنا وكافل اليتيم في الجنة

(١) أخرجه البخاري، (٦٦٦).
(٢) علوان، عبدالله ناصح: تربية الأولاد في الإسلام، مرجع سابق، ج١/ص ١٤٦.
(٣) أخرجه أحمد (٧٥٦٦)، وهو في «صحيح الجامع» (١٤١٠).
(٤) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (١١٠٣٥)، وهو في «صحيح الجامع» (٨٠)

هكذا» وأشار بإصبعيه السبابة والوسطى.[١] وعن أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: «إني أُحَرِّج حق الضعيفين: اليتيم والمرأة»[٢].

فالإحسان إلى اليتامى، والبر بهم، وكفالة عيشهم، وصيانة مستقبلهم من أزكى القربات، بل إن العواطف المنحرفة تعتدل في هذا المسلك، وتلزم الجادة[٣]. لقد خصت السنة النبوية اليتامى بهذه الأحكام، نظرًا لما يستدعيه حالهم من الرعاية والاهتمام الخاصين، ولحمايتهم من طمع بعض من لا يخشى الله في سلب أموالهم، وتعليم الناس ضرورة التكافل.

والتراحم، والتعاطف في الظروف التي لا تستقيم فيها حياة الأمة إلا بذلك، ومنها وفاة العائلين التي تنشأ عنها ضرورة رعاية اليتامى والأرامل وإمداد المساكين[٤].

(١) أخرجه البخاري (٦٠٠٥).
(٢) أخرجه الحاكم (٢١١)، وهو في «صحيح الجامع (٢٤٤٧).
(٣) الغزالي، محمد: خلق المسلم، ط٦، دار الدعوة، الإسكندرية، ١٤٢٠ هـ، ص١٩٣.
(٤) النحلاوي، عبدالرحمن: التربية الإسلامية والمشكلات المعاصرة، ط٢، المكتب الإسلامي، بيروت، ١٩٨٨م، ص ١٣١.

المبحث الثالث
التطبيقات التربوية المستفادة من الرحمة بالأطفال في السنة النبوية

تتمثل مظاهر الرحمة بالأطفال في السنة النبوية في العديد من الجوانب منها: تقبيل الأطفال، ملاطفتهم ومداعبتهم، الدعاء لهم، عدم الدعاء عليهم، العدل بينهم، الإنفاق عليهم، وتركهم أغنياء، السلام والعطف عليهم، الرفق بهم، والرحمة بالأطفال اليتامى، وفي ضوء ذلك يمكن للأسرة والمدرسة الاستفادة منها في التطبيقات التربوية التالية:

- **على الآباء والأمهات:**

تقبيل الأطفال، ملاطفتهم، الدعاء لهم، عدم الدعاء عليهم، العدل بينهم، الإنفاق عليهم، وتركهم أغنياء، السلام والعطف عليهم، الرفق بهم.

- **على المربين أن يكونوا رحماء بالأطفال:**

فالرحمة صفة من صفات المربي الناجح، وهي من الوالدين لأبنائهما أخص، ورحمة الأولاد من أهم أسس نشأتهم ومقومات نموهم النفسي والاجتماعي نموا قويًا سويًا، فإذا فقد الأولاد المحبة نشأوا منحرفين في المجتمع، لا يتعاونون مع أفراده، ولا يندمجون في وسطه.

والمربي الذي ينقصه الحنان لا يصلح للتربية، الذي يغلب عليه التجهم، الذي يبخل بالابتسامة، الذي لا يمسح على رأس الطفل، الذي لا يعرف إلا العقاب، أما الثواب فلا حاجة به إليه، عَنْ عَمْرِو ابْنِ شُعَيْبٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ جَدِّهِ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَمْ يَرْحَمْ صَغِيرَنَا، وَيَعْرِفْ حَقَّ كَبِيرِنَا»[1] وأنه بذلك مخالف لرسول الله ﷺ في مزاحه مع الصبيان، وتلطفه معهم.

- **على المربين التعامل مع الأطفال برفق ولين مع احترامهم وتقديرهم:**

فذلك يجعلهم أسوياء، ويعودهم على الاعتماد على النفس والثقة، ويربي فيهم حب الآخرين، والتآلف مع غيرهم والتآخي، ومعاملة غيرهم بالمودة والرأفة كما كانوا يعاملون، وكما تعودوا عليه.[2]

- **تقبيل الأطفال:**

فالقبلة لها دور فعال في تحريك مشاعر الطفل وعاطفته، كما أن لها دورًا كبيرًا في تسكين ثورانه، بالإضافة إلى الشعور بالارتباط الوثيق في تشييد علاقة الحب بين الكبير والصغير، وهي دليل رحمة القلب والفؤاد لهذا الطفل الناشئ، وهي برهان على تواضع الكبير للصغير، وهي النور الساطع الذي يبهر فؤاد الطفل، ويشرح نفسه، ويزيد تفاعله مع من حوله، ثم هي أولًا وأخيرًا السنة الثابتة عن النبي ﷺ مع الأطفال.[3]

عن عائشة رضي الله عنها قالت: قدم ناس من الأعراب على رسول الله ﷺ

(١) رواه أحمد (٢ / ٦٤٤) (٦٧٣٣).
(٢) البقعاوي، صالح: مبدأ الرفق في التعامل مع المتعلمين، رسالة ماجستير منشورة، قسم التربية الإسلامية، كلية التربية، جامعة أم القرى، ١٤٢١، ص ١٣٢.
(٣) سويد، محمد نور عبدالحافظ: منهج التربية النبوية للطفل، ط٣، دار طيبة، مكة المكرمة، ١٤٢١، ص٣١٠.

فقالوا: أتقبِّلون صبيانكم؟! فقالوا: نعم، فقالوا: لكنا -والله- ما نقبِّل، قال رسول الله ﷺ «أوَ أملك إن كان الله نزع منكم الرحمة»؟![1]

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن الأقرع بن حابس أبصر النبي ﷺ يقبل الحسن فقال: إن لي عشرة من الولد ما قبلت واحدًا منهم، فقال رسول الله ﷺ: «إنه من لا يَرحم لا يُرحم»[2].

- **استخدام أسلوب المداعبة في تربية وتعليم الأطفال:**

فلقد مازح النبي ﷺ الأطفال، فعن أنس بن مالك قال: كان رسول الله ﷺ أحسن الناس خلقًا، وكان لي أخ يقال له أبو عمير، فكان إذا جاء رسول الله ﷺ فرآه قال «أبا عمير ما فعل النغير؟»[3] بهذه المداعبة كان تعامل النبي ﷺ مع الأطفال، وهو يغذي نفوسهم بهذه العاطفة الصادقة الطيبة، بعيدًا عن الجفاء والقسوة وعدم إعطاء الطفل حقه.

فمن حق الطفل على والديه حسن معاملته وتربيته، وإحاطته بالعطف والمودة والرحمة، وإدخال السرور على قلبه، لما له من أثر بالغ في تنشئته وتفتح مداركه شريطة ألا يقضي إلى التدليل المفرط الذي يؤثر على سلوكه الجاد في الحياة.[4]

ولقد كان النبي ﷺ يدخل السرور والفرح إلى نفوس الأطفال، ويتبع في ذلك شتى الأساليب، فمن ذلك: الاستقبال الجيد لهم، تقبيلهم، وممازحتهم، مسح رؤوسهم، حملهم ووضعهم في حجره الشريف،

(١) أخرجه البخاري (٥٩٩٨)، ومسلم» (٢٣١٧).
(٢) أخرجه البخاري (٥٩٩٧)، ومسلم» (٢٣١٨).
(٣) أخرجه البخاري (٥٨٥٠)، ومسلم (٢١٥٠).
(٤) عبدالحميد، أحمد ربيع: حقوق الطفل في الإسلام، جامعة الأزهر، المؤتمر الدولي للطفولة في الإسلام، القاهرة ٩-١٢أكتوبر ١٩٩٠، ص ٩٥.

وتقديم الأطعمة لهم، والأكل معهم، كل ذلك كان يفعله ﷺ لما للفرح من قوة التأثير، ولما للسرور من براعة في إسعاد الأطفال.[١]

فمداعبة الأطفال تُدخل الفرحة والسرور على نفوسهم، وتنشئتهم على الثقة بالنفس، والتعبير عن ذاتهم وإظهار مهاراتهم، والمربي الناجح هو الذي يسخر أسلوب المداعبة في خدمة رسالته التربوية، واستغلال هذه الفرصة التي تتهيأ فيها النفوس لاستقبال نصائحه أو توجيهاته، وهذا الأسلوب هو الطريق الناجح إلى قلوب الأطفال، لما جبلوا عليه من حب اللعب والمرح، فكلما كان المربي ظريفًا صاحب دعابة، كلما ازداد حبه لدى طلابه، وأقبلوا عليه، واستمعوا لتوجيهاته، واستجابوا لها، بل وتبقى العلاقة بين المعلم والتلميذ مستمرة قلبيًا وفكريًا لعدة سنوات لوجود جسر المحبة والألفة.[٢]

ويجب أن تكون المداعبة بعيدة عن التدليل؛ فالتدليل الزائد يؤدي إلى اضطرابات الشخصية والسلوك اللاسوي، فالتدليل الزائد مضر بالطفل[٣]. فمن نتائجه: الخجل، وضعف الثقة بالنفس، والتخلف عن الأقران.

- **الدعاء للأطفال:**

الدعاء للأطفال وسيلة مهمة لتربيتهم، وهو دليل الرحمة والعطف تجاههم، ولها أثره الإيجابي في تحفيزهم، ودافع لهم إلى التقدم. فعن أسامة بن زيد عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ كَانَ يَأْخُذُهُ وَالْحَسَنَ وَيَقُولُ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أُحِبُّهُمَا فَأَحِبَّهُمَا»[٤]، وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: ضمني

(١) سويد، محمد نور عبدالحافظ: منهج التربية النبوية للطفل مرجع سابق، ص١٢٨.
(٢) المنيف، محمد صالح: تربية الطفل في السنة النبوية، جامعة أم القرى، وكالة شؤون المكتبات، ١٤١٤، ص١٨٣.
(٣) مؤمنة، نجوى خالد: الطفل، ومشكلات العصر، دار العنود، جدة، ١٤١٩، ص٢١٢.
(٤) أخرجه البخاري، (٣٤٦٤).

رسول الله ﷺ وقال: «اللهم فقه في الدين»[١]، وهنا ملمح تربوي يتمثل في ضم رسول الله ﷺ لابن عباس، وهو أسلوب تربوي حيث التودد، وتأليف القلوب، وتنشئتها على الخير والصلاح، وأدعى إلى إقناعها بالتفقه والعلم، والجانب الثاني: الدعاء، وله أثر نفسي قوي بطلب العلم، إذ إنه يلتمس بركة دعوة رسول الله ﷺ، ويؤمن بأنها محققة بإذن الله[٢]، والمكافأة بالدعاء أسلوب يندر وجوده بين المعلمين، فإن المكافأة بالدعاء أمر محمود ينبغي الاهتمام به، والتدريب عليه، لفوائدها فهي (تنقل الطالب مواقع ومراتب في سلم الحرص والاجتهاد، فالنفس تميل إلى الرغبة في الشعور بالإنجاز، ويدفعها ثناء الناس -المنضبط- خطوات أكثر)[٣].

والمعلم الناجح هو الذي يثني على الطالب إذا رأى منه أي بادرة حسنة في سلوكه أو اجتهاده، فيقول للطالب الذي أحسن الجواب: أحسنت، بارك الله فيك، فهذه الكلمات اللطيفة تشجع الطالب، وتقوي روحه المعنوية، وتترك في نفسه أحسن الأثر.

- **عدم الدعاء على الأطفال:**

فالدعاء على الأطفال عمل خطير جدًا، لما فيه من دمار للطفل، ولمستقبله، ومن دمار للوالدين كذلك، وقد نهى رسول الله ﷺ الآباء والأمهات أن يدعوا على أولادهم؛ لأن هذا مناف للخلق الإسلامي، ويخالف التربية النبوية؛ لذا نجد النهي النبوي للآباء في الدعاء على الأبناء، عن جابر رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «لا تدعوا على أولادكم، لا توافقوا من الله ساعة يسأل فيها عطاء فيستجيب لكم»[٤].

(١) أخرجه مسلم، (١٦٩٠).
(٢) المسبحي، بدرية: أصول التربية الإسلامية للأولاد والبنات في ظل القرآن الكريم والسنة النبوية، مطابع الحميضي، الرياض، ١٤٢٣هـ، ص١٨٣.
(٣) الدويش، محمد عبدالله: المدرس ومهارات التوجيه، مدار الوطن للنشر، الرياض، ١٤٢١هـ، ص٣١
(٤) أخرجه مسلم» (٣٠٠٩).

- **العدل بين الأطفال:**

يستفاد من الأحاديث النبوية التي تتناول العدل بين الأطفال، وجوب المساواة بين الأطفال في القبلة، والجلوس في الحجر والجوار، وإعطاء كل طفل حقه، وقبول الحق منه، وهذا يغرس في نفس الطفل شعورًا إيجابيًّا نحو الحياة، ويتعلم أن الحياة أخذ وعطاء، وهو تدريب للطفل على العدل(١)، فمن المعروف أن المربين حين يسوون بين الأطفال في المعاملة، ويحققون العدل بينهم في العطاء تتلاشى ظاهرة الحسد في نفوسهم، وتزول آفات الضغائن والأحقاد من قلوبهم، بل يعيش الأطفال مع إخوتهم ومربيهم في تفاهم تام، ومحبة متبادلة(٢).

وإذا فضل أحد الأبوين أو كلاهما أحد أبنائهما على غيره، فإنهما بهذا يضعان أساسًا من أسس الانحراف، سواء كانت المفاضلة في العطاء أم في المعاملة أو في المحبة؛ لأنها أمور تولد الحسد والكراهية وتسبب الخوف والحياء والانطواء، وتورث حب الاعتداء والعصيان، وتؤدي إلى الإصابات العصبية، ومركبات الشعور بالنقص(٣). ويكفي أن نعلم أن مجرد شعور الطفل بأن أحد والديه يميل إلى أخيه، ويكرمه، ويدلله أكثر منه سيجعل في هذا الطفل شراسة لا يقوى الأبوان على الصمود أمامها، وحسدًا لا يستطيع الوالدان كبح جماحه.

ويتعرض المعلمون لمواقف كثيرة من قبل طلابهم، سواء في توزيع المهام أو الواجبات، أو تفضيل بعضهم دون بعض، ونحو ذلك، ويتأكد

(١) سويد، محمد نور عبدالحافظ: منهج التربية النبوية للطفل، مرجع سابق، ص٩٨.
(٢) علوان، عبدالله ناصح: تربية الأولاد في الإسلام، ط١٩، مرجع سابق، ج١/ص ٣٤٢.
(٣) كامل، مصطفى: هذا هو منهج الإسلام في التربية، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٩٥م، ص ١٩.

العدل عند وضع العلامات ورصد الدرجات، فلا مجال لمحاباة أحد، أو تفضيل أحد على أحد لقرابته أو معرفته أو لأي أمر كان[١]، فعلى المعلمين تحري العدل، والسعي إليه بين الطلاب، وألا تظهر الميول والتقديرات الشخصية قدر الإمكان، فالمحاباة والتفريق في المعاملة مما يمقته الطلاب، وينفرون منه ومن صاحبه[٢].

- **الإنفاق على الأطفال، وتركهم أغنياء:**

والإنفاق على الأطفال له أثر طيب في العملية التربوية، إنفاق بلا إسراف، ولا تبذير، ولا شح، وإنما اعتدال في الإنفاق والبذل، وفيه تدريب أيضًا للطفل الناشئ على البذل المستطاع[٣]، عن ثوبان رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «أفضل دينار ينفقه الرجل دينار ينفقه على عياله».[٤]

وعن عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «كفى بالمرء إثمًا أن يضيع من يقوت».[٥]

أي: يترك النفقة على من تلزمه النفقة عليهم كالأولاد الصغار.

وعن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال له: «إن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تذرهم عالة، يتكَفَّفون الناس».[٦]

- **السلام على الأطفال والعطف عليهم:**

فقد كان النبي ﷺ يسلم على الأطفال، ويعطف عليهم، ويمسح

(١) الدوسري، فهد منصور: منهج النبي ﷺ في التعامل مع الناشئة، دار الوطن للنشر، الرياض، ١٤٢١هـ، ص٩.
(٢) الدويش، محمد عبدالله: المدرس ومهارات التوجيه، مرجع سابق، ص٥٥.
(٣) سويد، محمد نور عبدالحافظ: منهج التربية النبوية للطفل، مرجع سابق، ص٣٩.
(٤) أخرجه مسلم (٩٩٤).
(٥) أخرجه أبو داود (١٦٩٢)، وهو في «صحيح الجامع» (٤٤٨١).
(٦) أخرجه البخاري (١٢٩٥)، ومسلم (١٦٢٨).

رؤوسهم، فيشعرون بلذة الرحمة، والحب والعطف، الأمر الذي يشعر الطفل بوجوده، وحب الكبار له واهتمامهم به، فعن أنس ﷺ قال: كان النبي ﷺ يزور الأنصار، ويسلم على صبيانهم، ويمسح رؤوسهم.[١] يقول السير وليم موير: "وكان ﷺ سهلًا لين العريكة مع الأطفال، لا يأنف إذا مر بطائفة منهم يلعبون أن يقرئهم السلام!"[٢].

- **حسن استقبال الأطفال:**

إن اللقاء مع الطفل لابد منه، وأهم ما في اللقاء اللحظات الأولى، فإذا كان اللقاء طيبًا، استطاع الطفل متابعة الحديث، وفتح الحوار، والتجاوب مع المتكلم؛ فيفتح قلبه له، وما يدور في خاطره، ويعرض مشاكلاته عليه، ويتحدث عن أمانيه له كل هذا يحصل إذا أحسن استقبال الطفل بفرح وحب ومداعبة، وهذا ما وجه إليه ﷺ بفعله إلى الأمة[٣].

وعن عبدالله بن جعفر ﷺ قال: كان النبي ﷺ إذا قدم من سفر تلقى الصبيان من أهل بيته، وإنه جاء من سفر فسبق بي إليه فحملني بين يديه، ثم جيء بأحد ابني فاطمة الحسن والحسين ﷺ فأردفه خلفه، فدخلنا المدينة ثلاثة على دابة[٤].

- **الرفق بالأطفال، والتلطف بهم:**

فلقد كان هذا من عادة النبي ﷺ، وكان يؤتى بالصبي ليدعو له بالبركة، وليسميه، فيأخذه فيضعه في حجره، فربما بال الصبي، فيصيح به

(١) رواه النسائي، «صحيح الجامع» (٤٩٤٧).
(٢) ياقوت، محمد مسعد: نبي الرحمة (الرسالة والإنسان)، الزهراء للإعلام العربي، القاهرة، ٢٠٠٧م، ص١٩٨.
(٣) سويد، محمد نور عبدالحافظ: منهج التربية النبوية للطفل، ط٣، مرجع سابق، ص٣١٨.
(٤) رواه أحمد ومسلم وأبو داود، صحيح الجامع (٤٧٦٥).

من يراه، فيقول: "لا تزرموا الصبي بوله" فيدعه حتى يقضي بوله، ثم يفرغ من دعائه له وتسميته، ويبلغ سرور أهله فيه، لئلا يروا أنه تأذى ببوله، فإذا انصرفوا غسل ثوبه بعده[١]، وقد ذكر ابن حجر فوائد في شرح هذا الحديث، منها رفق ورأفة النبي ﷺ وحسن خلقه[٢].

وإنه من الصفات التي يجب أن يتحلى بها من يتصدى لتربية وتعليم الناس، وكذلك من يتلقى العلم بلين الجانب والأناة والرفق وترك الغضب، وهذه الصفات هي من أبلغ ما يمكن أن يستخدمه المعلم وطالب العلم، حتى يتحقق تلقي المعلومة بسهولة، ثم النجاح والتفوق.

وفي رواية مسلم عن النبي ﷺ قال: «إن الرفق لا يكون في شيء إلاَّ زانه، ولا ينزع من شيء إلاَّ شانه»[٣].. فحري بالمعلمين والمربين مراعاة نفسيات الطلاب والرفق بهم، فإن النتائج المرجوة من حسن التعامل عظيمة جدًّا، فإن النفس البشرية تميل إلى الرفق ولين الجانب، وطيب الكلام وتأنس به، وتنفر من الجفوة والغلظة.

كما يجب على المعلم والمتعلم المسلم التحلي بترك انفعال الغضب؛ لأنه يؤدي إلى الأخطاء، وإلى آثارٍ نفسيةٍ وجسميةٍ، لا تحمد عاقبتها[٤].

والمعاملة بالرفق هي الأصل في معاملة النبي للأطفال ﷺ[٥]، عن عائشة عن النبي ﷺ قال: «إن الله رفيق، يحب الرفق في الأمر

(١) المرسي، كمال الدين: الدين والحياة -منهج في التربية الدينية، دار الوفاء لدنيا للطباعة والنشر، الإسكندرية، ٢٠٠٤، ص١١١.
(٢) العسقلاني، ابن حجر: فتح الباري شرح صحيح البخاري، دار الكتب العلمية، ١٤١٠، ج١/ص٣٢٥
(٣) أخرجه مسلم (١١٢٩).
(٤) الصعيدي، فواز: الأساليب التربوية النبوية المتبعة في التوجيه وتعديل السلوك وكيفية تفعيلها مع طلاب المرحلة الثانوية بنين "تصور مقترح"، رسالة ماجستير، قسم التربية الإسلامية، كلية التربية، جامعة أم القرى، ١٤٣٠، ص٥٣.
(٥) علوان، عبدالله ناصح: تربية الأولاد في الإسلام، ط١٩، مرجع سابق، ج٢/ص ٧٢٠.

كله»[١]، والرفق بالأطفال لا يتنافى مع تأديبهم، فالتأديب ضرورة تربوية تهذيبية تقويمية للطفل، وهذا يتطلب يقظة الوالدين والمربين في تعاملهم مع الطفل، وفهم طبيعته، واختيار نوع العقوبة، وطريقتها[٢].

- **تربية اليتيم ورعايته:**

حيث عنيت السنة النبوية بأمر اليتيم ورعايته، والحث على تربيته والمحافظة على نفسه وماله، ففي ذلك ثواب عظيم، فعن سهل بن سعد ﷺ عن النبي ﷺ قال: (أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا) وأشار بإصبعيه السبابة والوسطى. [٣]، هذا هو إرشاد النبي ﷺ في تهيئة اللبنات التي تبني المجتمع الإسلامي، والتي يشاد عليها صرحه، فيرتفع بناؤه، ويعظم ظله، وتكثر ثماره.[٤]

يقول لويس سيديو: "لا شيء أدعى إلى راحة النفس من عناية محمد ﷺ بالأولاد. فهو قد حرّم عادة الوأد، وشغل باله بحال اليتامى على الدوام.. وكان يجد في ملاحظة صغار الأولاد أعظم لذة".

ولقد كافح النبي ﷺ في سبيل استرداد حقوق الأطفال المسلوبة، عبر العصور الغابرة -خاصة في الميراث- بعدما كانت العصور الجاهلية تحرم الأطفال من الميراث، وتعدُّ أن من لهم الحق في الميراث هم الذين يستطيعون جلب الغنائم، أو يمتطون الخيل بمهارة وفروسية!.. كما أن محمدًا ﷺ حمَّل الأسرة كلها أمانة رعاية الأطفال وصيانة حقوقهم.

(١) أخرجه البخاري (٦٩٢٧).
(٢) الشحود، علي بن نايف: الأساليب الشرعية لتربية الأطفال وتأديبهم، دار جنى، القاهرة، ٢٠١٠م، ص ١٠٦.
(٣) أخرجه البخاري (٦٠٠٥).
(٤) محمود شلتوت: منهج القرآن في بناء المجتمع، القاهرة، مجمع البحوث الإسلامية، ١٤٣٦ه، ص١٣٤.

فكانت الأسرة الإسلامية -كما يقول جاك ريسلر-: "ترعى دائمًا الطفل، وصحته، وتربيته، رعاية كبيرة. وترضع الأم هذا الطفل زمنًا طويلًا، وأحيانًا لمدة أكثر من سنتين، وتقوم على تنشئته بحنان، وتغمره بحبها وباحتياطات متصلة. وإذا حدث أن أصاب الموت بعض الأسرة، وأصبحوا يتامى، فإن أقرباءهم المقربين لا يترددون في مساعدتهم، وفي تبنّيهم" ولا فرق في ذلك بين ذكر وأنثى[1].

ومن التطبيقات التربوية أيضًا: تضمين مناهج رياض الأطفال والمراحل الابتدائية لمنهجية مظاهر الرحمة في السنة النبوية، فيما يخص الأهداف والطرق والأساليب المحققة لها.

(١) ياقوت، محمد مسعد: نبي الرحمة (الرسالة والإنسان)، مرجع سابق، ص١٩٨.

الخاتمة

يحرص الإسلام على إعداد إنسان مسلم، يؤمن بقيم أمته بكل ما تحمله الكلمة من مواقف مشرفة وقيم نبيلة، الأسوة فيها شمائل النبي ﷺ، وسير أصحابه رضي الله عنهم، لذا يأمر كل من في عنقه مسؤولية التوجيه والتربية، ولاسيما الآباء والأمهات منهم، يأمرهم جميعًا بأن يتحلوا بالأخلاق العالية، والملاطفة الرصينة، والمعاملة الرحيمة، حتى ينشأ الأطفال على الاستقامة، ويتربوا على الجرأة واستقلال الشخصية. ومن ثم يشعرون أنهم ذوو تقدير واحترام وكرامة

كما أن محمدًا ﷺ حمَّل الأسرة كلها أمانة رعاية الأطفال وصيانة حقوقهم، فكانت الأسرة الإسلامية -كما يقول جاك ريسلر-: "ترعى دائمًا الطفل، وصحته، وتربيته، رعاية كبيرة، وترضع الأم هذا الطفل زمنًا طويلًا، وأحيانًا لمدة أكثر من سنتين، وتقوم على تنشئته بحنان وتغمره بحبها وباحتياطات متصلة، وإذا حدث أن أصاب الموت بعض الأسرة، وأصبحوا يتامى، فإن أقرباءهم المقربين لا يترددون في مساعدتهم وفي تبنّيهم".

إن من واجب المربين في البيت والمدرسة معاملة الأطفال بأساليب تربوية، تقوم على الرفق واللين والرحمة، والإسلام بتعاليمه القويمة الخالدة، والسنة النبوية مليئة بهذه الأساليب، وبيانًا لذلك كانت هذه الدراسة (الرحمة بالأطفال وآثارها التربوية من خلال السنة النبوية)، التي

اشتملت على ثلاثة مباحث، وهذه الخاتمة التي تضمنت على نتائج الدراسة وتوصياتها، وفيما يلي عرض لنتائج الدراسة وتوصياتها.

نتائج الدراسة:

من خلال مباحث الدراسة توصل الباحث إلى النتائج التالية:

تضمنت السنة النبوية نصوصًا صريحة في مراعاة الرحمة بالأطفال، فشكلت بمضامينها أهدافًا وأساليب لتربية الطفل المسلم وكيفية التعامل معه.

تتمثل مظاهر الرحمة بالأطفال في السنة النبوية في العديد من الجوانب، منها: تقبيل الأطفال، ملاطفتهم، الدعاء لهم، عدم الدعاء عليهم، العدل بينهم، الإنفاق عليهم، وتركهم أغنياء، السلام والعطف عليهم، الرفق بهم، والرحمة بالأطفال اليتامى.

وأن أبرز التطبيقات التربوية المستفادة: أنه على المربين أن يكونوا رحماء بالأطفال، والتعامل معهم برفق ولين مع احترامهم وتقديرهم، تضمين مناهج رياض الأطفال والمراحل الابتدائية لمنهجية مظاهر الرحمة في السنة النبوية فيما يخص الأهداف والطرق والأساليب المحققة لها.

توصيات الدراسة:

في ضوء نتائج الدراسة يوصي الباحث بما يلي:

على الباحثين في مجال التربية الإسلامية القيام بوضع الأطر النظرية للرحمة بالأطفال وآثارها التربوية من خلال السنة النبوية؛ لتسهيل تطبيقها في الواقع.

ضرورة التعامل مع الأطفال بالرحمة واللين، وعدم استخدام أساليب العنف والعقاب معهم نظرًا لأن هذه المرحلة تعد أكثر حساسية من ناحية استخدام العنف والعقاب.

يجب على كليات التربية في الجامعات إدخال المواد التربوية الإسلامية التي تبين للدارسين القيم التي اتبعها النبي ﷺ في التعامل مع الأطفال، والوقوف على آثارها التربوية من خلال السنة النبوية.

تشجيع المعلمين والمعلمات، وخاصة معلمي ومعلمات رياض الأطفال والمرشدين الطلابيين، وتحفيزهم على تقديم البحوث والدراسات، التي تظهر القيم التربوية النيرة التي طبقها النبي ﷺ على الأطفال وربـاهم بها، ومن ثَّم تعميم نتائج هذه الدراسات لتطبيقها في ميدان مـدارس التعليم العام ورياض الأطفال.

مقترحات الدراسة:

من خلال النتائج والتوصيات التي انتهت إليها الدراسة، فإن الباحث يوصي بإجراء الدراسات التالية:

١. إجراء دراسة مماثلة لهذه الدراسة حول تربية الأطفال على الصدق، وآثاره التربوية من خلال السنة النبوية.

٢. إجراء دراسة مماثلة لهذه الدراسة حول تربية الأطفال على الأمانة وآثارها التربوية من خلال السنة النبوية.

٣. إجراء دراسات تربوية متعمقة في السنة النبوية للإفادة منها، واستخلاص الكثير من الجوانب التربوية المهمة.

وأخيرًا: لئن أصبت؛ فبتوفيق من الله ﷻ، ولئن أخطأت، فمن نفسي، وأسأله ﷻ أن يتجاوز عن خطئي.

ولله الفضل والمنة، والشكر والحمد على كل حال.



مصادر ومراجع الدراسة.

المصادر:

١. أبو داود: سنن أبي داود، دار ابن حزم، ١٤١٩هـ.
٢. الألباني (محمد ناصر الدين):: صحيح الجامع الصغير وزيادته، المكتب الإسلامي، ط٣، ١٤٠٨هـ
٣. الألباني (محمد ناصر الدين): السلسلة الصحيحة، الرياض: مكتبة المعارف، د. ت.
٤. الإمام أحمد بن حنبل: مسند الإمام أحمد بن حنبل، مؤسسة قرطبة.
٥. الإمام البخاري: صحيح البخاري، دار السلام، ط٢، ١٤١٩هـ.
٦. الإمام مسلم: صحيح مسلم، دار ابن حزم، ١٤١٩هـ.
٧. البيهقي: شعب الإيمان، دار الكتب العلمية، ١٤٠٨هـ.
٨. الحاكم: المستدرك، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١٥هـ.
٩. الطبراني (سليمان بن أحمد بن أيوب أبو القاسم): المعجم الأوسط، تحقيق: طارق بن عوض الله بن محمد، عبدالمحسن بن إبراهيم الحسيني، القاهرة، دار الحرمين، ١٤١٥هـ.
١٠. العسقلاني، ابن حجر: فتح الباري شرح صحيح البخاري، دار الكتب العلمية، ١٤١٠هـ.

المراجع:

١. أبو دف، محمود: بعض الأساليب التربوية المستنبطة من خلال السنة النبوية، رسالة ماجستير، جامعة الأزهر، مصر، ١٤١٧هـ
٢. إسماعيل، شعبان محمد: مصادر التشريع الإسلامي وموقف العلماء منها، دار المريخ، الرياض، السعودية، ١٤٠٥هـ.

٣. بانبيلة، حسين عبدالله: بعض القيم والأساليب التربوية المستنبطة من خطب المصطفى ﷺ، رسالة ماجستير، كلية التربية، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، ١٤٠٨هـ.
٤. البقعاوي، صالح: مبدأ الرفق في التعامل مع المتعلمين، رسالة ماجستير منشورة، قسم التربية الإسلامية، كلية التربية، جامعة أم القرى، ١٤٢١هـ.
٥. حسن، محمد حسن: الأساليب التربوية في السنة النبوية، رسالة ماجستير، كلية التربية، الأزهر، القاهرة، مصر، ١٤١٠هـ.
٦. دبابش، منال موسى: منهج الرسول في التربية من خلال السنة النبوية، رسالة ماجستير غير منشورة، الجامعة الإسلامية بغزة، كلية التربية، ١٤٢٩هـ
٧. الدوسري، فهد منصور: منهج النبي ﷺ في التعامل مع الناشئة، دار الوطن للنشر، الرياض، ١٤٢١هـ.
٨. الدويش، محمد عبدالله: المدرس ومهارات التوجيه، مدار الوطن للنشر، الرياض، ١٤٢١هـ.
٩. زقزوق، محمود حمدي: الإنسان والقيم في التذوق الإسلامي، مجمع البحوث الإسلامية، القاهرة، رمضان ١٤٣٦هـ.
١٠. رمزي، عبدالقادر هاشم: النظرية الإسلامية في فلسفة الدراسات الاجتماعية التربوية، دار الثقافة، الدوحة، ١٤٠٤هـ.
١١. سويد، محمد نور عبدالحافظ: منهج التربية النبوية للطفل، ط٣، دار طيبة، مكة المكرمة، ١٤٢١هـ.
١٢. طرابيشي، علي ناجي: الأساليب التربوية النبوية في التعامل مع الأطفال وتطبيقاتها في المرحلة الابتدائية، رسالة ماجستير، جامعة أم القرى، كلية التربية، ١٤٢٩هـ.

١٣. الشحود، علي بن نايف: الأساليب الشرعية لتربية الأطفال وتأديبهم، دار جنى، القاهرة، ٢٠١٠م.
١٤. شلتوت، محمود: منهج القرآن في بناء المجتمع، القاهرة، مجمع البحوث الإسلامية، رمضان ١٤٣٦هـ.
١٥. الصعيدي، فواز: الأساليب التربوية النبوية المتبعة في التوجيه وتعديل السلوك وكيفية تفعيلها مع طلاب المرحلة الثانوية بنين "تصور مقترح"، رسالة ماجستير، قسم التربية الإسلامية، كلية التربية، جامعة أم القرى، ١٤٣٠هـ.
١٦. عبدالحميد، أحمد ربيع: حقوق الطفل في الإسلام، جامعة الأزهر، المؤتمر الدولي للطفولة في الإسلام، القاهرة ٩-١٢أكتوبر١٩٩٠، ص ٧٩-١٠٠.
١٧. عبيدات، ذوقان، وآخرون: البحث العلمي، « مفهومه وأدواته وأساليبه «، دار أسامة، الرياض، ١٤٢٤هـ.
١٨. عرابي، محمد عباس: دور الخطاب الديني النبوي في علاج مشكلات الشباب، مصر، دار الهدى، ١٤٣٢هـ.
١٩. علوان، عبدالله ناصح: تربية الأولاد في الإسلام، ط١٩، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٩٠م العلوي، محمد صالح: خطاب النبي ﷺ للطفل المسلم وتطبيقاته التربوية، رسالة ماجستير، جامعة أم القرى، كلية التربية، ١٤٣١هـ.
٢٠. مؤمنة، نجوى خالد: الطفل، ومشكلات العصر، دار العنود، جدة، ١٤١٩هـ.
٢١. الغزالي، محمد: خلق المسلم، ط٦، دار الدعوة، الإسكندرية، ١٤٢٠هـ.
٢٢. كامل، مصطفى: هذا هو منهج الإسلام في التربية، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٩٥م.

٢٣. كولن، محمد فتح الله: النور الخالد محمد ﷺ مفخرة الإنسانية، ترجمة وتحقيق: لينا عبدالقدوس أبو صالح، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ١٩٩٩م.
٢٤. المسبحي، بدرية: أصول التربية الإسلامية للأولاد والبنات في ظل القرآن الكريم والسنة النبوية، مطابع الحميضي، الرياض، ١٤٢٣هـ.
٢٥. المرسي، كمال الدين: الدين والحياة – منهج في التربية الدينية، دار الوفاء لدنيا للطباعة والنشر، الإسكندرية، ٢٠٠٤م.
٢٦. المنيف، محمد صالح: تربية الطفل في السنة النبوية، جامعة أم القرى، وكالة شؤون المكتبات، ١٤١٤ هـ.
٢٧. النحلاوي، عبدالرحمن: التربية الإسلامية والمشكلات المعاصرة، ط٢، المكتب الإسلامي، بيروت، ١٩٨٨م.
٢٨. النحلاوي، عبدالرحمن: أصول التربية الإسلامية وأساليبها. ط ٢٣، دار الفكر، دمشق، ١٤٢٦هـ.
٢٩. يالجن، مقداد: مناهج البحث وتطبيقاتها في التربية الإسلامية، دار عالم الكتب للطباعة والنشر والتوزيع، الرياض، السعودية، ١٤١٩هـ.
٣٠. ياقوت، محمد مسعد: نبي الرحمة (الرسالة والإنسان)، الزهراء للإعلام العربي، القاهرة، ٢٠٠٧م.

الرحمة
في ضوء القرآن الكريم

إعداد:
د. قسيم محمد عليان وردات



مقدمة

الحمد لله ذي العظمة والكبرياء، والعزة والبقاء، والمجد والثناء، والصلاة والسلام على حبيبه، وخيرته من خلقه محمد سيد الأنام، وعلى آله وصحبه أجمعين. وبعد:

إن الرحمة من الموضوعات المهمة التي أولاها القرآن الكريم اهتماما كبيرًا، حتى لا يكاد القارئ للقرآن الكريم يمر على بعض آيات الكتاب العزيز، أو بعض صفحاته، إلا ويجد فيها ما يصرح أو يدل على الرحمة الإلهية، أو خلق الرحمة بشكل عام.

بل إن مما يلفت الانتباه أن كل سورة من سور القرآن الكريم -باستثناء سورة التوبة- قد بدأت بالبسملة المشتملة على صفتي الرحيم والرحمن، وهذا له دلالته على أهمية صفة الرحمة في الدين الإسلامي، ومما يدل على أهمية الرحمة -أيضًا- انفرادها بالصدارة من حيث ورودها في القرآن الكريم وبفارق كبير عن أي صفة أخلاقية أخرى. فبينما جاءت صفة الرحمة بمشتقاتها المختلفة أكثر من ثلاثمائة مرة، جاءت صفة الصدق مائة وخمسًا وأربعين مرة، وصفة العفو ثلاث وأربعين مرة، وجاءت صفة الكرم اثنتين وأربعين مرة، وصفة الأمانة أربعين مرة[1].

(١) السرجاني، راغب، مقالة بعنوان: الرحمة في الإسلام (١٢-٦-٢٠١١) - موقع قصة الإسلام. islamstory. com/ar/.

والرحمة هي الغاية التي بعث الرسول ﷺ من أجلها، قال الله ﷻ: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾ [الأنبياء] .

وكتاب الله رحمة، قال الله تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٞ وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارٗا ٨٢﴾ [الإسراء:٨٢]، ورسول الله رحمة، وأصحابه رحماء فيما بينهم، قال الله تعالى: ﴿مُّحَمَّدٞ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ تَرَىٰهُمۡ رُكَّعٗا سُجَّدٗا يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗاۖ سِيمَاهُمۡ فِي وُجُوهِهِم مِّنۡ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ﴾ [الفتح:٢٩] .

والراحمون يرحمهم الله يوم القيامة، فعن عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: (الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء، الرحم شجنة من الرحمن فمن وصلها وصله الله ومن قطعها قطعه الله)(١).

بل إن الإسلام قد أوصى بالرحمة حتى مع الحيوان، فعن عبدالله بن جعفر رضي الله عنه قال: (أردفني رسول الله ﷺ خلفه ذات يوم، فأسرّ إلي حديثًا لا أحدث به أحدًا من الناس، وكان أحب ما استتر به رسول الله ﷺ لحاجته هدفًا أو حائش نخل، قال: فدخل حائطًا لرجل من الأنصار، فإذا فيه جمل، فلما رأى النبيَ ﷺ حنّ وذرفت عيناه، فأتاه النبي ﷺ فمسح ذفراه فسكت، فقال: من رب هذا الجمل؟ لمن هذا الجمل؟ قال: فجاء فتى من الأنصار فقال: لي يا رسول الله ﷺ، فقال: أفلا تتقي الله في هذه البهيمة التي ملكك الله إياها؟ فإنه شكا إلي أنك تجيعه وتدئبه)(٢)، وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ: (أن نملة قرصت نبيًا من الأنبياء، فأمر بقرية النمل فأُحرقت، فأوحى الله

(١) رواه الترمذي في السنن، كتاب البر والصلة، باب ما جاء في رحمة المسلمين، رقم الحديث ١٩٢٤، وهو حديث صحيح، قال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح، وقال الشيخ الألباني: صحيح.

(٢) رواه أبو داود في السنن، باب ما يؤمَر به من القيام على الدوابِّ والبهائم، رقم ٢٥٤٩، ٤/ ٢٠٠، وهو حديث صحيح، والهدف ما ارتفع من الأرض، وحائش النخل: بستان النخل الملتف المجتمع، والذفرى: أصل الأذن. وتدئبه أي: تكرهه وتتعبه- ينظر: العظيم آبادي، عون المعبود شرح سنن أبي داود، ج٧، ص٢٢١ . وينظر: الزمخشري، الفائق في غريب الحديث، ١/ ٣٣١.

إليه أفي أَن قرصتك نملة أَهلكت أمة من الأمم تسبحني؟!)[1]. من هنا جاءت هذه الدراسة لتوضيح كل المعاني السابقة- بحول الله وقوته-.

أهداف الدراسة:

تسعى هذه الدراسة إلى تحقيق هدف رئيس هو بيان مدى عناية القرآن الكريم بالرحمة الربانية، حتى أنها لا تقتصر على الإنسان فحسب، بل تشمل جميع ما خلق الله ﷻ، ومن ثم فإن الدراسة تشتمل على الأهداف التالية:

١. بيان عظمة الإسلام وشموله.

٢. الحث على خلق الرحمة فيما بين الناس.

٣. ترغيب المسلمين فيما عند الله ﷻ، لأنه رحمن رحيم.

مشكلة الدراسة:

١. الرد على من ينعت الإسلام بصفة الإرهاب.

٢. تصحيح بعض المفاهيم الخاطئة الموجودة عند المغالين من الناس.

الدراسات السابقة:

بعد البحث والتحري وقفت على عدة دراسات في موضوع الرحمة منها:

١. الرحمة في القرآن -دراسة موضوعية-، وهي رسالة ماجستير قدمها محمد عبدالكريم الحايك في كلية الدراسات العليا في الجامعة الأردنية سنة ١٩٩٣م.

٢. الرحمة الإلهية -دراسة قرآنية-، وهي رسالة ماجستير قدمها عمران عزت يوسف في كلية الدراسات العليا في جامعة النجاح سنة ٢٠٠٩م.

(١) رواه مسلم، كتاب السلام، باب النهي عن قتل النمل، حديث رقم ٥٩٨٦، ٤٣/٧.

٣. الكتب التي تتحدث عن الأخلاق الإسلامية مثل: كتاب الأخلاق الإسلامية لعلي فضل الله، وكتاب خلق المسلم للغزالي، وكتاب أخلاق القرآن للشرباصي.

وقد تميزت دراستي بما يلي:

أ. دراسة موجبات الرحمة دراسة قرآنية مع بيان وجه دلالة الآيات على ذلك.

ب. دراسة جوانب رحمة الله ﷻ دراسة قرآنية مع بيان وجه دلالة الآيات على ذلك، والتركيز على جوانب مهمة قد قصرت الدراسات السابقة في بيانها، مثل بيان جوانب رحمة الله بعباده في جانب التشريع من خلال دراسة الآيات القرآنية دراسة تحليلية. علمًا بأن رسالة الرحمة الإلهية -دراسة قرآنية- لم تتحدث عن ذلك أبدًا.

ج. تميزت دراستي -أيضًا- بعمل مبحث خاص بعنوان رسائل، وهو عبارة عن إيصال ثلاث رسائل؛ رسالة إلى من ينعت الإسلام بالإرهاب، ورسالتين إلى أصحاب الفكر المتطرف.

منهج الدراسة:

لم أرجع في دراستي هذه إلى الكتب التي تتحدث عن الرحمة في ضوء القرآن الكريم[1]، وإنما رجعت مباشرة إلى آيات القرآن الكريم ذات الصلة بالموضوع، وقمت بدراستها دراسة تحليلية، ومن ثَمّ قمت باستنباط الموضوعات التي اعتنى بها القرآن الكريم في مجال الرحمة.

لذلك يتلخص منهجي في دراسة الموضوع بما يلي:

(١) استفدت -فقط- في معرفة آيات الرحمة وتقسيماتها من كتاب نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم ﷺ، لعدد من المختصين بإشراف الشيخ/ صالح بن عبدالله بن حميد.

أولًا: المنهج الاستقرائي: وذلك باستقراء آيات القرآن الكريم، وبيان الآيات ذات الصلة بالموضوع، وما كتبه المفسرون في تفسير هذه الآيات.

ثانيًا: المنهج التحليلي: وذلك بدراسة الآيات دراسة تحليلية، وتوظيف ذلك كله في المباحث التفصيلية التي عنونت بها الخطة.

ثالثًا: المنهج الاستنباطي: وذلك باستنباط الموضوعات التي اعتنى بها القرآن الكريم في مجال الرحمة.

خطة الدراسة:

قد اشتملت هذه الدراسة على أربعة مباحث رئيسة، وهي على النحو التالي:

المبحث الأول: مفهوم الرحمة.

المطلب الأول: الرحمة لغة.

المطلب الثاني: الرحمة اصطلاحًا.

المطلب الثالث: معاني الرحمة في القرآن الكريم.

المطلب الرابع: الفرق بين الرحمة والمودة والعطف.

المبحث الثاني: الرحمة وموجباتها في ضوء القرآن الكريم.

المطلب الأول: الرحمة صفة من صفات الله ﷻ.

الفرع الأول: رحمة الله ﷻ شملت الوجود.

الفرع الثاني: الفرق بَين الرَّحْمَن والرحيم.

المطلب الثاني: الأسباب الموجبة للرحمة في ضوء القرآن الكريم.

المبحث الثالث: جوانب رحمة الله ﷻ في ضوء القرآن الكريم

المطلب الأول: رحمة الله ﷻ في إرسال الرسل، إنزال الكتب.

الفرع الأول: رحمة الله ﷻ في إرسال الرسل.

الفرع الثاني: رحمة الله ﷻ في وإنزال الكتب.

المطلب الثاني: من رحمة الله قبول التوبة والعفو عن العاصين والمضطرين.

المطلب الثالث: رحمة الله بعباده في جانب التشريع.

الفرع الأول: الرحمة في أحكام الأموال.

الفرع الثاني: الرحمة في إباحة الغنائم.

الفرع الثالث: الرحمة في تشريع الزواج بأصناف متعددة من النساء.

الفرع الرابع: الرحمة في تشريع العفو والدية.

الفرع الخامس: الرحمة في تحريم القتل.

المبحث الرابع: رسائل.

المطلب الأول: رسالة إلى من ينعت الإسلام بالإرهاب.

المطلب الثاني: رسالتان إلى أصحاب الفكر المتطرف.

الرسالة الأولى: أين الحكمة والموعظة الحسنة، وأين الرحمة واللين في دعوتكم؟!.

الرسالة الثانية: أين أنتم من تحريم الدماء؟!.



المبحث الأول
مفهوم الرحمة

المطلب الأول
الرحمة لغة

الرحمة في اللغة: من رحم يرحم، والراء والحاء والميم أصلٌ واحدٌ يدل على الرّقّة والعطف والرأفة... وسمِّيت رَحِمُ الأنثى رَحِمًا من هذا؛ لأنّ منها ما يكون ما يُرْحَمُ وَيُرَقّ له مِن ولد[1]، «وسمّى الله الغيث رحمة، لأنه برحمته ينزل من السّماء»[2]، «وأمّ الرّحم مكّة، والمرحومة من أسماء مدينة رسول الله ﷺ شرفها الله ﷻ»[3].

المطلب الثاني
الرحمة اصطلاحًا

للعلماء أقوال متقاربة في معنى الرحمة كلها تدور حول حالة من الرقة تقتضي إيصال الخير للمرحوم، وهذه بعض أقوالهم:

قال الراغب الأصفهاني: الرحمة رِقَّةٌ تقتضي الإِحسان للمرحوم[4].

(١) ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، ٤٩٨/٢ بتصرف يسير، وينظر: ابن منظور، لسان العرب، ٢٣٠/١٢.
(٢) ابن منظور، لسان العرب، ٢٣٠/١٢.
(٣) الفيروزآبادى، القاموس المحيط، ص١١١٢.
(٤) الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، ٣٤٧/١.

وقال بن القيم: الرحمة صفة تقتضي إيصال المنافع والمصالح إلى العبد[١].

وقال الجرجانيّ: هي إرادة إيصال الخير[٢].

وقال أبو البقاء الكفوي: الرَّحْمَة هي حالة وجدانية تعرض غالبا لمن بِهِ رقة القلب، وتكون مبدأ للانعطاف النفساني الَذي هو مبدأ الإحسان[٣].

وقال الأحمد نكري: الرحمة إفاضة الخير وإرادة إيصاله[٤].

وبالجمع بين الأقوال السابقة يمكن القول: إن الرحمة هي حالة وجدانية من الرقة تقتضي التفضل والإحسان، وإيصال الخير والمنافع والمصالح إلى المرحوم.

والمقصود برحمة الله ﷻ بعباده هي التفضل والإحسان، وإيصال الخير والمنافع والمصالح إليهم [٥].

المطلب الثالث
معاني الرحمة في القرآن الكريم

إن معاني الرحمة فِي القرآن كما يلي[٦]:

١. الْجنَّة، ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبۡيَضَّتۡ وُجُوهُهُمۡ فَفِي رَحۡمَةِ ٱللَّهِ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ١٠٧﴾ [آل عمران] أي: في جنته خالدون، وقوله تعالى: ﴿فَسَيُدۡخِلُهُمۡ فِي رَحۡمَةٖ مِّنۡهُ وَفَضۡلٖ﴾ [النساء:١٧٥] يعني في الجنة.

(١) ابن قيم الجوزية، إغاثة اللهفان، ١٧٤/٢.
(٢) الجرجاني، التعريفات، ص١٨٢.
(٣) أبو البقاء الكفوي، الكليات، ص ٤٧١.
(٤) الأحمد نكري، جامع العلوم في اصطلاحات الفنون، ٩٥/٢.
(٥) ينظر: الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، ٣٤٧/١، والفيروزآبادى، بصائر ذوى التمييز، ٥٣/٣.
وينظر: المناوي، التوقيف على مهمات التعاريف، ص١٧٦.
(٦) ينظر: الدامغاني، الوجوه والنظائر، ص٢٢٤-٢٢٥، وابن الجوزي، نزهة الأعين النواظر، ص٣٣١-٣٣٤.

٢. الإِسْلَام، ومنه قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ [البقرة:١٠٥] يعني بدينه الإسلام، وقوله ﷻ: ﴿يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ﴾ [الإنسان:٣١] يعني في دينه الإسلام.

٣. الإِيمَان، ومنه قوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ﴾ [هود:٢٨] يعني بالرحمة الإيمان.

٤. النُّبُوَّة، ومنه قوله تعالى: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾ [الزخرف:٣٢]، يعني النبوة.

٥. الْقُرْآن، وَمِنْه قَوْله تَعَالَى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [يونس]، أي: بفضل الله وبالقرآن.

٦. الْمَطَر، كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ﴾ [الأعراف:٥٧]، أي: الغيث.

٧. الرزق، كما في قَوْله تَعَالى: ﴿قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّىٓ﴾ [الإسراء:١٠٠]، يعني رزق ربي.

٨. النِّعْمَة، ومنه قوله تعالى: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا﴾ [الكهف:٦٥]، يعني نعمة منا.

٩. الْعَافِيَة، كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ﴾ [الزمر:٣٨]، أي: بعافية.

١٠. النَّصْر والفتح، ومنه قوله تعالى: ﴿قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً﴾ [الأحزاب:١٧]، يعني النَّصْر والفتح.

١١. التوفيق والْمِنَّة، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ﴾ [النساء:٨٣] يعني التوفيق والمنة.

١٢. الرقة والمودة، كما في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً﴾ [الحديد:٢٧] أي: مودة ورحمة.

١٣. الْمَغْفِرَة، ومنه قوله تعالى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأنعام:٥٤].

١٤. السعَة والتيسير، ومنه قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ﴾ [البقرة:١٧٨].

١٥. الْعِصْمَة، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيَ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [يوسف:٥٣] أي: إلا من عصمه الله ﷻ.

المطلب الرابع
الفرق بين الرحمة والرأفة والرقة

أولًا: الفرق بين الرحمة والرأفة

الرَّحْمَة هي إيصال الخير والمصالح والمنافع فهي من باب التحلية، وأما الرأفة فهي دفع المضار والمفاسد فهي من باب التخلية[١].

ثانيًا: الْفرق بَين الرَّحْمَة والرقة

إن الرقة سبب الرحمة؛ ذلك أن الرقة متعلقة بالقلب، بينما الرحمة متعلقة بالفعل، لذلك يقال: رق له فرحمه[٢].

(١) ينظر: أبو البقاء الكفوي، الكليات، ص ٤٧١.
(٢) ينظر: أبو هلال العسكري، معجم الفروق اللغوية، ص١٩٥-١٩٦.

المبحث الثاني
الرحمة وموجباتها في ضوء القرآن الكريم

المطلب الأول
الرحمة صفة من صفات الله ﷻ

الفرع الأول: رحمة الله ﷻ شملت الوجود.

«الرحمة صفة المولى تباركت أسماؤه! فإن رحمته شملت الوجود، وعمت الملكوت»[1]، والله ﷻ أرحم بعباده من الأم بولدها، فعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قدم على النبي ﷺ سبي فإذا امرأة من السبي قد تحلب ثديها تسقي، إذا وجدت صبيًا في السبي أخذته فألصقته ببطنها وأرضعته، فقال لنا النبي ﷺ: (أترون هذه طارحة ولدها في النار؟)، قلنا: لا وهي تقدر على أن لا تطرحه، فقال: (لله أرحم بعباده من هذه بولدها)[2]، ورحمة الله تغلب وتسبق غضبه، فعن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: (قال لما خلق الله الخلق كتب في كتابه فهو عنده فوق العرش إن رحمتي تغلب غضبي)[3].

والله ﷻ رحمن رحيم، فقد ورد كثير من الآيات تذكر اسمي الرحمن

(١) الغزالي، خلق المسلم، ص١٨٦.
(٢) رواه البخاري، كتاب الأدب، باب رحمة الولد وتقبيله ومعانقته، رقم ٥٦٥٣، ومسلم، كتاب التوبة، باب في سعة رحمة الله ﷻ وأنها سبقت غضبه، رقم٢٧٥٤.
(٣) رواه البخاري، كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾، رقم ٦٩٦٩، ومسلم، كتاب التوبة، باب في سعة رحمة الله ﷻ وأنها سبقت غضبه، رقم ٢٧٥١، واللفظ لمسلم.

الرحيم؛ كليهما، أو أحدهما؛ وقد ورد اسم الرحمن في القرآن الكريم سبع وخمسين مرة، بينما ورد اسم الرحيم خمس وتسعين مرة[1]، فمن الآيات التي اشتملت على اسمي الرحمن الرحيم قوله تعالى: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾﴾ [البقرة] وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾﴾ [النمل]، ومن الآيات التي اشتملت على اسم الرحيم دون الرحمن قوله تعالى: ﴿فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾﴾ [البقرة]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ ۖ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ ﴿٢٨﴾﴾ [الطور]، وقوله ﷻ: ﴿نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾﴾ [الحجر]، ومن الآيات التي اشتملت على اسم الرحمن دون الرحيم قوله تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَٰنَ ۖ أَيًّا مَّا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾ [الإسراء:١١٠]، وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾﴾ [مريم]، وقوله تعالى: ﴿الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ ﴿٥﴾﴾ [طه]، وعند قراءة القرآن فإننا نقول: بسم الله الرحمن الرحيم، والله تعالى يقول: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿١﴾ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٢﴾ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿٣﴾﴾ [الفاتحة]، وقد خصّ الله تعالى سورة في القرآن الكريم باسمه الرحمن، وابتدأها باسمه فقال ﷻ: ﴿الرَّحْمَٰنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ﴿٢﴾ خَلَقَ الْإِنسَانَ ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ﴿٤﴾﴾ [الرحمن].

الفرع الثاني: الْفرق بَين الرَّحْمَن والرحيم

الرحمن أبلغ من الرحيم؛ وذلك إمّا بحسب شمول الرحمن للدارين، واختصاص الرحيم بالدنيا، وإمّا بحسب كثرة أفراد المرحومين وقلتها، وكلاهما صحيح؛ فإنّ رحمة الدنيا تعم المؤمن والكافر، ورحمة الآخرة تخص المؤمن، لذلك قيل: إنّ الله ﷻ هو رحيم الدّنيا، ورحمن الآخرة، وذلك أنّ رحمته في الدّنيا تعم المؤمنين والكافرين؛ لإنعامه عليهم وإحسانه إليهم جميعا، وفي الآخرة مختصة بالمؤمنين، وعلى هذا قال: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ

(١) محمد فؤاد عبدالباقي، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، ص٢٧٦-٣٧٩.

﴿كُلَّ شَيۡءٖۚ فَسَأَكۡتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ [الأعراف:١٥٦]، فنبه أولًا إلى أن رحمته في الدّنيا تشمل المؤمنين والكافرين، ثم بين أنها في الآخرة مختصّة بالمؤمنين(١).

ولا يطلق الرَّحْمَنُ إلّا على الله ﷻ من حيث إنّ معناه لا يصح إلّا له، إذ هو الذي وسع كل شيء رَحْمَةً، والرحيم يستعمل في غيره، وهو الذي كثرت رحمته، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [البقرة:١٨٢]، وقال في صفة النبيّ ﷺ: ﴿لَقَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ عَزِيزٌ عَلَيۡهِ مَا عَنِتُّمۡ حَرِيصٌ عَلَيۡكُم بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ ١٢٨﴾ [التوبة](٢).

المطلب الثاني
الأسباب الموجبة للرحمة في ضوء القرآن الكريم

إن الله ﷻ واسع المغفرة قد وسعت رحمته كل شيء، فهو يغفر للتائبين، ويرحم من قام بأسباب الرحمة، قال السعدي رحمه الله عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ يَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ١٢٩﴾ [آل عمران] "يخبر ﷻ، أنه هو المتصرف في العالم العلوي والسفلي، وأنه يتوب على من يشاء، فيغفر له، ويخذل من يشاء، فيعذبه، ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ فمن صفته اللازمة، كمال المغفرة والرحمة، ووجود مقتضياتهما في الخلق والأمر، يغفر للتائبين، ويرحم من قام بالأسباب الموجبة للرحمة"(٣)

وإن الدارس لكتاب الله ﷻ يجد فيه أسبابًا كثيرة موجبة لرحمة الله ﷻ وهي كما يلي:

(١) ينظر: الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، ص ٣٤٨، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ، ص ٨٠-٨١، والتهانوي، كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم، ١/١٤٦٥.
(٢) الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، ص ٣٤٧.
(٣) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص٩٧٤.

١. الإيمان بالله ﷻ.

من الأسباب الموجبة للرحمة الإيمان بالله ﷻ، قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِهِۦ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِى رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿١٧٥﴾﴾ [النساء]، وهنا يمتن الله ﷻ على سائر الناس بما أوصل إليهم من البراهين القاطعة، والأنوار الساطعة، ويقيم عليهم الحجة، ويوضح لهم المحجة، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾، أي: حجج قاطعة على الحق تبينه وتوضحه، وتبين ضده... ولكن انقسم الناس -بحسب الإيمان بالقرآن والانتفاع به- إلى قسمين: فأما القسم الأول فهم الذين آمنوا بالله واعتصموا به، فأولئك سيتغمدهم الله ﷻ برحمة منه في الدنيا بأن يوفقهم للخيرات، ويجزل لهم المثوبات، ويدفع عنهم المكروهات، ويدخلهم في رحمته -أي: الجنة- في الآخرة، ويتفضل عليهم بعد إدخالهم الجنة بالنظر إلى وجهه الكريم، ويهديهم إلى الطريق الواضح القصد، وهو الإسلام(١).

ووجه الدلالة هنا: أن الله ﷻ بين شمول رحمته للمؤمنين، بسبب إيمانهم واعتصامهم به، وهذا يدل على أن من موجبات رحمة الله تعالى الإيمان به، والحقيقة أن الله ﷻ لا يقبل أي: عمل من أحد، ولا يدخله الجنة إلا بشرط الإيمان.

ومما يدل على رحمة الله ﷻ للذين آمنوا؛ قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمْ يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُو۟لَٰٓئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٥٢﴾﴾ [النساء].

٢. الهجرة والإيمان

قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ

(١) ينظر: القاسمي، محاسن التأويل، ٤٨٧/٣. والسعدي، تيسير الكريم الرحمن، ٢١٧/١.

أَعۡظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾ يُبَشِّرُهُمۡ رَبُّهُم بِرَحۡمَةٖ مِّنۡهُ وَرِضۡوَٰنٖ وَجَنَّٰتٖ لَّهُمۡ فِيهَا نَعِيمٞ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾﴾ [التوبة]، وفي هذه الآية بيان ثواب أهل الجهاد والإيمان والهجرة، وهو أن لهم رحمة من الله ﷻ، ورضوان، وجنات عالية، قال تعالى: (يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوانٍ وَجَنَّاتٍ لَهُمْ فِيها نَعِيمٌ مُقِيمٌ)"أي: يبشرهم المولى برحمة عظيمة، ورضوان كبير من ربٍّ عظيم، وجنات عالية قطوفها دانية، لهم في تلك الجنات نعيم دائم لا زوال له"[1].

ووجه الدلالة هنا: أن الله ﷻ بين ثواب أهل الجهاد والإيمان والهجرة، ومن ثوابهم شمولهم برحمة الله ﷻ ورضوانه، وهذا يدل على أن من موجبات رحمة الله تعالى الإيمان به، والجهاد في سبيله ﷻ، والهجرة ابتغاء مرضاته ﷻ.

ومما يدل على رحمة الله ﷻ بأهل الجهاد والهجرة؛ قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١١٠﴾﴾ [النحل:١١٠]، وقوله تعالى: ﴿وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِي ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمٗا كَثِيرٗا وَسَعَةٗۚ وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴿١٠٠﴾﴾ [النساء].

٣. الجهاد في سبيل الله.

من الأسباب الموجبة للرحمة الجهاد في سبيل الله ﷻ، قال الله تعالى: ﴿لَّا يَسْتَوِي ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةٗۚ وَكُلّٗا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰۚ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمٗا ﴿٩٥﴾ دَرَجَٰتٖ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةٗ وَرَحْمَةٗۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴿٩٦﴾﴾ [النساء]، وفي هذه الآية حث وترغيب بالجهاد، إذ أنها بينت عدم تساوي من جاهد من المؤمنين بنفسه وماله، ومن لم يخرج

(١) الصابوني، صفوة التفاسير، ٤٨٩/١.

للجهاد ولم يقاتل أعداء الله في الدرجة، فقد فضل الله ﷻ المجاهدين على القاعدين من أهل الأعذار درجة؛ لاستوائهم في النية، وفضل الله المجاهدين في سبيله على القاعدين بغير عذر بدرجات عدة، كما في الحديث النبوي الشريف: (إن في الجنة مائة درجة أعدها الله للمجاهدين في سبيله ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض)، ووعدهم الله ﷻ بالمغفرة والرحمة التي تشتمل على حصول كل خير، واندفاع كل شر[1].

٤. التوبة.

قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلۡ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ كَتَبَ رَبُّكُمۡ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَ أَنَّهُۥ مَنۡ عَمِلَ مِنكُمۡ سُوٓءَۢا بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعۡدِهِۦ وَأَصۡلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٥٤﴾ [الأنعام:٥٤]، ففي هذه الآية يبين الله ﷻ أنه أوجب على نفسه المقدسة الرحمة تفضلًا منه وإحسانًا لمن عمل خطيئة من غير قصد، أو أنه جاهل بما يتعلق به من المكروه والمضرة، والحلال والحرام، ثم تاب من بعد ذلك الذنب وأصلح عمله فإن الله يغفر له ويرحمه[2]، وقوله: (ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعۡدِهِۦ وَأَصۡلَحَ) "يدل على أنه لا بد مع ترك الذنوب والإقلاع، والندم عليها، من إصلاح العمل، وأداء ما أوجب الله، وإصلاح ما فسد من الأعمال الظاهرة والباطنة"[3].

وهذا كقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ثُمَّ لَمۡ يَأۡتُواْ بِأَرۡبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجۡلِدُوهُمۡ ثَمَٰنِينَ جَلۡدَةٗ وَلَا تَقۡبَلُواْ لَهُمۡ شَهَٰدَةً أَبَدٗاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ٤ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ وَأَصۡلَحُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٥﴾ [آل عمران]، والمعنى: إلا الذين تابوا من القذف وأصلحوا أعمالهم فإن الله يقبل توبتهم ويعفو عنهم[4].

وهذا يدل على أن من الأسباب الموجبة لرحمة الله ﷻ التوبة، ومما

(١) ينظر: السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ١٩٥. والصابوني، صفوة التفاسير، ٢٧٣/١.
(٢) ينظر: القاسمي، محاسن التأويل،، ٣٧٦/٤، والصابوني، صفوة التفاسير، ٣٦٤/١.
(٣) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ٢٥٨ بتصرف يسير.
(٤) ينظر: القاسمي، محاسن التأويل، ٣٢٧/٧

يدل على ذلك -أيضًا- قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٤﴾﴾ [البقرة]، وقوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٨٩﴾﴾ [آل عمران].

٥. الإصلاح والتقوى.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾﴾ [الحجرات]، وهنا يبين الله ﷻ وجوب الأخوة بين المؤمنين في الدين؛ لأنهم منتسبون إلى أصل واحد وهو الإيمان، وهذه الأخوة موجبة للإصلاح ﴿فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ يعني كل مسلمين تخاصما وتقاتلا، وتخصيص الاثنين بالذكر لإثبات وجوب الإصلاح فيما فوقهما بطريق الأولى[1]، ثم أمر بالتقوى عمومًا، ورتب على القيام بحقوق المؤمنين وبتقوى الله، الرحمة فقال: ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾. وهذا تحقيق منه ﷻ في حصول الرحمة لمن قام بحقوق المؤمنين ومنه الإصلاح، ولمن اتقاه، وهذا يدل على أن الإصلاح بين المؤمنين، وتقوى الله تعالى من موجبات الرحمة، ودل ذلك على أن عدم القيام بحقوق المؤمنين، من أعظم حواجب الرحمة[2].

٦. العفو والصفح

قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٤﴾﴾ [البقرة]، وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ ۚ وَإِن تَعْفُواْ وَتَصْفَحُواْ وَتَغْفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾﴾ [التغابن]، وفي هذه الآية تحذير للمؤمنين

(١) ينظر: البيضاوي، أنوار التنزيل، ١٣٥/٥، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم، ١٢٠/٨، والشوكاني، فتح القدير، ٧٤/٥.

(٢) ينظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ٣٥١/٧، والسعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص٨٠٠.

من الاغترار بالأزواج والأولاد، فإن بعضهم عدو لكم، ومن عداوتهم أنهم يصدونكم عن الخير، كأن يصدونكم عن الجهاد في سبيل الله، ويثبطونكم عن طاعة الله؛ لذلك احذروا أن تستجيبوا لهم وتطيعوهم، ولكن هذا لا يعني إلحاق الضرر بهم، والغلظة عليهم، فإنه مع الحذر منهم لا بد من العفو عنهم والصفح[1]، "وإن تعفوا عن ذنوبهم التي ارتكبوها بترك المعاقبة، وتصفحوا بالإعراض وترك التثريب عليها، وتغفروا بأن تخفوها وتستروها فإن الله بالغ المغفرة والرحمة لكم ولهم، يعاملكم بمثل ما عملتم ويتفضل عليكم"[2].

ووجه الدلالة هنا: أن الله ﷻ بين ثواب المؤمنين الذين يعفون ويصفحون، ومن ثوابهم شمولهم برحمة الله، وهذا يدل على أن من الأسباب الموجبة لرحمة الله ﷻ بعباده العفو والصفح.

٧. الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ ﴾ [التوبة].

"لما وصف الله المنافقين بالأعمال الخبيثة والأحوال الفاسدة، ثم ذكر بعده ما أعد لهم من أنواع الوعيد في الدنيا والآخرة، عقبه بذكر أوصاف المؤمنين وأعمالهم الحسنة، وما أعد لهم من أنواع الكرامات والخيرات في الدنيا والآخرة"[3]، وقد وصفهم بضد ما وصف به المنافقين، فوصفهم بخمس صفات، وهي أنهم ﴿يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ﴾، ثم بين الله ﷻ جزاءهم فقال: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ﴾ "أي: سيرحم الله من اتصف بهذه الصفات، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ

(١) ينظر: السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص١٠٢٣، والصابوني، صفوة التفاسير، ٣/ ٣٧١.
(٢) البيضاوي، أنوار التنزيل، ٥/ ٢١٨-٢١٩ بتصرف، وينظر: الشوكاني، فتح القدير، ٥/ ٢٨٤.
(٣) الخازن، لباب التأويل، ٢/ ٣٨٢.

حَكِيمٌ ﴾ أي: عزيز، من أطاعه أعزه، فإن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين، حَكِيمٌ في قسمته هذه الصفات لهؤلاء، وتخصيصه المنافقين بصفاتهم المتقدمة، فإن له الحكمة في جميع ما يفعله، تبارك وتعالى"[1].

وهذا يدل على أن من الأسباب الموجبة لرحمة الله ﷻ بعباده الصفات الخمس السابقة وهي الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وطاعة الله ﷻ، وطاعة رسوله ﷺ.

٨. إقام الصلاة، وإيتاء الزكاة.

من موجبات رحمة الله ﷻ بعباده؛ إقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، ويدل على ذلك الآية السابقة، وقوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [النور]، حيث "يأمر ﷻ بإقامة الصلاة، بأركانها وشروطها وآدابها، ظاهرًا وباطنًا، وبإيتاء الزكاة... وطاعة الرسول ﷺ وذلك بامتثال أوامره واجتناب نواهيه... لَعلكم حين تقومون بذلك ﴿تُرْحَمُونَ﴾ فمن أراد الرحمة، فهذا طريقها، ومن رجاها من دون إقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، وإطاعة الرسول، فهو متمن كاذب، وقد منته نفسه الأماني الكاذبة"[2].

٩. الإنفاق في سبيل الله ﷻ

قال الله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِ ۚ أَلَآ إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ ۚ سَيُدْخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٩﴾﴾ [التوبة]، بعد أن بين الله ﷻ أن الأعراب في جملتهم أشد كفرًا ونفاقًا، وبين أن بعضهم يعتقد أن المال الذي ينفقه في سبيل الله غرم وخسارة، بين في هذه الآية أن من الأعراب من يتخذ

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ٤/١٥٤.
(٢) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص٥٧٣.

ما ينفق وسيلة إلى رضا الله والتقرب منه، وسببًا في دعاء الرسول ﷺ لهم بالخير والبركة واستغفاره لهم، حيث كان ﷺ يدعو للمُتصدقين بالخير والبركة ويستغفر لهم، عند أَخذه الزكاة الواجبة والصدقات المندوبة ليوزعها على مستحقيها[1]، "ثم أَخبر الله عن قبولها منهم بقوله: ﴿أَلَآ إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ﴾: أَي: أَلا إن إنفاقهم الصادر عن الإخلاص لله قربة عظيمة لهم عند الله ﷻ، وقد وعدهم الله عليها بإدخالهم الجنة في قوله: ﴿وَمِن سَيُدْخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦٓ﴾ أي: يشملهم برحمته وفضله جزاءَ إخلاصهم"[2].

ووجه الدلالة هنا: أن الله ﷻ شملهم برحمته وفضله بسبب إنفاقهم الصادر عن الإخلاص لله، وهذا يدل على أن من الأسباب الموجبة لرحمة الله ﷻ بعباده الإنفاق في سبيله ﷻ.

١٠. دعاء الرسول ﷺ.

﴿وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِ ۚ أَلَآ إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ ۚ سَيُدْخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٩﴾﴾ [التوبة] كما أن الآية السابقة تدل على أن من موجبات رحمة الله ﷻ بعباده الإنفاق في سبيله ﷻ، وهذا على معنى: ﴿أَلَآ إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ﴾ أي: نفقاتهم قربة لهم عند الله، وعلى معنى: ﴿وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِ﴾ أي: يقصدون بنفقاتهم التقرب إلى الله واغتنام دعاء الرسول لهم، فإنها تدل أيضا على أن من موجبات رحمة الله ﷻ بعباده دعاء الرسول ﷺ، وهذا على معنى ﴿أَلَآ إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ﴾" أي: صلوات الرسول ﷺ، تقربهم إلى الله ﷻ، وتنمي أموالهم وتحل بها البركة"[3]، "والمعنى

(١) ينظر: أبو السعود، إرشاد العقل السليم، ٩٦/٤.
(٢) مجموعة من العلماء، التفسير الوسيط، ٦/٤-٧.
(٣) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص٣٤٩ بتصرف يسير.

أنَّه يتقرَّب بصدقته ودعاء الرَّسول ﷺ إلى الله تعالى ﴿أَلَآ إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ﴾ أَيْ: نورٌ ومكرمةٌ عند الله"[1].

١١. طاعة الله ﷻ وطاعة الرسول ﷺ

قال الله تعالى: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٣٢﴾﴾ [آل عمران] "إن ترك المعاصي ينجي من النار، ويقي من سخط الجبار، وأفعال الخير والطاعة توجب رضا الرحمن، ودخول الجنان، وحصول الرحمة، ومن أعظم أفعال الخير طاعة الله ﷻ، وطاعة الرسول ﷺ، ولهذا قال: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾... فطاعة الله وطاعة رسوله، من أسباب حصول الرحمة "[2].

١٢. اتباع القرآن.

من الأسباب الموجبة لرحمة الله ﷻ اتباع القرآن، لقوله ﷻ: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾﴾ [الأنعام:١٥٥]، فإن هذه الآية تبين أن اتباع القرآن والعمل به سبب لرحمة الله ﷻ، بل هو أكبر سبب لنيل رحمة الله، ومعنى الآية: هذا القرآن العظيم فيه النفع الكبير، والخير الكثير، والعلم الغزير، فاعملوا بما فيه، واتقوا أن تخالفوه ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ بواسطة اتباعه وهو العمل بما فيه، فأكبر سبب لنيل رحمة الله ﷻ إتباع هذا الكتاب، علمًا وعملا[3].

١٣. الاستماع إلى القرآن الكريم والإنصات له.

من الأسباب الموجبة لرحمة الله ﷻ بعباده -أيضًا- الاستماع إلى

(١) الواحدي، الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ص٤٨٧.
(٢) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص١٤٧ بتصرف.
(٣) ينظر: ابن الجوزي، زاد المسير، ٩٤/٢. والبيضاوي، أنوار التنزيل، ١٩٠/٢، والسعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص ٢٨٠.

القرآن الكريم والإنصات له، لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾﴾ [الأعراف]. وفي هذه الآية رتب الله ﷻ حصول رحمته على الذي يستمع للقرآن وينصت له، "فإن من لازم على هذين الأمرين حين يتلى كتاب الله، فإنه ينال خيرًا كثيرًا وعلمًا غزيرًا، وإيمانًا مستمرًا متجددًا، وهدى متزايدًا، وبصيرة في دينه، ولهذا رتب الله ﷻ حصول الرحمة عليهما، فدل ذلك على أن من تُلِي عليه الكتاب، فلم يستمع له وينصت، أنه محروم الحظ من الرحمة، قد فاته خير كثير"(١).

والأمر بالاستماع والإنصات الوارد في هذه الآية "فيه ثلاثة أقوال: أحدها: أن الإنصات المأمور به هو لقراءة الإمام في الصلاة، والثاني: أنه الإنصات للخطبة، والثالث: أنه الإنصات لقراءة القرآن على الإطلاق وهو الراجح لوجهين: أحدهما: أن اللفظ عام ولا دليل على تخصيصه، والثاني: أن الآية مكية، والخطبة إنما شرعت بالمدينة"(٢).

ومن ثَم فإن هذه الآية تدل على أن من موجبات رحمة الله ﷻ بعباده الاستماع إلى القرآن الكريم والإنصات له، بل "قال بعضهم: الرحمة أقرب شيء إلى مستمع القرآن لهذه الآية"(٣).

١٤. الاستغفار.

من الأسباب الموجبة لرحمة الله ﷻ بعباده الاستغفار، بدليل قوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ ۖ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٦﴾﴾ [النمل]. أي: قال صالح لقومه: يا قوم لم تطلبون العذاب قبل الرحمة، ولم تؤخرون الإيمان الذي يجلب إليكم الثواب، وتقدمون الكفر الذي يجلب إليكم العقوبة، هلّا تسألون الله المغفرة،

(١) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص ٣١٤.
(٢) ابن جزي الكلبي، التسهيل، ٢/٥٩-٦٠.
(٣) ابن جزي الكلبي، التسهيل، ٢/٦٠.

وتتوبون إليه من الشرك رجاء أن ترحموا، أو كي ترحموا فلا تعذبوا، فإن استعجال الخير، أولى من استعجال الشر[1].

ووجه الدلالة هنا: أن الله ﷻ بين هنا أن صالحًا طلب من قومه الاستغفار لكي يُرحموا فلا يعذبوا، وهذا يدل على أن من الأسباب الموجبة لرحمة الله الاستغفار.

١٥. الإحسان.

من الأسباب الموجبة لرحمة الله ﷻ بعباده -أيضًا- الإحسان، لقوله تعالى: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾﴾ [الأعراف]، "وهذا إخبار من الله ﷻ بأن رحمته قريبة من عباده المحسنين بأي نوع من الأنواع كان إحسانهم، وفي هذا ترغيب للعباد إلى الخير وتنشيط لهم"[2]، "فكلما كان العبد أكثر إحسانًا، كان أقرب إلى رحمة ربه، وكان ربه قريبًا منه برحمته"[3].

١٦. الصبر.

قال الله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [البقرة:١٥٥-١٥٧]، وفي هذه الآيات يبين الله ﷻ ثواب الصابرين الذين إذا نزل بهم كرب أو بلاء أو مكروه استرجعوا وأقروا بأنهم عبيد الله يفعل بهم ما يشاء، وهو: أن لهم من ربهم ثلاث بشريات:

الأُولى: صلوات الله عليهم وهي مغفرته لهم، ورأفته بهم، والثانية: رحمته بإزالة آثار المصيبة، أو تعويضهم بما ينعم به عليهم، من جلب نفع

(١) ينظر: السمرقندي، بحر العلوم، ٥٨٦/٢، والشوكاني، فتح القدير، ١٦٥/٤.
(٢) الشوكاني، فتح القدير، ٢٤٢/٢.
(٣) السعدي، تيسير الكريم المنان، ص٢٩١.

أو دفع ضر، والثالثة: أنهم مهتدون إلى طريق السعادة، وإلى مطالبهم الدنيوية والأُخروية[1].

ووجه الدلالة هنا: أن الله ﷻ بين هنا أن من ثواب الصابرين أن لهم الرحمة منه ﷻ، وهذا يدل على أن من الأسباب الموجبة لرحمة الله ﷻ الصبر.

(١) ينظر: الصابوني، صفوة التفاسير، ٩٤/١، ومجموعة من العلماء، التفسير الوسيط، ٢٣٦/١.

المبحث الثالث
جوانب رحمة الله ﷻ في ضوء القرآن الكريم

بعد استقرائي لآيات الرحمة، ودراستي لها دراسة تحليلية، قمت باستنباط جوانب رحمة الله ﷻ في ضوء القرآن الكريم -حسب ما ظهر لي-، وهي كما يلي.

المطلب الأول
رحمة الله ﷻ في إرسال الرسل، وإنزال الكتب

الفرع الأول: رحمة الله ﷻ في إرسال الرسل.

من رحمة الله ﷻ بعباده إرسال الرسل وبعث الأنبياء عليهم السلام، ومما يدل على ذلك ما يلي:

١. قوله تعالى: ﴿مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ وَلَا ٱلۡمُشۡرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيۡكُم مِّنۡ خَيۡرٖ مِّن رَّبِّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَخۡتَصُّ بِرَحۡمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ١٠٥﴾ [البقرة].

يبين الله ﷻ في هذه الآية شدة عداوة الكافرين من أهل الكتاب والمشركين للمؤمنين، ومن عداوتهم أنهم لا يحبون أن ينزل أي:

خير على رسول الله ﷺ سواء أكان النبوة، أم أي: حكم من أحكام الإسلام، فأخبر الله ﷻ أن الأمر ليس على مرادهم، بل إنه يختص برحمته من يشاء، أي: يختار للنبوة من يشاء ممن هو أهل لذلك، ويكرم بدينه الإسلام من يشاء، والله ذو المنّ العظيم لمن اختصه بالنبوة والإسلام[1].

ووجه الدلالة هنا أن الله ﷻ وصف النبوة بالرحمة، حيث قال: ﴿وَٱللَّهُ يَخۡتَصُّ بِرَحۡمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ أي: يختص النبوة -على قول من قال ذلك- من يشاء من عباده، فمن رحمة الله ﷻ -إذًا- بعباده إرسال الرسل وبعث الأنبياء عليهم السلام.

٢. قوله تعالى: ﴿يَخۡتَصُّ بِرَحۡمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ٧٤﴾ [آل عمران] ووجه الدلالة فيها كما في الآية السابقة، وهو قوله: ﴿يَخۡتَصُّ بِرَحۡمَتِهِۦ﴾ أي: بنبوته[2]، وقيل: إنها الإسلام، وقيل: القرآن والإسلام. وكلها أقوال صحيحة[3]. وهذا يدل على أن من رحمة الله ﷻ بعباده إرسال الرسل، وبعث الأنبياء عليهم السلام، كما أن من رحمته ﷻ إنزال الكتب، ومنها القرآن الكريم، ومن رحمته -أيضًا- أنه يهدي لدينه من يشاء.

٣. مما يدل -أيضًا- على أن من رحمة الله بعباده إرسال الرسل قوله تعالى: ﴿وَمِنۡهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٞۚ قُلۡ أُذُنُ خَيۡرٖ لَّكُمۡ يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤۡمِنُ لِلۡمُؤۡمِنِينَ وَرَحۡمَةٞ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡۚ وَٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ٦١﴾ [التوبة].

وهذه الآية تبين نوعًا من قبائح المنافقين السيئة الكثيرة، وهي أنهم

(١) ينظر: السمرقندي، بحر العلوم، ٨٨/١. والسمعاني، تفسير القرآن، ١٢٠/١، والزمخشري، الكشاف، ١٧٥/١.
(٢) ينظر: البغوي، معالم التنزيل، ٥٥/٢.
(٣) ينظر: ابن الجوزي، زاد المسير، ٢٩٥/١.

كانوا يؤْذون خير الخلق محمد ﷺ بتعييبه والطعن في رسالته فيما بينهم بأَن يسموه أُذنًا، أي: أَنه يسمع كل كلام يلقى إِليه ويصدقه، ولا يفرق بين الصحيح والباطل، وهذا الكلام اغترارً منهم بحلمه عنهم، وصفحه عن جناياتهم كرمًا وحلمًا وتغاضيًا، فأمر الله ﷻ رسوله ﷺ بالرد عليهم: ﴿قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ﴾ أي: هو أذن خير لا أذن شر، يسمع الخير فيعمل به، ولا يعمل بالشر إِذا سمعه، ثم بين القرآنُ الكريم كونه أَذن خير بقوله: ﴿يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾: يصدِّق الله فيما يقول، ويصدِّق المؤمنين فيما يخبرونه به لعلمه بإِخلاصهم ﴿وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ﴾ أي: وهو رحمة للمؤمنين لأنه استنقذهم به من الضلالة، وأورثهم باتِّباعه جنّاته[1].

ووجه الدلالة: أن من جملة الردود على المنافقين أن رسول الله ﷺ رحمة للمؤمنين، وهذا يدل على أن من رحمة الله ﷻ بعباده إرسال الرسل ومنهم محمد ﷺ إلى الناس لإخراجهم من الظلمات إلى النور، ومن الضلالة إلى الهداية، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، ومن الشرك إلى التوحيد.

الفرع الثاني: رحمة الله ﷻ في إنزال الكتب.

إن من وجوه رحمة الله ﷻ بعباده إنزال الكتب، ومما يدل على ذلك ما يلي:

١. قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [الأعراف]، وفي هذه الآية يبين الله ﷻ أنه أنزل القرآن الكريم، أو الكتب بشكل عام هدى ورحمة بعباده المؤمنين، والمعنى:

(١) ينظر: الطبري، جامع البيان، ٣٢٤/١٤-٣٢٨، وينظر: الشوكاني، فتح القدير، ٤٢٤/٢، وينظر: الصابوني، صفوة التفاسير، ٥٠٧/١-٥٠٨.

ولقد جئنا أهل مكة بكتاب هو القرآن العظيم، أو جئنا كلَّ أُمة من الأُمم على لسان رسولها بكتاب بيَّنَّا معانيه، ووضحنا ما فيه من العقائد والأَحكام والمواعظ، مفصَّلة على علم تامٍّ منَّا حتى جاء قيّمًا محكما غير ذي عوج -جئناهم بهذه النعم- ﴿هُدًى﴾؛ أي: دلالة ترشدهم إلى الحق، وتنجيهم من الضلالة ﴿وَرَحْمَةً﴾؛ أي: ينجيهم من العذاب لما فيه من الدلائل ورفع الشبه لمن آمن به، فهم المهتدون بهداه المنتفعون به[1]. فمن رحمة الله ﷻ -إذن- أنه أنزل الكتب لهداية عباده المؤمنين.

٢. قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [يونس]، وهذه الآية خطاب لأهل مكة أو لكل الناس[2]، لبيان نعمة الله العظيمة عليهم في إنزال القرآن الكريم، وقد وصفه الله ﷻ هنا بأربع صفات وهي: موعظة وشفاء وهدى ورحمة؛ والموعظة أي: زاجر مقترن بتخويف عن الشرك، أو ما يدعو إلى الصلاح بطريق الرغبة والرهبة، وشفاء لما في القلوب من داء الجهل، وشفاء لها من الشِّرك، وشفاء لما في الصدور من الشكوك وسوء الاعتقاد، وهدى من الضلالة إلى الحق واليقين، ورحمة للمؤمنين أي: نعمة من الله ﷻ على المؤمنين، إذ نجوا به من ظلمات الضلال إلى نور الإيمان، وتبدلت مقاعدهم من طبقات النيران بمصاعد من درجات الجنان. ثم قال: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ﴾ يعني: قل يا مُحمَّد للمؤمنين: بفضل الله في الإسلام وبرحمته في إنزال القرآن. ﴿فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟﴾ أشار بذلك إلى القرآن، لأن المراد بالموعظة والشفاء: القرآن ﴿هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ من حطام الدنيا فإنها إلى الزوال قريبًا[3].

(١) ينظر: القاسمي، محاسن التأويل، ٦٦/٥، ومجموعة من العلماء، التفسير الوسيط، ١٤٣٥/٣. والصابوني، صفوة التفاسير، ٤١٧/١.
(٢) ينظر: السمرقندي، بحر العلوم، ١٢١/٢.، والخازن، لباب التأويل، ٤٤٨/٢.
(٣) ينظر: السمرقندي، بحر العلوم، ١٢١/٢، والبيضاوي، أنوار التنزيل، ١١٦/٣-١١٧، والخازن، لباب التأويل، ٤٤٨/٢.

ووجه الدلالة: أن الله ﷻ وصف القرآن الكريم في هذه الآية بأربع صفات، ومنها أنه رحمة للمؤمنين؛ ثم كرر وصف القرآن بالرحمة في الآية التالية إذ قال: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ﴾، وبرحمته أي: القرآن؛ لأنه سبب في هداية الناس في الدنيا، ونجاتهم من العذاب في الآخرة، وهذا يدل على أن من رحمة الله ﷻ بعباده إنزال الكتب وأهمها القرآن الكريم.

٣. قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾﴾ [يوسف:١١١]، (أي: لقد كانَ في قصة يوسف وإخوته، وقصص سائر الرسل عبرة لذوي العقول النيرة، أو لمن أراد أن يعتبر بيوسف، ويقتدي به، وما كان مثل هذا القرآن اختلاقًا وكذبًا، ولكن تصديق لما سبقه من الكتب السماوية كالتوراة والإنجيل، وبيان كل ما يُحتاج إليه من العقائد وأحكام الحلال والحرام، وَهُدىً من الضلالة، ورحمة من العذاب لقوم يصدقون بتوحيد الله ﷻ، وبمحمد ﷺ، وبالقرآن)[1].

ووجه الدلالة في الآية: أن الله ﷻ وصف القرآن الكريم بأنه رحمة للمؤمنين، وهذا هو شأن كل الكتب المنزلة من الله ﷻ على أنبيائه ورسله عليهم السلام؛ لأن القرآن الكريم من تلك الكتب، لكنه أعظمها؛ لذا نزل على أفضل الأنبياء محمد ﷺ ليكون اتباعه والعمل به أعظم أسباب الهداية، ونيل رحمة الله ﷻ[2]، وهذا يدل على أن من رحمة الله ﷻ بعباده المؤمنين إنزال الكتب وأعظمها القرآن الكريم.

(١) السمرقندي، بحر العلوم، ٢١٤/٢بتصرف، والبغوي، معالم التنزيل، ٢٨٨/٢. والسعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص٤٠٧.

(٢) ينظر: ابن الجوزي، زاد المسير، ٩٤/٢. والبيضاوي، أنوار التنزيل، ١٩٠/٢، والسعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص ٢٨٠.

٤. قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [القصص]، وقد أنعم الله على عبده ورسوله موسى الكليم عليه السلام بإنزال التوراة بعد ما أهلك فرعون وقومه ومن تقدمهم من قوم نوح وهود وصالح ولوط، ليكون ذلك الكتاب مصدر إشعاع للحياة، وبصائر للناس، أي: أنوارا للقلوب يميز به بين الحق والباطل، وهداية من الضلال والعمى، وَهُدىً إلى الاعتقادات الصحيحة ودلائلها، ورحمة لمن آمن به بالإرشاد إلى العمل الصالح، لعل الناس يتذكرون به ويتعظون، ويهتدون بسببه[1].

ووجه الدلالة هنا: أن الله سبحانه وتعالى بين الغاية من إنزال التوراة على نبيه موسى عليه السلام، وهي أنه بصائر للقلوب، وهداية للناس من الضلال والعمى، ورحمة لمن آمن به من العذاب، وهذا يدل على أن من رحمة الله سبحانه وتعالى بعباده المؤمنين إنزال الكتب ومنها التوراة.

المطلب الثاني
من رحمة الله سبحانه وتعالى قبول التوبة والعفو عن العاصين والمضطرين

١. قال الله تعالى: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾﴾ [البقرة]، ففي هذه الآية يبين الله سبحانه وتعالى أنه لما عصاه آدم «ألقى في روعه أن يتوسل إليه بكلمات ألهمه إياها؛ ليتوب الله عليه، فاستقبلها بالأخذ والقبول، والعمل بها حينما تعلمها، ﴿فَتَابَ عَلَيْهِ﴾... أي: رجع عليه بالرحمة، بأن قبل توبته... وقوله: ﴿إِنَّهُۥ

(١) ينظر: القاسمي، محاسن التأويل، ٧/٥٢٣-٥٢٤، والزحيلي، تفسير المنير، ٢٠/١١٠.

﴿هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ تعليلا لقوله: ﴿فَتَابَ عَلَيۡهِۚ﴾، ووصف الله ﷻ نفسه بأنه هو التواب أي: كثير قبول التوبة، وهي صيغة مبالغة من التوب بمعنى الرجوع عن العقاب إلى المغفرة وقبول التوبة، وإذا وصف به العبد كان بمعنى الرجوع عن المعصية، والرَّحِيمُ العظيم الرحمة. وبذلك فتح الله للعصاة طريق التوبة إذا عصوا، ليتوب عليهم كما تاب على أبيهم آدم، لأنه ﷻ التواب الرحيم»[1]، وفي الجمع بين الاسمين ﴿ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ وعد للتائب بالإحسان مع العفو[2].

إذًا قد تاب الله ﷻ على أبينا آدم عليه السلام لأنه ﷻ تواب رحيم؛ أي: كثير قبول التوبة، وعظيم الرحمة، وهذا يدل على أن من رحمة الله ﷻ بعباده قبول التوبة والعفو عن العاصين.

٢. قال الله تعالى: ﴿وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ إِنَّكُمۡ ظَلَمۡتُمۡ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلۡعِجۡلَ فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمۡ فَٱقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ عِندَ بَارِئِكُمۡ فَتَابَ عَلَيۡكُمۡۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ٥٤﴾ [البقرة].

ففي هذه الآية بيان أن من رحمة الله ﷻ بعباده قبول التوبة ممن عصى ثم تاب، «فالله ﷻ يذكر بني إسرائيل بقول موسى عليه السلام لقومه الذين عبدوا العجل حين كان يناجي ربه بعيدًا عنهم: يا قوم إنكم ظلمتم أنفسكم بعبادتكم غير الله ﷻ فإذا أردتم التكفير عن خطاياكم فتوبوا إلى ربكم توبة صادقة نصوحًا، واقتلوا أنفسكم ليعفو ربكم عنكم، فذلك خير لكم عند خالقكم من الإقامة على المعصية، ففعلتم ذلك فقبل الله توبتكم؛ لأنه هو الذي يقبل التوبة عن عباده، وهو الواسع الرحمة لمن ينيب إليه ويستقيم على صراطه الواضح»[3].

(١) مجموعة من العلماء، التفسير الوسيط، ٨٢/١.
(٢) القاسمي، محاسن التأويل، ٢٩٥/١.
(٣) طنطاوي، التفسير الوسيط، ١٣١/١ بتصرف.

ووجه الدلالة هنا: أن الله ﷻ علل قبوله التوبة ممن عصى بأنه تواب رحيم، فمن رحمة الله ﷻ -إذًا- بعباده قبول التوبة ممن عصى إذا تاب توبة صادقة نصوحًا.

المطلب الثالث
رحمة الله بعباده في جانب التشريع

من وجوه رحمة الله بعباده في ضوء القرآن الكريم؛ الرحمة في التشريع، ويتمثل هذا الوجه في عدة أمور، وهي كما يلي:

الفرع الأول: الرحمة في أحكام الأموال

من رحمة الله ﷻ أنه نهى عن أن يأكل المؤمن المال بالباطل، وأحل أكلها بطرق الكسب الحلال كالتجارة، قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم بَيۡنَكُم بِٱلۡبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٖ مِّنكُمۡۚ وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمۡ رَحِيمٗا ٢٩﴾ [النساء]، فبعد أن بين الله ﷻ لعباده ما أحل لهم من النساء، وما حرم عليهم، شرع في بيان بعض الحرمات المتعلقة بالأموال والأنفس، وبيان الوسائل المشروعة في الحصول عليها، وفي هذه الآية ينهى الله ﷻ عباده المؤمنين من أن يأكل بعضهم أموال بعض بأي طريقة غير مشروعة، مثل الغصب، والسرقة، والقمار، والرشوة، والربا، ثم إنه ﷻ -لما حرم أكلها بالباطل- أباح لهم أكلها بوسائل الكسب الحلال كالتجارات والمكاسب الخالية من الموانع، المشتملة على الشروط من التراضي وغيره[1]، «ويلحق بالتجارة كل أسباب التملك التي أباحها الشارع، كالهبة، والصدقة، والإرث، وإنما اختصت

(١) ينظر: السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص١٧٥، ومجموعة من العلماء، التفسير الوسيط، ٢/٧٩٨-٧٩٩.

التجارة بالذكر من بين هذه الأسباب؛ لأن كسب الإنسان واضح فيها أكثر من الطرق الأخرى، ولنفي ما قد يتوهم من أنها تشبه الربا، وعبّر ﷻ، عن الحصول على الأموال وأخذها بالأكل؛ لأنه هو المقصود الأول للإنسان من جمع المال، أيًا كانت وسيلته»[1].

وهذا كله من رحمة الله ﷻ بعباده لذا قال في نهاية الآية: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمۡ رَحِيمًا﴾ أي: رحيمًا لأنه نهاكم عن أن يأكل بعضهم أموال بعض بالباطل، ونهاكم عن قتل بعضكم، ووجه الرحمة هنا أنه ﷻ بهذه الأحكام حفظ نفوسكم، وصان أموالكم عن إضاعتها وإتلافها[2].

الفرع الثاني: الرحمة في إباحة الغنائم.

لقد كانت الغنائم محرمة على الأمم السابقة فكان من رحمة الله ﷻ أن أحلها لهذه الأمة، فعن جابر بن عبدالله قال: قال رسول الله ﷺ (أعطيت خمسًا لم يعطهن أحد قبلي نصرت بالرعب مسيرة شهر وجعلت لي الأرض مسجدًا وطهورًا فأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصل، وأحلت لي المغانم ولم تحل لأحد قبلي، وأعطيت الشفاعة، وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة)[3].

وقال الله ﷻ: ﴿فَكُلُواْ مِمَّا غَنِمۡتُمۡ حَلَٰلٗا طَيِّبٗاۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٦٩﴾ [الأنفال] : «وقد روي أنهم أمسكوا عن الغنائم، ولم يمدوا أيديهم إليها حتى نزلت الآية لتبيح لهم الغنائم، وقد كانت الغنائم لا يحل أخذها لأحد قبل هذه الآية، فلما نزلت أباحت لهم أخذ الغنائم، والانتفاع بها أكلًا وغير أكل، وإنما عبر بلفظ الأكل، لأنه المقصود المهم»[4].

(١) مجموعة من العلماء، التفسير الوسيط، ٢/٧٩٨-٧٩٩.
(٢) ينظر: السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص١٧٥.
(٣) رواه لبخاري، كتاب التيمم، حديث رقم ٣٢٨، ورواه مسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، حديث رقم ٥٢١.
(٤) مجموعة من العلماء، التفسير الوسيط، ٣/١٦٤٨.

ومعنى الآية: «كلوا يا معشر المجاهدين مما أصبتموه من أعدائكم من الغنائم في الحرب حال كونه حلالًا أي: محللًا لكم ﴿طَيِّبًا﴾ أي: من أطيب المكاسب، لأنه ثمرة جهادكم... ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ أي: خافوا الله في مخالفة أمره ونهيه ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أي: مبالغ في المغفرة لمن تاب، رحيم بعباده حيث أباح لهم الغنائم»[1].

الفرع الثالث: الرحمة في تشريع الزواج بأصناف متعددة من النساء.

من رحمة الله ﷻ أنه أحل الزواج للمؤمنين من أصناف معينة من النساء، وخص رسوله ﷺ ببعض أحكام الزواج من دون المؤمنين تشريفًا وتكريمًا له، قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالَاتِكَ اللَّاتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٥٠﴾﴾ [الأحزاب] ففي هذه الآية يبين الله ﷻ ما أحل لنبيه الزواج منهن مما يشترك فيه، هو والمؤمنون، وما ينفرد به، وقد ذكر الله ﷻ في الآية أربع فئات من النساء المباحات للنبي ﷺ، الأولى: النساء المهورات، والفئة الثانية: ملك اليمين مثل مارية القبطية أم إبراهيم. والفئة الثالثة: بنات العم والعمة والخال والخالة المهاجرات معه من مكة إلى المدينة. والفئة الرابعة: المرأة الواهبة نفسها للنبي بغير مهر، إن رغب النبي في الزواج بها. والفئات الثلاثة الأولى من الأمور المشتركة بينه وبين المؤمنين، والفئة الرابعة خاصة بالنبي ﷺ. وإباحة هؤلاء النساء لك أيها النبي لدفع الحرج والمشقة عنك، ورحمة بك وبالمؤمنين، بدفع الحرج والعنت[2].

(١) الصابوني، صفوة التفاسير، ١/٤٧٨.
(٢) ينظر: الزحيلي، التفسير الوسيط، ٣/٢٠٧٩-٢٠٨٠.

الفرع الرابع الرحمة في تشريع العفو والدية:

من رحمة الله ﷻ تخيير ولي أمر المقتول بين القصاص، وبين العفو. قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ فِي ٱلۡقَتۡلَىۖ ٱلۡحُرُّ بِٱلۡحُرِّ وَٱلۡعَبۡدُ بِٱلۡعَبۡدِ وَٱلۡأُنثَىٰ بِٱلۡأُنثَىٰۚ فَمَنۡ عُفِيَ لَهُۥ مِنۡ أَخِيهِ شَيۡءٞ فَٱتِّبَاعُۢ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيۡهِ بِإِحۡسَٰنٖۗ ذَٰلِكَ تَخۡفِيفٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَرَحۡمَةٞۗ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٞ ١٧٨﴾ [البقرة]، وقد كان العفو مفروضًا على النصارى، ولا يجوز لهم القود، وكان القصاص مفروضًا على اليهود، ولا يجوز لهم العفو، فخُيرت هذه الأمة بين القصاص، وبين العفو مطلقًا، أو العفو مع أخذ الدية[1]. وقوله: ﴿ذَٰلِكَ تَخۡفِيفٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَرَحۡمَةٞ﴾ التخفيف فيما شرعه الله ﷻ لهذه الأمة من التخيير بين القصاص والدية والعفو، فمن شاء قتل، ومن شاء أخذ الدية، ومن شاء عفا. ووجه الرحمة أن في الدية تيسيرًا وتسهيلًا على القاتل، ونفعًا لأولياء القتيل[2].

«وقد جمع الإسلام في عقوبة القتل بين العدل والرحمة، فجعل القصاص حقًا لأولياء المقتول إذا طالبوا به وذلك عدل، وشرع الدية إذا أسقطوا القصاص عن القاتل وذلك رحمة»[3]

الفرع الخامس: الرحمة في تحريم القتل.

من رحمة الله ﷻ أنه نهى المؤمنين عن قتل بعضهم، حيث قال: ﴿وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمۡ رَحِيمٗا﴾ [النساء:٢٩] وفي هذه الآية نهى الله ﷻ عن أن يقتل المسلم أخاه المسلم، أو أن يقتل نفسه، «ويدخل في ذلك الإلقاءُ

(١) ينظر: السمرقندي، بحر العلوم، ١١٩/١، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ٣٥٩/١، والبيضاوي، أنوار التنزيل، ١٢٢/١، والخطيب الشربيني، السراج المنير، ١١٦/١.
(٢) ينظر: الصابوني، صفوة التفاسير، ١٠٥/١.
(٣) الصابوني، صفوة التفاسير، ١٠/١.

بالنفس إلى التهلكة، وفعلُ الأخطار المفضية إلى التلف والهلاك»[1]، وهذا كله من رحمة الله ﷻ بعباده لذا قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمۡ رَحِيمًا﴾ أي: «رحمكم الله ﷻ بأن حرم دماء بعضكم على بعض»[2]. ووجه الرحمة هنا: أنه ﷻ بهذه الأحكام حفظ نفوسكم وصانها من التلف والهلاك.

(١) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص١٧٥.
(٢) مكي بن أبي طالب، الهداية إلى بلوغ النهاية، ٢/ ١٣٠٠.

المبحث الرابع
رسائل

بعد هذه الدراسة القرآنية وبيان سعة رحمة الله ﷻ، وبيان شمول رحمته ﷻ بعباده سواء في هدايتهم، أو في قبول التوبة منهم، أم في إرسال الرسل إليهم، أو في يسر تشريع الأحكام لهم، ورفع الحرج عنهم، وتحريم القتل، ورحمته ﷻ بالحيوان، بل وبالجماد، لا بد من إيصال ثلاث رسائل وهي كما يلي:

المطلب الأول
رسالة إلى من ينعت الإسلام بالإرهاب

نقول لمن ينعت الإسلام بالإرهاب: إنك قلت قولًا بعيدًا عن حقيقة الإسلام؛ لأنك لم تفهم ديننا، فديننا دين الرحمة، ومما يدل على ذلك أنه ينهى عن قتل النساء والأطفال الكافرين وكبار السن في الحروب، ففي الحديث عن نافع أن عبدالله رضي الله عنه أخبره: (أن امرأة وجدت في بعض مغازي النبي ﷺ مقتولة فأنكر رسول الله ﷺ قتل النساء والصبيان)[1]، وعن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: (انطلقوا بسم الله وبالله،

(١) رواه البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب قتل الصبيان في الحرب، حديث رقم ٢٨٥١، ومسلم، باب تحريم قتل النساء والصبيان، حديث رقم ٤٦٤٥

وعلى ملة رسول الله، ولا تقتلوا شيخًا فانيًا، ولا طفلًا، ولا صغيرًا ولا امرأة، ولا تغلوا)[1].

ومن رحمته أنه كان ينهى في الحرب عن الغدر أو التمثيل بالقتلى، فعن بريدة ﷺ قال: كان رسول الله ﷺ إذا أمَّر أميرًا على جيش أو سرية أوصاه خاصته بتقوى الله ومن معه من المسلمين خيرا ثم قال: (اغزوا باسم الله وفي سبيل الله، قاتلوا من كفر بالله، اغزوا ولا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليدًا)[2].

بل نهى عن قطع الشجر، أو هدم صومعة، أو قتل راهب في صومعته، فعن ثوبان مولى رسول الله ﷺ أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: من قتل صغيرًا أو كبيرًا أو أحرق نخلًا أو قطع شجرة مثمرة أو ذبح شاة لإهابها لم يرجع كفافا)[3].

وكذلك أوصى الخلفاء من بعده، مثل أبي بكر الصديق ﷺ، فعن سعيد ابن المسيب: أن أبا بكر ﷺ لما بعث الجنود نحو الشام يزيد بن أبي سفيان وعمرو بن العاص وشرحبيل بن حسنة قال: لما ركبوا مشى أبو بكر ﷺ مع أمراء جنوده يودعهم حتى بلغ ثنية الوداع، فقالوا: يا خليفة رسول الله أتمشي ونحن ركبان؟! فقال: إني أحتسب خطاي هذه في سبيل الله، ثم جعل يوصيهم فقال: أوصيكم بتقوى الله، اغزوا في سبيل الله فقاتلوا من كفر بالله، فإن الله ناصر دينه ولا تغلوا ولا تغدروا، ولا تجبنوا ولا تفسدوا في الأرض، ولا تعصوا ما تؤمرون... ولا تغرقن نخلًا ولا تحرقنها، ولا تعقروا بهيمة ولا شجرة تثمر، ولا تهدموا بيعة، ولا تقتلوا الولدان ولا الشيوخ

(١) أبو داود في سننه، باب في دعاء المشركين، حديث رقم ٢٦١٥. قال شعيب الأرناؤوط حسن لغيره.
(٢) رواه مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب تأمير الإمام الأمراء على البعوث ووصية إياهم بآداب الغزو وغيرها، حديث رقم ١٧٣١.
(٣) رواه الإمام أحمد في المسند، من حديث ثوبان، حديث رقم ٢٢٣٦٨. وقال شعيب الأرنؤوط: إسناده ضعيف.

ولا النساء، وستجدون أقوامًا حبسوا أنفسهم في الصوامع فدعوهم وما حبسوا أنفسهم له).[١]

بل إن الإسلام قد أوصى بالرحمة حتى مع الحيوان، فعن عبدالله بن جعفر ﷺ قال: (أردفني رسول الله ﷺ ذات يوم خلفه فأسر إلي حديثًا لا أحدث به أحدًا من الناس، وكان أحب ما استتر به رسول الله ﷺ لحاجته هدف أو حائش نخل -يعني حائط نخل- قال: فدخل حائطًا لرجل من الأنصار فإذا فيه جمل، فلما رأى النبيَّ ﷺ ذرفت عيناه، قال: فأتاه النبي ﷺ فمسح سراته إلى سنامه وذفريه فسكن، قال: من رب هذا الجمل؟ لمن هذا الجمل؟ قال: فجاء فتى من الأنصار فقال: هو لي يا رسول الله، فقال: ألا تتقي الله في هذه البهيمة التي ملكك الله إياها، فإنها تشكو إلي أنك تجيعه وتدئبه)[٢]، وعن أبي هريرة ﷺ عن رسول الله ﷺ: (أَن نملة قرصت نبيًا من الأنبياء فأمر بقرية النمل فأُحرقت، فأوحى الله إليه: في أَن قرصتك نملة أَهلكت أمة من الأمم تسبحني)[٣]، وعن عبدالله بن عمر ﷺ أن رسول الله ﷺ قَالَ: (عذبت امرأة في هرة سجنتها حتى ماتت فدخلت فيها النار لا هي أطعمتها وسقتها إذ حبستها، ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض)[٤].

فأين أولئك من خُلق الرحمة، وقد قال رسول الله ﷺ: (الراحمون يرحمهم الرحمن ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء)[٥].

(١) رواه البيهقي في السنن الكبرى، باب من اختار الكف عن القطع والتحريق، رقم ١٧٩٠٤
(٢) رواه البيهقي في السنن الكبرى، باب نفقة الدواب، رقم ١٦٢٣٢، وقد صححه الألباني، والحائش: البستان، والسراة: أعلى الظهر، والذفرى: أصل الأذن- ينظر الزمخشري، الفائق في غريب الحديث، ج١، ص٣٣١.
(٣) رواه مسلم، كتاب السلام، باب النهي عن قتل النمل، حديث رقم ٥٩٨٦.
(٤) رواه مسلم، كتاب السلام، باب النهي عن قتل النمل، حديث رقم ٥٩٨٩، والخشاش: هوام الأرض وحشراتها واحده خَشَاشة.
(٥) سبق تخريجه.

وبعد فهذا هو ديننا، هذا هو عظمة الإسلام، فأين هذا ممن يقتلون الناس من غير تفريق بن صغير وكبير، أو بين شيخ وامرأة، أو بين عسكري ومدني؟!، وأين هذا ممن يرمون الصواريخ والقنابل على البيوت، فلا يفرقون بين بيت ودبابة، أو بين مسجد وكنيسة، أو بين شجر وحجر؟! لكن ليس هذا غريب، فإنهم قد ضلوا عن الصراط المستقيم، وأما الإسلام الذي يفرق بين كل ذلك فهو الدين الذي ارتضاه الله ﷻ، ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران:١٩]، فما أحوج المسلمين إلى الالتزام بشرع الله ﷻ لينعموا بالريادة، وما أحوج البشر جميعًا إلى الدخول في دين الله أفواجًا لينعموا بالسعادة.

المطلب الثاني
رسالتان إلى أصحاب الفكر المتطرف

الرسالة الأولى: أين الحكمة والموعظة الحسنة، وأين الرحمة واللين في دعوتكم؟!.

كما أن الإسلام دين القوة، فإنه دين الرحمة، وقد بُعث رسول الله ﷺ ليكون رحمة للعالمين، ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ [الأنبياء]، وقد كانت دعوته بالحكمة والموعظة الحسنة، قال الله ﷻ: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [النحل:١٢٥]، وقد كان حبيبنا ﷺ لينًا في دعوته، قال الله تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾﴾ [آل عمران]، وهذا خطاب للنبي ﷺ، وهو بيان لأهمية اللين في الدعوة، «وأن ثمرة اللين هي المحبة، والاجتماع عليه، وأن خلافها من الجفوة والخشونة مؤد إلى التفرق،

والمعنى: لو شافهتهم بالملامة على ما صدر منهم من المخالفة والفرار لتفرّقوا من حولك هيبة منك وحياءً، فكان ذلك سببًا لتفرّق كلمة الإسلام وضعف مادته، وإطماعًا للعدو»[1].

بل كان من رحمته ﷺ أنه يهتم لإنقاذ نفس يهودي عند احتضاره من النار، فعن أنس رضي الله عنه قال: كان غلام يهودي يخدم النبي ﷺ فمرض فأتاه النبي ﷺ يعوده، فقعد عند رأسه، فقال له: (أسلم)، فنظر إلى أبيه وهو عنده فقال له: أطع أبا القاسم ﷺ فأسلم، فخرج النبي ﷺ وهو يقول: (الحمد لله الذي أنقذه من النار)[2]. لذلك دخل الناس في دين الله أفواجًا، ولما اقتدى الدعاة برسول الله ﷺ في دعوته دخلت بلاد كاملة في دين الإسلام من غير قتال، لكن لما لم يفهم كثير من المسلمين ذلك ضلوا وأضلوا، فأوتي الإسلام من فئتين من أبنائه؛ فئة مفرطة ابتعدت عن الالتزام بأحكام الدين، وفئة مغالية متشددة قاموا بتقتيل كثير من المسلمين بحجة أنهم كافرون، وهذا جعل الكثير من غير المسلمين يفهمون الإسلام فهمًا خاطئًا، فينفرون منه.

الرسالة الثانية: أين أنتم من تحريم الدماء؟!.

من رحمة الله سبحانه وتعالى أنه نهى المؤمنين عن قتل بعضهم حيث قال جل جلاله: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ [النساء:٢٩] وفي هذه الآية ينهى الله سبحانه وتعالى عن أن يقتل المسلم أخاه المسلم، أو أن يقتل نفسه. «ويدخل في ذلك الإلقاءُ بالنفس إلى التهلكة، وفعلُ الأخطار المفضية إلى التلف والهلاك»[3]. ذلك أن الدماء غالية، فعن البراء بن عازب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: (لزوال الدنيا أهون على الله من قتل مؤمن بغير حق)[4]، لذلك فإن القاتل المتعمد

(١) أبو حيان، البحر المحيط، ج٣، ص٤٠٨.
(٢) رواه البخاري، كتاب الجنائز، باب إذا أسلم الصبي فمات هل يصلى عليه؟، رقم ١٢٩٠.
(٣) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص١٧٥.
(٤) رواه ابن ماجه في السنن، باب التغليظ في قتل مسلم، حديث رقم ٢٦١٩. وهو حديث صحيح صححه الشيخ الألباني.

له جهنم وعليه غضب الله ﷻ، قال الله ﷻ: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾﴾ [النساء].

بل إن الله ﷻ أمر المؤمنين في الآية التالية بالتثبت والتبين في قتل من أظهر الإيمان، لئلا يسفكوا دمًا حرامًا بتأويل ضعيف، قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلَا تَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٩٤﴾﴾ [النساء]» فالله ﷻ لما ذكر جزاء من قتل مؤمنًا متعمدًا وأن له جهنم، وذكر غضب الله عليه ولعنته، وإعداد العذاب العظيم له، أمر المؤمنين بالتثبت والتبين، وأن لا يقدم الإنسان على قتل من أظهر الإيمان، وأن لا يسفكوا دمًا حرامًا بتأويل ضعيف»[1].

والمقصود من هذه الآية المبالغة في تحريم قتل المؤمنين، وأمر المجاهدين بالتثبت فيه لئلا يسفكوا دمًا حرامًا بتأويل ضعيف[2]، «وفيها يأمر الله ﷻ عباده المؤمنين إذا خرجوا جهادًا في سبيله وابتغاء مرضاته بالتثبت في جميع أمورهم المشتبهة»[3]، «وأن يكونوا على بيّنة من الأمر الذي يقدمون عليه بأدلة ظاهرة وقرائن كافية، وألا يأخذوا بالظن السريع، وإنما عليهم التدبّر، حتى يظهر الأمر»[4]، «والتثبت في القتل واجب حضرًا وسفرًا ولا خلاف فيه، وإنما خص السفر بالذكر؛ لأن الحادثة التي فيها نزلت الآية وقعت في السفر»[5].

(١) أبو حيان، البحر المحيط، ٣١/٤، بتصرف يسير.
(٢) الرازي، مفاتيح الغيب، ٣/١١.
(٣) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص١٩٤ بتصرف يسير.
(٤) الزحيلي، التفسير المنير، ج٥، ص٢١٧ بتصرف يسير.
(٥) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج٥، ص٢٥٤.

فيأيها المؤمنون هذا كتاب الله بين أيديكم يناديكم بـ(يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا) فارعوا له سمعكم والتزموا بمضمونه، فأين من يسارعون في تكفير المسلمين، ويسارعون في قتلهم من هذا الخطاب؟! أين هم من حرمة الدم المسلم؟! ومن التثبت في إصدار الأحكام، ومن التثبت في القتل؟[1] ففي الحديث قال رسول الله ﷺ: (كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه)[2]. وإذا كان الله ﷻ أمر بالتثبت في القتل حتى في الجهاد، أليس من باب أولى التثبت فيه في أوقات السلم؟ وإذا كان الله ﷻ أمر بالتثبت في قتل الكافر، أليس من باب أولى التثبت فيه في قتل المسلم؟ بلى، إن الأمر كذلك، والغريب أننا نعيش في عصر يقتل فيه بعضُ أهل الدنيا المسلمين من غير تفريق بين صغير وكبير، وبين رجل وامرأة، ويهدمون البيوت على أهلها من أجل لعاعة من الدنيا، مع أن ديننا ينهى عن قتل النساء والأطفال الكافرين، فكيف بالمسلمين؟! ففي الحديث عن نافع أن عبد الله رضي الله عنه أخبره: (أن امرأة وجدت في بعض مغازي النبي ﷺ مقتولة فأنكر رسول الله ﷺ قتل النساء والصبيان)[3]، فأين أولئك من خُلق الرحمة، فعن عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: (الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا أهل الأرض يرحمكم أهل السماء)[4].

(١) ينظر: وردات، قسيم محمد، منهج القرآن الكريم في التثبت، رسالة دكتوراه، جامعة اليرموك-إربد-الأردن، ٢٠١٢م، ص ١٨١-١٨٣.

(٢) رواه مسلم، كتاب البر والصلة والأدب، باب تحريم ظلم المسلم وخذله واحتقاره.، ج٨، ص١٠، حديث رقم٦٧٠٦.

(٣) رواه البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب قتل الصبيان في الحرب، رقم ٢٨٥١، ج٣، ص١٠٩٨، ومسلم، باب تحريم قتل النساء والصبيان، حديث رقم ٤٦٤٥، ج٥، ص١٤٤.

(٤) رواه الإمام أحمد في المسند، مسند عبدالله بن عمرو بن العاص، رقم٦٤٩٤، ورواه أبو داود في السنن، باب في الرَّحمة، رقم ٤٩٤٩، وهو حديث صحيح صححه الإمام الألباني، وقال شعيب الأرنؤوط: إسناده صحيح.

الخاتمة

بعد هذه الدراسة لا بد من ذكر النتائج التالية:

١. سعة رحمة الله ﷻ بدليل كثرة الأسباب الجالبة للرحمة، مثل الإيمان والتقوى والإحسان والاتباع وغير ذلك، فالله ﷻ لا يريد العذاب للعباد، وإنما يريد لهم الرحمة، قال الله تعالى: ﴿مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴿١٤٧﴾﴾ [النساء]، والله ﷻ بين للناس طريق الخير وطريق الشر ﴿يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ﴾ [الإنسان:٣١] ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾﴾ [البلد]، وأراد لهم طريق الخير شرعًا، ولكن اختار أكثر الناس طريق الشر والكفر، قال الله تعالى ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾ [يوسف]، وقال تعالى: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾﴾ [الأنعام].

٢. شمول رحمة الله ﷻ، حيث نجد رحمته بعباده في هدايتهم وقبول التوبة منهم، وفي إرسال الرسل إليهم، وفي يسر تشريع الأحكام لهم، ورفع الحرج عنهم، وتحريم القتل، ونجد رحمته بالحيوان، بل وبالجماد.

٣. إن دين الإسلام دين الوسطية، ودين الرحمة؛ لأنه الدين الحق الذي ارتضاه الله ﷻ؛ لذلك فهو بعيد كل البعد عن الإرهاب والتطرف، وإن الذين وصفوه بالإرهاب والتطرف، إنما وصفوه بذلك لجهلهم أو حقدهم، أو عداوتهم لدين الإسلام.

٤. إن دين الإسلام دين الفطرة، فهو واضح، ولكن برز من لم يفهمه فخرج عن مبادئ الإسلام في الرحمة واللين والحكمة والموعظة الحسنة، فكان من آثار ذلك ظهور طائفة تكفيرية تقوم بتكفير المسلمين لأتفه الأسباب، وكل ذلك بسبب جهلهم، أو بسبب اندفاعهم غير المبرر، أو بسبب تأويلهم للنصوص بما يخالف حقيقة الإسلام.

فهرس المصادر والمراجع

١. الأحمد نكري، عبد رب النبي بن عبد رب الرسول، دستور العلماء أو جامع العلوم في اصطلاحات الفنون، تحقيق: عرب عباراته الفارسية حسن هاني فحص، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، ط١، ١٤٢١هـ-٢٠٠٠م.

٢. البخاري، محمد بن إسماعيل (٢٥٦هـ)، الجامع الصحيح، تحقيق مصطفى البغا، دار ابن كثير، اليمامة - بيروت، ط٣، ١٤٠٧ - ١٩٨٧.

٣. البغوي: الحسين بن مسعود (٥١٠هـ)، معالم التنزيل، حققه وخرج أحاديثه محمد عبدالله النمر وآخرون، دار طيبة للنشر والتوزيع، ط١، ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م

٤. أبو البقاء الكفوي، أيوب بن موسى (١٠٩٤هـ)، الكليات، تحقيق عدنان درويش - محمد المصري، مؤسسة الرسالة، بيروت -لبنان، د ط، ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م.

٥. البيضاوي، عبدالله بن عمر (٦٩١هـ)، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، تحقيق: محمد عبدالرحمن المرعشلي، دار إحياء التراث العربي، بيروت-لبنان، ط١، ١٤١٨هـ.

٦. البيهقي، أحمد بن الحسين (٤٥٨هـ)، السنن الكبرى، تحقيق: محمد عبدالقادر عطا، مكتبة دار الباز، مكة المكرمة- السعودية، ط. عام ١٤١٤ -١٩٩٤.

٧. الثعلبي، أحمد بن محمد بن إبراهيم (٤٢٧)، الكشف والبيان عن تفسير القرآن، تحقيق: الإمام أبي محمد بن عاشور، دار إحياء التراث العربي، بيروت - لبنان، ط١، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢م.

٨. الترمذي، محمد بن عيسى (٢٧٩هـ)، الجامع الصحيح سنن الترمذي، تحقيق: أحمد محمد شاكر وآخرون، دار إحياء التراث العربي - بيروت.
٩. التهانوي، محمد بن علي (١١٥٨هـ)، كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت - لبنان، د ط، ١٩٩٦م.
١٠. الجرجاني، علي بن محمد (٨١٦هـ)، التعريفات، تحقيق: نصر الدين تونسي، شركة القدس للتصدير، القاهرة-مصر، ط ١، ٢٠٠٧م..
١١. ابن جزي الكلبي، محمد بن أحمد (٧٤١هـ)، التسهيل لعلوم التنزيل، دار الفكر، بيروت-لبنان، د ط.
١٢. ابن الجوزي، عبدالرحمن بن علي (٥٩٧)، زاد المسير في علم التفسير، تحقيق: عبدالرزاق المهدي، دار الكتاب العربي - بيروت، ط١، ١٤٢٢هـ.
١٣. ابن الجوزي، عبدالرحمن بن علي (٥٩٧هـ)، نزهة الأعين النواظر في علم الوجوه والنظائر، تحقيق: محمد عبدالكريم كاظم الراضي، مؤسسة الرسالة، بيروت -لبنان، ط١، ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م.
١٤. الجوهري، إسماعيل بن حماد، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، تحقيق: أحمد عبدالغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت- لبنان، ط٤، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.
١٥. ابن حنبل، أحمد بن محمد(٢٤١هـ)، المسند، تحقيق: شعيب الأرنؤوط- عادل مرشد، وآخرون، مؤسسة الرسالة، ط ١، ١٤٢١هـ - ٢٠٠١م
١٦. أبو حيان: محمد بن يوسف الأندلسي (٧٤٥هـ)، البحر المحيط، تحقيق: صدقي محمد جميل، دار الفكر - بيروت، ط عام١٤٢٠هـ.
١٧. الخازن، علي بن محمد (٧٤١)، لباب التأويل في معاني التنزيل، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، د ط، ١٤١٥هـ.
١٨. أبو داود، سليمان بن الأشعث السجستاني (٢٧٥)، سنن أبي داود، دار الكتاب العربي، بيروت - لبنان، د ط.

١٩. الدامغاني، أبو عبدالله الحسين بن محمد (٤٧٨هـ)، الوجوه والنظائر لألفاظ كتاب الله العزيز، تحقيق: عربي عبدالحميد، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، د ط.
٢٠. الرازي، محمد بن عمر التيمي (٦٠٦هـ)، مفاتيح الغيب، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط ١، ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م.
٢١. الراغب الأصفهاني، الحسين بن محمد بن المفضل (٥٠٢هـ)، تفسير الراغب الأصفهاني ومقدمته، تحقيق: عادل بن علي الشِّدِي، دار الوطن، الرياض-السعودية، ط١، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م.
٢٢. المفردات في غريب القرآن، تحقيق: صفوان عدنان الداودى، دمشق بيروت، دار العلم الدار الشامية، د ط، ١٤١٢هـ.
٢٣. الزحيلي، وهبة بن مصطفى، تفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، دار الفكر المعاصر، دمشق، ط٢، ١٤١٨هـ.
٢٤. الزمخشري، محمود بن عمر(٥٣٨هـ)، الفائق في غريب الحديث، تحقيق: علي محمد البجاوي - محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعرفة، بيروت-لبنان، ط ٢.
٢٥. الزمخشري، محمود بن عمر (٥٣٨هـ)، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، دار الكتاب العربي، بيروت-لبنان، ط عام١٤٠٧هـ
٢٦. السعدي، عبدالرحمن بن ناصر (١٣٧٦هـ)، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، تحقيق: عبدالرحمن بن معلا اللويحق، مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤٢٠هـ -٢٠٠٠ م.
٢٧. أبو السعود، محمد بن محمد بن مصطفى (٩٨٢هـ)، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، دار إحياء التراث العربي، بيروت-لبنان، د ط.

٢٨. السمرقندي، نصر بن محمد بن إبراهيم (٣٧٥هـ)، بحر العلوم، تحقيق: محمود مطرجي، دار الفكر بيروت – لبنان، د ط.
٢٩. السمعاني، منصور بن محمد (٤٨٩هـ)، تفسير القرآن، تحقيق ياسر بن إبراهيم وغنيم بن عباس بن غنيم، دار الوطن، الرياض- السعودية، د ط، ١٤١٨هـ- ١٩٩٧م.
٣٠. السمين الحلبي، أحمد بن يوسف بن عبدالدايم (٧٥٦هـ)، عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ، تحقيق: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، ط ١، ١٤١٧هـ-١٩٩٦م.
٣١. الشوكاني، محمد بن علي (١٢٥٠هـ)، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، دار ابن كثير، دار الكلم الطيب – دمشق، بيروت، ط١ – ١٤١٤هـ.
٣٢. الصابوني، محمد علي (١٤٣٦هـ)، صفوة التفاسير، دار الصابوني للطباعة والنشر والتوزيع – القاهرة، ط١، ١٤١٧هـ
٣٣. الطبري، محمد بن جرير (٣١٠هـ)، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، تحقيق: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤٢٠هـ- ٢٠٠٠م.
٣٤. طنطاوي، محمد سيد، التفسير الوسيط للقرآن الكريم، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، الفجالة – القاهرة، ط١.
٣٥. العظيم آبادي، محمد شمس الحق، عون المعبود شرح سنن أبي داود، تحقيق: عبدالرحمن محمد عثمان، المكتبة السلفية – المدينة المنورة، ط٢، ١٣٨٨هـ، ١٩٦٨م.
٣٦. الغزالي، محمد٠(١٤١٦هـ)، خلق المسلم، دار نهضم مصر، ط١.
٣٧. الفيروزآبادي، محمد بن يعقوب (٨١٧هـ)، بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، تحقيق: محمد علي النجار، لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة، د ط.

٣٨. الفيروزآبادي، محمد بن يعقوب (٨١٧هـ)، القاموس المحيط، تحقيق: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، بيروت – لبنان، ط٨، ١٤٢٦هـ – ٢٠٠٥م
٣٩. ابن فارس، أحمد بن فارس بن زكريا (٣٩٥هـ)، معجم مقاييس اللغة، تحقيق: عبدالسلام محمد هارون، دار الفكر، بيروت.
٤٠. القاسمي، محمد جمال الدين، محاسن التأويل، تحقيق عبدالقادر عرفان، ط١، ١٤٢٥هـ-٢٠٠٥م، دار الفكر، بيروت – لبنان.
٤١. القرطبي، محمد بن أحمد (٦٧١هـ)، الجامع لأحكام القرآن، تحقيق أحمد البرد وني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية – القاهرة، ط ٢، ١٣٨٤هـ – ١٩٦٤م.
٤٢. ابن قيم الجوزية: محمد بن أبي بكر (٧٥١هـ)، إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان، تحقيق: محمد حامد الفقي، مكتبة المعارف، الرياض، المملكة العربية السعودية، د ط.
٤٣. ابن كثير، إسماعيل بن عمر (٧٧٤هـ)، تفسير القرآن العظيم، تحقيق: محمد حسين، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، ط١، ١٤١٩هـ.
٤٤. ابن ماجه، محمد بن يزيد (٢٧٣هـ)، سنن ابن ماجه، تحقيق محمد فؤاد عبدالباقي، دار الفكر، بيروت – لبنان، ط د.
٤٥. محمد فؤاد عبدالباقي، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، دار الحديث، القاهرة-مصر، د ط، ١٤٢٢هـ-٢٠٠١ م.
٤٦. مجموعة من العلماء بإشراف مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر، التفسير الوسيط للقرآن الكريم، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، ط١، ١٣٩٣هـ-١٤١٤هـ.
٤٧. مسلم بن الحجاج (٢٦٢هـ)، صحيح مسلم، دار الجيل بيروت + دار الافاق الجديدة- بيروت، ط د.

٤٨. مكي بن أبي طالب، مكي بن حموش (٤٣٧هـ)، الهداية إلى بلوغ النهاية في علم معاني القرآن وتفسيره، وأحكامه، وجمل من فنون علومه، تحقيق: مجموعة رسائل جامعية بكلية الدراسات العليا والبحث العلمي-جامعة الشارقة، بإشراف: أ. د: الشاهد البوشيخي، مجموعة بحوث الكتاب والسنة - كلية الشريعة والدراسات الإسلامية- جامعة الشارقة، ط١، ١٤٢٩هـ- ٢٠٠٨م.

٤٩. المناوي، محمد عبدالرؤوف بن تاج العارفين بن علي (١٠٣١هـ)، التوقيف على مهمات التعاريف، تحقيق: محمد رضوان الداية، دار الفكر - بيروت -لبنان، ط١، ١٤١٠هـ.

٥٠. ابن منظور، محمد بن مكرم (٧١١هـ)، لسان العرب، تحقيق عبدالله علي وآخرون، دار المعارف، القاهرة-مصر، د ط.

٥١. أبو هلال العسكري، الحسن بن عبدالله (٣٩٥هـ)، معجم الفروق اللغوية، تحقيق: محمد إبراهيم سليم، دار العلم والثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة - مصر، د ط، ١٤٠١هـ-١٩٨١م.

٥٢. الواحدي، علي بن أحمد (٤٦٨هـ)، الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تحقيق: صفوان عدنان الداودي، دار القلم، دمشق، ط١، ١٤١٥هـ-١٩٩٥م.

٥٣. وردات، قسيم محمد، منهج القرآن الكريم في التثبت، رسالة دكتوراه، جامعة اليرموك- الأردن -إربد-، ٢٠١٢م.

٥٤. السرجاني، راغب، مقالة بعنوان: الرحمة في الإسلام (١٢-٦-٢٠١١) - موقع قصة الإسلام. من islamstory. com/ar/.

الرحمة والأسباب الجالبة لها في القرآن الكريم

إعداد:
د. نادية بنت إبراهيم النفيسة
وكيلة مركز دراسة الطالبات



مقدمة

الحمد لله رب العالمين، الرحمن الرحيم، مالك يوم الدين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، هو أرحم بعباده من الوالدة بولدها، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، وصفه الله بأنه رؤوف رحيم، وهاد إلى صراط الله المستقيم، صلى الله عليه، وعلى آله، وأصحابه، وأتباعه المستمسكين بسنته، المهتدين بهديه إلى يوم الدين.

أما بعد:

فإن الرحمة من الخُلُق العظيم، أودعَها الربُّ في من شاءَ من خلقه، وحُرِمَها الشقيُّ من الخلق، وقد رغّب الإسلامُ في التخلُّق بالرحمة، ووعدَ الله على الرحمة بالأجر الكريم، والسعادة الدنيوية والأُخروية، والرحمةُ من أعظم خِصال الإيمان، وأجلِّ أنواع الإحسان.

وهي صفةُ كمالٍ في المُكلّف، اتّصَف بكمالها نبيُّنا محمدٌ ﷺ، وغيرُه من البشر دونَه في هذه الصفة العظيمة.

قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة:١٢٨].

وأما صفةُ الرحمة لربِّ العالمين، فنُثبِتُ معناها، وحقيقتَها على ما يليقُ بالله ﷻ.

فإن الله ﷻ أرحم الراحمين، وهو أرحم بعباده من الوالدة بولدها، فبرحمته خلقنا، وبرحمته رزقنا، وبرحمته عافانا، وأطعمنا، وسقانا، وكسانا، وآوانا، وبرحمته هدانا للإسلام، والإيمان، والعمل الصالح، وبرحمته علمنا ما لم نكن نعلم.

ومن خلال هذ البحث المختصر تحدثت عن هذه الصفة العالية القدر، وسعيت من خلاله لتحقيق عدة أهداف، وهي:

الأهداف العامة:

١. التعريف بهذه الصفة، كخلق يحث عليه الإسلام، وكصفة ثابتة لله ﷻ.

٢. بيان سعة رحمة الله ﷻ بما يعزز جانب الرجاء لدى العبد، ويحثه على تحصيل أسبابها.

الأهداف الخاصة:

١. بيان معنى الرحمة لغة، واصطلاحًا.

٢. بيان الفرق بين الرحمة، والرأفة، والرحمن، والرحيم.

٣. بيان الأسباب المعينة على التخلق بهذا الخلق.

٤. إثبات صفة الرحمة لله ﷻ.

٥. بيان الأسباب الجالبة لرحمة الله ﷻ.

وقد اقتضت طبيعة البحث أن أقسمه إلى ثلاثة مباحث، وتحت كل مبحث عدة مطالب:

المبحث الأول: التعريف بالرحمة. وفيه مطلبان:

المطلب الأول: معنى الرحمة لغة، واصطلاحًا.

المطلب الثاني: الفرق بين الرحمة، والرأفة.

المبحث الثاني: الرحمة في حق العبد. وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: أنواع الرحمة.

المطلب الثاني: آثار رحمته ﷻ من خلال القرآن الكريم.

المطلب الثالث: الأسباب المعينة على التخلق بخلق الرحمة.

المبحث الثالث: الرحمة في حق الله ﷻ. وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: الرحمة صفة ثابتة لله ﷻ.

المطلب الثاني: الفرق بين الرحمن، والرحيم.

المطلب الثالث: الأسباب الجالبة لرحمة الله ﷻ.

المبحث الأول
التعريف بالرحمة

وفيه مطلبان:

المطلب الأول
معنى الرحمة لغة، واصطلاحًا

لغة:

الرقة، والعطف.

قال ابن فارس: "(ر ح م) الراء، والحاء، والميم أصل واحد يدل على الرقة، والعطف، والرأفة"[1]. فالرحمة: الرقة، والتعطف، والمرحمة مثله، وقد رحمته، وترحمت عليه، وتراحم القوم: رحم بعضهم بعضًا[2].

والرُّحْم، والمَرْحَمة، والرَّحمَة بمعنى واحد[3].

والرحمة وإن كانت حقيقتها رقة القلب، وانعطاف النفس المقتضيان للمغفرة، والإحسان، فإنها لن تكون دائمًا مجرد عاطفة نفسية لا أثر لها

(١) مقاييس اللغة، ابن فارس (٢/ ٤٩٨).
(٢) الصحاح، الجوهري (ر ح م)، لسان العرب، ابن منظور (ر ح م).
(٣) مقاييس اللغة (٢/ ٤٩٨).

في الخارج، بل إنها ذات آثار خارجية، ومظاهر حقيقية تتجسم فيها في عالم الشهادة.

ومن آثار الرحمة الخارجية: العفو عن ذي الزلة، والمغفرة لصاحب الخطيئة، وإغاثة الملهوف، ومساعدة الضعيف، وإطعام الجائع، وكسوة العاري، ومداواة المريض، ومواساة الحزين، كل هذه من آثار الرحمة، وغيرها كثير[1].

فالنعم، والإحسان كلها من آثار رحمة الله، وجوده، وكرمه، وخيرات الدنيا، والآخرة كلها من آثار رحمته[2].

اصطلاحًا:

الرحمة: «حالة وجدانية تعرض غالبًا لمن به رقة القلب، وتكون مبدأ للانعطاف النفساني الذي هو مبدأ الرحمة»[3].

والرحمة سبب واصل بين الله، وعباده، بها أرسل إليهم رسله، وأنزل عليهم كتبه، وبها هداهم، وبها أسكنهم دار ثوابه، وبها رزقهم، وعافاهم»[4].

وعرفها ابن القيم بقوله: «هي صفة تقتضي إيصال المنافع، والمصالح إلى العبد، وإن كرهتها نفسه، وشقت عليها».

ثم قال: «فهذه هي الرحمة الحقيقية، فأرحم الناس بك من شق عليك في إيصال مصالحك، ودفع المضار عنك».

فمن رحمة الأب بولده: أن يكرهه على التأدب بالعلم، والعمل، ويشق عليه في ذلك بالضرب، وغيره، ويمنعه شهواته التي تعود بضرره، ومتى

(١) منهاج المسلم، لأبي بكر الجزائري.
(٢) تفسير السعدي.
(٣) الكليات للكفوي (٤٧١).
(٤) بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، للفيروزآبادي (٥٤/٣).

أهمل من والده كان لقلة رحمته به، وإن ظن أنه يرحمه، ويرفّهُهُ، ويريحه، فهذه رحمة مقرونة بجهل، كرحمة بعض الأمهات، ولهذا كان من إتمام رحمة أرحم الراحمين تسليط أنواع البلاء على العبد، فإنه أعلم بمصلحته، فابتلاؤه له، وامتحانه، ومنعه من كثير من أعراضه، وشهواته من رحمته به، ولكن العبد لجهله، وظلمه يتهم ربه بابتلائه، ولا يعلم إحسانه إليه بابتلائه، وامتحانه.

فمن رحمته ﷻ بعباده: ابتلاؤهم بالأوامر، والنواهي رحمة وحمية، لا حاجة منه إليهم بما أمرهم به، فهو الغني الحميد، ولا بخلًا منه عليهم بما نهاهم عنه، فهو الجواد الكريم.

ومن رحمته: أن نغص عليهم الدنيا، وكدرها؛ لئلا يسكنوا إليها، ولا يطمئنوا إليها، ويرغبوا في النعيم المقيم في داره، وجواره، فساقهم إلى ذلك بسياط الابتلاء، والامتحان، فمنعهم ليعطيهم، وابتلاهم ليعافيهم، وأماتهم ليحييهم.

ومن رحمته بهم: أن حذرهم نفسه؛ لئلا يغتروا به، فيعاملوه بما لا تحسن معاملته به، كما قال تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفۡسَهُۥۗ وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلۡعِبَادِ﴾ [آل عمران:٣٠].

قال غير واحد من السلف: من رأفته بالعباد: أن حذرهم من نفسه؛ لئلا يغتروا به[1].

ولقد وردت مادة (ر ح م) في القرآن الكريم ثلاثمائة وثماني وثلاثين مرة، وإذا أضفنا لها البسملة التي في مقدمة سورة الفاتحة باعتبارها آية عند بعض العلماء، فإنها تكون ثلاثمائة وتسعًا وثلاثين مرة على النحو التالي:

(١) إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان، ابن القيم (٢/ ١٧٤).

وردت بصيغة الفعل الماضي ثماني مرات:

رَحِمَ	رَحِمَهُ،	رَحِمَنَا	رَحِمَتُهُ،	رَحِمَنَهُمْ
٤				

وردت بصيغة الفعل المضارع أربع عشرة مرة:

تُرْحَمُونَ	يَرْحَمُكُمْ	وَتَرْحَمْنَا	يَرْحَمْنَا	وَتَرْحَمْنِيٓ	وَيَرْحَمُ
٨	٢				

وردت بصيغة فعل الأمر خمس مرات:

وَٱرْحَمْنَا	وَٱرْحَمْ	ٱرْحَمْهُمَا
٣		

وردت بصيغة المستقبل مرة واحدة: ﴿سَيَرْحَمُهُمُ﴾.

وردت بصيغة اسم المرة مائة وأربع عشرة مرة:

رَحْمَةً	رَحْمَتَهُۥ	رَحْمَتِكَ	رَحْمَتِنَآ	وَرَحْمَتِي
٧٩	٢٥	٣	٥	٢

وردت بصيغة المصدر مرتين: ﴿بِٱلْمَرْحَمَةِ﴾ - ﴿رُحْمًا﴾.

وردت بصيغة اسم التفضيل أربع مرات: ﴿أَرْحَمُ﴾.

وردت بصيغة اسم الذات اثنتي عشرة مرة:

ٱلْأَرْحَامُ	أَرْحَامَكُمْ	أَرْحَامِهِنَّ
٩	٢	١

وردت بالجمع لصيغة المبالغة مرة واحدة: ﴿رُحَمَآءُ﴾.[1]

(١) المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبدالباقي (٣-٦).

المطلب الثاني
الفرق بين الرأفة، والرحمة

لقد ورد هذان الاسمان: ﴿ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ في القرآن الكريم مقترنين تسع مرات:

قال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [البقرة:١٤٣].

قال تعالى: ﴿ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِىِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التوبة:١١٧].

قال تعالى: ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التوبة:١٢٨].

قال تعالى: ﴿ أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخْسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٤٥﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِى تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٤٦﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [النحل:٤٥-٤٧].

قال تعالى: ﴿ وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [النحل:٥-٧].

قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الحج:٦٥].

قال تعالى: ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [النور:٢٠].

قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦٓ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖ لِّيُخۡرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾ [الحديد:٩].

قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر:١٠].

فما معنى الرأفة؟

وما الفرق بينها، وبين الرحمة؟

الرأفة من (ر أ ف) الراء، والهمزة، والفاء كلمة واحدة تدل على رقة، ورحمة، وهي الرأفة[١]، والرأفة: الرحمة، وقيل: أشد الرحمة[٢].

جاء في الصحاح: «الرأْفَةُ: أشدُّ الرحمة. قال أبو زيد: رَؤُفْتُ بالرجل أرْؤُفُ به رأْفَةً، ورآفةً، ورأفْت به أرأف، ورِئفتُ به رأفًا، قال: كل من كلام العرب، فهو رؤوفٌ على فَعُولٍ»[٣].

الفرق بينها، وبين الرحمة:

كما قيل في الرأفة: إنها أشد الرحمة، قيل: إن الرحمة قد تقع في الكراهة للمصلحة، وأما الرأفة، فلا تكاد تقع في الكراهية.

قال الزَّجَّاج: "يقال: إنَّ الرأفةَ، والرحمة واحدٌ، وقد فرَّقوا بينهما -أيضًا-، وذلك أن الرأفةَ هي المنزلةُ الثانية، يقال: فلانٌ رحيم، فإذا اشتدَّت رحمته، فهو رَؤُوف"[٤].

قال ابن جرير رَحِمَهُ اللَّهُ عند قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾:

(١) مقاييس اللغة، ابن فارس (٤٧١/٢).
(٢) لسان العرب، ابن منظور (١١٢/٩).
(٣) الصحاح، (ر ح م).
(٤) تفسير أسماء لله الحسنى (٦٢).

«إن الله بجميع عباده ذو رأفة، والرأفة أعلى معاني الرحمة، وهي عامة لجميع الخلق في الدنيا، ولبعضهم في الآخرة»[1].

وقال الخطابي: « (الرؤوف) هو: الرحيم العاطف برأفته على عباده. وقال بعضهم: الرأفة أبلغ الرحمة، وأرقها. ويقال: إن الرأفة أخص، والرحمة أعم. وقد تكون الرحمة في الكراهة للمصلحة، ولا تكاد الرأفة تكون في الكراهة، فهذا موضع الفرق بينهما»[2].

وفي الكليات: «الرحمة هي: أن يوصل إليك المسار، والرأفة هي: أن يدفع عنك المضار، فالرحمة من باب التزكية، والرأفة من باب التخلية، والرأفة مبالغة في رحمة مخصوصة، هي: رفع المكروه، وإزالة الضر، فذكر الرحمة بعدها في القرآن؛ لتكون أعم، وأشمل»[3].

والخلاصة:

إن الرأفة أخصُّ من الرحمة، فالرأفة مخصوصة بدفع المكروه، وإزالة الضرر، والرحمة عامة، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء:١٠٧]، وقال تعالى: ﴿فَوَجَدَا عَبۡدٗا مِّنۡ عِبَادِنَآ ءَاتَيۡنَٰهُ رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِنَا﴾ [الكهف:٦٥] ليست مخصوصة بدفع مكروه[4].

(١) تفسير الطبري (١٢/٢).
(٢) شأن الدعاء (٩١). للاستزادة: كتاب النهج الأسمى في شرح أسماء الله الحسنى، محمد محمود النجدي (٢١٦/٢)، ولله الأسماء الحسنى، عبدالعزيز ناصر الجليل (٥٣٥-٣٣٦).
(٣) الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية، الكفوي (٤٧١/١).
(٤) لمسات بيانية، د. فاضل السامرائي (١٣٨).

المبحث الثاني
الرحمة في حق العبد

وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول
أنواع الرحمة

إن الرحمة من الأخلاق العظيمة التي يمتن الله على عباده بالتخلق بها، وقد حث الإسلام على التخلق بهذا الخلق العظيم، فكل خلق حسن حث عليه الإسلام فبإمكان الشخص اكتسابه.

وقد ذكر العلماء لهذه الرَّحْمَة التي يتصف بها العبد نوعين[1]:

النوع الأول:

رحمة غريزية جبل الله بعض العباد عليها، وجعل في قلوبهم الرأفة، والرحمة، والحنان على الخلق، ففعلوا بمقتضى هذه الرحمة جميع ما يقدرون عليه من نفعهم بحسب استطاعتهم، فهم محمودون مثابون على ما قاموا به، معذورون فيما عجزوا عنه، وربما كتب الله لهم بنياتهم الصادقة ما عجزت عنه قواهم.

(١) بهجة قلوب الأبرار وقرة عيون الأخيار، ابن سعدي (١٨٨-١٩٠).

النوع الثاني:

رحمة يكتسبها العبد بسلوكه كل طريق، ووسيلة تجعل قلبه على هذا الوصف، فيعلم العبد أن هذا الوصف من أجلِّ مكارم الأخلاق، وأكملها، فيجاهد نفسه في الاتصاف به، ويعلم ما رتب الله عليه من الثواب، وما في فواته من حرمان الثواب، فيرغب في فضل ربه، ويسعى إلى السبب الذي ينال به ذلك، ويعلم أن الجزاء من جنس العمل، ويعلم أن الأخوة الدينية، والمحبة الإيمانية قد عقدها الله، وربطها بين المؤمنين، وأمرهم أن يكونوا إخوانًا متحابين، وأن ينبذوا كل ما ينافي ذلك من البغضاء، والعداوات، والتدابر.

فلا يزال العبد يتعرف على الأسباب التي يدرك بها هذا الوصف الجليل، ويجتهد في التحقق به؛ حتى يمتلئ قلبه من الرَّحْمَة، والحنان على الخلق، ويا حبذا هذا الخلق الفاضل، والوصف الجليل الكامل، وهذه الرَّحْمَة التي في القلوب أن تظهر آثارها على الجوارح، واللسان، من خلال السعي في إيصال البر، والخير، والمنافع إلى النَّاس، وإزالة الأضرار، والمكاره عنهم.

وعلامة الرحمة الموجودة في قلب العبد: أن يكون محبًا لإيصال الخير لكافة الخلق عمومًا، وللمؤمنين خصوصًا، كارهًا حصول الشر، والضرر لهم، فبقدر هذه المحبة، والكراهة تكون رحمته.

ولابن القيم كلام جميل؛ حيث قال: «فإن قلت: هل يمكن أن يقع الخلق كسبيًا، أو هو أمر خارج عن الكسب؟

قلت: يمكن أن يقع كسبيًا بالتخلق، والتكلف حتى يصير له سجية، وملكة، وقد قال النبي ﷺ لأشج عبدالقيس رضي الله عنه: «إن فيك لخلقين يحبهما الله: الحلم، والأناة». فقال: أخلقين تخلقت بهما، أم جبلني الله عليهما؟

فقال: «بل جبلك الله عليهما». فقال: الحمد لله الذي جبلني على خلقين يحبهما الله، ورسوله[1].

فدل على أن من الخلق ما هو طبيعة، وجبلة، ومنه ما هو مكتسب، وكان النبي ﷺ يقول في دعاء الاستفتاح: «اللهم اهدني لأحسن الأخلاق، لا يهدي لأحسنها إلا أنت، واصرف عني سيئها، لا يصرف عني سيئها إلا أنت». فذكر الكسب، والقدر، -والله أعلم-»[2].

المطلب الثاني
آثار رحمته ﷻ من خلال القرآن الكريم[3]

إن المتأمل في آثار رحمة الله ﷻ يجد نفسه عاجزًا عن تعددها، ولو أشغل عمره في ذلك ما كفاه.

قال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف:١٥٦].

وقال: ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ [غافر:٧].

وقال تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [إبراهيم:٣٤].

ومن أعظم، وأكبر رحماته ﷻ: إرساله الرسل، وإنزاله الكتب.

قال تعالى ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء:١٠٧].

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٤٨/١) ح: (١٨) كتاب الإيمان، باب الأمر بالإيمان بالله ورسوله، وشرائع الدين، والدعاء إليه.
(٢) مدارج السالكين، ابن القيم (٣٠٠/٢).
(٣) للاستزادة في صور الرحمة ينظر: مختصر الفقه الإسلامي في ضوء القرآن والسنة، محمد التويجري، (٢٨١)، والخُلق الحسن في ضوء الكتاب والسنة، سعيد القحطاني، (١٤٦-١٥٩)، وأسباب الرحمة، جمع عبدالله الجار الله، نسخة Pdf، موسوعة الأخلاق الإسلامية، مجموعة من الباحثين بإشراف الشيخ عَلوي بن عبدالقادر السقاف (٢٤٢/١).

ومن رحمته ﷺ: أن أساس دعوته، وتعامله ﷺ خُلق الرحمة.

قال تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران:١٥٩].

وقال تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة:١٢٨].

وجعلها تعالى من صفات المؤمنين.

قال تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ﴾ [الفتح:٢٩].

وهي وصية القرآن الكريم، ووصية النبي الأمين ﷺ.

قال تعالى: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ﴾ [البلد:١٧].

ومن آياته الدالة على رحمته، وعنايته بعباده، وحكمته العظيمة: ما رتب على الزواج من الأسباب الجالبة للمودة، والرحمة، فحصل بالزوجة الاستمتاع، واللذة، والمنفعة بوجود الأولاد، وتربيتهم، والسكون إليها، فلا تجد بين أحد في الغالب مثل ما بين الزوجين من المودة، والرحمة[1].

قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ [الروم:٢١].

ومن رحمته: أن أمر الأولاد ببر بالوالدين، وخفض جناح الذُّل من الرَّحْمَة لهما.

قال تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ [الإسراء:٢٣].

ومن آثار رحمته: إنزاله الغيث.

قال تعالى: ﴿فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ﴾ [الروم:٥٠].

(١) تفسير السعدي (٦٣٩).

ومن رحمته ﷻ: فتح باب التوبة لعباده، ومغفرته لذنوبهم، وتكفير سيئاتهم.

قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ [الزمر:٥٣].

يقول ابن القيم: «فبرحمته أرسل إلنا رسوله ﷺ، وأنزل علينا كتابه، وعلمنا من الجهالة، وهدانا من الضلالة، وبصرنا من العمى، وأرشدنا من الغي، وبرحمته عرفنا من أسمائه، وصفاته، وأفعاله ما عرفنا به أنه ربنا، ومولانا، وبرحمته علمنا ما لم نكن نعلم، وأرشدنا لمصالح ديننا، ودنيانا، وبرحمته أطلع الشمس، والقمر، وجعل الليل، والنهار، وبسط الأرض، وجعلها مهادًا، وفراشًا، وقرارًا، وكفاتًا للأحياء، والأموات، وبرحمته أنشأ السحاب، وأنزل المطر، وأطلع الأقوات، والفواكه، والمرعى، وبرحمته سخر لنا الخيل، والإبل، والأنعام، وذللها منقادة للركوب، والحمل، والأكل، والدر، ومن رحمته وضع الرحمة بين عباده؛ ليتراحموا بها، وكذلك بين سائر أنواع الحيوان، فهذا التراحم الذي بينهم بعض آثار الرحمة التي هي صفته، ونعته، واشتق لنفسه منها اسم ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، وأوصل إلى خلقه معاني خطابه برحمته، وبصرهم، ومكن لهم أسباب مصالحهم برحمته، وأوسع المخلوقات عرشه، وأوسع الصفات رحمته، فاستوى على عرشه الذي وسع المخلوقات بصفة رحمته التي وسعت كل شيء، ولما استوى على عرشه بهذا الاسم الذي اشتقه من صفته، وتسمى به دون خلقه، كتب بمقتضاه على نفسه يوم استوائه على العرش حين قضى الخلق كتابًا، فهو عنده وضعه على عرشه أن رحمته سبقت غضبه، وكان هذا الكتاب العظيم الشأن كالعهد منه ﷻ للخليقة كلها، والأناة، فكان قيام العالم العلوي، والسفلي بمضمون هذا الكتاب الذي لولاه لكان للخلق شأن آخر...

ومن رحمته أنه يعيذ من سخطه برضاه، ومن عقوبته بعفوه، ومن نفسه بنفسه، ومن رحمته أن خلق للذكر من الحيوان أنثى من جنسه، وألقى بينهما المحبة، والرحمة؛ ليقع بينهما التواصل الذي به دوام التناسل، وانتفاع الزوجين، ويمتع كل واحد منهما بصاحبه، ومن رحمته أحوج الخلق بعضهم إلى بعض؛ لتتم بينهم مصالحهم، ولو أغنى بعضهم عن بعض لتعطلت مصالحهم، وفسد نظامهم، وكان من تمام رحمته بهم أن جعل فيهم الغني، والفقير، والعزيز، والذليل، والعاجز، والقادر، والراعي، والمرعى، ثم أفقر الجميع إليه، ثم عم الجميع برحمته، ومن رحمته أنه خلق مائة رحمة، كل رحمة منها طباق ما بين السماء، والأرض، فأنزل منها إلى الأرض رحمة واحدة نشرها بين الخليقة؛ ليتراحموا بها، فبها تعطف الوالدة على ولدها، والطير، والوحش، والبهائم، وبهذه الرحمة قوام العالم ونظامه.

وتأمل قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ﴾ [الرحمن:١-٤]، كيف جعل الخلق، والتعليم ناشئًا عن صفة الرحمة، متعلقًا باسم الرحمن، وجعل جميع معاني السورة مرتبطة بهذا الاسم، وختمها بقوله: ﴿تَبَارَكَ ٱسۡمُ رَبِّكَ ذِي ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ﴾ [الرحمن:٧٨] فالاسم الذي تبارك هو الاسم الذي افتتح به السورة؛ إذ مجيء البركة كلها منه، وبه وضعت البركة في كل مبارك، فكل ماذكر عليه بورك فيه، وكل ما أخلي منه نزعت منه البركة، فإن كان مذكّى، وخلا من اسمه كان ميتة، وإن كان طعامًا، وشارك صاحبه فيه الشيطان، وإن كان مدخلًا دخل معه فيه، وإن كان حدثًا لم يرفع عند كثير من العلماء، وإن كان صلاة لم تصح عند كثير منهم، ولما خلق ﷻ الرحم، واشتق اسمها من اسمه، وأراد إنزالها إلى الأرض تعلقت به ﷻ، فقال لها: «مه»، فقالت: هذا مقام العائذ بك من القطيعة، فقال: «ألا ترضين أن أصل من وصلك، وأقطع من قطعك». وهي متعلقة بالعرش لها حُجْنَةٌ كَحُجْنَةِ المِغزل، وكان تعلقها بالعرش رحمة منه

بها، وإنزالُها إلى الأرض رحمة منه بخلقه، ولما علم ﷻ ما تلقاه من نزولها إلى الأرض، ومفارقتها لما اشتقت منه رحمها بتعلقها بالعرش، واتصالها به، وقوله لها: «ألا ترضين أن أصل من وصلك، وأقطع من قطعك»[1] [2].

المطلب الثالث
الأسباب المعينة على التخلق بخلق الرحمة

حري بكل مسلم أن يحرص على التخلق بهذا الخلق السامي الذي إذا تمكَّن في القلب ظهرت آثارُه على العبد في الجوارح، واللسان، وحرص على البر، وبذل الخير، والمنافع للناس، فلذلك يجتهد في تحصيل الأسباب التي تعينه على التخلق بهذا الخلق، ومنها[3]:

١. أن ينظر في كتاب الله، وفي سنة رسوله ﷺ، فينظر النصوص الدالة على مدح ذلك الخلق العظيم الذي يريد أن يتخلق به، فالمؤمن إذا رأى النصوص تمدح شيئًا من الأخلاق، أو الأفعال، فإنه سوف يقوم به.

يقول ابن القيم: "وتزكية النفوس أصعب من علاج الأبدان، وأشد، فمن زكى نفسه بالرياضة، والمجاهدة، والخلوة التي لم يجئ بها الرسل، فهو كالمريض الذي عالج نفسه برأيه، وأين يقع رأيه من معرفة الطبيب؟ فالرسل أطباء القلوب، فلا سبيل إلى تزكيتها، وصلاحها، إلا من طريقهم، وعلى أيديهم، وبمحض الانقياد، والتسليم لهم -والله المستعان-"[4].

(١) أخرجه البخاري في صحيحه برقم: (٤٨٣٠)، ومسلم في صحيحه برقم: (٢٥٥٤).
(٢) كتاب الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة لابن القيم (٣٥٦-٣٥٨).
(٣) ينظر: مكارم الأخلاق، ابن عثيمين، (٣٣-٣٥)، وموسوعة الأخلاق الإسلامية، إعداد: مجموعة من الباحثين بإشراف الشيخ عَلوي بن عبدالقادر السقاف (٢٤٤/١).
(٤) مدارج السالكين، ابن القيم (٣٠٠/٢).

٢. مجالسة الرحماء، ومخالطتهم، والابتعاد عن ذوي الغلظة، والفظاظة، فالمرء يكتسب من جلسائه طباعهم وأخلاقهم.

٣. تربية الأبناء على هذا الخلق العظيم، ومحاولة غرسه في قلوبهم، ومتى نشأ الناشئ على الرَّحْمَة ثبتت في قلبه، وأصبحت سجيَّة له -بإذن الله.

٤. معرفة جزاء الرحماء، وثوابهم، وأنهم هم الجديرون برحمة الله دون غيرهم، ومعرفة عقوبة الله لأصحاب القلوب القاسية، فإنَّ هذا مما يدفع إلى التخلق بصفة الرحمة، ويردع عن القسوة.

٥. معرفة الآثار المترتبة على التحلي بهذا الخلق، والثمار التي يجنيها الرحماء في الدنيا قبل الآخرة.

٦. الاختلاط بالضعفاء، والمساكين، وذوي الحاجة، فإنَّه ممَّا يرقِّق القلب، ويدعو إلى الرَّحْمَة، والشفقة بهؤلاء، وغيرهم.

المبحث الثالث
الرحمة في حق الله ﷻ

وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول
الرحمة صفة ثابتة الله ﷻ

من عقيدة أهل السنة والجماعة إثبات صفات الله الثابتة في كتابه، وسنة رسوله، كما أثبتها ﷻ لنفسه، وأثبتها له رسوله من غير تمثيل، ولا تكييف، ولا تعطيل، ولا تشبيه.

ومن هذه الصفات: صفة الرحمة لله ﷻ، وقد وردت عدة آيات في إثباتها، قال تعالى: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ [غافر:٧].

وقال تعالى: ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب:٤٣].

وقال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف:١٥٦].

مع الإيمان بأن «الرحمة أثبتها الله لنفسه رحمة حقيقة دل عليها السمع، والعقل، أما السمع، فهو ماجاء في الكتاب، والسنة من إثبات الرحمة لله، وهو كثير جدًا، وأما العقل، فكل ما حصل من نعمة، أو اندفاع من نقمة، فهو من آثار رحمة الله.

وقد أنكر قوم وصف الله ﷻ بالرحمة الحقيقية، وحرّفوها إلى الإنعام، أو إرادة الإنعام، زعمًا منهم أن العقل يحيل وصف الله بذلك، قالوا: لأن الرحمة انعطاف، ولين، وخضوع، ورقة، وهذا لا يليق بالله ﷻ... »[1].

وقد أطنب ابن القيم[2] في الرد على من زعم أن صفة الرحمة مجاز في حق الله ﷻ، فأجاد، وأحسن، ولأن المقام مقام اختصار، فسأكتفي بما يلي[3]:

تنقسم الرحمة إلى قسمين: عامة، وخاصة.

فالعامة هي الشاملة لكل أحد، ودليلها: قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾، ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾

والخاصة هي التي تختص بالمؤمنين، ودليلها: قوله تعالى: ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ والرحمة الشاملة للكفار رحمة جسدية بدنية دنيوية قاصرة غاية القصور بالنسبة لرحمة المؤمنين، فالذي يرزق الكافر هو الله، يرزقه بالطعام، والشراب، واللباس، والمسكن، والمنكح، وغير ذلك، أما المؤمنون، فرحمتهم رحمة أخص من هذه، وأعظم؛ لأنها رحمة إيمانية دينية دنيوية.

ولهذا تجد المؤمن أحسن حالًا من الكافر حتى في أمور الدنيا؛ لأن الله يقول: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾ [النحل:٩٧].

فالحياة الطيبة مفقودة بالنسبة للكفار، حياتهم كحياة البهائم، إذا شبع

(١) تفسير جزء عم للشيخ ابن عثيمين (٨-٩). للاستزادة: الفتوى الحموية لابن تيمية (١٧٥)، وما بعدها.
(٢) يراجع مختصر الصواعق المرسلة (٣٤٨)، وما بعدها.
(٣) ينظر: شرح العقيدة الواسيطة، ابن عثيمين (٢٤٨)، وشرح العقيدة السفارينية، ابن عثيمين (٢٤٧/١)، ومذكرة على العقيدة الواسطية، ابن عثيمين (٢٣)، والنهج الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى (٨٠/١)، ومابعدها.

روث، وإذا لم يشبع، جلس يصرخ، هكذا هؤلاء الكفار إن شبعوا بطروا، وإلا جلسوا يصرخون، ولا يستفيدون من دنياهم، لكن المؤمن إن أصابته سراء شكر، وإن أصابته ضراء صبر، فهو في خير في هذا، وفي هذا، وقلبه منشرح مطمئن متفق مع القضاء، والقدر، لا جزع عند البلاء، ولا بطر عند النعماء، بل هو متوازن مستقيم معتدل، فهذا فرق ما بين الرحمة هذه، وهذه.

المطلب الثاني
الفرق بين الرحمن، والرحيم

هما اسمان من أسماء الله الحسنى، وأسماء الله الحسنى كلها متفقة في الدلالة على نفسه المقدسة، ومن الأمور المتقررة في عقيدة أهل السنة والجماعة: أن أسماء الله الحسنى متضمنة للصفات، فهي أعلام دالة على معان، هي بها أوصاف، فلا تضادُّ فيها العِلْميةُ الوصفَ، بخلاف غيرها من أسماء المخلوقين، فلا تقاس أسماء الله بأسماء الخلق[1].

وقد قيل في الفرق بينهما[2]:

١. إنهما بمعنى واحد، وهما اسمان مشتقان من الرحمة، ويجوز تكرير الاسمين إذا اختلف اشتقاقهما على جهة التوكيد؛ كما يقال: فلان جاد مجد.

٢. اسمان مشتقان من الرحمة على طريق المبالغة، ورحمن أشد مبالغة

(١) ينظر: الإيمان لابن تيمية (١٤٨)، وجلاء الأفهام، ابن القيم (١٧١)، ومعتقد أهل السنة والجماعة في أسماء الله الحسنى، محمد التميمي (٣٣٣).

(٢) ينظر: جامع البيان، الطبري (١/ ١٢٦)، والأسماء والصفات للبيهقي (١/١٥٣)، وما بعدها، والجامع لأحكام القرآن، القرطبي (١/١٠٥)، ولسان العرب، ابن منظور (١٢/ ٢٣١)، وتفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/١٢٦)، وفتح القدير للشوكاني (١/ ٢١)، تيسير الكريم الرحمن، ابن سعدي (٣٩).

من رحيم، فالرحمن اسم عام في جميع أنواع الرحمة، والرحيم إنما هو في جهة المؤمنين.

٣. قال ابن الأنباري، والزجاج: إن الرحمن عبراني، والرحيم عربي، وخالفهما غيرهما.

٤. إن الرحمن اسم مختص لله ﷻ لا يجوز أن يسمى به غيره، ولا يوصف، ألا ترى أنه قال: ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدۡعُواْ ٱلرَّحۡمَٰنَ﴾ [الإسراء:١١٠]، فعادل به الاسم الذي لا يشركه فيه غيره، والرحيم يوصف به غير الله ﷻ، فيقال: رجل رحيم، ولا يقال: رحمن.

قال الزجاج: "ولا يجوز أن يقال: الرحمن إلا لله"(١).

٥. ﴿ٱلرَّحۡمَٰنَ﴾ أي: ذو الرحمة الواسعة، ولهذا جاء على وزن «فَعْلان» الذي يدل على السعة.

و﴿ٱلرَّحِيمِ﴾ أي: الموصل للرحمة من يشاء من عباده، ولهذا جاءت على وزن «فعيل» الدال على وقوع الفعل، فهنا رحمة هي صفته هذه دل عليها ﴿ٱلرَّحۡمَٰنَ﴾، ورحمة هي فعله، أي: إيصال الرحمة إلى المرحوم، دلّ عليها ﴿ٱلرَّحِيمِ﴾. و ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾: اسمان من أسماء الله يدلان على الذات، وعلى صفة الرحمة، وعلى الأثر، أي: الحكم الذي تقتضيه هذه الصفة(٢).

قال ابن القيم: «إن ﴿ٱلرَّحۡمَٰنَ﴾ دال على الصفة القائمة به ﷻ، و﴿ٱلرَّحِيمِ﴾ دال على تعلقها بالمرحوم. فكان الأول للوصف، والثاني للفعل، فالأول دال على أن الرحمة صفته، والثاني دال على أنه يرحم خلقه برحمته.

(١) كتاب معاني القرآن وإعرابه (١/٤٣).
(٢) تفسير جزء عم للشيخ ابن عثيمين (٨-٩).

وإذا أردت فهم هذا فتأمل قوله: ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾، وقوله: ﴿إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾، ولم يجئ قط (رحمن بهم) فعلم أن ﴿ٱلرَّحْمَٰنَ﴾ هو الموصوف بالرحمة، و﴿ٱلرَّحِيمِ﴾ هو الرحيم برحمته»[1].

قال ابن سعدي رحمه الله: «﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾: اسمان دالان على أنه ﷻ ذو الرحمة الواسعة العظيمة التي وسعت كل شيء، وعمت كل مخلوق، وكتب الرحمة الكاملة للمتقين المتبعين لأنبيائه، ورسله، فهؤلاء لهم الرحمة المطلقة المتصلة بالسعادة الأبدية، ومن عداهم محروم من هذه الرحمة الكاملة؛ لأنه الذي دفع هذه الرحمة، وأباها بتكذيبه للخبر، وتوليه عن الأمر، فلا يلومن إلا نفسه.

واعلم أن من القواعد المتفق عليها بين سلف الأمة، وأئمتها ما دل عليه الكتاب والسنة من الإيمان بأسماء الله كلها، وصفاته جميعها، وبأحكام تلك الصفات، فيؤمنون -مثلًا- بأنه رحمن رحيم ذو الرحمة العظيمة التي اتصف بها المتعلقة بالمرحوم، فالنعم كلها من آثار رحمته، وهكذا يقال في سائر الأسماء الحسنى.

وبالجملة: فالله خلق الخلق برحمته، وأرسل إليهم الرسل برحمته، وأمرهم، ونهاهم، وشرع لهم الشرائع برحمته، وأسبغ عليهم النعمة الظاهرة، والباطنة برحمته، ودبرهم أنواع التدبير، وصرفهم بأنواع التصريف برحمته، وملأ الدنيا، والآخرة من رحمته، فلا طابت الأمور، ولا تيسرت الأشياء، ولا حصلت المقاصد، وأنواع المطالب إلا برحمته، ورحمته فوق ذلك، وأجل، وأعلى، وللمحسنين المتقين من رحمته النصيب الوافر، والخير المتكاثر ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف:٥٦]»[2].

(١) بدائع الفوائد (٢٤/١).
(٢) تفسير أسماء الله الحسنى للسعدي (٢٠٠-٢٠٣).

المطلب الثالث
الأسباب الجالبة لرحمة الله ﷻ

قال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ [الأعراف:١٥٦].

فمن رحمة الله ﷻ: أنه خلق مائة رحمة، كما أخبر بذلك نبيه ﷺ، منها رحمة واحدة بها يتراحم الناس، والبهائم، والدواب، حتى إن الدابة لترفع حافرها عن ولدها؛ خشية أن تصيبه؛ كما قال ﷺ: «إن الله خلق يوم خلق السموات والأرض مائة رحمة، كل رحمة طباق ما بين السماء والأرض، فجعل منها في الأرض رحمة، فبها تعطف الوالدة على ولدها، والوحشُ، والطيرُ بعضُها على بعض، فإذا كان يومُ القيامة أكملها بهذه الرحمة»[(١)].

فهذه من الرحمة التي خلقها الله ﷻ، وذرأها في عباده من البشر، والحيوانات، والطيور، وغيرها.

أما الرحمة التي هي صفته ﷻ، فهي شيء آخر عظيم، وهي وراء كل تقدير، أو إدراك، أو ظنٍّ، أو تصوُّر، ولو علم العباد قدر رحمة الله ﷻ، لما قنط من رحمته أحد[(٢)]، ولكن لا بد من التنبه إلى «أن الرجاء، وحسن الظن إنما يكون مع الإتيان بالأسباب التي اقتضتها حكمة الله في شرعه، وقدره، وثوابه، وكرامته، فيأتي العبد بها، ثم يحسن ظنه بربه، ويرجوه ألا يكله إليها، وأن يجعلها موصلة إلى ما ينفعه، ويصرف ما يعارضها، ويبطل أثرها».

وينبغي أن يعلم أن من رجا شيئًا استلزم رجاؤه ثلاثة أمور:

أحدها: محبة ما يرجوه.

الثاني: خوفه من فواته.

(١) صحيح مسلم (٢٧٥٣)، ونحوه عند البخاري (٤٦٤٩).
(٢) مع الله، سلمان العودة (٤٣).

الثالث: سعيه في تحصيله بحسب الإمكان.

وأما رجاء لا يقارنه شيء من ذلك، فهو من باب الأماني»[1].

فحسن الظن بالله إنما يكون مع انعقاد أسباب النجاة، ورحمته ﷻ وإن وسعت كل شيء، إلا أن لها أسبابًا تستجلب بها، ومن هذه الأسباب[2]:

١. الإيمان:

إن رحمة الله لا تحصل إلا لمن آمن الإيمان الحقيقي بجميع أركانه الستة: الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وبالقدر خيره، وشره.

قال تعالى: ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [المؤمنون:١٠٩]، وقال ﷻ: ﴿هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف:٢٠٣]، وقال تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ﴾ [الجاثية:٣٠].

إن شرط حصول الرحمة -رحمة الله التي وسعت كل شيء- هو الإيمان، فإذا انتهى الإيمان انتهت رحمة الله، وإذا انتهت رحمة الله، فإن الشقاء، والعذاب هو المتعين، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

٢. الإحسان:

يشمل الإحسان في عبادة الله، وهو: أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه، فإنه يراك، ويشمل -أيضًا- الإحسان إلى الناس بما تستطيع بالقول، والفعل، والمال، والجاه، قال تعالى: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف:٥٦].

(١) الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي، ابن القيم (٣٩).
(٢) ينظر: أسباب الرحمة، جمع عبدالله الجار الله، ومجلة البحوث الإسلامية، رحمة الله.. أسبابها، وآثارها، موقع الألوكة، مقال لأبي يونس العباس بعنوان: أسباب الحصول على رحمة الله.

٣. الإخلاص:

إن فضل الله، ورحمته تنال بالإخلاص له ﷻ.

قال تعالى: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مُوسَىٰٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ مُخۡلَصٗا وَكَانَ رَسُولٗا نَّبِيّٗا ٥١ وَنَٰدَيۡنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنِ وَقَرَّبۡنَٰهُ نَجِيّٗا ٥٢ وَوَهَبۡنَا لَهُۥ مِن رَّحۡمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيّٗا﴾ [مريم:٥١-٥٣].

٤. طاعة الله، ورسوله:

إن ما عند الله لا ينال إلا بطاعة الله، قال ﷻ: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ﴾ [آل عمران:١٣٢].

٥. اتباع الكتاب، والسنة:

إن اتباع كتاب الله هو الخير كل الخير، ولا يصح اتباع الكتاب إلا باتباع السنة؛ لأنها شارحة، ومبينة للكتاب.

قال تعالى: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ مُبَارَكٞ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُواْ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ﴾ [الأنعام:١٥٥].

٦. ترك المعاصي، والمنكرات، والذنوب:

قال الله ﷻ حكاية عن الملائكة، وهم يدعون للمؤمنين: ﴿وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوۡمَئِذٖ فَقَدۡ رَحِمۡتَهُۥۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ [غافر:٩].

٧. إقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وطاعة الرسول:

قال تعالى: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ﴾ [النور:٥٦]. و(لعلَّ) من الله نافذة المفعول.

٨. التقوى:

من أهم أسباب الرحمة: تقوى الله ﷻ، قال تعالى: ﴿وَرَحۡمَتِي

وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ ﴾ [الأعراف:١٥٦-١٥٧].

وقد فسر بعض الصحابة التقوى بأنها: العمل بالتنزيل، والخوف من الجليل، والاستعداد ليوم الرحيل.

٩. خشية الله:

إن الخوف من الله مع الرجاء فيه يورثان فضل الله، ورحمته، وغفرانه.

قال ﷻ: ﴿ وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴾ [الأعراف:١٥٤].

عن أبي سعيد ﷺ عن النبي ﷺ: «أن رجلًا كان قبلكم رزقه الله مالًا، فقال لبنيه لما حضر: أي أب كنت لكم؟ قالوا: خير أب، قال: فإني لم أعمل خيرًا قط، فإذا مت فأحرقوني، ثم اسحقوني، ثم ذروني في يوم عاصف، ففعلوا، فجمعه الله ﷻ، فقال: ما حملك؟ قال: مخافتك، فتلقاه برحمته»[1].

١٠. الاستماع، والإنصات لتلاوة القرآن الكريم:

فالقرآن الكريم كلام الله كله بركة، ورحمة، وفضل، وكلما اقترب منه العبد، كلما حصل له الفضل، والبر، والرحمة، قال عز من قائل: ﴿ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [الأعراف:٢٠٤].

١١. الاستغفار والتوبة:

من لطف الله ﷻ بعباده: أن شرع لهم الاستغفار، والتوبة من جميع الذنوب كبيرها، وصغيرها.

قال ﷻ: ﴿ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [النمل:٤٦]، وقال

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، (١٦٧/٤) ح: (٣٤٧٨)، كتاب أحاديث الأنبياء، باب حديث الغار.

تعالى ذكره: ﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلۡ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ كَتَبَ رَبُّكُمۡ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَ أَنَّهُۥ مَنۡ عَمِلَ مِنكُمۡ سُوٓءَۢا بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعۡدِهِۦ وَأَصۡلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [الأنعام:٥٤].

١٢. الصبر:

إن هذه الدنيا دار ابتلاء، والابتلاء يكون بالخير، والشر، والصبر ضروري في هذه الدنيا، ونتيجته محمودة، بل الصابرون هم الذين تنالهم رحمة الله.

قال تعالى: ﴿وَلَنَبۡلُوَنَّكُمۡ بِشَيۡءٖ مِّنَ ٱلۡخَوۡفِ وَٱلۡجُوعِ وَنَقۡصٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٥٥ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ١٥٦ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ﴾ [البقرة:١٥٥-١٥٧].

١٣. العفو، والرحمة:

العبد مأمور بالعفو عن إخوانه المسلمين، ومأمور -أيضًا- بالرحمة لخلق الله، وكما أن غيره محل الخطأ والضعف، فهو -أيضًا- محل الخطأ، والضعف، ومحتاج إلى عفو الله، ورحمته، فإذا رحم خلق الله، فهو يتسبب في تنزل رحمات الله عليه.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ فِي ٱلۡقَتۡلَىۖ ٱلۡحُرُّ بِٱلۡحُرِّ وَٱلۡعَبۡدُ بِٱلۡعَبۡدِ وَٱلۡأُنثَىٰ بِٱلۡأُنثَىٰۚ فَمَنۡ عُفِيَ لَهُۥ مِنۡ أَخِيهِ شَيۡءٞ فَٱتِّبَاعُۢ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيۡهِ بِإِحۡسَٰنٖۗ ذَٰلِكَ تَخۡفِيفٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَرَحۡمَةٞۗ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ [البقرة:١٧٨].

وقال رسول الله ﷺ: «الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء»[(١)].

(١) أخرجه أبو داود في سننه (٢٩٧/٧) ح: (٤٩٤١)، كتاب الأدب، باب في الرَّحمة، والترمذي =

فرحمة العبد للخلق من أكبر الأسباب التي تنال بها رحمة الله التي من آثارها خيرات الدنيا، وخيرات الآخرة، وفقدها من أكبر القواطع، والموانع لرحمة الله، والعبد في غاية الضرورة، والافتقار إلى رحمة الله، لا يستغني عنها طرفة عين، وكل ما هو فيه من النعم، واندفاع النقم من رحمة الله، فمتى أراد أن يستبقيها، ويستزيد منها، فليعمل جميع الأسباب التي تنال بها رحمته"[1].

١٤. الهجرة، والجهاد:

قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [البقرة:٢١٨].

فترك الأوطان، ومفارقة الأحبة، والتعرض للموت في سبيل الله من أشق العبادات على النفوس، وبسببها يحصل العبد على الدرجات العلا، والمغفرة، والرحمة، والرضوان.

١٥. الالتزام بشرع الله:

في أي مجتمع كبر، أو صغر، فأي شخص التزم بشرع الله حصلت له رحمة الله، قال تعالى عن آل إبراهيم: ﴿ قَالُوٓاْ أَتَعۡجَبِينَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۖ رَحۡمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٞ مَّجِيدٞ ﴾ [هود:٧٣].

١٦. اللجوء إلى الله ﷻ، والتضرع إليه:

من يلجأ إلى الله، ويتضرع إليه يرحمه أرحم الراحمين، فدعاء الله بحصولها باسمه الرحمن الرحيم، أو غيره من أسمائه الحسنى كأن تقول: يارحمن ارحمني، اللهم إني أسألك برحمتك التي وسعت كل شيء أن تغفر لي، وترحمني، إنك أنت الغفور الرحيم.

= في سننه (٤/٣٢٣)، ح: (١٩٢٤)، أبواب البر والصلة، باب ما جاء في رحمة المسلمين.

(١) بهجة قلوب الأبرار وقرة عيون الأخيار ط: الرشد (١٨٨).

قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف:١٨٠]. فيسأل لكل مطلوب بالاسم المقتضي لذلك المطلوب المناسب لحصوله: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر:٦٠]، ﴿وَقُل رَّبِّ ٱغْفِرْ وَٱرْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [المؤمنون:١١٨]، فقد أمر ﷻ بالدعاء، وتكفل بالإجابة، وهو ﷻ لا يخلف الميعاد.

١٧. اقتران العلم بالعمل، وقيام الليل:

العالمون العاملون هم المرحومون.

قال ﷻ: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الزمر:٩].

١٨. تطبيق الولاء، والبراء:

موالاة أولياء الله، والبراء من أعداء الله أصل من أصول الدين، بل لا يتم، ولا يصح إيمان المرء إلا بهما، ولذلك مَن والَى في الله، وعادى في الله منحه الله الرحمة.

قال ﷻ عن إبراهيم: ﴿فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾ وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾ [مريم:٤٩-٥٠]، وقال تعالى: ﴿وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأْوُۥٓا۟ إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا﴾ [الكهف:١٦].

١٩. الصلاح:

إن الصالحين هم الأنبياء، والرسل، وأتباعهم، وهم الذين بصلاحهم يستحقون أن يدخلهم الله في رحمته.

قال ﷻ: ﴿وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٨٥﴾ وَأَدْخَلْنَٰهُمْ فِى رَحْمَتِنَآ ۖ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [الأنبياء:٨٥-٨٦].

٢٠. الإصلاح بين المتخاصمين:

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الحجرات:١٠].

٢١. الإنفاق في سبيل الله:

الإنسان جُبِلَ على الإمساك، لكن المؤمن الذي يرجو ما عند الله ينفق، ولا يخشى الفقر؛ لأنه يرجو ما وعد الله به عباده من فضل، ورحمة.

قال تعالى عن موسى: ﴿وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ ۚ قَالَ عَذَابِىٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ ۖ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف:١٥٦].

وقال ﷻ: ﴿وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِ ۚ أَلَآ إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ ۚ سَيُدْخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة:٩٩].

٢٢. الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر:

الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر من خصائص هذه الأمة، بل هو من مهام الأنبياء، والرسل، ولذلك استحق من يفعله الرحمة.

قال تعالى: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة:٧١].

٢٣. التربية الحسنة للبنين، والبنات:

قال الله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا

يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴾ [الإسراء:٢٣-٢٤]. فقد ربط الله الرحمة التي يستحقها الوالدان بالتربية، وليس بمجرد الإنجاب.

الخاتمة

أحمد الله ﷻ أن أعانني على إتمام هذا البحث، وقد عشت فيه مع هذه الصفة عالية القدر، عظيمة الشأن التي أسأل الله أن يمن علينا بالاتصاف بها، وأن يجعلنا ممن يرحم، فيرحم.

هذا وقد توصلتُ إلى نتائج عديدة، أهمها:

١. الرحمة هي: الرقة، والعطف، والرأفة هي: أشد الرحمة.

٢. لا يجوز تسمية غير الله بالرحمن، وهو اسم عام في جميع أنواع الرحمة، والرحيم خاص بالمؤمنين.

٣. الرحمة صفة ثابتة في الكتاب، والسنة، نؤمن بها كما جاءت من غير تشبيه، ولا تمثيل، ولا تعطيل، ولا تكييف، فللّه ﷻ رحمة تليق بجلاله، وعظيم سلطانه، ولا نفسرها بأثرها، وهو: إرادة الإحسان، أو غيره.

٤. آثار رحمة الله عظيمة جدًا لا تعد، ولا تحصى، والقرآن مليء بآثار رحماته ﷻ.

٥. الرحمة تستجلب بأمور عديدة وردت في القرآن الكريم، ومرت في البحث مفصلة.

ولابن القيم كلام أحببت أن أختم به هذا البحث؛ حيث قال رحمه الله: «ولما كان نصيب كل عبد من الرحمة على قدر نصيبه من الهدى، كان أكمل المؤمنين إيمانًا أعظمهم رحمة؛ كما قال تعالى في أصحاب رسوله ﷺ: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح:٢٩]، وكان الصديق رضي الله عنه من أرحم الأمة، وقد روى عن النبي ﷺ أنه قال: «أرحم أمتي بأمتي أبو بكر»[١].

وهكذا الرجل كلما اتسع علمه اتسعت رحمته، وقد وسع ربنا كل شيء رحمة، وعلمًا، فوسعت رحمته كل شيء، وأحاط بكل شيء علمًا، فهو أرحم بعباده من الوالدة بولدها، بل هو أرحم بالعبد من نفسه»[٢].

وختامًا: أسأل الله سبحانه وتعالى أن يجعل هذا العمل خالصًا لوجهه الكريم، وأن ينفع به، إنه جواد كريم.

هذا والله أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.



(١) أخرجه الترمذي في سننه (٦٦٤/٥)، ح (٣٧٩٠)، أبواب المناقب، باب مناقب معاذ بن جبل، وزيد ابن ثابت، وأبي عبيدة بن الجراح رضي الله عنهم، وصححه الألباني.

(٢) إغاثة اللهفان، ابن القيم (١٧٤/٢).

المصادر، والمراجع:

١. أسباب الرحمة، جمع: عبدالله الجارالله، نسخة pdf.
٢. إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين بن قيم الجوزية، تحقيق: محمد حامد الفقي، مكتبة المعارف، الرياض، المملكة العربية السعودية.
٣. الأسماء والصفات، الحافظ أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقى، تحقيق: الشيخ مقبل بن هادي الوادعي، مكتبة السوادي، جدة، المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى، ١٤١٣هـ.
٤. الإيمان، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبدالحليم بن عبدالسلام ابن عبدالله بن أبي القاسم بن محمد ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي، تحقيق: محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، عمان، الأردن، الطبعة الخامسة، ١٤١٦ه.
٥. النهج الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى، محمد الحمود النجدي، مكتبة الإمام الذهبي الكويت، دار ابن الجوزي، الدمام، المملكة العربية السعودية، الطبعة السادسة، ١٤٢٥هـ.
٦. الفتوى الحموية الكبرى، لشيخ الإسلام تقي الدين أبي العباس أحمد ابن تيمية، تحقيق: د. حمد بن عبدالمحسن التويجري، دار الصميعي للنشر والتوزيع، الرياض، المملكة العربية السعودية، الطبعة الثانية، ١٤٢٥هـ.
٧. بريقة محمودية في شرح طريقة محمدية، وشريعة نبوية في سيرة أحمدية، محمد بن محمد بن مصطفى بن عثمان، أبو سعيد الخادمى الحنفي، مطبعة الحلبي، بدون طبعة، ١٣٤٨هـ

٨. الرحمة الإلهية (دراسة قرآنية)، إعداد: عمر عزت بخيت، رسالة ماجستير، جامعة النجاح الوطني، ٢٠٠٩.
٩. التحرير والتنوير، «تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد»، محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر ابن عاشور التونسي، الدار التونسية للنشر تونس، ١٩٨٤م.
١٠. تفسير أسماء الله الحسنى، أبو عبدالله، عبدالرحمن بن ناصر بن عبدالله بن ناصر بن حمد آل سعدي، تحقيق عبيد بن علي العبيد، الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، الطبعة العدد ١١٢، السنة ٣٣ -١٤٢١هـ.
١١. تفسير القرآن العظيم، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي، تحقيق: سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة الثانية ١٤٢٠هـ.
١٢. تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن بن ناصر بن عبدالله السعدي، تحقيق: عبدالرحمن بن معلا اللويحق، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى ١٤٢٠هـ.
١٣. تفسير جزء عم، لفضيلة الشيخ محمد بن صالح العثيمين، تحقيق: فهد بن ناصر بن إبراهيم السليمان.
١٤. جامع البيان عن تأويل آي القرآن، محمد بن جرير بن يزيد بن كثير ابن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري، تحقيق: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ.
١٥. الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله ﷺ وسننه وأيامه = صحيح البخاري، محمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري الجعفي، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ.

١٦. الجامع الكبير - سنن الترمذي، محمد بن عيسى بن سَوْرة بن موسى بن الضحاك، الترمذي، أبو عيسى، تحقيق: بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي - بيروت، ١٩٩٨م.
١٧. الجامع لأحكام القرآن، أبو عبدالله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي، تحقيق: أحمد البردوني، وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية - القاهرة، الطبعة الثانية، ١٣٨٤هـ.
١٨. جلاء الأفهام في فضل الصلاة على محمد خير الأنام، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية، تحقيق شعيب الأرناؤوط - عبدالقادر الأرناؤوط، دار العروبة الكويت، الطبعة: الثانية، ١٤٠٧هـ.
١٩. الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي، أو الداء والدواء، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية، دار المعرفة - المغرب، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ.
٢٠. الخُلق الحسن في ضوء الكتاب والسنة، د. سعيد بن علي بن وهف القحطاني، مطبعة سفير، الرياض، مؤسسة الجريسي للتوزيع والإعلان.
٢١. رَحمةٌ للعَالَمِين، المؤلف: د. سعيد بن على بن وهف القحطاني، مطبعة سفير، الرياض، مؤسسة الجريسي للتوزيع والإعلان.
٢٢. شأن الدعاء، أبو سليمان حمد بن محمد الخطابي الحافظ، أحمد يوسف الدقاق، دار الثقافة العربية، دمشق، الطبعة الأولى، ١٤٠٤هـ.
٢٣. شرح أسماء الله الحسنى في ضوء الكتاب والسنة، د. سعد بن علي ابن وهف القحطاني، د. عبدالله بن عبدالرحمن الجبرين، الطبعة الثانية عشر، ١٤٣١هـ.

٢٤. سنن أبي داود، أبو داود سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير بن شداد بن عمرو الأزدي السِّجِسْتاني، تحقيق: شعَيب الأرنؤوط - محَمَّد كامِل قرة بللي، دار الرسالة العالمية، الطبعة الأولى، ١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م.

٢٥. شرح العقيدة السفارينية - الدرة المضية في عقد أهل الفرقة المرضية، محمد بن صالح بن محمد العثيمين، دار الوطن للنشر، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٢٦هـ.

٢٦. شرح العقيدة الواسطية، محمد بن صالح بن محمد العثيمين، سعد فواز الصميل، دار ابن الجوزي، الرياض، المملكة العربية السعودية، الطبعة الخامسة، ١٤١٩هـ.

٢٧. شرح كتاب التوحيد لابن خزيمة، محمد حسن عبدالغفار، مصدر الكتاب: دروس صوتية قام بتفريغها موقع الشبكة الإسلامية http://www.islamweb.net

٢٨. فتح الباري شرح صحيح البخاري، أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي، دار المعرفة - بيروت، ١٣٧٩هـ.

٢٩. فتح القدير، محمد بن علي بن محمد بن عبدالله الشوكاني اليمني، دار ابن كثير، دار الكلم الطيب - دمشق، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ.

٣٠. الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية، أيوب بن موسى الحسيني القريمي الكفوي، أبو البقاء، تحقيق: عدنان درويش - محمد المصري، مؤسسة الرسالة - بيروت.

٣١. لسان العرب، محمد بن مكرم بن على، أبو الفضل جمال الدين بن منظور الأنصاري الرويفعي الإفريقي، دار صادر - بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤١٤هـ.

٣٢. لمسات بيانية في نصوص من التنزيل -محاضرات-، فاضل بن صالح بن مهدي بن خليل البدري السامرائي، أعده للشاملة: أبو عبدالمعز.
٣٣. منهاج المسلم، أبو بكر الجزائري، مكتبة ابن تيمية، ١٤٠٧هـ.
٣٤. مجلة البحوث الإسلامية، (رحمة الله أسبابها، وآثارها) العدد الخامس والأربعون، الإصدار: من ربيع الأول إلى جمادى الثانية لسنة ١٤١٦هـ.
٣٥. مختصر الفقه الإسلامي في ضوء القرآن والسنة، محمد بن إبراهيم بن عبدالله التويجري، دار أصداء المجتمع، المملكة العربية السعودية، الطبعة الحادية عشرة، ١٤٣١هـ.
٣٦. مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة، للإمام محمد ابن أبي بكر بن أيوب الزرعي، العلامة محمد بن الموصلي، محمد بن رياض الأحمد، مؤسسة الريان، الطبعة الأولى، ١٤٣٠هـ.
٣٧. مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية، تحقيق: محمد المعتصم بالله البغدادي، دار الكتاب العربي - بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤١٦هـ.
٣٨. مذكرة على العقيدة الواسطية، محمد بن صالح بن محمد العثيمين، دار الوطن للنشر الرياض١٤٢٦هـ.
٣٩. معجم مقاييس اللغة، أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي، أبو الحسين، تحقيق: عبدالسلام محمد هارون، دار الفكر، ١٣٩٩هـ.
٤٠. المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله ﷺ، مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري، تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي، دار إحياء التراث العربي - بيروت.

٤١. مع الله الاسم الأعظم وقصة الأسماء الحسنى، سلمان بن فهد العودة، مؤسسة الإسلام اليوم، المملكة العربية السعودية، الطبعة الثالثة، ١٤٣٠هـ.

٤٢. معاني القرآن وإعرابه، للزجاج أبي إسحاق إبراهيم بن السري، تحقيق: د. عبدالجليل عبده شلبي، عالم الكتب، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ.

٤٣. معتقد أهل السنة والجماعة في أسماء الله الحسنى، محمد بن خليفة بن علي التميمي، أضواء السلف، الرياض، المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ.

٤٤. المفردات في غريب القرآن، أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني، تحقيق: صفوان عدنان الداودي، دار القلم، الدار الشامية – دمشق بيروت، الطبعة الأولى – ١٤١٢هـ.

٤٥. مكارم الأخلاق، محمد بن صالح بن محمد العثيمين، دار الوطن، الطبعة: الأولى.

٤٦. ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها، عبدالعزيز ناصر الجليل، دار طيبة، الرياض، المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى، ١٤٢٩هـ.

٤٧. موسوعة الأخلاق الإسلامية، مجموعة من الباحثين بإشراف الشيخ عَلوي بن عبدالقادر السقاف، موقع الدرر السنية على الإنترنت dorar.net

٤٨. موقع الدرر السنية، موسوعة الأخلاق، http://www.dorar.net/enc/akhlaq/561

٤٩. موقع الألوكة، http://majles.alukah.net/t98739/

٥٠. موقع صيد الفوائد http://www.saaid.net/Minute/208.htm

المؤتمر الدولي عن الرحمة في الإسلام
The International Conference on Mercy in Islam
قسم الدراسات الإسلامية - كلية التربية

المنهج النبوي في تعزيز قيمة الرحمة لدى الصحابة رضي الله عنهم

إعداد:
د. أنس سليمان المصري
محاضر غير متفرغ – الجامعة الأردنية



مقدمة

الحمد لله رب العالمين، الرحمن الرحيم، غافر الذنب وقابل التوب، الرؤوف الحليم، والصلاة والسلام على الرحمة المهداة، والرأفة المعطاة، الصادق البر الأمين، وعلى صحابته الغر الميامين، الهداة المهديين، ومن تبع سمتهم من أصحاب الخلق الربانيين، ونشر دعوتهم رحمة للعالمين، وبعد:

فإن الله ﷻ بدأ كتابه العظيم بعنوان رسالته، وحكمة دينه؛ فشرع باسمه الرحمن الرحيم؛ لتشمل رحمته ﷻ المثلى للعالمين في الدنيا والآخرة، ثم جعلها مفتاح كل سورة في القرآن الكريم؛ بل كانت مفتاحًا لكل عمل يشرع به المسلم؛ وقد اتخذها النبي ﷺ فاتحة لرسائل دعوته للملوك والأمراء[1]؛ كما اتخذها سيدنا سليمان عليه السلام في رسالته إلى ملكة سبأ كما في قوله ﷻ: ﴿قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَؤُا إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾﴾ [النمل:٢٩-٣٠].

ثم كرّر الله ﷻ هذه الصفة مرة أخرى في فاتحة الكتاب؛ ليكون منهج الرحمة أساسًا لكل دعوة للإسلام، وكل تعامل أو عمل يقوم به المسلم في

(١) متفق عليه. رواه البخاري، صحيح البخاري، ح(٤١٨٨)، ومسلم، صحيح مسلم، ح(٣٣٢٢)، في رسالته إلى هرقل.

هذه الدنيا، ليس هذا فحسب، بل جاءت في فواتح السور بالبسملات التي اختصها الله ﷻ بالرحمة، وكما جاء كثير من خواتيم الآيات ومضامينها بمفهوم الرحمة الإلهية، وجاءت أوامره ﷻ باتخاذها منهجًا للدعوة، وشعارًا للإيمان، إضافة إلى ما جاء في الأحاديث القدسية والنبوية على ترسيخ هذا المفهوم، وغرسه وتعزيزه في خلق المؤمن ليكون طبعًا نفسيًا ثابتًا لا يتغير، الأمر الذي جعل هذه الدعوة أكثر الديانات انتشارًا وأسرعها إقناعًا لعقول البشر وقلوبهم.

ولذلك جاء الأمر الإلهي لاستخلاف الناس وعمارة الأرض، وبناء النفس البشرية، واستغلالها لنشر الدين، من خلال تلك القيم الإسلامية العظيمة المشروعة في الكتاب والسنة، والتي بدورها تضبط سلوك المسلم، وتبني صورته المظهرية والمخبرية.

من هنا جاء دور المنهج النبوي، والشريعة الإسلامية التي قامت على مكارم الأخلاق، وفضائل الأعمال والأذواق؛ لتغرس في النفوس خُلُق الرأفة والرحمة، وتؤطره بالمنهج الرباني بعيدًا على الإفراط أو التفريط، واستغلال تلك القيمة الخلقية الراقية للرقي في تعامل المسلمين فيما بينهم، ومن ثم نشر الدعوة الإسلامية إلى الناس كافة مصداقًا لقول الله ﷻ: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾ [الأنبياء]؛ لتتجاوز رحمته ﷺ المسلمين إلى غير المسلمين بل إلى عوالم الحيوان والنبات وعوالم أخرى لم ندركها بعد.

ويرتبط خلق الرحمة في النفس البشرية مع غيره من الأخلاق والقيم؛ بحيث يؤثر كل منها على الآخر لتشكّل في مجملها نوع الشخصية التي تحمل تلك الأخلاط من الأخلاق؛ في حين يمكن تعزيز تلك الأخلاق الكريمة كلٍّ منها على حدة؛ إذ إنها على الرغم من تأثيرها النسبي على بعضها البعض؛ إلا أنه يمكن تمييزها، وفرزها، وتعزيز كل منها بشكل منفصل.

وعلى الرغم من حداثة ذلك المفهوم لدى مختصي علوم التربية والتنمية البشرية إلا أننا نجد أن هذا أسلوبًا متبعًا في المنهج النبوي، إضافة إلى أساليب أخرى تساعد على بناء الشخصية الأخلاقية لدى الصحابة ﷺ بأنواعها المختلفة، وبشكل واضح وفعّال، ولا نكون مغامرين -بعد التعمق في دراسة المنهج النبوي- إن قلنا: إن السنة قد سبقت في معرفة تلك القيم الروحية والخلقية المكوّنة للشخصية، وتوظيفها، والعمل على توجيهها لبناء المجتمع، واستغلالها بمقدار قوة امتلاكها عند الصحابة ﷺ، وبحسب قدراتهم المختلفة، مما جعلها سلاحًا لخدمة الدعوة الإسلامية، ونشر دين الله ﷻ وعمارة الأرض، فضلًا عما كان يمتلكه صاحب المنهج ﷺ من درجات مرتفعة بشكل ملحوظ للقيم المختلفة، مصداقًا لقوله ﷻ: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب:٢١].

وتختلف الشخصيات الإنسانية في درجات امتلاكها لخلق الرحمة؛ إذ يمكن أن تتجلى في شخصيات معينة في حين تحتاج شخصيات أخرى إلى تعزيز أو تطوير ذلك الخلق الرفيع، وذلك إما بسبب البيئة المحيطة كالبادية؛ كما قال ﷺ: «إن القسوة وغلظ القلوب في الفدادين عند أصول أذناب الإبل...»[(١)]، أو الظروف المساعدة على إضعافها كالقتال والجندية، مع الأخذ بعين الاعتبار تميزهم بأخلاق أخرى كالصدق والكرم والشجاعة، من هنا جاء المنهج النبوي ليتمم مكارم الأخلاق[(٢)].

ولهذا نجد المصطفى ﷺ عمل على غرس وتعزيز الرحمة في قلوب أصحابه بعدة طرق مختلفة، وعالج تلك الشخصيات المفتقرة إليها بإزالة أسباب ضعفها، بل تجاوز الأمر إلى أنه كان يعلم الصحابة ﷺ آليات ذلك كله.

(١) متفق عليه. رواه البخاري، صحيح البخاري، ح(٣٠٥٧)، ومسلم، صحيح مسلم، ح(٧٢).
(٢) حسن. رواه أحمد، المسند، ٢/ ٣١٨، وحسّنه الألباني، سلسلة الأحاديث الصحيحة ١/ ١١٢، وقال الحاكم: «صحيح على شرط مسلم». انظر: المستدرك، ٢/ ٦١٣.

وقد كان النبي ﷺ القدوة في الرحمة جمعاء، ولا ينافي ذلك نبوته ﷺ، وليس فتحًا لباب المستشرقين ممن زعموا أن محمدًا ﷺ إنما قاد الناس بشخصيته المتميزة وخلقه الكريم لا نبوته، وأن هذا خارج عن الشريعة والوحي الحكيمين، لكنه ﷺ -بلا شك- مع نبوته وتلقيه لوحي السماء كان متصفًا -فطرة- بالرحمة العظيمة فضلًا عن الخلق الرفيع، والحكمة والهدى، إضافة إلى ما حباه الله ﷻ إياه من النبوة، بل إن كثيرًا من مواقفه الحكيمة كان مردها الوحي، فاصطفاه الله ﷻ على الناس في كلا الأمرين؛ نبوته وحسن شمائله.

ولهذا أشار القاضي عياض حيث قال: "وأما وفور عقله، وذكائه، وقوة حواسه، وفصاحة لسانه، واعتدال حركاته، وحسن شمائله، فلا مرية أنه كان أعقل الناس وأذكاهم، ومن تأمل تدبيره أمر بواطن الخلق وظاهرهم، وسياسة العامة والخاصة، مع عُجب شمائله وبديع سيره، فضلًا عما أفاضه من العلم، وقرره من الشرع، دون تعلم سَبَق، ولا ممارسة تقدمت، ولا مطالعة للكتب منه؛ لم يمترِ في رجحان عقله، وثقوب فهمه لأول بديهة، وهذا مما لا يحتاج إلى تقريره لتحققه"(١).

إن ما تنادي به النظريات التربوية المعاصرة من التخلّق بالرحمة والمساواة وحقوق الإنسان والعدالة الاجتماعية، والبعد عن العنف والعصبية والغلو والتطرف ما هي إلا مصطلحات أخرى تحاكي الجوانب البشرية، إلا أنها -في حقيقة الأمر- لم تضف إلى المنهج النبوي في بناء القيم الخلقية والإنسانية لدى الصحابة ﷺ إلا تسميات جديدة، توصّل واضعوها إلى جزء من منظومة هذا المنهج الرباني في تربية الصحابة ﷺ، إضافة إلى ما عمل به الصحابة ﷺ من الاقتداء بالمنهج النبوي في تربية أبنائهم على القيم الإسلامية؛ لتتسع الدائرة وتستمر جيلًا بعد جيل، على الرغم من بساطة

(١) عياض، القاضي عياض بن موسى اليحصبي، الشفا بتعريف حقوق المصطفى، ١/ ٩٣.

الوسائل المستخدمة في الكشف عن تلك القيم آنذاك، وعدم امتلاك الأدوات الحديثة لتطويرها، أو الدراسات الإحصائية لجمع عناصرها الأساسية.

وفي هذا البحث سنستعرض آليات الكشف عن خلق الرحمة في الشخصية الإنسانية، ومدى براعة المنهج النبوي في ذلك، وما امتلكه الصحابة ﷺ من الفروق الفردية فيه، وطرق تنمية هذا الخلق وصقله ورفع سويته عند الصحابة ﷺ، ومعالجة النقص الموجود عند بعضهم، من خلال مواقفه المختلفة، فضلًا عن اتصافه ﷺ بتلك القيمة الروحية بشكل واضح، ومدى حكمته ﷺ في توظيفها في شتى نواحي حياته الدعوية، مما جعله ﷺ أكمل الناس أوصافًا، وأكثرهم تأثيرًا في الآخرين.

مشكلة الدراسة وأهدافها:

تتراوح الدراسات السابقة للبحث بين مراجع قديمة أصيلة تتمحور حول عموم الهدي النبوي في أخلاقه وسننه، أو كتب معاصرة تفصّل أشكال ونماذج رحمته ﷺ في التعامل مع الغير من إنسان أو حيوان أو غير ذلك دون تحليل أو تصنيف أو تقعيد، وبين مراجع حديثة تعرض خلق الرحمة باعتباره قيمة إنسانية حسب المناهج التربوية المعاصرة بعيدًا عن اتخاذ المرجعية النبوية أساسًا لدراساتها؛ باعتبار أن تلك النظريات المعاصرة مصدرها غير إسلامي، ولا تتخذ من الشريعة مرجعًا؛ مما يعوز إلى دراسة معاصرة تربط بين المنهج النبوي باعتباره المرجع الأول والأكمل في الدعوة إلى خلق الرحمة والعمل به، وبين أحدث ما توصلت إليه المعرفة البشرية في تعميق ذلك الخلق أو تعزيزه، والإضافة على تلك المناهج.

الدراسات السابقة:

١. السرجاني، راغب، الرحمة في حياة الرسول ﷺ، ط١، رابطة العالم الإسلامي، ١٤٣٠هـ.

عرضت الدراسة أوضاع العالم زمن النبي ﷺ، وحاجته إلى الرحمة، مع نماذج من رحمة الرسول ﷺ مع المسلمين وغير المسلمين، إضافة إلى دحض العديد من الشبهات المثارة عن الرسول ﷺ، وكان منهجها سرديًا تصنيفيًا تحليليًا؛ إلا أنها -لطبيعة الدراسة- لم تعرض إلى وسائل الكشف والتعزيز والمعالجة للثغرات وآليات تفعيلها المعاصر.

٢. ياقوت، محمد مسعد، نبي الرحمة، ١م، ط١، الزهراء للإعلام العربي، القاهرة، ٢٠٠٧م.

عرضت الدراسة إلى مظاهر رحمته ﷺ، وشهادات بعض المستشرقين على عظم أخلاقه ﷺ، وساقت عدة مواقف نبوية متبعة المنهج السردي دون التأطير والتحليل والتقعيد، كما إنها لم تعرض إلى آليات تعزيز هذا الخلق عند الصحابة وغرسه وتربيتهم عليه الأمر الذي يحتاجه التربويون أو الدارسون المعاصرون لصياغة المناهج التربوية المعاصرة.

٣. الصمدي، خالد، القيم الإسلامية في المنظومة التربوية، ١م، المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة، الرباط، ٢٠٠٨م.

عنيت الدراسة بتوضيح عدد من القيم وآليات اكتشاف مؤشراتها، وسبل تعزيزها، والوسائل المستخدمة لذلك، إلا أنها لم تشمل جميع الجوانب والآليات والوسائل، كما أنها لم تتطرق لخلق الرحمة وما يختص به.

٤. جابر، جابر عبدالحميد، الذكاءات المتعددة والفهم تنمية وتعميق، ط١، دار الفكر العربي، القاهرة، ٢٠٠٣م.

٥. غاردنر، هاورد، أطر العقل نظرية الذكاءات المتعددة، مكتب التربية العربي لدول الخليج، الرياض، ٢٠٠٤هـ، ترجمة محمد بلال الجيوسي.

تناولت الدراستان بعض القيم الروحية وتوصيفها، والتعريف بها، إضافة إلى بعض الصفات الشخصية الأخرى، إلا أنهما -بحسب طبيعة البحث- لم تتعرضا لأية خلفيات شرعية أو نبوية؛ كما إنهما عالجتا القيم من منطلق مادي، ومصلحي بعيدًا عن المصدرية الإلهية أو الهدف الرباني في خلافة الأرض وإقامة الشرائع.

منهجية البحث:

اتبع البحث عدة منهجيات متتالية، شكلت في مجملها سلسلة متكاملة متناسقة حسب الآتي:

١. المنهج الاستقرائي غير التام: من خلال استقراء عدد غير قليل من مواقف السيرة النبوية، والشمائل المحمدية؛ لاستخراج أسس المنهج النبوي لتعزيز خلق الرحمة.

٢. المنهج التحليلي والوصفي: من خلال تحليل مواقف السيرة وتحديد الاتجاهات التربوية في خلق الرحمة.

٣. المنهج التصنيفي والتقعيدي: ويشمل تصنيف تلك الاتجاهات ومبادئها، وتقعيدها بحسب الأسس التربوية المعاصرة.

٤. المنهج الاستنتاجي والتطبيقي: ويشمل آليات تطبيق تلك المبادئ والاتجاهات المتعلقة بخلق الرحمة من تلك المواقف النبوية، وإلحاق الأسس التربوية المعاصرة معها، وإدماج الوسائل المعاصرة لتطبيقها وتعزيزها، بلغة تربوية معاصرة.

تمهيد
في مفردات العنوان

نعني بالمنهج النبوي في تعزيز قيمة الرحمة لدى الصحابة ﷺ؛ تلك الآليات والوسائل النظرية والتطبيقية للنبي ﷺ في غرس خلق الرحمة لدى الصحابة ﷺ وتنميته وتطويره، معتمدًا على المنهج الرباني؛ ولا يخرج عن إطار القرآن والسنة، سواء كان منطلقه الوحي الكريم أو اجتهاده ﷺ المعتمد على الوحي، ولا يخرج مفهوم المنهج النبوي عن أُطر الشريعة الإسلامية.

والمنهج: هو الطريق البيّن الواضح، وفي التنزيل: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة:٤٨][١].

وهو الطريقة التي يمكن استخلاصها من خلال استقراء أقوال النبي ﷺ وأفعاله وتقريراته، وتصنيفها حسب الأسس والقواعد المشتركة بينها، ليُعمد إلى الإفادة منها وتطبيقها.

وقد اعتمد الصحابة ﷺ والعلماء هذا المنهج، وفرّعوا منه وطبّقوه.

والقيمة من (قَوَمَ) المتضمن معنى الثبات والمحافظة والملازمة والعزم[٢]، والاعتدال والاستقامة[٣]، وقِوام الشيء: نظامه الذي يعتمد عليه[٤].

(١) ينظر: ابن منظور، لسان العرب، ٢/ ٣٨٣.
(٢) ينظر: المرجع السابق، ١٢/ ٤٩٦.
(٣) ينظر: المرجع السابق، ١٢/ ٤٩٨.
(٤) ينظر: المرجع السابق، ١٠/ ٤٩٤.

والقيم بإطارها العام هي معايير ثابتة وملازمة، تستند إلى مرجعيات تمكّن صاحبها من التفاعل والاختيار، والتحمّل من أجلها لغير منفعة ذاتية[١]، وتعزيزها يتم من خلال السُبُل العقلية والنفسية والجسدية.

والتعزيز: هو التقوية والمنعة، والتغليب على ما سواه[٢] من الصفات الأخرى.

والرحمة في اللغة: الرقة والتعطف[٣]، وفي الشرع: هي رقة تقتضي الإحسان إلى المرحوم، وتستعمل تارة في الرقة المجردة، وتارة في الإحسان المجرد عن الرقة[٤]، وهي صفة ثابتة لله ﷻ ثبوتًا يليق بجلاله؛ كما هو منهج أهل السنة والجماعة.

ويمكن الخلوص إلى أن هذه الدراسة مختصة في الطريقة الواضحة المتبعة الواردة عن النبي ﷺ سواء كانت نظرية أو تطبيقية، والتي من خلالها عمل النبي ﷺ على تقوية وتغليب وتعديل صفة الرحمة عقليًا ونفسيًا وتطبيقًا لدى الصحابة ﷺ إلى حد وصلوا فيه إلى المثالية والتمام، وأصبحت جزءًا من نظامهم الذي يتعاملون فيه ويربّون عليه أجيالهم، مستندين فيه على مرجعية شرعية بعيدة عن المنفعة الشخصية.

- **هل خلق الرحمة فطري أو مكتسب؟**

تنسحب معرفة هذا التساؤل على جميع القيم والأخلاق الإنسانية، ويعتمد على إجابته كثير من آليات تطوير وصقل القيم، وأدوات قياسه ومحدداته.

(١) الصمدي، القيم الإسلامية في المنظومة التربوية، ص١٨، بتصرف. وقد اقتصر المؤلف على المعايير العقلية والوجدانية، ولا شك أن المهارة والسلوك يُعدان من القيم أيضًا.
(٢) ينظر: ابن منظور، لسان العرب، ٥/ ٣٧٤.
(٣) ينظر: الجوهري، الصحاح، ٥/ ١٩٢٩.
(٤) المناوي، التوقيف على مهمات التعاريف ١/ ٢٤٥.

ولا بد من الإشارة هنا إلى أن هذه القيمة قد تولد مع الإنسان بدرجة عالية دون تربية أو تعزيز مسبق، وهذا يفسر وجودها بشكل ملحوظ لدى الأطفال أو صغار السن دون تربية أو توجيه، ومن ثم يمكن تعزيز تلك القيمة وتنميتها واكتساب مزيد منها عن طريق التربية والتوجيه والتعزيز(١).

وتتجلى الرحمة الفطرية فيما غرسه الله ﷻ من رحمة الحيوانات بعضها بعضًا، مصداقًا لقوله ﷺ: "حتى ترفع الفرس حافرها عند ولدها خشية أن تصيبه"(٢)، إضافة إلى رحمة الأم بولدها، وأمثالها مما قد يتعزز في قلب الإنسان بغض النظر عن دينه أو معتقده، وقد وظّف النبي ﷺ هذه الرحمة الفطرية ليبني عليها ويعززها في قلوب المؤمنين باعتبار أن دين الإسلام هو دين الفطرة والخير ومكارم الأخلاق، كما ثبت عنه ﷺ حين رأى المرأة التي بحثت عن ولدها فألزقته على صدرها فقال ﷺ: «أترون هذه المرأة طارحة ولدها في النار؟!»، قالوا: لا والله، وهي تقدر على أن لا تطرحه، قال ﷺ: «فالله تعالى أرحم بعباده من هذه بولدها»(٣)، فهذه من الرحمة الفطرية عند الأم.

ومن هنا يمكن لأية شخصية مسلمة كانت أو غير مسلمة أن تمتلك خلق الرحمة بشكل ملحوظ، كما يمكن لها أن تفتقر -طبيعة- لهذا الخلق، وهذا يفسر وجود بعض الشخصيات غير المسلمة التي برزت في هذا المجال في حين قد نجد بعض المسلمين لا يتحلّون بهذه الصفة، باعتبار أن أية شخصية يمكنها أن تنمّي لديها هذه القيمة العظيمة، إلا أن الشريعة الإسلامية امتازت بالمنهجية الثابتة المتوازنة المتنامية

(١) جابر عبدالحميد، الذكاءات المتعددة والفهم، ص١٣، بتصرف.
(٢) متفق عليه، رواه البخاري، صحيح البخاري، ح(٥٥٤١)، ومسلم، صحيح مسلم، ح(٤٩٤٢).
(٣) متفق عليه. رواه البخاري، صحيح البخاري، ح(٥٥٤٠)، ومسلم، صحيح مسلم، ح(٤٩٤٧).

في غرس وتعزيز خلق الرحمة مما يضمن تأثيرها والعمل بها دون غلو أو انحراف أو مصلحة شخصية أو آنية، بل من منطلق العدل والمنهج الرباني الحكيم.

المنهج النبوي في تعزيز قيمة الرحمة لدى الصحابة ﷺ

يعتمد تعزيز قيمة الرحمة على عدد من الخطوات المتسلسلة منطقيًا، يتصدرها آليات الكشف عن تلك القيمة وتمييزها لدى الصحابة ﷺ؛ ليتسنى بعد ذلك العمل على صقلها وتطويرها من خلال وسائلها المتاحة، والكشف عن الثغرات ونقاط الضعف ومعالجتها وتقويمها؛ ليتم توظيفها والعمل بها لخدمة الدين وعمارة الأرض.

ويتضمن ذلك ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: المنهج النبوي في الكشف عن خلق الرحمة لدى الصحابة ﷺ.

المبحث الثاني: المنهج النبوي في تعزيز خلق الرحمة وتنميته وصقله.

المبحث الثالث: المنهج النبوي توظيف خلق الرحمة في الدعوة واستغلاله لخدمة الدين.

وفيما يأتي تفصيل ذلك.

المبحث الأول
المنهج النبوي في الكشف عن خلق الرحمة لدى الصحابة ﷺ

تعدُّ هذه الخطوة أولى خطوات غرس قيمة الرحمة وتعزيزها، والتي لا يمكن الوصول إليها دون معرفة الدرجة التي يتمتع بها الفرد من هذا الخلق الجليل؛ ليعمد إلى معالجة النقص أو ربط ما هو مكتسب بالمنهج الرباني.

وقد اعتمد المنهج النبوي -في الكشف عن تلك القيمة الخلقية لدى الصحابة ﷺ- عدة طرق مختلفة؛ كالسؤال المباشر، أو المراقبة والمتابعة (تحديد المؤشرات)، أو التحفيز والمنافسة.

كل ذلك أعطى النبي ﷺ معرفة تامة بمستويات خلق الرحمة التي يتمتع بها الصحابة ﷺ.

وينضوي المنهج النبوي في الكشف عن خلق الرحمة على ثلاثة مطالب:

المطلب الأول
السؤال المباشر

استخدم النبي ﷺ أسلوب السؤال المباشر باعتباره أحد الوسائل الممكنة

للكشف عن درجة هذا الخلق؛ كما روى الشيخان عن عائشة ﵂ أن النبي ﷺ قبّل الحسن والحسين؛ فلاحظ استغراب الأقرع بن حابس من ذلك حين سأله: تقبّلون صبيانكم؟، فاستفسر النبي ﷺ عن ذلك فعلم أن الأقرع وقومه من أهل البادية لا يقبلون أبناءهم؛ فقال ﷺ: «أوَ أملك لك أن نزع الله من قلبك الرحمة؟»[1].

ومن خلال ذلك الموقف استطاع النبي ﷺ أن يقيم مدى الرحمة التي يتمتع بها الأقرع وقومه؛ باعتبار أن التقبيل هو أحد علامات ذلك الخلق الكريم؛ فوجّهه إلى الاهتمام بتلك الصفة والعمل على غرسها وتعزيزها في قلبه.

المطلب الثاني
المراقبة والمتابعة (تحديد المؤشرات)

تفيد المراقبة والمتابعة ملاحظة الدلالات المصاحبة للمواقف المختلفة، واستخراج المؤشّرات القابلة للملاحظة؛ سواء كانت مؤشرات سلبية أو إيجابية؛ ليُعمد إلى تقويم السلبية منها، ويُكشف عن المؤشرات الإيجابية لتعزيزها وفق استراتيجيات محددة، وذلك بعد تصنيفها وتحديد مستوياتها المختلفة[2].

وهذا من أكثر الأساليب استخدامًا وكشفًا عن القيم والطبائع المختلفة بشكل عام، وعن الرحمة خاصة، ويعتمد على جمع المعلومات من خلال المواقف المتعددة؛ فكثيرًا ما كان النبي ﷺ يراقب أصحابه ﵃ أو غير أصحابه من المشركين أو غيرهم ليعرف مدى امتلاكهم لخلق الرحمة، وتوجيههم بناء على هذه المعرفة التراكمية.

(١) متفق عليه. رواه البخاري، صحيح البخاري، ح(٥٥٣٩)، ومسلم، صحيح مسلم، ح(٤٢٨١).
(٢) الصمدي، القيم الإسلامية في المنظومة التربوية، ص ٧٣، بتصرف.

لذا نجده ﷺ كثيرًا ما يوكل مهامًا معينة لأشخاص بأعينهم؛ يصعب من خلالها معرفة سبب اختيار ذلك الشخص دون غيره، إلا ما كان عند النبي ﷺ عنه من المعرفة المسبّقة الناتجة عن المراقبة والمتابعة؛ كما ثبت عنه ﷺ الاستعانة ببعض المشركين في بداية الدعوة؛ كعمه أبي طالب على الرغم من عدم إسلامه(١)، وكما وجّه الصحابة ﷺ من الهجرة إلى الحبشة لما عند حاكمها من العدل والرأفة بالناس(٢).

وقد كان يلحظ النبي ﷺ من أصحابه ﷺ ما كانوا يمتازون به من الرحمة؛ ليُعمد إلى تعزيزها أو تقويمها في حال خروج شيء منها عن منهج الشريعة الإسلامية؛ كما ثبت عنه ﷺ لما رآى أبا مسعود البدري يضرب غلامًا له؛ فقوّم ذلك بمزيد من غرس الرحمة والرأفة في قلبه قائلًا: «الله أقدر عليك، منك عليه»(٣).

وقد استخدم الصحابة ﷺ ذلك الأسلوب -أيضًا- في مراقبة النبي ﷺ في تصرفاته ومعرفة مدى الرحمة التي كان يتمتع بها ﷺ؛ لما تبوأ في قلوبهم من مكانة الاقتداء والتشريع؛ فقد ثبت عن أنس ﷺ أنه راقب خلق النبي ﷺ في التعامل معه وهو يخدمه، وعلم ما كان في خلقه القويم من الرحمة والرأفة والشعور بالآخرين، فقال ﷺ: خدمت رسول الله ﷺ عشر سنين فما قال لي: أف، ولا: لم صنعت؟، ولا: ألاّ صنعت(٤)، وقوله ﷺ: «ما رأيت أحدًا أرحم بالعيال من رسول الله ﷺ»(٥).

(١) انظر: البخاري، صحيح البخاري، ح(١٢٧٢)، ومسلم، صحيح مسلم، ح(٣٥).
(٢) انظر: البخاري، صحيح البخاري، ح(٢٩٠٣) ومسلم، صحيح مسلم، ح(٤٥٥٨).
(٣) صحيح. رواه مسلم، صحيح مسلم، ح(٣١٣٥).
(٤) صحيح. رواه البخاري، صحيح البخاري، ح(٥٥٧٨).
(٥) صحيح. رواه مسلم، صحيح مسلم، ح(٤٢٨٠).

المطلب الثالث
الحث والمنافسة

كثيرًا ما يُستخدم أسلوب المنافسة والتحفيز والإثارة لمعرفة مدى الخلق الذي يتمتع به الشخص؛ ويكون ذلك من خلال وضعه في تحدٍّ مع نفسه، أو وعده بمكافأة أكبر من التضحية أو الجهد الذي سيبذله تلقاء الرحمة التي سيتمتع بها، مما يكشف مدى الصبر والرأفة التي وصلت إليها نفوس الصحابة ﷺ لتوظيفها واستغلالها في خدمة الدين.

ومن هنا، حضّ النبي ﷺ على اتباع خلق الرحمة في التعامل مع جميع الخلق؛ ليدخل في ذلك الحيوان والنبات والجماد، والمملوك وغير المملوك، بل وحتى الكافر؛ كما في قوله ﷺ: «لا يرحم الله من لا يرحم الناس»[١]، دون اعتبار لجنس أو دين أو نسب[٢]. والأمثلة على ذلك كثيرة.

منها ما أعطاه النبي من الحث والمنافسة على تحصيل رحمة الله وتلمّس أوقات إجابتها، وأسبابها؛ ليكشف مدى الهمة التي يمكن للصحابة ﷺ أن يتحصلوا بها رحمة الله ﷻ في قوله ﷺ: «إن الله تعالى يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل»[٣]، فإذا «مضى شرطى الليل أو ثلثاه، ينزل تبارك وتعالى إلى السماء الدنيا، فيقول: هل من سائل يعطى؟ هل من داعٍ يستجاب له؟ هل من مستغفر فيغفر له؟ حتى ينفجر الصبح»[٤].

(١) متفق عليه. رواه البخاري، كتاب التوحيد، باب دعاء النبي ﷺ أمته إلى توحيد الله ﷻ، (٦٩٤١)، ومسلم، كتاب الفضائل، باب رحمته ﷺ بالصبيان والعيال وتواضعه وفضل ذلك (٢٣١٩).
(٢) ينظر: المباركفوري، تحفة الأحوذي، ٦/ ٤٢.
(٣) صحيح. رواه مسلم، صحيح مسلم، ح (٢٧٥٩).
(٤) صحيح. رواه مسلم، صحيح مسلم، ح (٧٥٨).

المبحث الثاني
المنهج النبوي في تعزيز خلق الرحمة وتنميته وصقله

يعتمد تعزيز خلق الرحمة -غالبًا- على معرفة مدى امتلاك الصحابة ﷺ لها، وأحيانًا ما يعزز المنهج النبوي هذا الخلق ويغرسه في قلوب المسلمين دون النظر إلى درجاته المتفاوتة لدى كل منهم؛ وعلى كلتا الحالتين فقد استخدم المنهج النبوي ذلك الخلق الكريم لتوجيه سلوك المسلم وتربيته بغض النظر عما كان الشخص يملك ذلك الخلق بنسبة ملحوظة منذ ولادته أو أنه اكتسبها بسبب ظروف أو بيئة أو تربية لاحقًا.

وقام المنهج النبوي في تعزيز خلق الرحمة وتنميته لدى الصحابة ﷺ من خلال طرق عدة، نلخصها فيما يلي:

المطلب الأول
توظيف البيئة المحيطة لتعزيز خلق الرحمة

يمكن للبيئة أن تكون الوسيلة الأقوى في ترويض المسلم على خلق الرحمة، من خلال عناصره المحيطة به، والتي ما يزال يتعامل معها باستمرار باعتبارها أكثر الوسائل احتكاكًا به؛ سواء كانت بيئة أسرية أو مجتمعية أو غيرها من المواقف المساندة.

وتشمل البيئة في عصرنا الحاضر مناهج التعليم ووسائل الإعلام والتواصل؛ إضافة إلى الأسرة والأصدقاء وغيرها من العوامل المحيطة بالفرد؛ بدرجات متفاوتة بالتأثير والتربية.

كما يمكن خلق بيئة محددة من خلال مناهج دراسية، أو بيئة مغلقة، أو دورة تدريبية، أو نشاط تعزيزي أو غير ذلك[1]، وهدف البيئة قائم على التربية والتعليم والتأهيل المستمر لتعزيز خلق الرحمة؛ بحيث إن فُقدت البيئة المحيطة بالفرد؛ كالغربة أو طبيعة العمل أو وقوع ظرف خاص، فإنه يستعاض عنها ببيئة صُغرى مفتعلة.

ومن هنا أمر الإسلام بالتفاعل مع الفقراء والضعفاء والمساكين والأيتام، وعيادة المرضى، ومخالطة الخدم والعبيد، ومؤاكلتهم ومعاشرتهم؛ كل ذلك يشكل بيئة تعزز في قلب المسلم الرحمة والرأفة وتعظيم نعمة الله ﷻ.

إلا أنه لم يقتصر على ذلك؛ بل أمر بالرحمة صراحة في التعامل مع كل عنصر من عناصر البيئة؛ سواء كان قريبًا أو بعيدًا؛ ابتداء من الوالدين في قوله ﷻ: ﴿وَٱخۡفِضۡ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحۡمَةِ﴾ [الإسراء:٢٤]، وذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل، والجار ذي القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل؛ ولهذا ختم الله ﷻ وصيته في آخر الآية بالبراءة من الكبر والقسوة التي تناقض الرحمة بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخۡتَالٗا فَخُورًا﴾ [النساء:٣٦].

حتى أمر بذلك الخلق النبيل في التعامل مع الحيوان الأعجم والطير وغير ذلك؛ كما في قوله ﷺ: «والشاة إن رحمتها؛ رحمك الله»[2]، حتى إنه ﷺ كان رحيمًا بالجماد حين مسح على الجذع رحمة بحنينه إلى أن يخطب عليه[3].

(١) الصمدي، القيم الإسلامية في المنظومة التربوية، ص ٧٧، بتصرف.
(٢) رواه أحمد، المسند، (١٥٦٣٠)، والحاكم، المستدرك؛ (٧٥٦٢) وقال: «هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه»، وقال الألباني: «صحيح»، ينظر: صحيح الترغيب والترهيب (٢٢٦٤).
(٣) صحيح. رواه مسلم، صحيح مسلم، ح(٣٣١٨).

وقد استخدم النبي ﷺ المواقف المختلفة لتعزيز خلق الرحمة والرأفة في قلوب الصحابة رضي الله عنهم؛ حين قدم ﷺ بسبي، فإذا امرأة من السبي تسعى قد تحلّب ثديها، حتى إذا وجدت صبيًا في السبي أخذته فألزقته ببطنها فأرضعته، فقال رسول الله ﷺ: «أترون هذه المرأة طارحة ولدها في النار؟!»، قالوا: لا والله، وهي تقدر على أن لا تطرحه، قال ﷺ: «فالله تعالى أرحم بعباده من هذه بولدها»[1]، فاستغل النبي ﷺ هذا الموقف ليُظهر للصحابة رضي الله عنهم مدى رحمة الله ﷻ، ويعزز في نفوسهم مدى عظم هذا الخلق العظيم؛ ليتخلقوا به، ويمارسوه، ويجعلوه أساسًا في طبائعهم.

وقد تكرر ذلك في مواقف عدة؛ منها ما رواه كعب بن مالك عن أبي قتادة بن ربعي أنه كان يحدث: أن رسول الله ﷺ مُر عليه بجنازة فقال: «مستريح، ومستراح منه»، قالوا: يا رسول الله! ما المستريح والمستراح منه؟، قال: «العبدالمؤمن يستريح من نصب الدنيا وأذاها إلى رحمة الله، والعبدالفاجر يستريح منه العباد والبلاد والشجر والدواب»[2].

وهكذا؛ ما زال الهدي النبوي يعزز هذا المفهوم لدى الصحابة رضي الله عنهم حتى أصبح جزءًا ركيزًا من طباعهم وملكات أفعالهم؛ ففتحوا به البلاد وقلوب العباد.

المطلب الثاني
تأطير خلق الرحمة وضبطه بالمنهج الرباني

إن خلق الرحمة لا يفضي إلى الذل والخضوع في غير ما أمر الله به، ولا يقتضي العمل به أن يكون المسلم منعدم العزة والشجاعة والدفاع عن الحق

(١) متفق عليه. رواه البخاري، صحيح البخاري، ح(٥٥٤٠)، ومسلم، صحيح مسلم، ح(٤٩٤٧).
(٢) متفق عليه. رواه البخاري، صحيح البخاري، ح(٦٠٣١)، ومسلم، صحيح مسلم، ح(١٥٧٩).

والدين؛ كما يزعم بعض المنحرفين من الصوفية أو الرهبانية أو غيرهم من الديانات والمناهج غير السوية؛ ولهذا وضع الله ﷻ أُطُرًا متعددة لهذا الخلق؛ حتى لا يُستغل بطريقة خطأ، أو يُترك لشبهة مضللة تدّعي نصرة الدين وإعلاء كلمة الله ﷻ.

وتتضح الصورة في قوله ﷻ واصفًا المؤمنين: ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح:٢٩]، وقوله ﷻ: ﴿وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَـٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ﴾ [الأعراف:١٥٦-١٥٧].

ومن جهة أخرى فإن الله ﷻ قال في الحديث القدسي: «إن رحمتي تغلب غضبي»[(١)]، وتواترت الأحاديث على أن الله شديد الرحمة بعباده الذين يستحقون تلك الرحمة؛ فقد «جعل الله الرحمة مئة جزء؛ فأمسك عنده تسعة وتسعين جزءًا، وأنزل في الأرض جزءًا واحدًا، فمن ذلك الجزء يتراحم الخلق، حتى ترفع الفرس حافرها عند ولدها خشية أن تصيبه»[(٢)]، وغيرها الكثير من الآيات والأحاديث المتواترة في هذا المعنى.

فيبقى المؤمن بين الانضباط والالتزام بما أمر الله ﷻ ورسوله ﷺ به، وبين رجائه برحمة الله الواسعة؛ ليدخل في إطار متوازن بعيد عن الجفاء أو الغلو في التعاطي مع هذا الخلق سواء في تعامله مع الغير أو تفاعله مع الأوامر الربانية.

وقد طبق هذا الانضباط نبي الرحمة ﷺ حين توفي ابنه إبراهيم عليه السلام؛ فكانت رحمته به أعظم ما تكون لابن من أبيه؛ فدمعت عيناه وهو يراه يجود بنفسه؛ فعجب الصحابة رضي الله عنهم من بكائه فقال ﷺ: «إن العين تدمع، والقلب يحزن، ولا نقول إلا ما يرضي ربنا، وإنا بفراقك يا إبراهيم

(١) متفق عليه. رواه البخاري، صحيح البخاري، ح(٦٨٥٥)، ومسلم، صحيح مسلم، ح(٤٩٣٩).
(٢) متفق عليه، رواه البخاري، صحيح البخاري، ح(٥٥٤١)، ومسلم، صحيح مسلم، ح(٤٩٤٢).

لمحزونون»[1]؛ فلم تدفعه رحمته ﷺ إلى الخروج عن إرادة الله وطاعته والرضى بقدره.

وقد أمر ﷺ بهذا المنهج أيضًا أصحابه ﷺ؛ فحين توفي عثمان بن مظعون ﷺ، حزنت أم العلاء، فدفعتها رحمتها به أن تقول: رحمة الله عليك أبا السائب!؛ فشهادتي عليك لقد أكرمك الله؛ فعلّمها النبي ﷺ أن لا تأخذها العاطفة والرأفة والرحمة إلى التألي على الله فقال: «وما يدريك أن الله أكرمه؟»، فقالت: لا أدري بأبي أنت وأمي يا رسول الله!، فقال ﷺ: «أما عثمان فقد جاءه اليقين وإني لأرجو له الخير، والله ما أدري وأنا رسول الله ما يفعل بي»[2]؛ فكانت ﷺ لا تزكي بعده أحدًا أبدًا، عملًا بمنهج النبوة في تأطير خلق الرحمة والرأفة بإسلام الأمر إلى الله دون المغالاة أو الشهادة لأحد بجنة أو نار.

وعلى ذلك يمكن استغلال المواقف أو الظروف والبيئات المحيطة لتعميق خلق الرحمة وضبطه بالمنهج الرباني، بعيدًا عن البيئة المادية البعيدة عن القيم والأخلاق في التعامل والشعور مع الآخرين، وترك الانحراف في الفهم الدافع إلى الرهبانية والتعدي على حقوق الله ﷻ وإرادته في خلقه، أو اتخاذ الدنية في الدين.

ومن ناحية أخرى؛ فإن المنهج النبوي كان رياديًا في تجنب المبالغة في الرحمة دون العدل، فيقع بمقتضاها الظلم؛ إذ يمكن أن تأخذ القاضي أو الحاكم مبالغة في الرحمة إلى حد تضيع فيها الحقوق، وتختل بسببها العدالة والحكمة؛ ولهذا لما سأل أبو ذرٍّ الغفاري ﷺ الإمارة منعها النبي ﷺ عنه؛ لأن أبا ذر ﷺ يتمتع بقيم روحانية وعاطفية عالية تمنعه من أن يكون شديدًا حازمًا في مواقف الحزم التي يحتاجها الوالي، فخاف عليه ﷺ من أن تأخذه رحمته وعاطفته على الناس من أن يحاسب بعضهم

(١) متفق عليه. رواه البخاري، صحيح البخاري، ح(١٢٢٠)، ومسلم، صحيح مسلم، ح(٤٢٧٩).
(٢) صحيح. رواه البخاري، صحيح البخاري، ح(٢٤٩٠).

أو يعاقب آخرين، فضرب النبي ﷺ على منكبيه، ثم قال: «يا أبا ذر! إنك ضعيف، وإنها أمانة، وإنها يوم القيامة خزيٌ وندامة إلا من أخذها بحقها، وأدّى الذي عليه فيها»(١).

المطلب الثالث
القدوة ورسم الأنموذج

لقد امتاز المنهج النبوي عن كافة المناهج التربوية والأخلاقية الأخرى أن الله ﷻ بعث نبيه أسوة وقدوة، ومثالًا على تطبيق شرعه، ودليلًا على أن هذا الدين بكافة منظوماته العقدية والتعبدية والأخلاقية يدخل ضمن حدود القدرة البشرية، وتفسيرًا لكثير من النصوص التي قد يُختلف على فهمها نظريًا.

إضافة إلى أن النبي ﷺ بداية كان متصفًا بحسن الشمائل والأخلاق، إلى جانب غيرها من الصفات البشرية الأخرى؛ مصداقًا لقوله ﷻ: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب:٢١]، وقوله ﷻ: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾ [القلم]، وكما قال حسان بن ثابت:

وأحسن منك لم تر قط عيني ... وأجمل منك لم تلد النساء
خُلقتَ مبرأً من كل عيب ... كأنك قد خلقت كما تشاء(٢)

قال المناوي: "لحيازته جميع المحاسن والمكارم وتكاملها فيه، ولما اجتمع فيه من خصال الكمال وصفات الجلال والجمال ما لا يحصره حدٌّ ولا يحيط به عَدٌّ"(٣).

وكما أسلفنا في المقدمة فإن ذلك كان منشؤه شخصية النبي ﷺ، إضافة

(١) صحيح. رواه مسلم، صحيح مسلم، كتاب الإمارة، باب كراهة الإمارة بغير ضرورة، ح(٣٤٠٤).
(٢) حسان بن ثابت، ديوان حسان بن ثابت، ١/ ٦٦.
(٣) المناوي، فيض القدير، ٥/ ٩٠.

إلى ما حباه الله ﷻ من النبوة، فليس فيه مدخل لأهل التأويل أن يدّعوا عجز الإنسانية عن التأسي به لخصوصية نبوته، كما لا يُنسب تفرّده في تمام الأخلاق إلى ذاته ليسحب منه المغرضون نبوته فينسبون إنجازاته إلى بشريته؛ وإنما كلٌّ منهما تمتعت به شخصيته الفذّة ﷺ؛ ولهذا جعله الله ﷻ مثالًا للرحمة في الدنيا والآخرة فقال: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾ [الأنبياء] من الجن والإنس؛ مسلمين وغير مسلمين، وكذلك الطير والبهائم وجميع الخلق؛ رحمة لهم من مشقة الدنيا وعنائها، وهول الآخرة وعذابها؛ فكان من طبعه الرفق واللين، وفي قلبه العطف والرأفة، أرسله الله ﷻ من أنفس الناس يشعر بشعورهم، ويعز عليه كدهم وعنتهم كما وصفه الله ﷻ: ﴿لَقَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ عَزِيزٌ عَلَيۡهِ مَا عَنِتُّمۡ حَرِيصٌ عَلَيۡكُم بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ ١٢٨﴾ [التوبة].

وتمثلت هذه القيمة الرفيعة في منهجه ﷺ؛ فكم فاضت عيناه على صحابته رحمة بهم، وكم اعتصر قلبه على أمته حرصًا عليهم؛ حتى سلّاه الله ﷻ بقوله: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ٣﴾ [الشعراء:٣]، فكان قدوة يُحتذى برحمته، كما ثبت عنه ﷺ أنه أُتي بطفل قضى، فرُفع إليه ونفسه تتقعقع ففاضت عيناه الشريفتان ﷺ. فقال سعد: يا رسول الله، ما هذا؟!، فقال: «هذه رحمة جعلها الله في قلوب عباده، وإنما يرحم الله من عباده الرحماء»[1]، فكان ﷺ مثالًا للرحمة، يأمر بها ويتمثلها، كما ثبت عن أسامة ابن زيد رضي الله عنه حين قال: كان رسول الله ﷺ يأخذني فيقعدني على فخذه، ويُقعد الحسن على فخذه الأخرى، ثم يضمهما، ثم يقول: «اللهم ارحمهما؛ فإني أرحمهما»[2]، وكان ﷺ يلاعب أمامة بنت أبي العاص على كتفيه[3] وأم خالد بنت خالد بن سعيد[4] وهن طفلات.

(١) متفق عليه. رواه البخاري، صحيح البخاري، ح(١٢٠٤)، ومسلم، صحيح مسلم، ح(١٥٣٠).
(٢) صحيح. رواه البخاري، صحيح البخاري، ح(٥٥٤٤).
(٣) صحيح. رواه البخاري، صحيح البخاري، ح(٥٥٣٧).
(٤) صحيح. رواه البخاري، صحيح البخاري، ح(٥٥٣٤).

المطلب الرابع
استخدام المثيرات والوسائل المناسبة

من أهم العوامل المساعدة على تعزيز خلق الرحمة لدى المربي، أو المعلم؛ اختيار الوقت المناسب، والوسيلة المناسبة لتوظيف ظرف معيّن، وإيصال فكرة ما، ويتطلب ذلك قدرًا عاليًا من المهارة للتوفيق بين تلك الظروف، واستغلالها لإسقاط قدرٍ عالٍ من التأثير على المخاطَبين، وتطلّعًا لأن تكون أذهان السامعين أنشط، ونفوسهم أكثر استعدادًا للاستجابة والتأثر، وقلّ من برع بهذا على مدى كثير من العصور.

وتُعنى المثيرات والوسائل التعزيزية بزيادة الانتباه والاهتمام لدى المتعلّم؛ مما يتناسب طرديًا مع التفاعل الإيجابي لتعلم خلق الرحمة وتطبيقه، واتخاذه منهجًا في الحياة وليس موقفًا مؤقتًا؛ لتصل بالسامع إلى الاقتناع به والدفاع عنه؛ بل والتضحية لأجله، والمبادرة إلى نقله للآخرين[1].

ولقد كان المنهج النبوي رائدًا في استخدام تلك الوسائل والمثيرات في غرس خلق الرحمة، وتوظيفها للدعوة والدين، كما كان للنبي ﷺ عصا السبق في ذلك؛ ليس بسبب الوحي فحسب، بل بما وهبه الله ﷻ من الخلق العظيم المكوّن لشخصيته الشريفة ﷺ، مصداقًا لقوله ﷻ: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾﴾ [القلم].

ومن أعظم المثيرات ووسائل التحفيز التي اتبعها المنهج النبوي لتعزيز خلق الرحمة ما جعلت له من المثوبة والرفعة، وما بنت عليه الأجر العظيم؛ سواء كانت رحمة بالقريب أو البعيد؛ إنسانًا أو حيوانًا أو حتى غير ذلك، كما صحّ عنه ﷺ أنه قال: «ما من الناس من مسلم يُتوفى له ثلاث لم يبلغوا

(١) الصمدي، القيم الإسلامية في المنظومة التربوية، ص ٩٤-٩٨، بتصرف.

الحلم إلا أدخله الله الجنة، بفضل رحمته إياهم»[1]؛ ولذلك تواترت المعاني الواردة في الأحاديث النبوية على أن «الراحمون يرحمهم الرحمن»[2] وأن جزاء الرحمة بالمخلوق تجلب رحمة الخالق؛ كما في قوله ﷺ: «ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء»[3]؛ وقوله: «من في الأرض» تشمل المسلم وغير المسلم؛ وحتى الحيوان والنبات؛ بل ويتعدى الأمر إلى البيئة المحيطة بالمسلم؛ فالتفاعل معها بشكل صحيح وفطري بعيد عن الإهلاك والاستغلال غير الصحيح هو من الرحمة بها وبمن يسكنها؛ ولهذا جعلها الله ﷻ موجبة للمغفرة والرحمة من باب قوله ﷻ: ﴿هَلۡ جَزَآءُ ٱلۡإِحۡسَٰنِ إِلَّا ٱلۡإِحۡسَٰنُ ٦٠﴾ [الرحمن]، والله ﷻ أولى بالرحمة بعباده منهم ببعضهم البعض؛ كما ثبت عن النبي ﷺ أن الله ﷻ جعل الرحمة مئة جزء أنزل واحدة منها الأرض وادّخر تسعة وتسعين للمؤمنين يوم القيامة؛ وبذلك الجزء تتراحم المخلوقات جميعًا؛ الإنسان والحيوان، حتى إن الدابة لترفع حافرها لوليدها حتى يرضع، ولو يعلم الكافر ما عند الله من الرحمة ما يئس من الجنة[4].

وقد ورد عن النبي ﷺ أحاديث عدة استخدم فيها منهج الترغيب والمثيرات والوسائل النفسية ليغرس في طبع المسلم هذا الخلق الكريم كما ورد عنه ﷺ أن موقفًا واحدًا في الرحمة يغفر للعبد ذنوبه التي أسلفت؛ وضرب لذلك مثل البغي من بغايا بيني إسرائيل؛ كافأها الله لرحمتها بكلب كاد العطش أن يقتله؛ فسقته فغفر الله لها به[5]، على الرغم من عظم الكبيرة التي اعتادت عليها.

(١) صحيح. رواه البخاري، صحيح البخاري، ح(١١٧١).
(٢) صحيح. رواه الترمذي، سنن الترمذي، ح(١٩٢٤)، وقال: «حسن صحيحى، وصححه الألباني، السلسلة الصحيحة، ح(٩٢٢).
(٣) صحيح. رواه الترمذي، سنن الترمذي، ح(١٩٢٤)، وقال: «حسن صحيحى، وصححه الألباني، السلسلة الصحيحة، ح(٩٢٢).
(٤) متفق عليه. رواه البخاري، صحيح البخاري، ح(٥٥٤١)، ومسلم، صحيح مسلم، ح(٤٩٤٢).
(٥) متفق عليه. رواه البخاري، صحيح البخاري، ح(٣٢٠٨)، ومسلم، صحيح مسلم، ح(٤١٦٤).

ومن جهة أخرى فقد ورد هذا الأسلوب أيضًا في الترهيب من الشدة والغلظة في غير موضعها؛ كما في قوله ﷺ: «إن الرفق لا يكون في شيء إلا زانه، ولا ينزع من شيء إلا شانه»[١]، وقوله ﷺ: «لا يرحم الله من لا يرحم الناس»[٢]، حتى أنه جعل الخير كله في الرفق فقال: «من يحرم الرفق؛ يُحرم الخير»[٣].

المطلب الخامس
التحلّم والتربية المستمرة

ارتكز المنهج النبوي في تربية الصحابة ﷺ؛ سواء على الرحمة أو غيرها من مكارم الأخلاق على غرس تلك القيم إيمانيًا وتعلّمها بشتى الوسائل المرئية من المواقف أو المسموعة من الآيات والأحاديث؛ إلا أن بعض الصحابة ﷺ كانوا يتصفون بتلك الصفة فطرة؛ فكان دور المنهج النبوي بتعزيز تلك الصفة والرقي فيها وتطويرها، إضافة إلى توظيفها للدعوة الإسلامية ونشر الدين وتعليم الناس.

وقد أمرت السنة النبوية بتربية النفس على الخلق القويم، وخاصة على الرحمة والحلم والأناة؛ لما ورد عن النبي ﷺ قوله: «إنما العلم بالتعلم، والحلم بالتحلم»[٤]؛ وهو أمر واجب على كل مسلم، أن يتعلم حدود الرحمة، وآلياتها، وفضلها، إضافة إلى تربية نفسه على الرحمة، والعمل بها ومجاهدة نوازع النفس من الخروج عنها بأمر كالغضب أو العصبية أو

(١) صحيح. رواه مسلم، صحيح مسلم، ح(٤٦٩٨).
(٢) صحيح. رواه البخاري، صحيح البخاري، ح(٦٨٢٨).
(٣) صحيح. رواه مسلم، صحيح مسلم، ح(٤٦٩٦).
(٤) حسن. رواه الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، ٩/ ١٢٧، وحسّنه الألباني، صحيح الجامع الصغير، ح(٢٣٢٨).

الغلظة والشدة في غير مواضعها المشروعة، سواء كانت تلك التربية قائمة على التدرج أو التعلم أو التربية المستمرة للنفس والغير.

وبهذا أمرت السنة النبوية حتى تصبح هذه الصفة الحميدة طبعًا لا يتغير مع تغير الظروف والأشخاص كما ورد عن النبي ﷺ حين قال: «والذي نفسه بيده، لا يضع الله رحمته إلا على رحيم»، قالوا: يا رسول الله، كلنا يرحم!، قال: «ليس برحمة أحدكم صاحبه؛ يرحم الناس كافة»[1].

لذلك يحتاج غرس خلق الرحمة في النفس المسلمة وتعزيزه إلى عملية متتابعة من التربية المتواصلة، والتعليم المستمر لفضل هذا الخلق ومكانته في الإسلام للوصول إلى المستوى المطلوب من الخلق الكريم، مما يوجب تكثيف السبل والمناهج التربوية التي تستند إلى مراحل ومستويات تكاملية من الطفولة إلى ما بعدها.

ولا يخفى على المختصين والمطلعين على السنة النبوية أن الأسلوب النبوي كان متبصرًا في ذلك ومعتمدًا بشكل كبير على تنمية شخصيات الصحابة رضي الله عنهم وبنائها، بحسب الفروق الفردية التي يمتلكها كل منهم من الرحمة الفطرية أو المكتسبة؛ ليُعمد إلى تطويرها وتدريبها في مواقف عدة؛ فلما جاءه ﷺ سبي في معركة ما، فإذا امرأة من السبي قد تحلب ثديها تسقي، إذا وجدت صبيًّا في السبي فأخذته، فألصقته ببطنها وأرضعته، فقال النبي ﷺ موظّفًا هذا الموقف بمهارة تواصلية نفّاذة: «أترون هذه طارحة ولدها في النار؟»، قلنا: لا، وهي تقدر على أن لا تطرحه، فقال: «لله أرحم بعباده من هذه بولدها»[2]، فانغمس ذلك المفهوم في قلوب الصحابة

(١) صحيح. رواه الحاكم، المستدرك على الصحيحن، ح(٧٣١٠)، وقال: «صحيح الإسناد»، وصححه الألباني، صحيح الترغيب والترهيب، ح(٢٢٥٣).

(٢) متفق عليه. رواه البخاري، صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب رحمة الولد وتقبيله معانقته،

ﷺ وعقولهم، وصار مكوِّنًا أساسيًا في شخصياتهم، وعاملًا مؤثرًا في تصرفاتهم مع الله ﷻ، ومع الناس، وظهرت حكمة المنهج النبوي في إظهار عظمة الله ﷻ وسعة رحمته بالناس باستخدام التأديب والتعليم والتربية.

المطلب السادس
الدعاء وطلب الإعانة من الله ﷻ على التخلّق بخلق الرحمة

لقد تميّز المنهج النبوي عن غيره من المناهج التربوية الأخرى -سواء كانت مناهج ذوات مراجع دينية أو مادية- بالعامل الروحي المتمثل بسؤال الله ﷻ رحمته والاستعاذة من سخطه وغضبه؛ كما ثبت عن النبي ﷺ في مواضع يصعب حصرها لكثرة ورودها وتعددها؛ منها ما جاء في القرآن الكريم؛ كقوله ﷻ: ﴿وَقُل رَّبِّ ٱغۡفِرۡ وَٱرۡحَمۡ وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ١١٨﴾ [المؤمنون]، وكقوله ﷻ: ﴿وَٱعۡفُ عَنَّا وَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَآ﴾ [البقرة:٢٨٦]، كما ورد عن النبي ﷺ في قوله ﷺ: «... وارحمني إنك أنت الغفور الرحيم»(١)، وقوله ﷺ: «اللهم افتح لي أبواب رحمتك»(٢).

كما كان من منهجه ﷺ أنه كان يستعيذ من سخط الله وغضبه كما في دعائه ﷺ: «اللهم إني أعوذ بك من زوال نعمتك، وتحول عافيتك، وفجاءة نقمتك، وجميع سخطك»(٣)، وقوله ﷺ: «ولا تسلط علينا من لا يرحمنا»(٤)، وأمثال ذلك كثيرة.

ح(٥٩٩٩)، ومسلم، صحيح مسلم، كتاب التوبة، باب في سعة رحمة الله ﷻ وأنها سبقت غضبه، ح(٢٧٤٥).

(١) متفق عليه. رواه البخاري، صحيح البخاري، ح(٥٨٥١)، ومسلم، صحيح مسلم، ح(٤٨٧٦).

(٢) صحيح. رواه مسلم، صحيح مسلم، ح(١١٦٥).

(٣) صحيح. رواه مسلم، صحيح مسلم، ح(٧٥١).

(٤) حسن. رواه الترمذي، سنن الترمذي، ح(٢٧٨٣)، وقال: «حديث حسن غريب»، وحسنه الألباني،

إضافة إلى ما أنف ذكره فقد أرشد المنهج النبوي إلى تربية النفس من خلال طلب المسلم أن يرزقه هذا الخلق النبيل ويصرف عنه الشدة والغلظة في غير موضعهما، الأمر الذي لا يراعيه أي منهج تربوي أو مدني معاصر، كما ثبت عنه ﷺ أنه استعاذ من منكرات الأخلاق، والأعمال[1]، كما ثبت عنه ﷺ أنه سأل الله أن يسلل سخيمة الصدر[2]، وجاء في دعائه ﷺ: «اللهم إني أعوذ بك من... القسوة...، والذلة والمسكنة»[3].

المطلب السابع
تقويم الأخطاء والثغرات المنافية لخلق الرحمة

لا يساعد الكشف عن الثغرات والأفعال المنافية لخلق الرحمة على معرفة مدى الرحمة التي يتمتع بها الأشخاص فحسب، بل إن المنهج النبوي أرفد ذلك بمعرفة ما يمكن أن يُعزى لكل واحد من الصحابة رضي الله عنهم من المهام، وما يمكن أن يُفاد منه.

إضافة إلى ما يجب أن يتم علاجه من الخلل الواقع في مفهوم هذا الخلق الكريم أو تطبيقه؛ ولذلك كانت أولى درجات الوقاية من الأمراض المؤثرة على خلق الرحمة لدى الصحابة رضي الله عنهم؛ تحديد مفهوم هذا الخلق العظيم وتحديد جوانبه، وتنقيته من الشوائب المضببة عليه؛ من المحدودية في استخدامه مع الأقارب أو الأحبة دون غيرهم، ومن نوازع

انظر: صحيح الترمذي.

(١) صحيح. رواه الترمذي، سنن الترمذي، ح(٢٨٤٠)، وقال: «حديث حسن غريب»، وصححه الألباني، انظر: صحيح الترمذي.

(٢) صحيح. رواه الترمذي، سنن الترمذي، ح(٢٨١٦)، وقال: «حديث حسن صحيح»، وصححه الألباني، انظر: صحيح الترمذي، وسخيمة الصدر: غله وحقده وقسوته.

(٣) صحيح. رواه الحاكم، المستدرك على الصحيحين، ح(١٩٤٤)، وقال: «صحيح على شرط الشيخين»، وصححه الألباني، صحيح الجامع، ح(١٢٨٥).

النفس البشرية وضعف الإيمان؛ ولهذا كان النبي ﷺ يقول: «لن تؤمنوا حتى تراحموا»، قالوا: يا رسول الله! كلنا يرحم، فما كان من النبي ﷺ إلا أن أوضح المفهوم في ذلك قائلًا: «إنه ليس برحمة أحدكم صاحبه، ولكنها رحمة العامة»[١].

وكذلك عالج النبي ﷺ انحراف مفهوم الرحمة لدى الأعرابي الذي بال في المسجد حين قال: اللهم ارحمني ومحمدًا ولا ترحم معنا أحدًا، فقوّم النبي ﷺ ما طغى عليه من حب الذات والتسرع في الحكم قائلًا: «لقد حجّرت واسعًا»[٢] تنبيها له ولغيره من سعة الرحمة بالناس دون تمييز.

ولهذا حيّد النبي ﷺ مفهوم الطبقية والعنصرية من الرحمة؛ وأنها حق لكل مخلوق كما في قوله ﷺ: «ليس منا من لم يرحم صغيرنا، ويعرف شرف كبيرنا»[٣]، وتتضح تلك الصورة في حديث أبي مسعود البدري حين ضرب غلامًا له حين سمع النبي ﷺ منكرًا هذا التصرف المنافي لخلق الرحمة بالعبيد فقال له: «اعلم أبا مسعود! لله أقدر عليه منك عليه»[٤].

ويتسع هذا المفهوم حتى يصل إلى تقويم الأفعال المنافية للرحمة مع غير المسلم كما قال النبي ﷺ لعائشة حين زجرت اليهود ولعنتهم لما قالوا للنبي ﷺ: السام عليك، فنهاها النبي ﷺ: «مهلًا يا عائشة! عليك بالرفق، وإياك والعنف والفحش»، وفي رواية مسلم: «إن الله يعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف، وما لا يعطي على سواه»[٥]، ومثله ما ورد عنه ﷺ حين سأله رجل أن يدعو على المشركين؛ فصحح النبي ﷺ هذا

(١) صحيح. رواه الحاكم، المستدرك على الصحيحن، ح(٧٣١٠)، وقال: «صحيح الإسناد»، وصححه الألباني، صحيح الترغيب والترهيب، ح(٢٢٥٣).
(٢) صحيح. رواه البخاري، صحيح البخاري، ح(٥٥٥١).
(٣) صحيح. رواه الترمذي، سنن الترمذي، ح(١٩٢٠)، وصححه الألباني، السلسلة الصحيحة، ح(٢١٩٦).
(٤) صحيح. رواه مسلم، صحيح مسلم، ح(٣١٣٥).
(٥) متفق عليه. رواه البخاري، صحيح البخاري، ح(٥٥٧٠)، ومسلم، صحيح مسلم، ح(٤٦٩٧).

الفكر بقوله: «إني لم أبعث لعانًا، وإنما بعثت رحمة»[١]، فالداعية يرجو رحمة الناس وإنقاذهم من النار؛ إلا إن اعتدوا وبغوا فعند ذلك ثبت عنه ﷺ أنه دعا على المشركين[٢].

ويدخل في ذلك الحيوان والنبات، ويحرم الاستهانة بهما والغلظة عليهما، وقد جاء ذلك مباشرًا في إعلان النبي ﷺ دخول امرأة النار في هرة؛ إذ إنها لم ترحمها حين ربطتها ولم تطعمها، ولم تدعها تأكل من خشاش الأرض[٣]، كما صحّ عن النبي ﷺ الإنكار على الفتى الأنصاري حين شكى جملُه قلة إطعامه وإجهاده، وأمره أن يرحمه ولا يُهضمه حقه، فقال له ﷺ: «أفلا تتقي الله في هذه البهيمة التي ملكك الله إياها ... »[٤].

(١) صحيح. رواه مسلم، صحيح مسلم، ح(٤٧٠٤).
(٢) متفق عليه. رواه البخاري، صحيح البخاري، ح(٩٤٨)، ومسلم، صحيح مسلم، ح(١٠٨٥).
(٣) متفق عليه. رواه البخاري، صحيح البخاري، ح(٧٠٣) ومسلم، صحيح مسلم، ح(٤١٦٠).
(٤) صحيح. رواه أبو داود، سنن أبي داود، ح(٢٢٩٧)، وصححه الألباني، السلسلة الصحيحة، ح(٢٠).

المبحث الثالث
المنهج النبوي في توظيف خلق الرحمة في الدعوة واستغلاله لخدمة الدين

يعتمد المنهج النبوي في توظيف خلق الرحمة واستغلاله لخدمة الدين وعمارة الدنيا على سلسلة متقدمة من الخطوات التي يعتمد بعضها على الآخر؛ حتى تشكّل منظومة متكاملة تؤخذ ثمرتها من الكشف عن ذلك الخلق الكريم في الصحابة ﷺ بالطرق المذكورة آنفًا، ومن ثم تعزيزها وتنميتها وإعدادها بشكل متكامل؛ ليُعمَد بعدها إلى توظيف ذلك الخلق والعمل به، ويكون هذا التوظيف من خلال ما يلي:

المطلب الأول
تفعيل خلق الرحمة في الواقع المحسوس

قد يملك بعض الناس درجات رفيعة من خلق الرحمة، إلا أنه لا يُفيد منها في أفعاله، أو لا يستطيع أن يجعل لها وقعًا أو أثرًا في حياته أو حياة من هو حوله، إلا أن يُوجه إلى تطبيقه، ذلك أن خلق الرحمة ينبني عليه عدد من القيم والأخلاق الإسلامية؛ كالرفق واللين والعطف على الصغير واليتيم والكبير وذي القربى، كما يحمله معنى الإحسان إلى الغير والتسامح والتيسير والبر وغير ذلك.

ولهذا يمكن لخلق الرحمة أن يكون بوابة للمحبة والدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة التي أمر الله بها؛ لأن ذلك كله يصب في كمال الإيمان، وتمام العقيدة، وهي لب ما بعث الله لأجله محمدًا ﷺ في قوله ﷺ: «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق»[1]، وبدا ذلك جليًا حين جاءه ﷺ رجل يشكو قسوة قلبه؛ فقال له: «أتحبّ أن يلين قلبك؟. ارحم اليتيم، وامسح على رأسه وأطعمه من طعامك؛ يلن قلبك»[2].

المطلب الثاني
إبراز القدوة والمثل الأعلى

لقد أفاد الصحابة رضي الله عنهم من شخصية النبي ﷺ كثيرًا من المبادئ والأخلاق والقيم، وعلى رأس تلك الأخلاق رحمته ﷺ، كما قال ﷻ: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾ [التوبة]؛ ولهذا كان النبي ﷺ مثلهم الأعلى، واتخذوا هديه منهجًا حرصوا على تطبيقه في حياته وبعد وفاته ﷺ.

وقد كان النبي ﷺ سيد الرحمة المهداة إذ حصر الله ﷻ رسالته بها حين قال: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ [الأنبياء]؛ ولهذا تمثّل النبي ﷺ ذلك الخُلُق في كثير من مواقفه تجاه المسلم؛ كرحمته بالأعرابي الذي بال في المسجد[3]، ورحمته بغير المسلم حين احمرّ وجهه لما رأى امرأة قتيلة في وسط المعركة، فنهى عن قتل النساء والصبيان[4]، ورحمته بالصغير حين قُتل جعفر، فرأى ابنه عبدالله فقال: «ارفعوا لي هذا»، فحمله على دابته

(١) حسن. رواه أحمد، المسند، ٢/ ٣١٨، وحسّنه الألباني، سلسلة الأحاديث الصحيحة ١/ ١١٢، وقال الحاكم: «صحيح على شرط مسلم». انظر: المستدرك، ٢/ ٦١٣.
(٢) حسن لغيره. رواه أحمد، المسند، ح(٧٥٦٦)، وحسّنه الألباني، سلسلة الأحاديث الصحيحة، ح(٨٥٤).
(٣) صحيح. رواه البخاري، صحيح البخاري، ح(٥٥٥١).
(٤) متفق عليه. رواه البخاري، صحيح البخاري، ح(٢٧٩٢)، ومسلم، صحيح مسلم، ح(٣٢٨٠).

ومسح على رأسه ثلاثًا وقال: «اللهم اخلف جعفرًا في ولده»[1]، وكذا رحمته بالمرأة والبنات والشيوخ والعبيد، والأعداء والأسرى، والجيران وذوي القربى والأرامل والأيتام، والأموات وأهل الذمة والمشركين، والعصاة والجهلاء، وكل الناس؛ كما قال ابن كثير (تفسير القرآن ٣/ ٤٠١: "وَكَانَ مِنْ أَخْلَاق النبي ﷺ أَنَّهُ جَمِيل الْعِشْرَة، دَائِم الْبِشْر، يُدَاعِب أَهْله، وَيَتَلَطَّف بِهِمْ، وَيُوسِعهُمْ نَفَقَته، وَيُضَاحِك نِسَاءَهُ"[2].

بل تعدت رحمته إلى الحيوان حين عاتب أصحابه قائلًا: «من فجع هذه بفرخيها؟»، ورأى قرية نمل قد أُحرقت فنهى عن ذلك[3]، ورحمته بالنبات والجماد حين ضم الجذع لما حنّ لفراقه ﷺ[4]، وغيرها من المواقف التي لا حصر لها، حتى كانت شعارًا للدعوة والدين.

بل كانت صفة إلهية تليق بجلال الله ﷻ وكماله؛ أقام الله ﷻ عليها الكون ومعاشرة المخلوقات بعضها البعض، حتى يترسخ في النفوس هذا المفهوم الرباني.

المطلب الثالث
التعزيز الإيجابي

اتفق علماء التربية وعلم النفس على أن التعزيز الإيجابي عامل مهم لتفعيل القيم والأخلاق، كما الحال في أهميته لغرسها وتنميتها، وهو منهج نبوي متبع، أسّس له القرآن الكريم والشريعة الإلهية بالترغيب وفضائل الأعمال.

(١) حسن. رواه أحمد، المسند، ح(١٧٦٠)، وحسنه الألباني، أحكام الجنائز، ١/ ١٦٨.
(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ٣/ ٤٠١.
(٣) صحيح. رواه أبو داود، سنن أبي داود، ح(٢٦٧٥)، وصححه الألباني، السلسلة الصحيحة، ح(٤٨٧).
(٤) صحيح. رواه مسلم، صحيح مسلم، ح(٣٣١٨).

وجاء في السنة النبوية عدد من المواقف التي عزّز فيها النبي ﷺ أصحابه رضي الله عنهم في رحمة الناس والرأفة بهم؛ سواء كانت للوالدين أو الأبناء أو الزوجة أو الفقير أو عامة المسلمين، مما شكّل لدى المسلم ثقافة البحث عن الرحمة والعمل بها، وتطويرها والدعوة إليها.

ويعتمد التعزيز الإيجابي على المعرفة المسبّقة أو معاينة موقف أو ملاحظة عمل نبيل صادر من أحد الصحابة رضي الله عنهم.

وقد جاء في السنة النبوية عدد من الأحاديث والمواقف النبوية التي تعزز هذا الخلق الكريم، وتبيّن فضل العمل به، وجزاء صاحبه، الحاثة على الرحمة، المبيّنة لفضلها وجزائها عند الله ﷻ؛ سواء كان جزاء دنيويًا أو أخرويًا؛ كما في قوله ﷺ: «ارحموا من في الأرض؛ يرحمكم من في السماء»[1]، وقوله ﷺ: «الراحمون يرحمهم الرحمن»[2]، وغيرها من الأحاديث.

المطلب الرابع
التعلم المتبادل

تقوم المجتمعات سواء الإسلامية أو غيرها على ما يملكه أفرادها من القيم؛ وكلما كانت تلك القيم ذوات مستويات عليا؛ ارتفعت سوية المجتمع، مما يجعله مجتمعًا مؤثّرًا يسهل اقتناع الآخرين بمبادئه بمجرد معايشته؛ الأمر الذي جعل كثيرًا من الأفراد والشعوب يعتنقون الإسلام بمجرد معاينتهم لأخلاق المسلمين والتزامهم وانضباطهم بالقيم الإسلامية المختلفة، إضافة

(١) صحيح. رواه الترمذي، سنن الترمذي، ح(١٩٢٤)، وقال: «حسن صحيح»، وصححه الألباني، السلسلة الصحيحة، ح(٩٢٢).

(٢) صحيح. رواه الترمذي، سنن الترمذي، ح(١٩٢٤)، وقال: «حسن صحيح»، وصححه الألباني، السلسلة الصحيحة، ح(٩٢٢).

إلى ما اكتسبه المسلمون أنفسهم من بعضهم البعض، كل ذلك يدخل في مفهوم التعلم المتبادل.

وقد ورد في السيرة النبوية مواقف عدة؛ وظّف فيها النبي ﷺ التعلّم المتبادل لخلق الرحمة؛ كما ثبت عن النبي ﷺ أنه قبّل الحسن والحسين؛ فقال الأعرابي: أتقبلون الصبيان؟ فما نقبلهم، فقال النبي ﷺ: «أو أملك لك أن نزع الله من قلبك الرحمة»[1]، وهنا جاء مبدأ التعلم ونقل ثقافة الرحمة إلى أفراد المجتمع الذين يُعوزهم وجوده، هذا من الناحية التطبيقية.

إضافة إلى التعلم النظري، بما أمر به النبي ﷺ من الترحم على الناس، واتخاذ هذا الخلق الكريم منهجًا للدعوة والحياة، وهو أمر يدخل في مضمون القدوة والتوجيه، إضافة إلى ما كان يمتلكه كثير من الصحابة رضي الله عنهم من الرحمة الفطرية أو المكتسبة، كما وصف النبي ﷺ أهل اليمن قائلًا: «أتاكم أهل اليمن، هم أرق أفئدة، وألين قلوبًا ...، والسكينة في أهل الغنم»[2]، فحثّ النبي ﷺ على معاملتهم بالرفق، والتعلم من خلق الرحمة واللين الذي يتحلّون به.

(١) متفق عليه. رواه البخاري، صحيح البخاري، ح(٥٥٣٩)، ومسلم، صحيح مسلم، ح(٤٢٨١).
(٢) متفق عليه. رواه البخاري، صحيح البخاري، ح(٤٠٣٧)، ومسلم، صحيح مسلم، ح(٧٣).

الخاتمة

تعود أسبقية المنهج النبوي ومثاليته في تعزيز خلق الرحمة وصقله إلى عظم الشريعة الإسلامية وكمالها المنبثق عن ربانية مصدرها؛ الأمر الذي يتوثق منه المختصون في أية جزئية يتم التسليط عليها في الشريعة الإسلامية المطهرة، ومن هنا يمكن أن تتلخص نتائج هذه الدراسة فيما يلي:

١. يُعد خلق الرحمة أحد ركائز الشريعة الإسلامية، وأسسها التي أمر الله تعالى بالتعامل من خلالها، وهو سبب تنزيل الشريعة، وإرسال الرسل.

٢. لقد سبق المنهج النبوي كافة المناهج العصرية الداعية إلى غرس وتعزيز خلق الرحمة، ولم تضف عليه أكثر من مصطلحات معاصرة مستحدثة.

٣. يولد خلق الرحمة فطريًا مع الإنسان بدرجات متفاوتة، ويمكن تعزيزه بعد ذلك وتقويمه بعدة آليات مختلفة، وهذا يفسر وجود شخصيات غير مسلمة تتسم بقدر عالٍ من الرحمة في المعاملات والأخلاق.

٤. يعتمد المنهج الصحيح في غرس خلق الرحمة وتعزيزه على الكشف عن الدرجات المكتسبة من هذا الخلق، وذلك من خلال السؤال المباشر، أو المراقبة والمتابعة وتحديد المؤشرات، أو من خلال أسلوب الحث الاختباري للكشف عن مدى الاتصاف بهذا الخلق القويم.

٥. يقوم تعزيز خلق الرحمة على عدة طرق بغض النظر عن درجات امتلاك الشخص لهذا الخلق؛ سواء كان عن طريق توظيف البيئات المحيطة، أو خلقها، أو تأطير ضبطه بالمنهج الرباني، أو تمثّل القدوة ورسم المثل الأعلى، أو استخدام الترغيب والتوضيح بوسائله المختلفة، أو من خلال التدريب والتعليم التطبيقي، أو تقويم الأخطاء والمواقف المؤثرة على التحلي بالرحمة الإسلامية، إضافة إلى العوامل الروحانية القائمة على الدعاء وطلب الإعانة من الله تعالى على التخلق به.

٦. تتمثل الإفادة من التحلي بخلق الرحمة بتوظيفها لخدمة الدين والدعوة إلى الله تعالى، من خلال تفعيل العمل بها واتخاذها أساسًا في المعاملات، والإشارة إلى الأشخاص الذين يمتلكون قدرًا عاليًا منها ليكونوا أسوة لغيرهم، وكذلك من خلال التعزيز الإيجابي الداعم لصاحب هذا الخلق العظيم، إضافة إلى مهارة التعلم المتبادل واكتساب الأخلاق من خلال المواقف التي يعاينها المسلم.

التوصيات:

من خلال الدراسة المتأنية لكثير من مواقف الرحمة النبوية المهداة، واستنطاق أحداثها، والنظر في المناهج التربوية الحديثة وما قدّمت في تعزيز هذا الخلق الكريم، نجد أن المنهج النبوي كان رائدًا في كثير من الأساليب التربوية والتنموية لبناء وغرس الرحمة وتعزيزها

بشكل أكثر عمقًا وتفصيلًا، والتي يمكن الإفادة منها ضمن التوصيات والمقترحات التالية:

١. استقراء القرآن الكريم والسيرة النبوية بشكل كامل، واستنطاقها، والعمل على تفصيل أنواع الرحمة، وإفراد كل نوع بدراسة تربوية عملية معاصرة، ضمن آلية علمية منضبطة، ودون مبالغة أو تفريع غير مجدٍ.

٢. توطيد المنهج النبوي في تعزيز قيمة الرحمة لدى المربين وعلماء النفس، وإظهار مدى الحكمة النبوية في تربية الصحابة ﷺ، والبناء الخلقي والقيمي عندهم، والكشف عن الطرق والمناهج التي اتبعها في ذلك.

٣. التوسع في دراسة خلق الرحمة عند الصحابة ﷺ، والتابعين، والسلف الصالح من العلماء والمربين، وإبراز جوانبها وآلياتها وطرق الإفادة منها للمنظومات التربوية المعاصرة.

٤. دراسة منهج تعزيز خلق الرحمة حسب التوظيف القرآني لها، وتطبيقها على المواضيع والمواقف التي تحويها سور القرآن، ليظهر من خلالها التوجيه القرآني للرحمة الإلهية، وكيفية استجلابها والإفادة منها في مجال التربية.

٥. تدريب الدعاة والوعاظ وأئمة المساجد والخطباء على المنهج النبوي في التعامل والتعزيز لهذا الخلق الكريم، وتدريسها من خلال السيرة النبوية، وتوجيههم لتوظيف هذا الخلق في مصلحة الدعوة إلى الله ﷻ، ونشر دين الحق.

٦. تعميم ما سبق ذكره من المناهج على جميع المؤسسات التربوية

والجمعيات والتخصصات الجامعية والمعاهد العليا.

٧. توظيف وسائل الإعلام المختلفة لترسيخ هذا المنهج، وإعداد البرامج لخدمتها، وإبراز هذه القيمة الإسلامية، ومدى تميّز الإسلام بها، وسبقه لتطبيقها، ودرء ما يُفترى عليه من العنف والإرهاب.

٨. إنشاء قنوات التواصل بين مؤسسات المجتمع المدني والباحثين والمفكرين والمؤسسات التربوية والتعليمة والثقافية والإعلامية لبلورة تلك القيمة العظيمة، ومكانتها في الإسلام، وعمقها في المنهج النبوي، من خلال مشاريع عمل مشتركة وهادفة.

٩. عمل المؤتمرات والندوات وورش العمل التدريبية ودعوة الباحثين والدارسين ورجال الثقافة وأصحاب القرار التربوي والتعليمي؛ لدعم مفهوم الرحمة الحقيقي، وآليات تطبيقه وتفعيله.

١٠. إنشاء مؤسسات ذات مرجعية عليا تُعنى بمتابعة البناء الأخلاقي بشكل عام، على المستويات الرسمية وغير الرسمية بناء على المنهج الإسلامي والنبوي؛ ولتكون مرجعًا عالميًا، ومركزًا لوضع وابتكار الطرق والآليات المتطورة الداعمة لغرس القيم والأخلاق لجميع المراحل العمرية والعقلية.

فهرس المصادر والمراجع:

١. ابن منظور، محمد بن مكرم بن علي الرويفعي، لسان العرب، ط٣، ١٥م، دار صادر، بيروت، ١٤١٤هـ.
٢. ابن كثير، إسماعيل بن عمر، تفسير القرآن العظيم (تفسير ابن كثير)، ط٢، ٨م، دار طيبة، المدينة المنورة، ١٩٩٩م.
٣. أبو داود، سليمان بن الأشعث السجستاني، سنن أبي داود، ٤م، دار الكتاب العربي، بيروت.
٤. الألباني، محمد ناصر الدين، سلسلة الأحاديث الصحيحة، ٧م، مكتبة المعارف، الرياض.
٥. الألباني، محمد بن ناصر الدين، أحكام الجنائز، ط٤، ١م، المكتب الإسلامي، بيروت، ١٩٨٦م.
٦. الألباني، محمد ناصر الدين، صحيح الترغيب والترهيب، ط٥، ٣م، مكتبة المعارف، الرياض.
٧. الألباني، محمد ناصر الدين، صحيح الجامع الصغير وزيادته، ط١، ٢م، مكتبة المعارف، الرياض.
٨. المباركفوري، محمد بن عبدالرحمن، تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، ١٠م، دار الكتب العلمية، بيروت.
٩. البخاري، محمد بن إسماعيل بن إبراهيم أبو عبدالله الجعفي، الجامع الصحيح المختصر من حديث الرسول ﷺ وسننه وأيامه، ط٣، ٦م، دار ابن كثير واليمامة، بيروت، ١٩٨٧م، تحقيق مصطفى البغا.
١٠. الترمذي، محمد بن عيسى بن سورة، الجامع الصحيح المسمى بسنن الترمذي، ٥م، دار إحياء التراث العربي، بيروت، تحقيق أحمد محمد شاكر وآخرون.

١١. البرقوقي، عبدالرحمن، شرح ديوان حسان بن ثابت، دار الشرق العربي، بيروت، ١٩٩١م.
١٢. جابر، جابر عبدالحميد، الذكاءات المتعددة والفهم تنمية وتعميق، دار الفكر العربي، القاهرة، الطبعة الأولى، ٢٠٠٣م.
١٣. الجوهري، الصحاح، ط٤، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٨٧م، تحقيق أحمد عبدالغفور عطار.
١٤. الخطيب البغدادي، أحمد بن علي، تاريخ بغداد، ١٤م، دار الكتب العلمية، بيروت.
١٥. الشيباني، أحمد بن محمد بن حنبل، المسند، ٥٠م، ط٢، مؤسسة الرسالة، ١٩٩٩م، تحقيق شعيب الأرناؤوط وآخرون.
١٦. الصمدي، خالد، القيم الإسلامية في المنظومة التربوية، ١م، المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة، الرباط، ٢٠٠٨م.
١٧. عياض، القاضي عياض بن موسى اليحصبي، الشفا بتعريف حقوق المصطفى، تحقيق حسين عبدالحميد، دار الأرقم بن أبي الأرقم، بيروت.
١٨. المناوي، زين الدين محمد بن عبدالرؤوف بن تاج العارفين، التوقيف على مهمات التعاريف، ط١، دار الفكر المعاصر، بيروت-دمشق، ١٤١٠هـ، تحقيق محمد رضوان الداية.
١٩. المناوي، زين الدين محمد بن عبدالرؤوف بن تاج العارفين، فيض القدير شرح الجامع الصغير، ط١، ٦م، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٤م.
٢٠. النيسابوري، مسلم بن الحجاج القشيري، الجامع الصحيح المسمى بصحيح مسلم، ٨م، دار الجيل ودار الآفاق، بيروت.

المؤتمر الدولي عن الرحمة في الإسلام
The International Conference on Mercy in Islam
قسم الدراسات الإسلامية - كلية التربية

حديث
جعل اللّه الرحمة مئة جزء
دراسة تحليلية

إعداد:
د. عبدالرحمن عبدالناصر سيد سلطان
كلية العلوم الإدارية والإنسانية جامعة الجوف
قسم الدراسات الإسلامية



المقدمة

الحمد لله، والصلاة والسلام على خاتم رسل الله الرحمة المهداة، والنعمة المسداة، محمد بن عبدالله ﷺ، وعلى آله وصحبه، ومن اهتدى بهداه.

وبعد،،،

الرحمة رقة تقتضي الإحسان إلى المرحوم، وقد تستعمل تارة في الرقة المجردة، وتارة في الإحسان المجرد عن الرقة، وقيل: هي رقة في النفس تبعث على سوق الخير لمن تتعدى إليه.

قال أبو البقاء الكفوي: "الرحمة هي أن يوصل إليك المسار، والرأفة هي أن يدفع عنك المضار، فالرحمة من باب التزكية، والرأفة من باب التخلية، والرأفة مبالغة في رحمة مخصوصة، وهي رفع المكروه وإزالة الضر، فذكر الرحمة بعدها في القرآن مطردًا لتكون أعم وأشمل"[1].

وجاءت السنة واستفاضت نصوصها الداعية إلى الرحمة، والحاثة عليها، المرغبة فيها نصًّا أو مفهومًا، يقول النووي معلقًا على أحاديث الرحمة: "وهذه الأحاديث صريحة في تعظيم حقوق المسلمين بعضهم

(١) الكليات، أبو البقاء الكفوي ٧٤٢/١.

على بعض، وحثهم على التراحم والملاطفة والتعاضد في غير إثم ولا مكروه"[1].

وعلى هذا جاءت أحاديث النبي ﷺ داعية إلى الرحمة بين البشر، وتعددت مروياتها في غضون كتب السنة، وكثرت متابعاتها وشواهدها كذلك، وجاءت دراستنا الحالية لإلقاء الضوء على بعض هذه الأحاديث، ودراسة طرائقها والجوانب الموضوعية المرتبطة بها، فجاءت الدراسة بعنوان: [حديث جعل الله الرحمة مئة جزء دراسة تحليلية].

أسباب اختيار الموضوع وأهميته:

تتضح أسباب اختيار الموضوع، وأهميته من خلال:

١. رغبة الباحث في عرض دراسة موجزة عن الرحمة في إطار السنة النبوية، وأثر ذلك على الفرد والمجتمع.

٢. دراسة طرائق حديث (جعل الله الرحمة مئة جزء) الواردة في ذلك عن النبي ﷺ.

٣. عرض الدراسة الموضوعية المرتبطة بالحديث، ومناقشة الروايات، ومعرفة أثر رحمة الله ﷻ على العباد.

٤. تخصيص البحث في فكرة حديث جعل الله الرحمة مئة جزء لدراسته، ومعرفة أسباب وروده والقضايا الموضوعية المرتبطة به.

حدود الدراسة:

ترتبط هذه الدراسة بكتب السنة النبوية والشروح الحديثية، وكتب التخريج، من خلال عرض طرائق الحديث، ومناقشة الآراء المرتبطة بذلك عند المحدثين.

(١) شرح صحيح مسلم، النيسابوري ٢/ ٦٧٤.

الدراسات السابقة:

الدراسة الأولى: الرحمة في حياة الرسول ﷺ، د/ راغب السرجاني، رابطة العالم الإسلامي، المركز العالمي للتعريف بالرسول ﷺ، ونصرته.

عرضت الدراسة السابقة لمظاهر الرحمة في حياة الرسول ﷺ، بين أهل بيته، ومظاهر رحمته بين الصحابة، والرأفة بغير المسلمين في المجتمع الإسلامي، وتختلف عن دراستنا الحالية أن الدراسة تعتمد على فكرة واحدة، وهي حديث جعل الله الرحمة مئة جزء، من خلال المناقشة للحديث وطرائقه، وما يرتبط بالرحمة من خلال الحديث.

الدراسة الثانية: مظاهر الرحمة للبشر في شخصية النبي محمد ﷺ، تأليف زيد عمر عبدالله العيص، الأستاذ بجامعة الملك سعود، قسم الثقافة الإسلامية.

لا تختلف دراسة الدكتور زيد عمر عن دراسة الدكتور راغب السرجاني، فكلٍ منهما عرض لمظاهر رحمة النبي ﷺ بمنهج مختلف عن الآخر، إلى أن دراسة الدكتور عمر زيد تخصصت في رحمة النبي بالبشر خاصة، كذلك تختلف عن موضوع دراستنا: حديث جعل الله الرحمة مئة جزء، فدراستنا تعتمد على إظهار دلالات الرحمة خلال رواية واحدة عن النبي ﷺ، ومناقشة ما ورد حولها من آراء عند المحدثين.

الدراسة الثالثة: الرحمة الإلهية دراسة قرآنية، إعداد عمران عزت يوسف بخيت، رسالة ماجستير قدمت إلى جامعة النجاح الوطنية، فلسطين.

هذه الدراسة قدمت لنيل درجة الماجستير في دولة فلسطين، اهتمت بدراسة الرحمة الإلهية، وما يتعلق بها من خلال آيات القرآن ومدلولاتها، ولم يتطرق الباحث خلالها للسنة النبوية؛ لأنها ليست موضوع بحثه، وهذا ما يجعلها تختلف عن الدراسة الحالية التي تهتم بعرض المرويات، ودراسة الرحمة من خلال أحاديث النبي ﷺ.

منهج الدراسة:

تعتمد الدراسة على المنهج الوصفي التحليلي من خلال:

١. التأصيل النظري لمفهوم الرحمة، ومفهوم السنة النبوية.

٢. دراسة الروايات الواردة في ذلك عن النبي ﷺ.

٣. مناقشة الآراء والترجيح بينها.

٤. إسقاط الآراء في الدراسة على العصر الحالي.

خطة الدراسة:

تقع الدراسة في مقدمة، وتمهيد، ومبحثين، وخاتمة، وفهارس الدراسة.

المقدمة: وفيها عنوان الدراسة، والمنهج المتبع، وأسباب اختيار الموضوع وأهميته، وخطة البحث التفصيلية من المباحث والمطالب.

التمهيد: بعنوان [ماهية الرحمة في السنة النبوية].

أولًا: تعريف الرحمة لغةً واصطلاحًا.

ثانيًا: تعريف الرحمة في إطار السنة النبوية.

المبحث الأول: دلائل الرحمة في حديث جعل الله الرحمة مئة جزء.

المبحث الثاني: مناقشة أثر اختلاف ألفاظ الحديث في تعدد أوجه الرحمة.

الخاتمة: وفيها أهم النتائج، التي توصلت إليها الدراسة، والتوصيات المقترحة.



التمهيد
ماهية الرحمة في السنة النبوية

أولًا: مفهوم الرحمة لغة واصطلاحًا.

الرحمة لغةً:

قال ابن منظور: "الرحمة الرقة والتعطف، والرحمة المغفرة، والرحمة الرزق، والغيث، والرحمة في بني آدم: رقة القلب، وعطفه، ورحمة الله عطفه، وإحسانه، ورزقه"(١).

يقال: "ورحمت المرأة رحامة ورحمت رحمًا، ورحمت إذا اشتكت رحمها بعد الولادة، ومن المجاز: رحمة الله، وهو الرحمن الرحيم، أي: الواسع الرحمة"(٢).

قال أبو عبيدة: "رحمان فعلان من الرحمة"(٣)، والرحمة هي إرادة إيصال الخير(٤).

يقول الأنباري: "الصلوات معناها الرحمة، كما قال ﷻ ﴿أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [البقرة](٥)، لذلك يقال: الرحمة هي الرقة والتعطف، والمرحمة مثله، وقد رحمته وترحمت

(١) لسان العرب، لابن منظور ١٢/٢٣٠.
(٢) أساس البلاغة، الزمخشري ٣/٣١٨.
(٣) الاشتقاق، أبو بكر ابن دريد ١/٥٨.
(٤) التعريفات، الجرجاني ١/١٤٦.
(٥) الزاهر في معاني كلمات الناس، الأنباري ١/٥٨.

عليه، وتراحم القوم، رحم بعضهم بعضا، والرحموت من الرحمة، يقال: "رهبوت خير من رحموت، أي: لأن ترهب خير من أن ترحم"[1]، وإطلاق الرأفة على الله ﷻ مثل إطلاق الرحمة[2].

ومما سبق يتبين لنا أن مفهوم الرحمة يرتبط بالرقة، والرأفة، والتراحم، والمحبة بين البشر، التي هي من صفات المولي ﷻ، وقد غرسها في قلوب البشر، حتى يتراحموا فيما بينهم، والبعد عن الظلم من أسس رحمة الخلائق فيما بينهم.

الرحمة اصطلاحًا:

الرحمة صفة تقتضي إيصال المنافع والمصالح إلى العبد، وإن كرهتها نفسه، وشقت عليها، فهذه هي الرحمة الحقيقية، فأرحم الناس بك من أوصل إليك مصالحك، ودفع عنك المضار، ولو شق عليك في ذلك، فمن رحمة الأب بولده، أن يكرهه على التأدب بالعلم والعمل، ويشق عليه في ذلك بالضرب وغيره، ويمنعه شهواته التي تعود بضرره، ومتي أهمل ذلك من ولده كان لقلة رحمته به، وإن ظن أنه يرحمه ويرفهه، ويريحه، فهذه رحمة مقرونة بجهل كرحمة بعض الأمهات [3].

يعرفها الدكتور محمد راتب النابلسي بأنها: كلمة جامعة لكل الخير المادي والمعنوي، والدنيوي والأخروي، والرحمة ضدها القسوة، فالأمور تظهر بأضدادها، والرحمة أيضًا هي المقصود الأول من بعثة النبي ﷺ، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾ [الأنبياء]، وفي الحديث: «أنا رحمة مهداة»[4].

(١) الصحاح، الجوهري ٦/٢٠٧.
(٢) الفروق اللغوية ١/٢٤٧.
(٣) كلام ابن القيم في كتابه إغاثة اللهفان ٢/١٦٩.
(٤) أخرجه ابن سعد (١/١٩٢)، والبيهقي في شعب الإيمان (٢/١٤٤، رقم ١٤٠٤)، وقال: هذا مرسل، ورواه زياد بن يحيى الحساني عن مالك بن سعير عن الأعمش موصولًا بذكر =

وينسب إلى الله ﷻ فيقال: رب الرحمة، بمعنى أنه جل وعلا يتصف بها[1]، لقوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ۖ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا۟ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ ۚ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا۟ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا ﴿٥٨﴾﴾ [الكهف][2].

والرحمة رقة تقتضي الإحسان إلى المرحوم، وقد تستعمل في الرقة المجردة، وتارة في الإحسان المجرد عن الرقة، قال عبدالرحمن الميداني: "الرحمة رقة في القلب يلامسها الألم، حينما تدرك الحواس أو يتصور الفكر، وجود الألم عند شخص آخر، أو يلامسها السرور، حينما تدرك الحواس أو يتصور الفكر وجود المسرة عند شخص آخر"[3].

أما عن مقتضي الرحمة فهي إيصال الخير إلى الغير، حتى وإن كان هذا الخير مكروها وإليه مبغضا من قبله، وفي ذلك يقول ابن القيم رحمه الله: "الرحمة صفة تقتضي إيصال المنافع والمصالح إلى العبد، وإن كرهتها نفسه وشقت عليها فهذه هي الرحمة الحقيقية، فأرحم الناس بك من شق عليك في إيصال مصالحك ودفع المضار عنك"[4].

قال الجاحظ: "الرحمة خلق مركب من الود والجزع، والرحمة لا تكون إلا لمن تظهر منه المراحمة خلة مكروهة، فالرحمة هي محبة للمرحوم، مع جزع من الحال التي من أجلها رحم"[5].

يقول الشيخ الزيتوني: "الرحمة فضيلة تدل على قوة صاحبها ونبله؛ لأنه لا يحتكر الخير لنفسه، ولا يهمل التفكير في سواه، وقد يعبر عنها

=أبى هريرة فيه، وحديث أبى صالح المرسل:.
حديث أبى هريرة: أخرجه أيضًا: الحاكم (١/ ٩١، رقم: ١٠٠)، وقال: صحيح على شرطهما.

(١) شرح عدة متون في العقيدة، صالح بن عبدالعزيز آل الشيخ، ١٣/ ٢٨٣.
(٢) ينظر: مختصر معارج القبول ١/ ٢٦٤.
(٣) الصحاح، الجوهري ٦/ ٢٠٧.
(٤) ينظر: إغاثة اللهفان، ابن قيم الجوزية ٢/ ١٧٤.
(٥) تسهيل النظر وتعجيل الظفر في أخلاق الملك، أبو الحسن المارودي، ١/ ٣٤.

بخفض الجناح، كما في قوله تعالى: ﴿وَٱخۡفِضۡ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحۡمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرۡحَمۡهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرٗا ٢٤﴾ [الإسراء].

والرحمة معنى قلبي، كل منا يدركه ويشعر به، يقول سعيد القحطاني: الرحمة كما يقول العلماء، قاعدة قضائه في خلقه، والأصل في كل شيء رحمة الله، لسعتها وشمولها؛ ولأنها مكتوبة، كتبها الله ﷻ بإرادته، وفضله لقوله تعالى: ﴿قُل لِّمَن مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ قُل لِّلَّهِۚ كَتَبَ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَۚ لَيَجۡمَعَنَّكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا رَيۡبَ فِيهِۚ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ١٢﴾ [الأنعام][1].

فإن مفهوم الرحمة في الإسلام، الذي يجب أن يسود بين الناس هو التراحم بين المؤمنين جميعا على غير أرحام بينهم، فعن أبي موسى الأشعرى رضي الله عنه عن رسول الله قال: "المؤمن للمؤمن كالبنيان، يشد بعضه بعضا"[2].

وعن النعمان بن بشير رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: "مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى"[3]، فمن كان من أهل الإيمان فهو من أهل الرحمة، وهو أهل لأن يرحم، ومن لم يكن من أهل الإيمان والإسلام فلا رحمة له ولا كرامة، هذا هو مفهوم الرحمة الإلهية، التي يجب أن نعيها ونفهمها، ونحن مسلمون[4].

ومن المفاهيم الاصطلاحية للرحمة: هي حالة وجدانية تعرض غالبًا لمن

(١) ينظر، خطب ومحاضرات للشيخ سعيد بن مسفر ٧/ ٢١.
(٢) أخرجها البخاري في صحيحه من طريق أبي موسى الأشعرى، كتاب/ أبواب المساجد، باب/ تشبيك الأصابع، رقم الحديث ٤٦٧، ١/ ١٨٢، وأخرجها الإمام مسلم في صحيحه من طريق أبي موسى الأشعرى، كتاب/ البر والصلة والآداب، باب/ تعاطف المؤمنين وتراحمهم فيما بينهم. رقم الحديث ٢٥٨٥، ٤/ ١٩٩٩.
(٣) أخرجها الإمام مسلم في صحيحه من طريق النعمان بن بشير، كتاب/ البر والصلة والآداب، باب/ تعاطف المؤمنين وتراحمهم وتعاضدهم، رقم الحديث ٦٧٥١، ٨/ ٢٠.
(٤) شرح عدة متون في العقيدة، صالح عبدالعزيز آل شيخ ١٣/ ١٣٤.

به رقة القلب، وتكون مبدأ للانعطاف النفساني، الذي هو مبدأ الإحسان[1].

لذلك يمكن نشر ثقافة الرحمة من خلال:

١. إخلاص العبودية لله تعالى، لقوله تعالى: ﴿وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٥﴾﴾ [يونس:١٠٥].

٢. التسامح الإيجابي، لقوله تعالى: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ ۖ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي ۖ وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾﴾ [إبراهيم:٣٦].

٣. معرفة قدر ابن آدم، لقوله تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ الْإِنسَانُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾﴾ [النساء:٢٨].

٤. شكر النعمة لقوله ﷺ: "من أثنى فقد شكر، ومن كتم فقد كفر"[2].

وقد وسع الإسلام مفهوم الرحمة وممارستها، ليشمل كل نشاط الإنسان ضمن متغيرات الحياة المختلفة، فشمل تعامله مع نفسه بأن يرحمها، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ [النساء:٢٩]، واستوعب بالرحمة جوانب التعامل مع الآخرين، حتى جعل عزل الأذى عن الطريق من أوسع أبواب الأجر والثواب، وما ذلك الأجر العظيم الذي يناله المسلم لمجرد رفع الأذى من حجر أو شوك أو نحو ذلك؛ ولكن بتلك الرحمة التي عم بها المسلمين، فشكر الله له عطفه ورأفته بهم[3].

(١) مجلة البيان، الثقافة بين رؤيتين ٢٢/٢٢١.
(٢) ينظر المرايا المقعرة نحو نظرية عربية، الدكتور عبدالعزيز حمودة، العدد ٢٧٢، ص٤١.
(٣) بحوث تربية الفتاة المسلمة، ١/٧٠.

المبحث الأول
دلائل الرحمة في حديث
جعل الله الرحمة مئة جزء

دلائل الرحمة في القرآن الكريم والسنة النبوية كثيرة جدًا التي جعلها الله ﷻ في ذاته وجعلها صفة في جميع خلقه، حتى إن بعض العلماء نقلوا عن الجنيد أنه كان يقول: "الرحمة تنزل على الفقير بثلاثة مواضع عند الأكل فإنه لا يأكل إلا عند الحاجة، وعند الكلام فإنه لا يتكلم إلا لضرورة، وعند السماع فإنه لا يسمع إلا عند الوجد"(١).

وما ورد في تفسير قوله تعالى: ﴿سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ أَسۡتَغۡفَرۡتَ لَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ لَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ٦﴾ [المنافقون]، من رحمة الرسول ﷺ بأمته، قال ﷺ، إنما قال سأزيد على السبعين، وإن كان المفهوم منها المبالغة، ركونا منه لسعة الرحمة؛ لأنه لم ينه عن الاستغفار لهم كما يأتي إيضاحه ما دام ﷺ لم ينه عنه، وهو يركن إلى الرحمة وسعتها ونظره كنظر إبراهيم عليه السلام، حيث قال: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضۡلَلۡنَ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِۖ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّيۖ وَمَنۡ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٣٦﴾ [إبراهيم].

قال العلامة ابن زكرى: "اعتبر النبي ﷺ مفهوم العدد، ولم يحمله على المتبادر من المبالغة؛ لأنه بعثه رحمة، فهو يدور مع مسالك الرحمة ما وجد لها سبيلًا"(٢).

(١) بدائع الاعتقاد وأخطارها على المجتمعات الإسلامية، ١٨٧/١.
(٢) إتحاف القاري بدرر البخاري ١٠٧/٦.

مما ورد عن النبي ﷺ في صحيح مسلم: "وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله، يتلون كتاب الله تعالى، ويتدارسونه بينهم، إلا نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة"(١).

قيل المراد بالسكينة هنا الرحمة، وهو الذي اختاره القاضي عياض، وهو ضعيف لعطف الرحمة عليها(٢)، وهناك من العلماء من جعل الاختلاف من الرحمة، قال ابن عابدين: "وعلم بأن الاختلاف من آثار الرحمة فما كان الاختلاف أكثر كانت الرحمة أوفر"(٣).

دلائل الرحمة في حديث جعل الله الرحمة مئة جزء.

الحديث:

حدثنا أبو اليمان الحكم بن نافع البهراني أخبرنا شعيب عن الزهري أخبرنا سعيد بن المسيب، أن أبا هريرة، قال: سمعت رسول الله ﷺ: «يقول جعل الله الرحمة مئة جزء فأمسك عنده تسعة وتسعين جزءًا وأنزل في الأرض جزءًا واحدًا، فمن ذلك يتراحم الخلق، حتى ترفع الفرس حافرها عن ولدها خشية أن تصيبه»(٤).

ومن دلائل الرحمة في الحديث:

١. جعل الله الرحمة في مئة وعاء.

قال ابن أبي جمرة: "يحتمل أن يكون ﷻ لما من على خلقه بالرحمة جعلها في مئة وعاء، فاهبط منها واحدًا للأرض"(٥)، قلت: خلت أكثر

(١) أخرجها الإمام مسلم في صحيحه من طريق أبي هريرة، كتاب/ الذكر والتوبة والدعاء، باب/ اجتماع القوم على تلاوة القرآن، رقم الحديث ٧٠٢٨، ٨/ ٧١.
(٢) شرح النووي على مسلم ٩/ ٦٣.
(٣) الخلاصة في فقه الإقليات، علي نايف الشحود ٣/ ٧.
(٤) أخرجها البخاري في صحيحه من طريق أبي هريرة، كتاب/ الأدب، باب/ جعل الله الرحمة مئة جزء، رقم الحديث ٢٢٣٦.
(٥) فتح الباري شرح صحيح البخاري، ١٠/ ١٣٣.

الطرق عن الظرف، كرواية سعيد المقبري عن أبي هريرة الآتية في الرقاق: إن الله خلق الرحمة يوم خلقها مئة رحمة. والمسلم من رواية عطاء عن أبي هريرة: إن لله مئة رحمة، وله من حديث سلمان إن الله خلق مئة رحمة يوم خلق السماوات والأرض، كل رحمة طباق ما بين السماء والأرض.

قال القرطبي: "يجوز أن يكون معني خلق اخترع وأوجد ويجوز أن يكون بمعنى قدر، وقد ورد خلق بمعنى قدر في لغة العرب، فيكون المعني أن الله أظهر تقديره لذلك يوم أظهر تقدير السماوات والأرض، وقوله: كل رحمة تسع طباق الأرض. المراد بها التعظيم والتكثير، وقد ورد التعظيم بهذا اللفظ في اللغة والشرع كثيرًا"(١).

٢. الرحمة التي بين الخلق في الدنيا تكون بينهم يوم القيامة.

في رواية سلمان عند مسلم زيادة وهي: "فإذا كان يوم القيامة أكملها بهذه الرحمة مئة"(٢)، وفيه إشارة إلى أن الرحمة التي في الدنيا بين الخلق تكون فيهم يوم القيامة يتراحمون بها أيضًا، وصرح بذلك المهلب فقال: "الرحمة التي خلقها الله لعباده، وأجعلها في نفوسهم في الدنيا هي التي يتغافرون بها يوم القيامة التابعات بينهم"(٣).

قال: ويجوز أن يستعمل الله تلك الرحمة بينهم، فيرحمهم بها سوى رحمته التي وسعت كل شيء، وهي التي من صفة ذاته، ولم يزل موصوفًا بها، فهي التي يرحمهم بها، زائدًا على الرحمة التي خلقها لهم، ويجوز أن تكون الرحمة التي أمسكها لنفسه، هي التي عند ملائكته المستغفرين لمن في الأرض؛ لأن استغفارهم لهم دال على أن في نفوسهم الرحمة لأهل الأرض، وحاصل كلامه أن الرحمة رحمتان:

(١) تحفة الأحوذي شرح صحيح الترمذي، المباركفوري ١/١٧٦.
(٢) أخرجها الإمام مسلم في صحيحه من طريق أبي هريرة، كتاب/ الرحمة، باب/ سعة رحمة الله ﷻ، رقم الحديث ٤١٧٨، ٣/٤٤.
(٣) ينظر: فتح الباري شرح صحيح البخاري، ١٧/١٣٣.

- رحمة من صفة الذات، وهي لا تعد.
- ورحمة من صفة الفعل، وهي المشار إليها هنا.

وليس في شيء من طرق الحديث أن التي عند الله رحمة واحدة، بل اتفقت جميع الطرق على أن عنده تسعة وتسعين رحمة، وزاد في حديث سلمان أن يكملها يوم القيامة مئة بالرحمة التي في الدنيا، فتعدد الرحمة بالنسبة للخلق هبة من الله ﷻ[1].

٣. إضافة الرحمة في الحديث إلى الله ﷻ.

إن إضافة الرحمة في الحديث إلى الله جل وعلا إضافة المخلوق لخالقه فالرحمة هنا ليست صفة لله جل وعلا، إنما هي أثر الصفة كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَىۡ رَحۡمَتِهِۦۚ وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾﴾ [الفرقان]، وقوله تعالى في المطر: ﴿فَٱنظُرۡ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحۡمَتِ ٱللَّهِ كَيۡفَ يُحۡىِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَآۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحۡىِ ٱلۡمَوۡتَىٰۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىۡءٖ قَدِيرٞ ﴿٥٠﴾﴾ [الروم]، وما جاء في الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، أن النبي ﷺ قال: «قال الله ﷻ للجنة: أنت رحمتي أرحم بك من أشاء»[2]، وأمثلة ذلك كثيرة، فإضافة الرحمة هنا إضافة المفعول إلى فاعله فتكون مفعولًا لله مخلوقا له، وهي من أثر صفة الرحمة الذاتية. ويلزم من ذلك أحد شيئين:

أولهما: أن تكون التسعة وتسعون رحمة المذكورة في الحديث أعيانًا قائمة بذاتها، يرحم الله بها المؤمنين يوم القيامة، كحوض النبي ﷺ، وظل العرش والجنة، وغير ذلك فكل هذه أعيان مخلوقة، ليرحم الله بها المؤمنين يوم القيامة، وهى من آثار رحمة الله الذاتية. الثاني: أن تكون التسعة والتسعون رحمة هذه يجعلها الله في قلوب المؤمنين

(١) ينظر: فتح الباري شرح صحيح البخاري، ١٣٣/١٧.
(٢) أخرجها الإمام مسلم في صحيحه من طريق أبي هريرة، كتاب/ الجنة ونعيمها وأهلها، باب/ النار يدخلها الجبارون، والجنة يدخلها الضعفاء، رقم الحديث ٧٣٥١، ٥٤/٨.

يتراحمون بها فيما بينهم، كما جاء في الصحيحين من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ: أن النبي ﷺ قال «إذا خلص الله المؤمنين من النار وآمنوا فما مجادلة أحدكم لصاحبه في الحق يكون له في الدنيا أشد مجادلة من المؤمنين لربهم في إخوانهم الذين أدخلوا النار[1]»، وأيضًا شفاعة الملائكة والأنبياء ناتجة عن الرحمة، التي وضعها الله في قلوبهم، كما جاء الحديث السابق في زيادة عند أحمد وغيره، ثم يقول الله: شفعت الملائكة وشفع الأنبياء وشفع المؤمنون، وبقي أرحم الراحمين، وشفاعة الغلمان الصغار لآبائهم، ويشهد لهذا القول ما أخرجه ابن جرير في التفسير عن عبدالله بن عمرو ﷺ ما قال : "إن لله مئة رحمة، فأهبط منها رحمة واحدة إلى أهل الدنيا، يتراحم بها الجن، والإنس، وطائر السماء، وحيتان الماء، ودواب الأرض وهوامها، وما بين الهواء، واختزن عنده تسعًا وتسعين رحمة، حتى إذا كان يوم القيامة اختلج الرحمة التي كان أهبطها إلى أهل الدنيا، فحواها إلى ما عنده فجعلها في قلوب أهل الجنة وعلى أهل الجنة"، وأيضًا شفاعات النبي ﷺ، وشفاعة الشهداء ناتجة عن الرحمة التي أوجدها الله في قلوب عباده"[2].

الأمر الثاني: أن تكون الرحمة المضافة إلى الله جل وعلا في رواية مسلم: «إن لله مئة رحمة» إضافة معاني (وصف لموصوف) أي الرحمة الذاتية غير المخلوقة وتكون رواية البخاري «إن الله خلق الرحمة...» ورواية الصحيحين من باب تقريب الفهم، وبيان مدى سعة رحمة الله جل وعلا للأعرابي الذي قال: اللهم ارحمني ومحمدا ولا ترحم معنا أحدًا، كما جاء في مسند الإمام أحمد في

(١) أخرجها الإمام ابن ماجة في سننه ،من طريق أبي سعيد الخدري، كتاب/ الإيمان وفضائل الصحابة، باب/ في باب الإيمان، رقم الحديث ٦٠، ١/٢٣.
(٢) الدر المنثور، الإمام السيوطي، ١/٢٥٣.

سبب ورود الحديث، ومثال ذلك قول الله ﷻ: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾﴾ [لقمان] فهذا لتقريب الفهم بما هو مشاهد، إلا أن كلمات الله جل وعلا لا حد لها، وأيضًا قوله ﷺ في الحديث القدسي الذي أخرجه مسلم من حديث أبي ذر ﷺ أن النبي ﷺ قال: «قال الله ﷻ ... يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم، قاموا في صعيد واحد فسألوني فأعطيت كل إنسان مسألته ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص المخيط إذا ادخل البحر....[1]» ومن المعلوم أيضًا أن ملك الله ﷻ لا ينقص منه شيئا، الشاهد أنه من المحتمل أن يكون قوله ﷺ «إن لله مئة رحم»، على سبيل التمثيل تسهيلًا للفهم وتقليلا لما عندنا، وتكثيرا لما عند الله جل وعلا، ويكون قوله ﷺ «... وَأَنْزَلَ فِي الأَرْضِ جزْءًا وَاحِدًا، فَمِنْ ذَلِكَ الْجُزْءِ يَتَرَاحَمُ الْخَلْقُ حَتَّى تَرْفَعَ الْفَرَسُ حَافِرَهَا عَنْ وَلَدِهَا خَشْيَةَ أَنْ تُصِيبَهُ[2]»، بمعنى أن كل من في الأرض يتراحمون بآثار جزء من مئة جزء من رحمة الله جل وعلا، وهذا على سبيل تقريب الفهم لنعرف به التفاوت بين القسطين في الدارين، لا التقسيم والتجزئة، فإنّ رحمته ﷻ لا حد لها.

٤. من دلائل الرحمة في الحديث: النبي ﷺ رحيم بأمته.

تظهر تجليات رحمة الله ﷻ في الكثير من العبادات، ففي قوله تعالى: ﴿أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ ۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۚ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ ۖ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ ۚ وَأَن تَصُومُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٤﴾﴾ [البقرة]، بيان لرخصة ورحمة، جعلها الله للمريض

(١) أخرجها الإمام مسلم في صحيحه من طريق أبي ذر، كتاب/ البر والصلة والآداب، باب/ تحريم الظلم، رقم الحديث ١٧٤٤، ١/ ١٩٩٤، وينظر: الأسماء والصفات، البيهقي، ١/ ٣١٤.

(٢) سبق تخريجه.

والمسافر، لقد جعل الله الصيام أياما معدودات، ومع هذا فقد أعفى من أدائه المريض حتى يصح، والمسافرين حتى يقيموا، تخفيفًا وتيسيرًا، ورحمة بالمكلفين.

وفي السنة، فإن رحمة النبي ﷺ لم تكن قاصرة على أمته، بل جاء رحمة مهداة للعالمين، ولا شك أن رحمة الرسول ﷺ بأصحابه قد عادت على الأمة جميعًا بالخير؛ لأن أفعاله وأقواله معهم لم تكن خاصة بهم؛ ولكنها كانت تشريعًا ثابتًا سيظل معمولًا به إلى يوم القيامة، ولقد بلغت رحمة الرسول ﷺ بأمته حدًا لا يتخيله أحد حتى وصلت إلى التخفيف في العبادة.

٤. سيدنا محمد ﷺ الرحمة المهداة.

إن رحمة النبي ﷺ بُعد مهم في شخصيته، وفي دعوته ومن صميم شخصيته: رسولًا ونبيًا ومبلغًا عن ربه، وهاديا للناس، وحينما تقرأ قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾ [الأنبياء]، وتقف أمام الآية تدرك سعة رحمة النبي الكريم، وكيف كان ﷺ يفيض رحمة في خلقه وسلوكه وأدبه وشمائله، وإنه لتناسب وتآلف في أرقى مستوياته بين الرسالة والرسول في هذه الرحمة، حتى يتصور أن يحمل عبء بلاغ هذه الرحمة إلي العالمين، إلا رسول رحيم، ذو رحمة عامة شاملة فياضة، طبع عليها ذوقه ووجدانه، وصيغ بها قلبه وفطرته، لقوله تعالى: ﴿لَقَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ عَزِيزٌ عَلَيۡهِ مَا عَنِتُّمۡ حَرِيصٌ عَلَيۡكُم بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ ١٢٨﴾ [التوبة:١٢٨].

فهو مثل للرحمة الإلهية، لذلك وصفه الله تعالى بأنه رؤوف رحيم، لقد أرسله الله رحمة للعالمين، رحمة شاملة للوجود بأجمعه، يستطيع أن يستفيد منها المؤمن؛ لأنه ﴿بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾ [التوبة:١٢٨]، فعندما قيل له: أدع على المشركين. قال ﷺ: «إني لم أبعث لعانًا وإنما بعثت رحمة»[1].

(١) أخرجها الإمام مسلم في صحيحه من طريق أبي هريرة، كتاب/ البر والصلة والآداب، =

فمن دلائل رحمة النبي ﷺ بأمته وخوفه عليها، ولذلك كثيرًا ما يذكر لهم سبب هلاك الأمم قبلهم ليحذرهم فصلى الله عليه وسلم، وقد وصفه الله بقوله: ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ ، ومن دلائل الحديث رحمة النبي ﷺ بأصحابه وحرصه على إبعاد الشر عنهم.

٥. رحمة النبي من رحمة الله ﷻ، التي وسعت كل شيء.

رحمة النبي من رحمة الله التي وسعت كل شيء، وكذا كانت بعثته ونبوته، فهو ﷻ الذي أوجدها وقدرها وساقها إلى من شاء من عباده، كما قدر غيرها من أسباب الرحمة، فآثار رحمته جل وعلا على عباده ظاهرة في كل حال، وكما قيل في مسألة الإنعام والتفضيل والإحسان، يقال كذلك في مسألة الرحمة، إن موجدها ومسببها ومقدرها هو الله وحده لا شريك له، فإليه تنسب أصلًا، كما تنسب إلى من أجرى الله على يديه نعمة أو رحمة، على أنه سبب من الأسباب، ومنها:

- حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ: «أنه قال: لما قضى الله الخلق كتب في كتابه، فهو عنده فوق العرش، إن رحمتي غلبت غضبي»[(١)].
- وحديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: «سمعت رسول الله ﷺ يقول: جعل الله الرحمة مئة جزء، فأمسك عنده تسعة وتسعين جزءًا، وأنزل في الأرض جزءًا واحدًا. فمن ذلك الجزء يتراحم الخلق، حتى ترفع الفرس حافرها عن ولدها، خشية أن تصيبه»[(٢)].

= باب/ النهي عن لعن الدواب، رقم الحديث ٦٧٧٨، ٨/ ٢٤.

(١) ينظر: عون المعبود شرح سنن أبي داود، العظيم آبادي ١٣/ ٢٥.

(٢) سبق تخريجه.

المبحث الثاني
مناقشة أثر اختلاف ألفاظ الحديث في تعدد أوجه الرحمة

روايات الحديث:

- أخبرنا أبو عبدالله الحافظ، حدثنا إسماعيل بن أحمد حدثنا محمد بن الحسن بن قتيبة حدثنا حرملة بن يحيى، أخبرنا ابن وهب، قال أخبرني يونس بن يزيد عن ابن شهاب أن سعيد بن المسيب أخبره، أن أبا هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ، يقول: «جعل الله الرحمة مئة جزء، فأمسك عنده تسعين وتسعين، وأنزل في الأرض جزءًا واحدًا فمن ذلك يتراحم الخلائق، حتى ترفع الدابة حافرها عن ولدها، خشية أن تصيبه»[1].

- عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «جعل الله الرحمة مئة جزء، فأمسك عنده تسعة وتسعين جزءا، وأنزل في الأرض جزءا واحدًا، فمن ذلك الجزء يتراحم الخلق، حتى ترفع الفرس حافرها عن ولدها، خشية أن تصيبه»[2].

(١) أخرجها الإمام مسلم في صحيحه من طريق أبي هريرة، كتاب/ التوبة، باب/ سعة رحمة الله ﷻ، رقم الحديث ٧١٤٨، ٨/ ٩٦.

(٢) أخرجها الإمام البخاري في صحيحه من طريق أبي هريرة، كتاب/ الأدب، باب / جعل الله الرحمة مئة جزء، رقم الحديث ٥٦٥٤، ٥/ ٢٢٣٦.

- وفي رواية أخري عند البخاري: «إن الله خلق الرحمة يوم خلقها مئة رحمة فأمسك عنده تسعًا وتسعين رحمة، وأرسل في خلقه كلهم رحمة واحدة، فلو يعلم الكافر بكل الذي عند الله من الرحمة لم ييأس من الجنة، ولو يعلم المؤمن بكل الذي عند الله من العذاب لم يأمن من النار»[١].

- في رواية عن أبي هريرة قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «جعل الله الرحمة مئة جزء فأمسك عنده تسعة وتسعين، وأنزل الأرض جزءا واحدًا، فمن ذلك الجزء يتراحم الخلائق، حتى ترفع الدابة حوافرها عن ولدها خشية أن تصيبه»[٢].

الرحمة التي وردت في الأحاديث هي الرحمة التي دل عليها اسم الله الرحمن، والتي تظهر بمقتضي حكمته في أهل الدنيا، فمن رحمته أنه أنعم على الناس ليشكروه؛ ولكن كثيرًا منهم جاحدون[٣]، قال تعالى: ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾ [القصص].

ولما كانت الرحمة التي دل عليها اسمه الرحمن رحمة عامة بالناس أجمعين، فإن الله خص هذا الاسم ليقرنه باستوائه على عرشه في جميع المواضع التي وردت في القرآن والسنة، قال تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴿٥﴾﴾ [طه]، ومن حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «فإذا سألتم الله فسلوه الفردوس، فإنه أوسط الجنة، وأعلى الجنة، وفوق عرش الرحمن»[٤].

(١) أخرجها الإمام البخاري في صحيحه من طريق أبي هريرة، كتاب/ الرقاق، باب/ الرجاء مع الخوف، رقم الحديث ٦١٠٤، ٥/٢٣٧٤.
(٢) سبق تخريجه.
(٣) ينظر أسماء الله الحسني في الكتاب والسنة، محمود عبدالرازق الرضواني ١/٣٥٢.
(٤) أخرجها البخاري في صحيحه من طريق أبي هريرة، كتاب/ التوحيد، باب/ وكان عرشه على الماء، رقم الحديث ٦٩٨٧، ٦/٢٧٠٠.

لذلك من الدعاء الثابت باسمه الرحمن: "اللهم إني أعوذ بكلمات الله التامة من شر ما خلق وذرأ وبرأ، ومن شر ما ينزل من السماء، ومن شر ما يعرج فيها، ومن شر فتن الليل والنهار، ومن شر كل طارقًا إلا طارقا يطرق بخير يا رحمن، رحمن الدنيا والآخرة ورحيمهما، تعطيها من تشاء، وتمنع منهما من تشاء، أرحمني رحمة تغنيني بها عن رحمة من سواك، اللهم أنت الرحمن المستعان على ما يصفون"[1].

وقد ثبت عن رسول الله ﷺ أنه قال: «الراحمون يرحمهم الرحمن، أرحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء»[2].

يعلق الحافظ قائلا: "وفيه إشارة إلى أنه ينبغي للمرء أن يجعل تعلقه في جميع أموره بالله وحده، وأن كل من فرض أن فيه رحمة ما حتى يقصد لأجلها، فالله ﷻ أرحم منه، فليقصد العاقل لحاجته من هو أشد له رحمة"[3].

لذلك أوضح النبي ﷺ أنه لا أحد يدخل الجنة إلا برحمة المولى ﷻ، فعن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال: «سددوا وقاربوا وابشروا، فإنه لا يدخل أحدًا الجنة بعمله، قالوا ولا أنت يا رسول الله؟، قال: «ولا أنا إلا أن يتغمدني الله بمغفرة ورحمة»[4]، لذلك كتب الله ﷻ على نفسه الرحمة، وهذا استعطاف منه للمتولين عنه الإقبال عليه، وإخبار بأنه رحيم بعباده، وأنه لا يعجل بالعقوبة بل يقبل التوبة والإنابة، ممن تاب وأناب.

والناظر إلي الاختلاف في أوجه الرحمة، وعدد الرحمات، وتعدد ذكر المخلوقات في الرواية، فنجيب عن ذلك بأمرين: الأول: واسم الله الرحيم تحققت فيه شروط الإحصاء، فقد ورد في القرآن والسنة مطلقًا

(١) ينظر سلسلة الأحاديث الصحيحة، الألباني، ص ٨٤٠، صحيح الترغيب والترهيب ١٨٢١.
(٢) صحيح الجامع الصغير، رقم الحديث ٣٥٢٢، ٢٢/٣.
(٣) فتح الباري شرح صحيح البخاري ٤٣١/١٠.
(٤) أخرجها الإمام مسلم في صحيحه من طريق السيدة عائشة رضي الله عنها، كتاب/ صفة القيامة والجنة والنار، باب/ لن يدخل أحد الجنة بعمله، بل برحمة الله تعالى، رقم الحديث ٧٣٠٠، ١٣٢/١١.

معرفًا ومنونا، مرادًا به العلمية ودالًا على الوصفية وكمالها، واسم الله الرحيم اقترن باسمه الرحمن، كما تقدم في ستة مواضع من القرآن، وغالبًا ما يقترن اسم الله الرحيم بالتواب والغفور والرءوف والودود والعزيز؛ لأن الرحمة التي دل عليها الرحيم رحمة خاصة تلحق المؤمنين، فالله ﷻ رحمته التي دل عليها اسمه الرحمن شملت الخلائق في الدنيا، مؤمنهم وكافرهم وبرهم وفاجرهم؛ لكنه في الآخرة رحيم بالمؤمنين فقط، الثاني: قول الشيخ حقي: "فهذا يدل على كمال الرجاء والبشارة للمسلمين؛ لأنه حصل في هذه الدار الدنيا من رحمة واحدة، وما حصل من النعم الظاهرة والباطنة، فما ظنك بمئة رحمة في الدار الآخرة "[1].

فكان ﷺ حريصا على الرحمة بالضعفاء، ففي الحديث الشريف: «ابغوني في الضعفاء فإنما تنصرون وترزقون بضعفائكم»[2]، وفي حديث آخر: «اتقوا الله في الضعيفين: الأرملة واليتيم»[3]، وقوله: ﷺ: «أنا وكافل اليتيم في الجنة»[4].

ففي الحديث الشريف: «ليس من أمتي من لا يجل كبيرنا ويرحم صغيرنا، ويعرف لعالمنا حقه»[5].

ومن رحمته ﷺ بالحيوان، قوله: «إن الله كتب الإحسان على كل شيء، فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة، وليحد أحدكم شفرته، وليرح ذبيحته»[6].

(١) تفسير حقي، حقي ٣/٣٨٩.
(٢) أخرجها الإمام أبو عيسى الترمذي في سننه من طريق أبي الدرداء، كتاب/ الجهاد، باب/ الاستفتاح بصعاليك المسلمين، رقم الحديث ١٤٠٢، ٣/٢٨١.
(٣) أخرجها الإمام الترمذي في صحيحه من طريق أبي الدرداء، كتاب/ أبواب النكاح، باب/ ما جاء في السعي على الأرملة واليتيم، رقم الحديث ١٢١١، ٣/١٧١.
(٤) أخرجها البخاري في صحيحه من طريق سهل بن سعد، كتاب/ الأدب، باب/ فضل من يعول يتيمًا، رقم الحديث ٥٦٥٩، ٥/١١٢٣.
(٥) أخرجها الإمام أحمد في مسنده، كتاب/ مسند المكثرين من الصحابة، باب/ مسند عبدالله بن عمرو ﷺ، رقم الحديث ٦٩٣٥، ٢/٢٠٧.
(٦) أخرجها الإمام النسائي في سننه من طريق شداد بن أوس، كتاب/ الضحايا، باب/ الأمر بإحداد الشفرة، رقم الحديث ٤٠١١، ٧/٢٢٧.

ومن رأفته بالحيوان، نهيه ﷺ اتخاذ الحيوان هدفًا يرمى، سواء أكان للتسلية أو التدريب، فعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: «إن رسول الله ﷺ لعن من اتخذ شيئًا فيه الروح غرضًا»[1]، وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: «نهى النبي ﷺ أن تصبر البهائم»[2].

فالرحمة بالحيوان وخصوصا الأليفة منها يثاب فاعلها ويعاقب تاركها، فمن رحمها يرحمه الله، ومن عذبها يعذبه الله، فلقد روي عن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «عذبت امرأة في هرة سجنتها حتى ماتت، فدخلت فيها النار، لا هي أطعمتها، ولا سقتها، إذ حبستها، ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض»[3].

فالله ﷻ هو الرحمن الرحيم، ولم يزل ولا يزال كذلك؛ وهو ﷻ خلق من الرحمة ما يكفي على ما ينشرها على ما يشاء من خلقه؛ فجعل هذه الرحمة المخلوقة مئة جزءًا؛ وأنزل جزء واحدًا منها، لتتراحم به الخلائق في الحياة الدنيا؛ حتى إن الدابة لترفع حافرها عن ولدها، خشية أن تصيبه من ذلك الجزء، أي من ذلك الجزء من الرحمة التي أنزلها الله؛ فانظر رحمك الله إلى مئات الآلاف من الأجناس والأنواع من الأحياء في البر والبحر؛ ثم بتكرار الأجيال إلى يوم القيامة؛ فكم يكون عدد الأمهات من البشر وغيرهم من الأحياء، ولا يحصيهم أبدًا إلا الله، فكم يكون عظم هذا الجزء من الرحمة؛ فكيف إذا أضيف إلى كل ذلك كل رحمة بين الآباء والأبناء وبين الرجال والنساء؛ وبين الكبار والصغار؛ وبين الرحماء والمساكين؛ فكيف إذا أضيف إلى ذلك رحمته ﷻ بإرسال الرياح؛ وإنزال

(١) أخرجها الإمام مسلم في صحيحه من طريق عبدالله بن عباس، كتاب/ الصيد والذبائح، باب/ النهي عن صبر البهائم، رقم الحديث ٣٢٧١، ٢/ ١٧١.
(٢) التخريج السابق نفسه.
(٣) أخرجها الإمام مسلم في صحيحه من طريق عبدالله بن عباس، كتاب/ السلام، باب/ النهي عن قتل الهرة، رقم الحديث ٥٩٨٩، ٧/ ٤٣.

الماء من السماء[1]؛ وإخراج النبات مما يأكل الناس والأنعام؛ ثم أضيف إنجاء المؤمنين، وغير ذلك من أنواع الرحمة، وكلها داخلة في جزء واحد من المائة رحمة؛ ثم قيل يوم القيامة يرفع ذلك الجزء لينضم إلى التسعة والتسعين؛ فتصير مئة كلها لأولياء الله يوم القيامة، فكل هذه الرحمة التي جرت في الدنيا، وأخذ منها جميع الخلق من البشر وغيرهم؛ حتى أئمة الكفر؛ فإنهم ما مكثوا على كفرهم عشرات السنين إلا برحمة الله لعلهم يتذكرون ويتوبون، كل هذه الرحمة لم تنقص من آتصاف الله ﷻ بالرحمة، ولو بمثقال ذرة، وقس على ذلك في جميع الصفات من الخلق والرزق والعزة، وغيرها، فلو أن الأولين والآخرين اجتمعوا في صعيد واحد فطلب كل منهم من الله رزقًا بما يريد، فأعطاهم الله إياه؛ ما نقص ذلك من صفة الرزق لله شيئًا، ولو بمثقال ذرة، فهي صفة كاملة لا تختل ولا تتجزأ[2].

والرحمة الإلهية هي التي وسعت كل شيء وبها تتراحم الخلائق فيما بينها؛ لأنها صفة جعلها الله ﷻ في عباده، فالرحمة جعلها الله ﷻ في قلوب البشر ليتراحموا فيما بينهم لتسود الحياة، ويبتعد الإنسان عن الشر، وكل ما يؤثر في عمله، وتقربه إلى الله ﷻ، فيجب علينا أن نتصف بهذه الصفة الإلهية التي منحنا الله إياها في هذه الدنيا.

ومن تعدد أوجه الرحمة في الحديث، أن اللَّه ﷻ بيده الرحمة وحده، ومن رحمته: أن أحدًا من خلقه لا يستطيع أن يحجب رحمته أو يمنعها عن أوليائه، قال تعالى: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢﴾﴾ [فاطر][3].

(١) ينظر: اسم الله الصمد ٩/١.
(٢) المرجع السابق ٩/١.
(٣) ينظر النور الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى، أمين الأنصاري ٤٧/١.

قال ابن أبي جمرة: « إن الله جعل الرحمة في قلوب الأنبياء أكثر مما جعل في قلوب غيرهم »[١]، وهذا يدل على سعة رحمة الله تعالى بمخلوقاته.

وقد جاء عن النبي ﷺ: «نبي التوبة، نبي الرحمة»[٢]، لقوله تعالى: ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة:١٢٨]، ويقول القاضي عياض في ذلك: "كل رحم طباق ما بين السماء والأرض فجعل منها في الأرض واحدة بين خلقه، وخبأ عنده مئة إلا واحدة، يرحم الله بها عباده يوم القيامة، وهي عبارة عن كثرة رحمة الله في الدنيا والآخرة، وأنها في التمثيل على ما عهد من تراحم الناس، وقد يحتمل أنها تجزئة صحيحة في أنواع الرحمة، والله يختص بقية أنواعها علي هذه التجزئة"[٣].

والدليل على تعدد الرحمات من الله ﷻ قول ابن رجب الحنبلي: "أما الرحمة فهي دخول الجنة وعلو درجاتها، وجميع ما في الجنة من النعيم بالمخلوقات، ومن رضى الله ﷻ وقربه ومشاهدته وزيارته، فإنه من رحمة الله تعالى، وفي الحديث الصحيح: أن الله ﷻ يقول للجنة: أنت رحمتي أرحم بك من أشاء من عبادي فكل ما في الجنة فهو رحمة الله ﷻ، وإنما تنال برحمته لا بالعمل، كما قال: «لن يدخل أحد منكم الجنة بعمله»، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمته»"[٤].

وهناك روايات أخرى توضح دلالات الرحمة في السنة النبوية، منها رواية أبي هريرة في المعجم الأوسط حدثنا عبدالرحمن بن معاوية العتبي

(١) إتحاف القاري بدرر البخاري ٣/٦١.
(٢) إكمال المعلم شرح صحيح مسلم، القاضي عياض، ٧/١٦٠.
(٣) إكمال المعلم شرح صحيح مسلم، القاضي عياض، ٨/١٢٣.
(٤) اختيار الأولى في شرح حديث احتصام الملأ الأعلى، ابن رجب الحنبلي، ١/٢١.

قال حدثنا يحيى بن بكير قال حدثني الليث عن جابر بن يزيد عن سعيد ابن أبى هلال عن أبان بن صالح عن مجاهد أبي الحجاج عن طاوس عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال خلق الله الرحمة مئة رحمة، فأمسك عنده تسعًا وتسعين رحمة، وجعل بين خلقه كلهم رحمة واحدة، ولو يعلم الكافر كل الذي عند الله من الرحمة ما يئس من الجنة، ولو يعلم المؤمن كل الذي عند الله من العذاب ما أمن النار[1].

ومن تعدد أوجه الرحمة التي دلت عليها الأحاديث، قوله ﷻ: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾ [الأنبياء]، قال المقدسي في ذلك: "من آمن به تمت له الرحمة في الدنيا والآخرة، ومن كفر به صرفت عنه العقوبة التي كان يعاقب بها الأمم يعني في الدنيا"[2]، كل هذه المظاهر تدل علي تعدد أوجه الرحمة، وتنوعها كما جاءت في الحديث.

(١) أخرجها الإمام الطبراني في المعجم الأوسط من طريق أبي هريرة، مسند من اسمه عبدالرحمن، رقم الحديث ٤٧١١.

(٢) الأحاديث المختارة، للمقدسي، ٤/٢٣١.

الخاتمة

من أهم النتائج التي توصلت إليها الدراسة:

١. كلمة (رحمة) في معناها اللغوي تحتمل الكثير من المعاني والقيم، فالرحمة بمعنى الرقة، والتلطف، والمغفرة، والتوسعة، واصطلاحًا: هي إيصال المنافع والمصالح إلى العبد.

٢. وردت الكثير من النصوص القرآنية والحديثية الدالة على خلق الرحمة، التي هي صفة من صفات الخالق جل وعلا.

٣. يمكن نشر ثقافة الرحمة بين الأفراد من خلال: إخلاص العبودية لله ﷻ، والتسامح الإيجابي، ومعرفة قدر ابن آدم، وشكر نعمة المولى ﷻ.

٤. من دلائل الرحمة في الحديث: جعل الله الرحمة في مئة وعاء، الرحمة التي بين الخلق في الدنيا تكون بينهم يوم القيامة، إضافة الرحمة في كل المواضع إلى المولى ﷻ، والنبي رحيم بأمته، وسيدنا محمد ﷺ الرحمة المهداة، ورحمة النبي من رحمة الله ﷻ، التي وسعت كل شيء.

٥. أما عن أثر اختلاف ألفاظ الحديث في تعدد أوجه الرحمة،

فكانت الرحمة في الإسلام متعددة، شملت الإنسان، والحيوان، وغير المسلم، ومن تعدد أوجه الرحمة في الحديث، إن الله تبارك وتعالي بيده الرحمة وحده، ومن رحمته أن أحدًا من خلقه لا يستطيع أن يحجب رحمته أو يمنعها من أوليائه.

ومن أهم التوصيات، التي يوصي بها الباحث:

- ضرورة الاهتمام بالدراسات الموضوعية في الحديث النبوي الشريف، التي لها الأثر العظيم في إثراء القيم الأخلاقية في الإسلام.
- عمل مؤتمرات علمية متخصصة تهتم بالقيم الإسلامية، التي تستطيع من خلالها الرد على كل مستشرق، وقادح في الإسلام.
- الاهتمام بإعداد المؤلفات المتخصصة التي تهتم بالجانب الموضوعي في القرآن الكريم، والحديث النبوي الشريف.
- عمل مراكز متخصصة تهتم بنشر الإسلام الوسطي الذي قام على نشر الدعوة، والدفاع عن ماهية الإنسان ووجوده، واحترام الحقوق الشرعية كما يجب.

فهرس المصادر والمرجع:

- القرآن الكريم

١. إتحاف الخيرة المهرة بزوائد المسانيد العشرة، أحمد بن أبي بكر بن إسماعيل البوصيري، دار الأمل، القاهرة، ١٩٨٧ م.

٢. إحقاق الحق في النفاق، خالد بن إبراهيم، دار الريان للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٩٩٧م.

٣. أحكام القرآن، أحمد بن علي الرازي الجصاص أبو بكر، دار إحياء التراث العربي، بيروت، تحقيق/ محمد الصادق قمحاوي، ١٤٠٥هـ.

٤. إيسر التفاسير لكلام العلي الكبير، جابر بن موسى بن عبدالقادر ابن جابر أبو بكر الجزائري، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، السعودية، الطبعة الخامسة، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م.

٥. أحكام القرآن، محمد بن عبدالله الأندلسي، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ.

٦. أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، محمد الأمين بن محمد المختار بن عبدالقادر الجكني الشنقيطي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م.

٧. التحرير والتنوير من التفسير، محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي (ت ١٣٩٣هـ)، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى ١٩٩٦م.

٨. تفسير الفخر الرازي، محمد بن عمر بن الحسين الرازي الشافعي المعروف بالفخر الرازي، دار إحياء التراث العربي، الطبعة الأولى، ٢٠٠٥م.

٩. البحر الرائق شرح كنز الدقائق، زين الدين ابن نجيم الحنفي، دار المعرفة، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ.
١٠. تفسير القرآن العظيم، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي، تحقيق/ محمود حسن، دار الفكر، ١٩٩٤م/ ١٤١٤هـ.
١١. الترغيب والترهيب من الحديث الشريف، عبدالعظيم بن عبدالقوي المنذري أبو محمد، دار الكتب العلمية، بيروت، تحقيق محمد إبراهيم شمس الدين، ١٤١٧هـ.
١٢. التفسير الوسيط، محمد سيد طنطاوي، دار الشروق، مصر، ١٩٨٩م.
١٣. تهذيب الكمال، يوسف بن الزكى عبدالرحمن أبو الحجاج المزي، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، تحقيق/ د/ بشار عواد معروف، ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م.
١٤. تفسير القرطبي، محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرج القرطبي، أبو عبدالله، مطبعة دار الرشد، الطبعة الأولى، ٢٠١٣م.
١٥. الجامع الصحيح المسمي صحيح مسلم، أبو الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري النيسابوري، دار الجيل بيروت، ١٤٢٣هـ.
١٦. الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله ﷺ وسننه وأيامه، أبو عبدالله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة الجعفي البخاري، تحقيق محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ.
١٧. الجمع بين الصحيحين البخاري ومسلم، محمد بن فتوح الحميدي، دار ابن حزم، لبنان بيروت، الطبعة الثانية، تحقيق/ علي حسين البواب، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م.
١٨. الخلاصة في فقه الإقليات، جمع وإعداد الباحث في القرآن والسنة، علي نايف الحشود، دار بيروت للطباعة والنشر، ١٩٩٤م.

١٩. حاشية قليوبي على شرح جلال الدين المحلي على منهاج الطالبين، شهاب الدين أحمد بن أحمد بن سلامة القليوبي، تحقيق/ مكتب البحوث والدراسات الإسلامية، دار الفكر، لبنان، بيروت، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م.
٢٠. الحاوي الكبير، العلامة أبو الحسن الماوردي، دار الفكر، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٠م.
٢١. الخصائص الكبري، أبو الفضل جلال الدين عبدالرحمن أبي بكر السيوطي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.
٢٢. الدراية في تخريج أحاديث الهداية، أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد بن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢هـ)، تحقيق السيد عبدالله هاشم اليماني المدني، دار المعرفة، بيروت ١٩٩٥م.
٢٣. الدر المنثور، عبدالرحمن بن الكمال جلال الدين السيوطي، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٣م.
٢٤. رسالة في أسس العقيدة، محمد بن عودة السعوي، وزارة الشئون الإسلامية والدعوة والإرشاد، السعودية، الطبعة الأولى، ١٤٢٥هـ.
٢٥. الطبقات الكبرى، محمد بن سعد بن منيع أبو عبدالله البصري الزهري، إحسان عباس، دار صادر، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٨٧م.
٢٦. عقيدة أهل السنة والجماعة في الصحابة الكرام ﷺ، ناصر بن علي عائض حسن الشيخ، مكتبة الرشد، الرياض، السعودية، الطبعة الثالثة، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م.
٢٧. الفتاوى الكبرى، أحمد بن عبدالحليم ابن تيمية الحراني أبو العباس، دار المعرفة، بيروت، الطبعة الأولى، تحقيق/ حسين محمد مخلوف ١٣٨٦هـ.
٢٨. المبسوط، السرخسي، نشر محمد أفندي المغربي، ١٤٢٣هـ.

٢٩. المتواري على أبواب البخاري، الإمام العلامة ناصر الدين ابن المنير (ت ٦٨٣هـ)، دار الفكر العربي، ١٨٨٦م.
٣٠. المجتمع المدني، المواطنة والديمقراطية، جدلية المفهوم والممارسة، أ/ العيدي صعونيتيه، دار حراء للنشر والتوزيع، الأردن، ١٩٩٧م.
٣١. المخصص، أبو الحسن علي بن إسماعيل النحوي اللغوي الأندلسي المعروف بابن سيده، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الأولى، تحقيق/ خليل إبراهيم جمال، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م.
٣٢. المستدرك على الصحيحين، محمد بن عبدالله أبو عبدالله الحاكم النيسابوري، دار الكتب العلمية، بيروت، تحقيق/ مصطفى عبدالقادر عطا، مع تعليقات الذهبي في التلخيص، الطبعة الأولى ١٤١١هـ/ ١٩٩٠م.
٣٣. المغني في فقه الإمام أحمد بن حنبل الشيباني، عبدالله بن أحمد ابن قدامة المقدسي أبو محمد، دار الفكر، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٥هـ.
٣٤. المفصل في أحكام الهجرة، جمع وإعداد الباحث في القرآن والسنة، علي بن نايف الحشود، دار بيروت للطباعة والنشر، ١٩٩٠م.
٣٥. المفصل في الرد على شبهات أعداء الإسلام، جمع وإعداد الباحث في القرآن والسنة، د/ علي نايف الحشود، دار الرشد، ١٤٢٣هـ.
٣٦. الموسوعة العربية العالمية، مؤسسة أعمال الموسوعة للنشر والتوزيع، الرياض، ١٩٩٦م.
٣٧. الموسوعة الفقهية الكويتية، وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية، الطبعة الثانية، دار السلاسل، الكويت، ١٤٣٧هـ.
٣٨. المطلع على أبواب الفقه، محمد بن أبي الفتح البعلي الحنبلي أبو عبدالله، المكتب الإسلامي، بيروت، تحقيق/ محمد بشير الأدلبي، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م.

٣٩. نواقض الإيمان القولية والعملية، عبدالعزيز بن محمد قاسم، دار الكتاب العربي، الطبعة الأولى، ١٩٩٧م.

٤٠. الوقوف على الموقوف على صحيح مسلم، الإمام الحافظ أحمد بن علي بن حجر العسقلاني أبو الفضل الشافعي، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، الطبعة الأولى، تحقيق/ عبدالله الليثي الأنصاري، ١٤٠٦هـ.

٤١. بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، علاء الدين الكاساني (ت ٥٨٧هـ)، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٨٢م.

٤٢. جامع العلوم والحكم، أبو الفرج عبدالرحمن بن أحمد بن رجب الحنبلي، دار المعرفة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٨ هـ.

٤٣. شرح الأربعين النووية، عطية محمد سالم (المتوفى ١٤٢٠هـ)، دار الرشد، ١٤٢٢هـ.

٤٤. شرح الطحاوية في العقيدة السلفية، صدر الدين علي بن علي بن محمد بن أبي العز الحنفي، تحقيق د/ أحمد محمد شاكر، الطبعة الأولى، وزارة الشئون الإسلامية، الأوقاف والدعوة والإرشاد، السعودية، ١٤١٨هـ.

٤٥. شرح بلوغ المرام، عطية بن محمد سالم (ت ١٤٢٠هـ)، دار الصوت، الطبعة الأولى، ١٤٠٤هـ.

٤٦. اللباب في علوم الكتاب، أبو حفص عمر بن علي بن عادل الدمشقي الحنبلي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م.

٤٧. مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، الحافظ نور الدين علي بن أبي بكر الهيثمي (ت ٨٠٧هـ)، بتحرير الحافظين الجليلين العراقي، ابن حجر، ١٤١٢هـ.

٤٨. لسان العرب، محمد بن مكرم بن منظور الإفريقي المصري، دار صادر، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ.
٤٩. محاسن التأويل، محمد جمال الدين القاسمي، دار العلم، الطبعة الأولى، ١٤٣٣هـ.
٥٠. مختار الصحاح، محمد بن أبي بكر بن عبدالقادر الرازي، مكتبة لبنان، بيروت، تحقيق/ محمود خاطر، ١٩٩٥م.
٥١. مسلمون ومسيحيون في الحضارة العربية والإسلامية، أحمد صدقي الدجاني، مركز يانا للدراسات والأبحاث، القاهرة ١٩٩٩م.
٥٢. مغني المحتاج إلى معرفة معاني ألفاظ المنهاج، محمد الخطيب الشربيني، دار الفكر العربي، بيروت، ١٩٨٣.
٥٣. نظرات استشرافية في فقه العلاقات الإنسانية بين المسلمين، وغير المسلمين، د/ حسن بن محمد سفر، دار الشروق، الطبعة الأولى، ١٩٨٥م.

رحمة اللّه تعالى بعباده
أسبابها وآثارها
في ضوء القرآن الكريم

إعداد:
أ. د. عبدالفتاح محمد خضر
أستاذ ورئيس قسم التفسير بجامعة الأزهر
عضو الجمعية العلمية السعودية للقرآن وعلومه
(تبيان)



مقدمة

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله ﷺ وعلى آله وصحبه ومن والاه.... أما بعد

فقد يسر الله ﷻ لي كتابة هذا البحث الذي عنوانه: "رحمة الله ﷻ بعباده أسبابها وآثارها في ضوء القرآن الكريم" أسأل الله أن ينفع به كل من طالعه، وهو تابع للمحور الأول: (تأصيل خلق الرحمة في الإسلام).

أهداف هذا البحث:

أبرز أهداف هذا البحث تظهر فيما يلي:

أولًا: بيان ماهية رحمة الله المتصلة بالعباد والتفريق بين ما يصح أن يقال في حق الله ﷻ وما يصح أن يقال في حق البشر.

ثانيًا: بيان ما حفل به القرآن الكريم من أسباب رحمة الله لعباده، باستقراء هذه الأسباب من آي القرآن الكريم لفظًا وفي بعض الأحيان من خلال المعنى، مع إظهار ما تحمله هذه الآيات من هدايات وإرشادات لنا جميعًا للترغيب في طرْق هذه الأسباب والأخذ بها.

ثالثًا: تجلية آثار رحمة الله بنا، وذلك من خلال القرآن الكريم، مع مزيد بيان لهدايات جادت بها قرائح العلماء، خاصة علماء التفسير في ظلال

النص الشريف، وهذا يرسخ الحالة الإيمانية لدى كل مؤمن ويقويها، ويشعره بفضل ربه عليه ليظل عبدًا طائعًا للرحمن الرحيم ﷻ.

منهج البحث:

منهج هذا البحث هو منهج التفسير الموضوعي، إذ يجنح إلى موضوع قرآني خالص هو: «رحمة الله ﷻ بعباده أسبابها وثمراتها في ضوء القرآن الكريم»، وذلك يقوم على أساس جمع الآيات التي تتحدث عن «رحمة الله بعباده» و تقسيمها إلى قسمين: الأول يخص الأسباب، والثاني: يخص الآثار، مع مراعاة إبراز هدايات القرآن وفيوضاته للعمل والتأسي والاعتبار.

حدود البحث:

الآيات التي استعملها القرآن الكريم فيما يخص رحمة الله المتصلة بعباده السبب والآثار وفق منهجية التفسير الموضوعي وفي إطاره، مراعيًا الإيجاز والإنجاز في آن، مبتعدًا عن الإطناب، إذ مقام ما يُكتب للمؤتمرات يقتضي ذلك.

خطة البحث:

قسمت هذا البحث بعد المقدمة إلى مطالب ثلاثة وخاتمة:

المطلب الأول: تعريف الرحمة في اللغة والاصطلاح والمناسبة بينهما.

المطلب الثاني: أسباب رحمة الله لعباده ﷻ.

المطلب الثالث: آثار رحمة الله بعباده ومظاهرها.

والخاتمة تضمنت أبرز نقاط البحث، ثم التوصيات والمحتوى.

والله ولي التوفيق.

المطلب الأول
تعريف الرحمة في اللغة والاصطلاح والمناسبة بينهما

الرحمة في اللغة:

بإمعان النظر في معاجم العربية وجدت أن مادة الرحمة «الراء والحاء والميم تدل على الرقة والعطف والرأفة. يقال من ذلك: رحمه يرحمه إذا رقَّ له وتعطَّف عليه»[1].

الرحمة في الاصطلاح:

عرفها الراغب في مفرداته بقوله: "رقّة تقتضي الإحسان إلى الْمَرْحُوم"[2] ثم فصّل قائلًا: وقد تستعمل تارة في الرّقّة المجرّدة، وتارة في الإحسان المجرّد عن الرّقّة، نحو: رَحِمَ الله فلانًا.[3] وإذا وصف بها الله ﷻ فالمراد بها رحمة حقيقية هي وصف له لا تشبه رحمتنا[4].

(١) مقاييس اللغة لابن فارس: ٣/٣٩٨، ولسان العرب لابن منظور: ١٢/٢٣١.
(٢) المفردات للراغب: ١٩١.
(٣) المرجع السابق ذات الصفحة.
(٤) تفسير المنار: ونصه «: فَقَاعِدَةُ السَّلَفِ فِي جَمِيعِ الصِّفَاتِ الَّتِي وَصَفَ اللهُ تَعَالَى بِهَا نَفْسَهُ فِي كِتَابِهِ، وَعَلَى لِسَانِ رَسُولِهِ أَنْ نُثْبِتَهَا لَهُ وَنُمِرَّهَا كَمَا جَاءَتْ مَعَ التَّنْزِيهِ عَنْ صِفَاتِ الْخَلْقِ الثَّابِتِ عَقْلًا وَنَقْلًا بِقَوْلِهِ ﷻ (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ) فَنَقُولُ: إِنَّ للهِ علمًا حَقِيقِيًّا هُوَ وَصْفٌ لَهُ، وَلَكِنَّهُ لَا يُشْبِهُ عِلْمَنَا، وَإِنَّ لَهُ سَمْعًا حَقِيقِيًّا هُوَ وَصْفٌ لَهُ لَا يُشْبِهُ سَمْعَنَا، وَإِنَّ لَهُ رَحْمَةً حَقِيقِيَّةً هِيَ وَصْفٌ لَهُ لَا تُشْبِهُ رَحْمَتَنَا الَّتِي هِيَ انْفِعَالٌ فِي النَّفْسِ، وَهَكَذَا نَقُولُ فِي سَائِرِ صِفَاتِهِ تَعَالَى فَنَجْمَعُ بِذَلِكَ بَيْنَ النَّقْلِ وَالْعَقْلِ» (١/٦٤).

العلاقة بين المعنى اللغوي والاصطلاحي:

المتأمل في التعريف اللغوي والاصطلاحي يلمح اتحادًا بينهما في أن الرحمة رقة وزيادة رأفة وإحسان، وإن كانت في حق الله ﷻ فالمراد بها الإحسان المجرد المطلق لمخالفته ﷻ للحوادث، إذ ليس كمثله شيء.

المطلب الثاني
أسباب رحمة الله لعباده ﷻ

رحمة الله ﷻ لعبادة لا تحصى عددًا؛ لأنها من نعمه، ونعم الله ﷻ لا نستطيع عدّها بنص القرآن الكريم، قال تعالى: «﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَظَلُومٞ كَفَّارٞ﴾ [إبراهيم:٣٤] وعلى ذلك فإن أسباب حلول الرحمة بالمرحومين أيضًا كثيرة، ومن خلال استقراء آي القرآن الكريم نستطيع الوقوف على أسباب كثيرة لنزول الرحمة من الله على عباده منها:

- **الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وطاعة الله ورسوله:**

من أسباب رحمة الله بعباده قيامهم بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وطاعة الله ورسوله، لقوله ﷻ: ﴿وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرۡحَمُهُمُ ٱللَّهُۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ٧١﴾ [التوبة] والآية الكريمة تحمل وعدًا من الله بالرحمة لكل من طبق محتواها من عباده، بداية من اتحاد القلوب مودة ومحبة وتعاطفًا، ممثلًا ذلك في أن "بعضهم أولياء بعض" مرورًا بأسباب تطهير المجتمع من خلال عبادة الله وحده، وترك عبادة من سواه، وبالتبعية

التزام كل عُرف حسن شرعًا، واجتناب ما خالفه، قال القرطبي: "يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ أَيْ: بِعِبَادَةِ اللَّهِ تَعَالَى وَتَوْحِيدِهِ، وَكُلِّ مَا أَتْبَعَ ذَلِكَ، "وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ" عَنْ عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ وَكُلِّ مَا أَتْبَعَ ذَلِكَ[1]" وَهَاتَانِ الصِّفَتَانِ مِنْ أَخَصِّ صِفَاتِ الْمُؤْمِنِينَ الَّتِي يَمْتَازُونَ بِهَا عَلَى الْمُنَافِقِينَ وَعَلَى غَيْرِهِمْ مِنَ الْكُفَّارِ، وَهُمَا سِيَاجُ حِفْظِ الْفَضَائِلِ، وَمَنْعُ فُشُوِّ الرَّذَائِلِ[2] ويقيمون الصلاة المكتوبة، ويؤدون الزكاة المفروضة، إذ هما من أعظم أسباب رحمة الله لعباده، قال تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [النور] وقال ﷻ في أمر الزكاة: ﴿وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَـٰتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف:١٥٦] وتذكر آية التوبة قبل ختامها بموعود الله بالرحمة: أن على المسلم أن يكون مطيعًا لله ولرسوله، وكون طاعة الله ورسوله مجلبة للرحمة جاء في آيات من القرآن العظيم منها آية آل عمران: ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٣٢﴾﴾ ثم يأتي الختام المنتظر: "أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ" وَالسِّينُ فِي قَوْلِهِ: "سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ" مُدْخِلَةٌ فِي الْوَعْدِ مُهْلَةً لِتَكُونَ النُّفُوسُ تَتَنَعَّمُ بِرَجَائِهِ، وفضله ﷻ[3] وعبارة أبي حيان: "ولما كانت الرحمة هنا عبارة عما يترتب على تلك الأعمال الصالحة من الثواب والعقاب في الآخرة، أتى بالسين التي تدل على استقبال الفعل أنّ الله عزيز غالب على كل شيء، قادر عليه، حكيم واضع كلاً موضعه"[4]. ومن هدايات هذه الآية الكريمة أن رحمة الله تستوجب العمل حسب منهج الله لينجز موعوده ﷻ للمرحومين، ذلك الذي فُسر بالآية اللاحقة: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَـٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّـٰتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾﴾ [التوبة] وبما جاء في غيرها

(١) القرطبي: ٨/ ٢٠٣.
(٢) المنار: ١٠/ ٤٦٧.
(٣) المرجع السابق.
(٤) البحر المحيط: ٥/ ٧١.

من رحماته، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإقامة فرائضه ﷻ كل ذلك يؤدي إلى اعتصام المجتمع المسلم بالله وحده، وهو السبب التالي.

- **الاعتصام بالله ﷻ:**

من أسباب رحمة الله بعباده في القرآن الكريم: الإيمان بالله مع الاعتصام به ﷻ، هذا منطوق قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِهِۦ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِى رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿١٧٥﴾﴾ [النساء] الآية الكريمة جاءت عقب آية دعت الناس جميعًا للاعتراف برسالة سيدنا محمد ﷺ وبالقرآن ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾﴾ [النساء] وفصلت القول فيمن آمن بالله ربًا، واعتصم ولاذ بدينه، وعصم نفسه من زيغ الشيطان، فإن الله يهبه رحمة ترضيه، وتغنيه عما سواه ﷻ، يقول صاحب زهرة التفاسير: "ولكن ما هي الرحمة؟ وما هو الفضل، وما هي الهداية؟ ثم أهذا الجزاء في الدنيا أم هو في الآخرة؟ أم هو فيهما معا؟ لم يبين النص الكريم مكان ذلك الجزاء المؤكد، وعندي أن هذا الجزاء في الدنيا والآخرة".

وعلى هذا يكون معنى الرحمة في الدنيا أن يكونوا في سعادة واطمئنان وهدوء بال، لأنهم فوضوا أمورهم للعلي الأعلى الذي ليس كمثله شيء، وهو العلي الحكيم، وركنوا أنفسهم إلى الملجأ الأعصم، والركن الأمكن، فاطمأنوا بالله ﷻ، وبذكره، وبامتلاء قلوبهم به، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾﴾ [الرعد]، ولا شك أن شقاء الناس في الدنيا سببه انحرافهم عن الجادة وانشغالهم بأمور توجد، بلبالًا مستمرًاواضطرابًا دائمًا، من خصومات، وأحقاد، وحسد، ولجاجات، ومن شأن المؤمن أن يعلو عن سفساف هذه الأمور، فيكون في راحة واطمئنان بال، وكل آفة بالجسم تهون بجوار الاطمئنان

بالله، وكل نعيم مادي دنيوي يذهب به القلق وعدم الاطمئنان، هذه رحمة الدنيا، أما رحمة الآخرة، فهي النعيم المقيم، وجنات عدن خالدين فيها أبدًا، هذه الرحمة بنوعيها، ومعانيها،[1] ومن عاين رحمة الله بقلبه أو بقالبه من خلال اعتصامه بربه فإنه يتقي الله في سره وعلنه، وهذا هو السبب التالي لتنزل الرحمات من الله.

- **تقوى الله في السر والعلن**

من أسباب رحمة الله بعباده في القرآن الكريم: تقوى الله ﷻ قال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف:١٥٦] "ورحمتي وسعت كل شيء" العموم فيها عموم كامل صادق، لذا لم يقل: "كل شخص"، للإشارة إلى أن الرحمة شاملة عامة للأشياء والأشخاص، فشريعته عدل ورحمة، وإرساله الرسل عدل ورحمة، وخلقه الكون وما فيه من شمس مشرقة مضيئة للكون وقمر منير ونجوم ذات بروج وسحاب ورياح مرسلات رحمة، وهكذا كل ما سخره الله ﷻ للإنسان، وما مكنه منه رحمة به، هذه إشارة إلى معنى العموم الذي اشتمل عليه ذلك النص السامي، وما ترمي إليه رحمته، وإن نعيم الجنة رحمة من الله، وقد كتبها الله ﷻ للذين يؤمنون بالله وبالآخرة، ولذا قال تعالى: ﴿فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ والفاء هنا لتفصيل بعض العام، والسين لتأكيد المستقبل، و"أكتبها"، أي: أسجلها غير قابلة للمحو، وذكر أعمال أو أوصاف من يستحقونها، فكانت خصالًا ثلاثًا: الأولى - التقوى واستشعار مخافة الله، وأن يتخذوا وقاية بينهم وبين الشر، وذلك بتهذيب أنفسهم بالعبادات المهذبة للنفس، التي يستشعر فيها المؤمن خشية الله ﷻ، وابتدأ ﷻ بها لأنها أساس قوة الخير، وهي روح التدين، وعمران القلب بذكر الله ﷻ"[2].

(١) زهرة التفاسير: ٤/ ١٩٩٣.
(٢) زهرة التفاسير: ٦/ ٢٩٦٦.

والتقوى من علل إرسال الرسل وحلول الرحمة بأصحابها لقوله تعالى: ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [الأعراف] لتتقوا أي: لتوجد منك التقوى، وهي علة ثانية تلت العلة الأولى وهي الإنذار، ثم جاءت العلة الثالثة المترتبة على الثانية "ولعلكم ترحمون" أي: ولترحموا بسبب التقوى إن وجدت منكم.

قال بعض العلماء: وهذا الترتيب في غاية الحسن، لأن المقصود من الإرسال الإنذار، ومن الإنذار التقوى. ومن التقوى الفوز بالرحمة، وفائدة حرف الترجي (وَلَعَلَّكُمْ) التنبيه على عزة المطلب، وأن التقوى غير موجبة للرحمة، بل هي منوطة بفضل الله، وأن المتقي ينبغي ألا يعتمد على تقواه ولا يأمن عذاب الله»[1].

وقد وردت التقوى في سورة يس مؤكدة للموضعين السابقين مُذَيّلَة بالرحمة فقال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [يس] أي: يرحمكم ربكم إن أنتم حذرتم ذلك، واتقيتموه بالتوبة من شرككم والإيمان به، ولزوم طاعته فيما أوجب عليكم ﷻ[2] وتأتي آية الحديد وهي الرابعة التي تفيض رحمة على المتقين وتؤكد مضمون ما سبقها ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾ [الحديد] والكفلان لا يعلم وصفهما ولا قدرهما إلا الله ﷻ، أجر على الإيمان، وأجر على التقوى، أو أجر على امتثال الأوامر، وأجر على اجتناب النواهي، أو أن التثنية المراد بها تكرار الإيتاء مرة بعد أخرى[3]، ومن هدايات الآية أن من اتقى ربه وخافه أكرمه ﷻ برحمة ونور ومغفرة في ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا

(١) مفاتيح الغيب: ٢٠٠٨/١، وانظر: التفسير الوسيط لطنطاوي: ٣٠٠/٥ وحاشية الجمل على الجلالين: ١٥٥/٢.
(٢) جامع البيان: ٥٢٦/٢٠.
(٣) تيسير الكريم الرحمن: ٨٤٣.

﴿مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ [الشعراء]، فالتقوى من أبرز أسباب الرحمة، وهي «أَعْلَى دَرَجَاتِ الْإِيمَانِ»[1].

ومن مكتنزات التقوي وجوالبها: الإنصات لكلام الله ﷻ، وهو سبب مهم من أسباب الرحمة بنا وهو السبب التالي:

- **الاستماع للقرآن والإنصات له.**

من أهم أسباب الرحمة بالعباد الاستماع للقرآن الكريم والإنصات له لقوله ﷻ: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ مِن رَّبِّي ۚ هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠٣﴾ وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأعراف:٢٠٣-٢٠٤] نلمح كما يلمح القارئ الكريم وصف القرآن الكريم لذاته بالهدى والرحمة للمؤمنين "هذا بصائر من ربكم وهدى ورحمة لقوم يؤمنون" والذي اشتمل على هذه الأوصاف حريّ بأن يُصغى إليه، حتى يحصل منه للمنصت هذه النتائج العظيمة وينتفع بها؛ فيستبصر من العمى، ويهتدي من الضلال ويرحم بها[2]. وحري بأن نتأدب معه ونرغب في تلاوته التي بها نرجوا تجارة لن تبور لقوله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٠﴾﴾ [فاطر] والتلاوة الخاشعة تفيض رحمة على القارئ، وعلى المُنصت المتدبّر للقرآن الكريم، وهذا ما أرسته الآية الكريمة ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ والإنصات من لوازم الاستماع للقرآن، يقول الشيخ السعدي "فمن لازم الاستماع والإنصات؛ حين يتلى كتاب اللّه، فإنه ينال خيرًا كثيرًا وعلمًا غزيرًا، وإيمانًا مستمرًا متجددًا، وهدىً متزايدًا، وبصيرة في دينه، ولهذا رتب الله حصول الرحمة عليهما؛

(١) التحرير والتنوير: ٤/٨٨.
(٢) البحر المحيط: ٤/٤٤٨.

فدل ذلك على أن من تُلِيَ عليه الكتاب، فلم يستمع له وينصت، أنه محروم الحظ من الرحمة، قد فاته خير كثير[1] والسنة تفيض جنباتها بما صح عن النبي ﷺ ترغيبًا في تلاوة القرآن والاستماع إليه لنغنم رحمة الله ﷻ".

ومن أهم أوقات قراءة القرآن أو الاستماع إليه أو القيام به في صلاة الليل خاصة وقت السحر قيامًا لله به، وهو سبب رئيس لنوال رحمة الله ﷻ وهو السبب التالي.

- **قيام الليل:**

من أسباب رحمة الله بعباده في القرآن الكريم: قيام الليل، قال تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٩﴾﴾ [الزمر] سياق هذه الآية الكريمة: ﴿قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا ۖ إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ﴾ [الزمر:٨] وبضميمته للاحقه فإنه يظهر مفارقة بين الكافر والعابد: "أهذا الكافر المتمتع بكفره خير، أم من هو عابد لربه طائع له، يقضي ساعات الليل في القيام والسجود لله، يخاف عذاب الآخرة، ويأمُل رحمة ربه؟ قل -أيها الرسول-: هل يستوي الذين يعلمون ربهم ودينهم الحق والذين لا يعلمون شيئًا من ذلك؟ لا يستوون. إنما يتذكر ويعرف الفرق أصحاب العقول السليمة"[2] فالطائع العابد المجد في الطاعة الذي يقرأ القرآن ويطيل قيام الليل بين السجود، والقيام يكون بين الخوف من عذاب الله وعقابه، الذي يمثله في الآية قوله ﷻ: ﴿يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ﴾ وبين الرجاء والأمل الذي يبينه قوله تعالى: ﴿وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ﴾ ورجاء الرحمة كما تبين الآية الكريمة ليس بالأماني الجوفاء، بل بالعمل الجاد ومجافاة المضاجع.

وفى توقيت القنوت بالليل، إشارة إلى المعاناة التي يجدها المؤمن فى

(١) تيسير الكريم الرحمن: ٣١٤.
(٢) التفسير الميسر: ٤٥٩.

طاعة ربه، حيث يهجر النوم بالليل ويقهر سلطانه. وفى هذا يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ هِيَ أَشَدُّ وَطۡئٗا وَأَقۡوَمُ قِيلٗا ٦﴾ [المزمل] أي: "إِنَّ فِي قِيَامِ اللَّيْلِ تَزْكِيَةَ وَتَصْفِيَةَ لِسِرِّكَ وَارْتِقَاء بِكَ إِلَى الْمَرَاقِي الْمَلَكِيَّةِ"[1] ويقول ﷻ في الثناء على القائمين بالليل، وما لهم من جزاء عظيم عنده ﷻ: ﴿كَانُواْ قَلِيلٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مَا يَهۡجَعُونَ ١٧ وَبِٱلۡأَسۡحَارِ هُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ ١٨﴾ [الذاريات] وقوله تعالى في خواتيم آية الزمر: ﴿قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [الزمر:٩]. كان مقتضى السياق أن تجيء المفاضلة بين المؤمن والكافر، أو بين من يذكر الله ومن لا يذكره، فيقال مثلًا: هل يستوى المؤمنون والكافرون؟ أو هل يستوي من يذكر الله ويشكر له، ومن يكفر بالله ويمكر به؟. ولكن جاءت المفاضلة بين الذين يعلمون والذين لا يعلمون، للإشارة إلى أن العلم، هو الذي تقوم عليه قيم الناس، وتثقل أو تخفّ به موازينهم، فى أي: أمر من أمور الدنيا، أو الدين..[2] وعليه مدار الرحمة وجودا وعدما، ومن هدايات هذه الآية أن قيام الليل شرف المؤمن وسبب من أسباب تنزل الرحمات على عباد الله القائمين المصلين.

ومن قام ليله بالقرآن، رق قلبه وانعطف على المسلمين من كان هذا سمته لا يهدأ له بال، ولا يقر له قرار حتى يدخل من في محيطه في السلم والسلام، وهذا يستدعيه للسعي في إصلاح ما بين الناس ومَنْ علاقات متباينه، وعين ما يقوم به من إصلاح هو سبب من أسباب نزول الرحمات على عباد الله ﷻ، وهو السبب التالي.

- **إصلاح ذات البين:**

من أسباب رحمة الله بعباده إصلاح ذات البين، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِخۡوَةٞ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَ أَخَوَيۡكُمۡۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ١٠﴾ [الحجرات] هذه الآية الكريمة

(١) التحرير والتنوير: ٢٩/ ٢٦٢.
(٢) التفسير القرآني للقرآن: ١٢/ ١١٢٧.

تبين أن المؤمنين تجمعهم أخوة الدين، وقد جاء في تضاعيف السنة الصحيحة أحاديث كثيرة تؤكد على أن المسلم أخ المسلم، ويجب أن يكون في عون أخيه، بل كالبنيان يشد بعضه بعضًا، وإن كان من تباين أو خصام، أو قتال فالواجب ألا يقف الأخوة موقفا سلبيًا، بل يقوم جمع منهم بالصلح والتوفيق بقدر الطاقة ووفق الاستطاعة ﴿فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَ أَخَوَيۡكُمۡ﴾ يعني: الفئتين المقتتلتين ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ أي: في جميع أموركم ﴿لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ﴾ ومجيء لعل قبل «ترحمون» مشعر بعزة منالِ الرحمة وكونها لا تنال إلا بعمل دؤوب، تلك التقوى التي تدخل في أمر الإصلاح دخولًا أوليًا كسبب رئيس لتفضل الباري برحمته بعباده يقول السعدي: أمر الله ﷻ إيانا بالتقوى عمومًا، ورتب على القيام بحقوق المؤمنين وبتقوى الله، الرحمة فقال: ﴿لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ﴾ وإذا حصلت الرحمة، حصل خيري الدنيا والآخرة، ودل ذلك، على أن عدم القيام بحقوق المؤمنين، من أعظم حواجب الرحمة[1] وقد اختيرت الرحمة هنا؛ لأن شأن التعامل الأخوي هو الرحمة، ثمرة ونتيجة، والجزاء من جنس العمل، ومن هدايات هذه الآية الكريمة: أن من موجبات الرحمة تقوى الله ﷻ والخوف منه في كل أمر وخاصة ما يتصل بأبواب الإصلاح بين الناس مصداق ذلك ﴿إِن يُرِيدَآ إِصۡلَٰحٗا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيۡنَهُمَآ﴾ [النساء:٣٥] على اختلاف محامل الآية الكريمة.

ومما هو من لوازم الإصلاح بين الناس الصبر الجميل ليثمر هذا الإصلاح ثمرته، وهذا سبب من أوجه أسباب تنزل الرحمات، وهو السبب التالي.

- **الصبر لحكم الله ﷻ:**

من أسباب رحمة الله بعباده الصبر لحكمه ﷻ، قال تعالى: ﴿وَلَنَبۡلُوَنَّكُم بِشَيۡءٖ مِّنَ ٱلۡخَوۡفِ وَٱلۡجُوعِ وَنَقۡصٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِۗ

(١) تيسير الكريم الرحمن: ٨٠٠.

﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [البقرة]

هذه الآيات الكريمات تبين أن على المؤمن أن يكون ثابتًا لا يهتز لجزع أو قنوط من رحمة الله عند تعرضه للابتلاء في دنياه، ومن لطف الله بعباده الموحدين تخفيفه البلاء، نلمح ذلك من خلال كلمة «شيء من الخوف والجوع: "وَجِيءَ بِكَلِمَةِ ﴿بِشَيۡءٖ﴾ تَهْوِينًا لِلْخَبَرِ الْمُفْجِعِ، وَإِشَارَةً إِلَى الْفَرْقِ بَيْنَ هَذَا الِابْتِلَاءِ وَبَيْنَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ اللَّذَيْنِ سَلَّطَهُمَا اللَّهُ عَلَى بَعْضِ الْأُمَمِ عُقُوبَةً، كَمَا فِي قَوْلِهِ: ﴿فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلۡجُوعِ وَٱلۡخَوۡفِ بِمَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ﴾ [النحل:١١٢]، وَلِذَلِكَ جَاءَ هُنَا بِكَلِمَةِ ﴿بِشَيۡءٖ﴾ وَجَاءَ هُنَالِكَ بِمَا يَدُلُّ عَلَى الْمُلَابَسَةِ وَالتَّمَكُّنِ"[1] يعقب الرضا بقضاء الله وقدره بشرى للراضين الصابرين صبرًا لا شكوى فيه ولا جزع وهو الصبر الأكمل، وهو الصبر الجميل، الذي يحتوي الاسترجاع: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞ﴾ هؤلاء الذين أعلى الله مقامهم ومراتبهم عنده كما نلمح ذلك في التعبير بـ ﴿أولئك﴾عليهم من الله صلوات ورحمة، والصلاةُ من الله ﷻ المغفرةُ والرأفةُ وجمعُها للتنبيه على كثرتها وتنوُّعها والجمعُ بينهما وبين الرحمةِ للمبالغةِ كما في قولِه تعالى: ﴿رَأۡفَةٗ وَرَحۡمَةٗ﴾ [الحديد:٢٧] و﴿لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾ [البقرة:١٤٣] والتنوين فيهما للتفخيم والتعرضُ لعنوانِ الربوبيةِ مع الإضافة إلى ضميرهم ﴿مِّن رَّبِّهِمۡ﴾ لإظهارِ مزيدِ العناية بهم أي: أولئك الموصوفون بما ذكر من النعوت الجليلةِ عليهم فنونُ الرأفةِ الفائضةِ من مالك أمورهم ومبلِّغهم إلى كمالاتهم اللائقة بهم، وَالصَّلَوَاتُ هُنَا التَّزْكِيَاتِ وَالْمَغْفِرَاتِ، وَلِذَلِكَ عُطِفَتْ عَلَيْهَا الرَّحْمَةُ الَّتِي هِيَ مِنْ مَعَانِي الصَّلَاةِ فِي مِثْلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ﴾ [الأحزاب:٥٦] وفي تكرير ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ لإظهارِ كمالِ العناية بهم ﴿هُمُ

(١) التحرير والتنوير: ٢/٥٤.

﴿ٱلْمُهْتَدُونَ﴾ للحق والصواب مطلقًا[1]، والخلاصة أن الله ﷻ لم يمن على عباده الصابرين بالمغفرة والرضوان فقط وحسبهما جزاء للصبر ولكن منَّ بالرحمة، رحمة الله ﷻ التي وسعت كل شيء، فرحمهم في الدنيا بالهداية والتوفيق لفعل الخير، ورحمهم في الآخرة بالنعيم المقيم.[2] ومن هدايات آيات سورة البقرة: الجزم بأن أقوى أسباب رحمة الله بعباده كون العبد عبدًا حقيقيًا من خلال رضاه بقضاء الله وقدره.

وبما أن الصابر يعفو ويصفح احتسابًا للأجر عند الله؛ لذا كان السبب التالي من أسباب الرحمة في القرآن الكريم.

- **العفو عند المقدرة:**

من أسباب الرحمة بعباد الله ﷻ في القرآن الكريم: العفو عن المسيء رغم المقدرة على معاقبته، يقول تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ فِي ٱلۡقَتۡلَىۖ ٱلۡحُرُّ بِٱلۡحُرِّ وَٱلۡعَبۡدُ بِٱلۡعَبۡدِ وَٱلۡأُنثَىٰ بِٱلۡأُنثَىٰۚ فَمَنۡ عُفِيَ لَهُۥ مِنۡ أَخِيهِ شَيۡءٞ فَٱتِّبَاعُۢ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيۡهِ بِإِحۡسَٰنٖۗ ذَٰلِكَ تَخۡفِيفٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَرَحۡمَةٞۗ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٞ ١٧٨﴾ [البقرة] معنى الآية الكريمة إجمالًا: "يا أيها الذين صدقوا الله ورسوله وعملوا بشرعه فرض الله عليكم أن تقتصوا من القاتل عمدًا بقتله، بشرط المساواة والمماثلة: يُقتل الحر بمثله، والعبد بمثله، والأنثى بمثلها. فمن سامحه ولي المقتول بالعفو عن الاقتصاص منه والاكتفاء بأخذ الدية -وهي قدر مالي محدد يدفعه الجاني مقابل العفو عنه- فليلتزم الطرفان بحسن الخلق، فيطالب الولي بالدية من غير عنف، ويدفع القاتل إليه حقه بإحسان، من غير تأخير ولا نقص. ذلك العفو مع أخذ الدية تخفيف من ربكم ورحمة بكم؛ لما فيه من التسهيل والانتفاع. فمَن قتل القاتل بعد العفو عنه وأَخْذِ الدية فله عذاب أليم بقتله قصاصًا في

(١) إرشاد العقل السليم: ١/١٨١، ١٨٠.
(٢) زهرة التفاسير: ١/١٧٥.

الدنيا، أو بالنار في الآخرة"[1] نلحظ أن سبب التخفيف وحلول الرحمة في هذه الآية الكريمة هو مسامحة ولي المقتول بالعفو عن القصاص والاكتفاء بالدية عندما يري أن ذلك هو الأصلح له ولمجتمعه، وهذا يعكس وسطية هذا الدين القويم، إذ إن «القصاص في النفس والجراح كان حتمًا في التوراة على اليهود، ولم يكن لهم أخذ الدية، وكان في شرع النصارى الدية ولم يكن لهم القصاص، فخيّر اللّه هذه الأمة بين القصاص وبين العفو عن الدية تخفيفًا منه ورحمة[2] وقد أمتع وأبهج صاحب البحر بما علله من كون العفو رحمة فيما بيننا، وهو سبب من أسباب رحمة اللّه بنا فقال: "لأن من استبقى مهجتك بعد استحقاق إتلافها فقد رحمك. وأيّ رحمة أعظم من ذلك؟ ولعل القاتل المعفو عنه يستقل من الأعمال الصالحة في المدة التي عاشها بعد استحقاق قتله ما يمحو به هذه الفعلة الشنعاء، فمن الرحمة إمهاله لعله يصلح أعماله"[3]، ذلكم هو شرع اللّه وتطبيقه واعتباره هو سبب الرحمة ونزولها بنا من الرحمن الرحيم ﷻ.

ومن تصدق بحقه في القصاص تفضلًا هانت عليه نفسه إذا فقدها في سبيل الله ﷻ وهو السبب التالي:

- **الهجرة والجهاد في سبيل الله ﷻ:**

من أسباب رحمة اللّه بعباده هجرة المؤمن وطنه، وجهاده في سبيل رفعة راية الإسلام، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٢١٨﴾ [البقرة] الآية الكريمة تؤكد أن الذين آمنوا باللّه ﷻ، والذين هاجروا من أوطانهم وذويهم في سبيل اللّه ﷻ، وبذلوا أرواحهم رخيصة لإعلاء كلمة

(١) التفسير الميسر: ٢٧
(٢) معالم التنزيل: ١/ ١٩٠
(٣) البحر المحيط: ٢/ ١٧.

التوحيد وسيادتها في أرض الله الواسعة هم الذين يرجون رحمة الله، حيث إنهم أتوا بسبب موجب للرحمة ألا وهو الإيمان والهجرة، ومصاحبة ذلك للجهاد في سبيل الله ﷻ، وكيف لا يرجون وهم أصحاب الدرجة العظمى في ثواب الأعمال، بل هم الفائزون برضوان الله، لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ أَعۡظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ ٢٠﴾ [التوبة] "وَالْإِتْيَانُ بِاسْمِ الْإِشَارَةِ لِلتَّنْبِيهِ عَلَى أَنَّهُمُ اسْتَحَقُّوا الْفَوْزَ لِأَجْلِ تِلْكَ الْأَوْصَافِ الَّتِي مَيَّزَتْهُمْ: وَهِيَ الْإِيمَانُ وَالْهِجْرَةُ وَالْجِهَادُ بِالْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ"[1] ولا يخفى على مسلم أن هذا حق صحابة نبينا ﷺ الذين انبنى على جهودهم وجهادهم الإسلام، وهم من رد الناس إلى شريعة الله ﷻ، لذا كانوا أعظم درجة عند الله من جميع الخلق.[2] وقد بين الله ﷻ الدرجة الأعظم التي نالوها بأنها الرحمة والرضوان والنعيم المقيم في الجنة حيث قال تعالى: ﴿يُبَشِّرُهُمۡ رَبُّهُم بِرَحۡمَةٖ مِّنۡهُ وَرِضۡوَٰنٖ وَجَنَّٰتٖ لَّهُمۡ فِيهَا نَعِيمٞ مُّقِيمٞ ٢١ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ ٢٢﴾ [التوبة:٢٠] ومعلوم أنه لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية، وبما أن الحراك الإيماني الممثل في الهجرة أو الجهاد ينجم عنه الخروج طواعية من الديار أو عدم الرجوع إليها بالموت، من هنا آن لنا أن نتعرض للسبب التالي للرحمة وهو: الموت أو القتل في سبيل الله.

- **الموت أو القتل[3] في سبيل الله ﷻ:**

من أسباب رحمة الله بعباده: نيل الشهادة في سبيل الله ﷻ قال تعالى: ﴿وَلَئِن قُتِلۡتُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوۡ مُتُّمۡ لَمَغۡفِرَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحۡمَةٌ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ ١٥٧﴾

(١) التحرير والتنوير: ١٠/ ١٤٩.
(٢) المحررالوجيز: ٣/ ١٧.
(٣) لا يخفى على لبيب الفرق بين الموت والقتل حيث إن القتل يكون بنقض البنية، أما الموت فيكون بلا نقض لبنية الإنسان أي: بسلب الروح مع تمام البناء الجسدي العضوي للميت. انظر: تفسير الشعراوي خواطري حول القرآن الكريم ١/ ١٦٣٥.

[آل عمران] الموت في سبيل الله أو القتل معناه بيع النفس رخيصة في سبيل ما عند الله من الأجر الجزيل لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَۚ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقۡتُلُونَ وَيُقۡتَلُونَۖ وَعۡدًا عَلَيۡهِ حَقّٗا فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ وَٱلۡقُرۡءَانِۚ وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِۚ فَٱسۡتَبۡشِرُواْ بِبَيۡعِكُمُ ٱلَّذِي بَايَعۡتُم بِهِۦۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ١١١﴾ [التوبة] يقول العلامة الشنقيطي: "ذَكَرَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ أَنَّ الْمَقْتُولَ فِي الْجِهَادِ وَالْمَيِّتَ كِلَاهُمَا يَنَالُ مَغْفِرَةً مِنَ اللَّهِ، وَرَحْمَةً خَيْرًا لَهُ مِمَّا يَجْمَعُهُ مِنْ حُطَامِ الدُّنْيَا، وَأَوْضَحَ وَجْهَ ذَلِكَ فِي آيَةٍ أُخْرَى بَيَّنَ فِيهَا أَنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنْهُ حَيَاةً قَصِيرَةً فَانِيَةً مُنَغَّصَةً بِالْمَصَائِبِ وَالْآلَامِ بِحَيَاةٍ أَبَدِيَّةٍ لَذِيذَةٍ لَا تَنْقَطِعُ وَلَا يَتَأَذَّى صَاحِبُهَا بِشَيْءٍ، وَاشْتَرَى مِنْهُ مَالًا قَلِيلًا فَانِيًا بِمُلْكٍ لَا يَنْفَدُ وَلَا يَنْقَضِي أَبَدًا، وَهِيَ قَوْلُهُ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَ﴾، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا رَأَيۡتَ ثَمَّ رَأَيۡتَ نَعِيمٗا وَمُلۡكٗا كَبِيرًا ٢٠﴾ [الإنسان]، وَبَيَّنَ فِي آيَةٍ أُخْرَى أَنَّ فَضْلَ اللَّهِ، وَرَحْمَتَهُ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُهُ أَهْلُ الدُّنْيَا مِنْ حُطَامِهَا وَزَادَ فِيهَا الْأَمْرَ بِالْفَرَحِ بِفَضْلِ اللَّهِ وَرَحْمَتِهِ دُونَ حُطَامِ الدُّنْيَا، وَهِيَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلۡ بِفَضۡلِ ٱللَّهِ وَبِرَحۡمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلۡيَفۡرَحُواْ هُوَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ ٥٨﴾ [يونس] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿نَحۡنُ قَسَمۡنَا بَيۡنَهُم مَّعِيشَتَهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ وَرَفَعۡنَا بَعۡضَهُمۡ فَوۡقَ بَعۡضٖ دَرَجَٰتٖ لِّيَتَّخِذَ بَعۡضُهُم بَعۡضٗا سُخۡرِيّٗاۗ وَرَحۡمَتُ رَبِّكَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ﴾ [الزخرف:٣٢][1] ومن هدايات آية آل عمران أن من مات في سبيل الله أو قتل فإن الله يبشره ببشارتين» بمغفرة تمحو ما كان من ذنوبه وسيئاته، ورحمة ترفع درجاته"[2]، وهذا فيه من الترغيب ما فيه، شريطة ألا يعيث في الأرض فسادًا كبعض من يسمون أنفسهم بالمجاهدين في عصرنا الحاضر من الدواعش وأضرابهم، والجهاد منهم بريء بعد أن

(١) أضواء البيان: ١/ ٢١٤.
(٢) المنار: ٤/ ١٦١، والمراغي: ٤/ ١١٠.

شوهوا صورة الإسلام وأدانوا المسلمين ظلمًا برقيع عملهم، وجهل قولهم.

ولا شك أن من عاش من الموحدين فإنه يعيش لله ﷻ، لذا يفر بدينه ويعتزل الكافرين وكفرهم، وهذا هو السبب التالي من أسباب الرحمة.

- **اعتزال الكافرين وما يعبدونه:**

سبب من الأسباب الرئيسة لنزول الرحمة من الله على عباده يتمثل في اعتزال الكافرين بالله واعتزال ما يعبدونه من باطل، حماية للدين وخوفًا على صفاء عقيدة التوحيد من أن تمس بسوء، يتضح ذلك جليا من خلال الفتية الذين آمنوا بربهم وزادهم الله هدى، إذ اعتزلوا قومهم موالاةً لله، وبراءةً من عبادة من سواه ﷻ، حيث قال تعالى: ﴿وَإِذِ ٱعۡتَزَلۡتُمُوهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأۡوُۥٓاْ إِلَى ٱلۡكَهۡفِ يَنشُرۡ لَكُمۡ رَبُّكُم مِّن رَّحۡمَتِهِۦ وَيُهَيِّئۡ لَكُم مِّنۡ أَمۡرِكُم مِّرۡفَقٗا ١٦﴾ [الكهف] ومضمون هذه الآية أن أهل الكهف قبل الإيواء إلى كهفهم قال بعضهم لبعض: بعد أن "فارقنا الكفار وانفردنا بالله ﷻ فلنجعل الكهف مأوى ونتكل على الله فإنه سيبسط لنا رحمته وينشرها علينا، ويهيىء لنا من أمرنا مرفقًا، وهذا كله دعاء بحسب الدنيا، وعلى ثقة من الله كانوا في أمر آخرتهم"(١) يقول الشنقيطي: "وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ اعْتِزَالَ الْمُؤْمِنِ قَوْمَهُ الْكُفَّارَ وَمَعْبُودِيهِمْ مِنْ أَسْبَابِ لُطْفِ اللَّهِ بِهِ وَرَحْمَتِهِ"(٢) وقد حفل القرآن بتقرير هذه القاعدة القرآنية ومن ذلك قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا ٱعۡتَزَلَهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ﴾ [مريم:٤٩ وما بعدها] حيث تبع اعتزال إبراهيم عليه السلام للكافرين وما يعتقدونه إفضال من الله وإنعام منه بالذرية الصالحة، وما شابه ذلك مما يرتجى حصوله من الله للمؤمن.

وبعد ... ففي ختام هذا المطلب أقول: إن ما ذكرتُه من أسباب رحمة الله

(١) المحرر الوجيز: ٣/٥٢٤.
(٢) أضواء البيان للشنقيطي: ٣/ ٢١٧.

بعباده من خلال آي الذكر الحكيم هو قليل من كثير من أسباب الرحمة المسطورة في القرآن الكريم، وصحيح السنة النبوية المطهرة، وما أدركته العقول، وهو على سبيل المثال لا الحصر، لكن ما الآثار المترتبة على وجود رحمة الله ﷻ؟... هذا ما يجيب عنه المطلب الثالث والأخير...

المطلب الثالث
آثار رحمة الله بعباده ومظاهرها

ذكرتُ في خواتيم المطلب السابق أن ما تم سرده من أسباب رحمة الله بعباده في القرآن هو من قبيل المثال لا الحصر، كما أن آثار نعم الله[1] على عباده يستحيل حصرها، لقوله تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ١٨﴾ [النحل]، ولتيقننا هذه الحقيقة فإن هذا المطلب سيتضمن أمثلة لآثار رحمة الله بخلقه كله و«أَثَرُ الشَّيْءِ: مَا يَنْشَأُ عَنْهُ مِمَّا يَدُلُّ عَلَيْهِ. فَرَحْمَةُ اللَّهِ دَلَّتْ عَلَيْهَا الْآثَارُ الدَّالَّةُ عَلَى وُجُودِهِ وَتَصَرُّفِهِ بِمَا فِيهِ رَحْمَةٌ لِلْخَلْقِ»[2] من هذه الآثار المستقاة من القرآن الكريم ما يتعلق بالكون المنظور، ومنها ما يتعلق بخليفة الله في أرضه:

أولًا: آثار رحمة الله بنا ومظاهرها من خلال الكون المنظور:

- **الأرض:**

تجلت آثار الرحمن الرحيم على عباده من خلال الأرض بأن جعلها سهلة ممهدة منبسطة، قرارًا وكفاتًا، صالحة للاستقرار والسعي عليها لتحصيل أسباب الرزق،، وَأَطْلَعَ فيها الْفَوَاكِهَ وَالْأَقْوَاتَ وَالْمَرْعَى، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فِرَٰشٗا﴾ [البقرة:٢٢] وقال عز من قائل: ﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ

(١) يقول أبو حيان في البحر تعليقًا على قوله تعالى: ﴿وَلَئِنۡ أَذَقۡنَٰهُ رَحۡمَةٗ مِّنَّا﴾ [فصلت:٥٠] "سَمَّى النِّعْمَةَ رَحْمَةً، إِذْ هِيَ مِنْ آثَارِ رَحْمَةِ اللهِ" ٣١٥/٩.

(٢) التحرير والتنوير: ١٢٣/٢١.

﴿ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾﴾ [الملك]، وهو ﷻ الذي جعل الأرض كفاتًا و ﴿كِفَاتًا﴾: الستر والوعاء الجامع للشيء.. تكفت الأحياء على ظهرها، وتكفت الأموات في بطنها ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا ﴿٢٦﴾﴾ [المرسلات][1].

وهو ﷻ الذي قدَّر في الأرض أقواتها فقال عز من قائل: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾﴾ [فصلت].

وشق فيها البحار لمنافع فصلها ربنا تفصيلًا في كتابه العزيز ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾﴾ [إبراهيم:٣٢] وكما أجرى ﷻ الفلك في البحر لمنافع خلقه، فقد أودع برحمته في البحار أيضًا اللؤلؤ والمرجان ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٢٢﴾﴾ [الرحمن] واللحم الطري ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ۖ وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾﴾ [النحل] إلى آخر منافع البحار والمجاري المائية التى هي من آثار رحمة الله بنا.

- **السماء:**

من آثار رحمة الله بنا أن جعل لنا ﷻ السماء سقفًا محفوظًا: » ﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا﴾ [الأنبياء:٣٢] وكما جعل الله ﷻ الأرض بما فيها وما عليها آية من آيات الرحمة وآثارها، فقد جعل سقفها كذلك، إذ أوجد في السماء غيثًا مغيثًا لعباده الصالحين ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ ۚ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٨﴾﴾ [الشورى] واستودعها شمسًا وقمرًا

(١) المحرر الوجيز: ٤١٩/٥.

منيرًا لولاهما لفسدت الأرض وتعفن الكون ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴿٦١﴾ ﴾ [الفرقان] ونجومًا لنهتدي بها في الظلمات ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾ ﴾ [الأنعام] وقال ﷻ: ﴿ وَعَلَٰمَٰتٍ ۚ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ [النحل].

ومن آثار رحمته ﷻ بكونه وخلقه مما يتعلق بالسماء وما تحتويه تعاقب الليل والنهار ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ ۖ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ ﴾ [القصص] والآيات تنطق أن هذه التقلبات من صميم رحمة الله بخلقه، وهذا يسترعي الانتباه، ويستميل النفوس لتتالي رحمة الله بنا.

- **ومن الكون المنظور الرياح:**

من آثار رحمة الله بنا: الرياح، قال تعالى: ﴿ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾ [الحجر] قال ابن كثير (لواقح) أي: "تلقح السحاب فتدر ماء، وتلقح الشجر فتتفتح عن أوراقها وأكمامها"(١)، وهذا ما نص عليه القرآن من أنه من آثار رحمة الله، وأنه ﷻ يحيي بالمطر الأرض الميتة كما يحيي الموتى من قبورهم، قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ ۖ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ لَمُبْلِسِينَ ﴿٤٩﴾ فَٱنظُرْ

(١) تفسير القرآن العظيم: ٤/٥٣٠.

إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحۡمَتِ ٱللَّهِ كَيۡفَ يُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَآۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿٥٠﴾ [الروم] وقال ﷻ ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ مِنۢ بَعۡدِ مَا قَنَطُواْ وَيَنشُرُ رَحۡمَتَهُۥۚ وَهُوَ ٱلۡوَلِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ﴿٢٨﴾ [الشورى].

والآيات في شأن بيان آثار رحمة الله في الأرض والسماء وما بينهما وما تحت الثرى كثيرة يضيق عنها المقام، والمطلوب أن يتدبر الخلق هذه الآثار الدالة على وحدانية الله ليصلوا إلى التوحيد الخالص وشكر الرحمن الرحيم على هذه النعم وتلك الرحمات لمزيد من عطاء الرحمن الرحيم...

ثانيًا: آثار رحمة الله من خلال الإنسان:

آثار رحمة الله بعباده من خلال خليفة الله في أرضه (الإنسان).

ظهرت آثار رحمة الله بالإنسان من خلال خليفة الله في أرضه الإنسان، ذلك المخلوق المرحوم بداية ونهاية، قال تعالى: ﴿وَقَدۡ خَلَقۡتُكَ مِن قَبۡلُ وَلَمۡ تَكُ شَيۡـٔٗا﴾ [مريم:٩] وقال ﷻ ﴿هَلۡ أَتَىٰ عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ حِينٞ مِّنَ ٱلدَّهۡرِ لَمۡ يَكُن شَيۡـٔٗا مَّذۡكُورًا ﴿١﴾﴾ [الإنسان] لم يكن شيئًا مذكورًا ثم خلقه ﷻ أطورا وختم تلك الأطوار بقوله: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحۡسَنُ ٱلۡخَٰلِقِينَ﴾ [المؤمنون:١٤] وتفضل علينا ربنا بتكريمنا، وتكريمنا في الحقيقة هو عين الرحمة بنا حيث قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ كَرَّمۡنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ وَرَزَقۡنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلۡنَٰهُمۡ عَلَىٰ كَثِيرٖ مِّمَّنۡ خَلَقۡنَا تَفۡضِيلًا ﴿٧٠﴾﴾ [الإسراء] هذا التكريم من أعظم آثار رحمة الله بعباده، ولم يقف هذا التكريم عند نعمة أو أضعافها، بل تزايد إلى العجز عن الإدراك أو الإحصاء لآثار رحمة الله، وهذه بعض آثار رحمة الله على بني آدم:

- **إرسال الرسل وإنزال الكتب:**

من رحمة الله بعباده إرسال الرسل وخاصة خاتمهم، وإنزال الكتب

ومسكها القرآن، يقول ابن القيم: "انْظُرْ إِلَى مَا فِي الْوُجُودِ مِنْ آثَارِ رَحْمَتِهِ الْخَاصَّةِ وَالْعَامَّةِ، فَبِرَحْمَتِهِ أَرْسَلَ إِلَيْنَا رَسُولَهُ ﷺ وَأَنْزَلَ عَلَيْنَا كِتَابَهُ وَعَصَمَنَا مِنَ الْجَهَالَةِ وَهَدَانَا مِنَ الضَّلَالَةِ وَبَصَّرَنَا مِنَ الْعَمَى وَأَرْشَدَنَا مِنَ الْغَيِّ، وَبِرَحْمَتِهِ عَرَّفَنَا مِنْ أَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ وَأَفْعَالِهِ مَا عَرَفْنَا بِهِ أَنَّهُ رَبُّنَا وَمَوْلَانَا"(١).

والإرسال والإنزال من أسباب الرحمة من ناحية ومن آثارها من ناحية أخرى، فبسبب إرسال الرسل وقعت البشارة والنذارة للعباد قال تعالى: ﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ [الأنعام:٤٨] وبذلك أثّر الترغيب كما أثّر الترهيب في حياة الخلق من خلالهم، وأثرت رحمة الله بعباده من خلال إرسال الرسل، يتجلى ذلك فيهم جميعًا صلوات الله عليهم أجمعين وقد وردت آيات كثيرة في هذا الشأن أبرزها ما كان خطابًا لنبينا ﷺ في قوله تعالى ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ [الأنبياء] والإرسال يحتوي أيضًا الرسالة، قال العلامة ابن عاشور إن هذه الآية: "صِيغَتْ بِأَبْلَغِ نَظْمٍ إِذِ اشْتَمَلَتْ هَاتِهِ الْآيَةُ بِوَجَازَةِ أَلْفَاظِهَا عَلَى مدح الرَّسُول عليه السلام ومدح مُرْسِله تَعَالَى وَمَدْح رِسَالَته بِأَنْ كَانَتْ مَظْهَرَ رَحْمَة اللَّه تَعَالَى لِلنَّاسِ كَافَّةً وَبِأَنَّهَا رَحْمَةُ اللَّه تَعَالَى بِخَلْقِه،... وقد فُطِرَ نبينا عَلَى خُلُقِ الرَّحْمَة فِي جَمِيعِ أَحْوَالِ مُعَامَلَتِه الْأُمَّةَ لِتَتَكَوَّنَ مُنَاسَبَةٌ بَيْنَ رُوحِه الزَّكِيَّة وَبَيْنَ مَا يُلْقَى إِلَيْهِ مِنَ الْوَحْيِ بِشَرِيعَتِه الَّتِي هِيَ رَحْمَةٌ حَتَّى يَكُونَ تَلَقِّيه الشَّرِيعَةَ عَنِ انْشِرَاحِ نَفْسٍ أَنْ يَجِدَ مَا يُوحَى بِهِ إِلَيْهِ مُلَائِمًا رَغْبَتَهُ وَخُلُقَهُ.

وَلِهَذَا خَصَّ اللَّهُ مُحَمَّدًا ﷺ فِي هَذِهِ السُّورَةِ بِوَصْفِ الرَّحْمَةِ وَلَمْ يَصِفْ بِهِ غَيْرَهُ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ، وَكَذَلِكَ فِي الْقُرْآنِ كُلِّهِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾ [التوبة] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ﴾ [آل عمران] أَيْ: بِرَحْمَةٍ جَبَلَكَ عَلَيْهَا وَفَطَرَكَ بِهَا

(١) الصواعق المرسلة: ٣٦٨.

فَكُنْتَ لَهُمْ لَيِّنًا... وَأَمَّا الْمَظْهَرُ الثَّانِي مِنْ مَظَاهِرِ كَوْنِهِ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ فَهُوَ مَظْهَرُ تَصَارِيفِ شَرِيعَتِهِ، أَيْ: مَا فِيهَا مِنْ مُقَوِّمَاتِ الرَّحْمَةِ الْعَامَّةِ لِلْخَلْقِ كُلِّهِمْ، لِأَنَّ قَوْلَهُ تَعَالَى: (لِلْعَالَمِينَ) مُتَعَلِّقٌ بِقَوْلِهِ (رَحْمَةً).[1] وفي خطاب نوح عليه السلام لقومه تظهر الرحمة كغاية من غايات إرساله لقومه، قال تعالى: ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا۟ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [الأعراف].

وإنزال الكتاب من أهم آثار رحمة الله بخلقه، حيث بيان الهدىمن الضلال قال تعالى خطابًا لنبيه ﷺ: ﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓا۟ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ [القصص:٨٦] وقال تعالى أيضًا: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾﴾ [العنكبوت:٥١] وقال أيضًا: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الإسراء:٨٢] "وَكَانَ هَذَا الْكِتَابُ الْعَظِيمُ الشَّأْنِ كَالْعَهْدِ مِنْهُ سُبْحَانَهُ لِلْخَلِيقَةِ كُلِّهَا بِالرَّحْمَةِ لَهُمْ وَالْعَفْوِ عَنْهُمْ، وَالْمَغْفِرَةِ وَالتَّجَاوُزِ وَالسِّتْرِ وَالْإِمْهَالِ وَالْحِلْمِ وَالْأَنَاةِ»[2]وفي كتاب موسى عليه السلام يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [القصص]فما على المؤمن إلا أن يؤمن بكل رسل الله وكتبه، ويوقن أن هداية الله للناس ورحمته بهم تكمن في الاتباع لا الابتداع.

- **الزواج:**

من آثار رحمة الله التي عرفناها اتباعًا من خلال الرسل وما أنزل عليهم: الزواج، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَٰجًا وَذُرِّيَّةً﴾ [الرعد:٣٨].

(١) التحرير والتنوير: ١٧/ ١٦٥.
(٢) الصواعق المرسلة: ٣٦٩.

ومن عين رحمة الله بنا أن جعل لنا أزواجا من عين جنسنا، يقول ابن القيم: "وَمِنْ رَحْمَته ﷻ أَنْ خَلَقَ لِلذَّكَرِ أُنْثَى مِنْ جِنْسِه، وَأَلْقَى بَيْنَهُمَا الْمَحَبَّةَ وَالرَّحْمَةَ، لِيَقَعَ بَيْنَهُمَا التَّوَاصُلُ الَّذِي بِهِ دَوَامُ التَّنَاسُلِ، وَانْتِفَاعُ الزَّوْجَيْنِ، وَيُمَتَّعُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا بِصَاحِبِه،[1] قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الروم:٣٨]" وَهِيَ آيَةٌ تَنْطَوِي عَلَى عِدَّةِ آيَاتٍ مِنْهَا: أَنْ جُعِلَ لِلْإِنْسَانِ نَامُوسُ التَّنَاسُلِ، وَأَنْ جُعِلَ تَنَاسُلُهُ بِالتَّزَاوُجِ وَلَمْ يَجْعَلْهُ كَتَنَاسُلِ النَّبَاتِ مِنْ نَفْسِه، وَأَنْ جَعَلَ أَزْوَاجَ الْإِنْسَانِ مِنْ صِنْفِه وَلَمْ يَجْعَلْهَا مِنْ صِنْفٍ آخَرَ؛ لِأَنَّ التَّأَنُّسَ لَا يَحْصُلُ بِصِنْفٍ مُخَالِفٍ، وَأَنْ جَعَلَ فِي ذَلِكَ التَّزَاوُجِ أُنْسًا بَيْنَ الزَّوْجَيْنِ وَلَمْ يَجْعَلْهُ تَزَاوُجًا عَنِيفًا أَوْ مُهْلِكًا كَتَزَاوُجِ الضَّفَادِعِ، وَأَنْ جَعَلَ بَيْنَ كُلِّ زَوْجَيْنِ مَوَدَّةً وَمَحَبَّةً، فَالزَّوْجَانِ يَكُونَانِ مِنْ قَبْلِ التزاوج مُتَجَاهِلَيْنِ فَيُصْبِحَانِ بعد التزاوج مُتَحَابَّيْنِ، وَأَنْ جَعَلَ بَيْنَهُمَا رَحْمَةً فَهُمَا قَبْلَ التَّزَاوُجِ لَا عَاطِفَةَ بَينهمَا فيصبحان بعد التزاوج متحابين، وَأَن جعل بَينهمَا رَحْمَة فهما قبل التزاوج لَا عاطفة بَيْنَهُمَا فَيُصْبِحَانِ بَعْدَهُ مُتَرَاحِمَيْنِ كَرَحْمَةِ الْأُبُوَّةِ وَالْأُمُومَةِ، وَلِأَجَلِّ مَا يَنْطَوِي عَلَيْهِ هَذَا الدَّلِيلُ وَيَتْبَعُهُ مِنَ النِّعَمِ وَالدَّلَائِلِ جُعِلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ آيَاتٍ عِدَّةً فِي قَوْلِه إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ.[2]

- **الذرية:**

من آثار رحمة الله بعباده هبته إياهم الذرية، تلك الذرية التي هي زينة الحياة الدنيا، قال تعالى: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [الكهف:٤٦] إذ الحياة بدون ذرية حياة تصيب أصحابها بالملل، ومن هنا كان دعاء عباد الرحمن: ﴿رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ [الفرقان:٧٤] ومن عباد الرحمن زكريا عليه السلام الذي طلب الذرية قائلا: ﴿رَبِّ

(١) الصواعق المرسلة: ٣٦٩.
(٢) التحرير والتنوير: ٢١/٧١.

﴿لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ﴾ [الأنبياء:٨٩] وكانت الاستجابة ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [الأنبياء].

- **حفظ الصالحين وذريتهم:**

من آثار رحمة الله على عباده ﷻ أنه يتولى الصالحين بالحفظ والرعاية، حيث قال تعالى: ﴿إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ ۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ ﴿١٩٦﴾﴾ [الأعراف] ومن الأمثلة البارزة في القرآن الكريم المبرهنة على ذلك رعاية الله وحفظه للصالحين ولذرياتهم، قال تعالى: ﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾﴾ [الكهف] والآية تبين كيف حفظ الله ليتيمين مالهما، من خلال نبي هو موسى عليه السلام وعبد من عباد الله الصالحين هو الخضر، وكما تثبت الآيات سياقا أن ذلك ما فعله الخضر من تلقاء نفسه، بل برحمة من الله ﷻ وبأمره ﷻ، وفي هذا من الدروس والعبر ما فيه لمن ألقى السمع وهو شهيد.

- **احتياج الخلق إلى بعضهم البعض:**

من آثار رحمة الله بالعباد افقارهم إليه ﷻ ليمدهم برحماته، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ ۖ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿١٥﴾﴾ [فاطر] وإفقاره ﷻ لعباده عين رحمته بهم، حيث يمدهم بقدر فقرهم إليه ﷻ، وبما أنهم الفقراء بالألف والام، فإن الله هو ﴿الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ أيضًا بالألف واللام "الْغَنِيُّ: النَّافِعُ بِغِنَاهُ خَلْقَهُ، الْجَوَادُ الْمُنْعِمُ عَلَيْهِمْ، الْمُسْتَحِقُّ بِإِنْعَامِهِ عَلَيْهِمْ أَنْ يَحْمَدُوهُ"[1] الذي يمدهم بقدر احتياجهم إليه ﷻ.

(١) القرطبي: ٣٧٣/١٤

كما أن من آثار رحمته المستبطنة احتياج الخلق إلى بعضهم البعض لقوله تعالى: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [الزخرف] "لِيَسْتَخْدِمَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا فَيُسَخِّرُ الْأَغْنِيَاءُ بِأَمْوَالِهِمُ الْأُجَرَاءَ الْفُقَرَاءَ بِالْعَمَلِ، فَيَكُونُ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ سَبَبَ الْمَعَاشِ، هَذَا بِمَالِهِ، وَهَذَا بِأَعْمَالِهِ، فَيَلْتَئِمُ قِوَامُ أَمْرِ الْعَالَمِ"(١) يقول ابن القيم: "وَمِنْ رَحْمَتِهِ أَحْوَجَ الْخَلْقَ بَعْضَهُمْ إِلَى بَعْضٍ لِتَتِمَّ مَصَالِحُهُمْ، وَلَوْ أَغْنَى بَعْضَهُمْ عَنْ بَعْضٍ لَتَعَطَّلَتْ مَصَالِحُهُمْ وَانْحَلَّ نِظَامُهَا، وَكَانَ مِنْ تَمَامِ رَحْمَتِهِ بِهِمْ أَنْ جَعَلَ فِيهِمُ الْغَنِيَّ وَالْفَقِيرَ، وَالْعَزِيزَ وَالذَّلِيلَ، وَالْعَاجِزَ وَالْقَادِرَ، وَالرَّاعِيَ وَالْمَرْعِيَّ، ثُمَّ أَفْقَرَ الْجَمِيعَ إِلَيْهِ، ثُمَّ عَمَّ الْجَمِيعَ بِرَحْمَتِهِ"(٢).

- **الوقاية من الشيطان وكيده.**

من آثار رحمة الله بعباده الصالحين وقايتهم من الشيطان ونزغه، يقول الحق ﷻ: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء:٨٣] أي: إلا قليلًا من المخاطبين بالآية الكريمة، وكل من يصلح له هذا الخطاب من الأناسي، وهذا الجزء من الآية الكريمة يمثل امْتِنَانًا بِإِرْشَادِ المؤمنين إِلَى أَنْوَاعِ الْمَصَالِحِ، وَالتَّحْذِيرِ مِنَ الْمَكَائِدِ وَمِنْ حَبَائِلِ الشَّيْطَانِ وَأَنْصَارِهِ،...(٣) وقد تكرر التحذير من الشيطان ووساوسه في آيات كثيرة كلها تفيض رحمة بنا ومن ذلك قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢١﴾﴾ [النور] فأتباع الشيطان هم المحرومون من فضل الله ورحمته، إذ

(١) معالم التنزيل: ٧/٢١٢.
(٢) الصواعق المرسلة: ٣٦٩.
(٣) التحرير والتنوير: ٥/ ١٤٢.

فقدوا عصمة الله لعنادهم وركوبهم أهواءهم، وإيثارهم رغبات أنفسهم على فطامها عما حرم الله، وجعلهم الخيرة لأنفسهم في سلوك مراداتهم من السبل دون سبيل الله، أما القليل الرافضون لهمزات الشيطان على اختلاف أنواعها، والمتقبلون هداية الله، والمؤثرون لمرضاته وسلوك سبيله على مرادات أنفسهم وشهواتها، فهم الحائزون على فضله بعصمتهم من أي: شيطان، ورحمتهم بتثبيت قلوبهم، وهم الذين يَأَّسَ الله منهم الشيطان وحفظهم بقوله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ [الحجر:٤٢] وهم من استثنوا بإلا ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾﴾ [الحجر] وما حصل ذلك إلا بعناية الله ورحمته بعباده الصالحين[1].

- **قبول توبة التائب واستغفار المستغفر:**

من آثار رحمة الله بعباده قبوله ﷻ توبة التائب واستغفار المستغفر، قال تعالى: ﴿فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٣٩﴾﴾ [المائدة] وقال ﷻ ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الأنعام:٥٤] وقال أيضًا ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة:١١٧] وقال جل وعلا: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [التوبة:١١٨] وقال أيضًا ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٧٠﴾﴾ [الفرقان] ولعلنا نلحظ تذييل كل هذه الآيات التي تتحدث عن التائبين بالرحمة كذا آيات الاستغفار ومنها قوله تعالى: ﴿وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿١٠٦﴾﴾ [النساء] وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا﴾ [النساء:٦٤] نلحظ ذلك لمزيد من ترغيب

(١) صفوة الآثار بتصرف: ٦/١١٤.

العباد في التوبة والاستغفار حتى تشملهم رحمات الله وينعمون بها، ولا غرابة فإن الله ﷻ تفضل بكتابة الرحمة على نفسه: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام:٥٤].

- **وعده ﷻ للمجاهدين والمهاجرين والصابرين بالرحمة:**

من رحمة الله وبالغ أثرها بالعباد وعده المجاهدين بالرحمة ليبيعوا أرواحهم في سبيل الله رب العالمين، قال تعالى: ﴿فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾ دَرَجَٰتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٩٦﴾﴾ [النساء:٩٥-٩٦] أي: «هذا الثواب الجزيل منازل عالية في الجنات من الله ﷻ لخاصة عباده المجاهدين في سبيله، ومغفرة لذنوبهم ورحمة واسعة ينعمون فيها. وكان الله غفورًا لمن تاب إليه وأناب، رحيمًا بأهل طاعته، المجاهدين في سبيله».(١) وفي المجاهدين الصابرين قال تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا فُتِنُوا۟ ثُمَّ جَٰهَدُوا۟ وَصَبَرُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٠﴾﴾ [النحل] مغفرة قرنها الله ﷻ بالرحمة وهذا أعظم ما يتمناه العبد.

- **إباحة المحظور لرفع الضرر:**

من آثار رحمة الله بعباده إباحة المحظور لرفع الضرر مع عدم المؤاخذة، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٧٣﴾﴾ [البقرة:١٧٣] حوت الآية الكريمة محرمات أباحها ﷻ لعباده رحمة بهم وقت الضرورة من ذلك: الميتة وهي التي لم تذبح بطريقة شرعية، والدم المسفوح، ولحم الخنزير، والذبائح التي ذبحت لغير الله.. فمن ألجأته الضرورة إلى

(١) التفسير الميسر: ٩٤.

أكل شيء منها، غير ظالم في أكله فوق حاجته، ولا متجاوز حدود الله فيما أُبيح له، فلا ذنب عليه في ذلك. وهذا من باب المغفرة والرحمة، وقال ﷻ: ﴿فَمَنِ ٱضۡطُرَّ فِي مَخۡمَصَةٍ غَيۡرَ مُتَجَانِفٖ لِّإِثۡمٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [المائدة:٣] وقال ﷻ في ذلك أيضًا: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٖ يَطۡعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيۡتَةً أَوۡ دَمٗا مَّسۡفُوحًا أَوۡ لَحۡمَ خِنزِيرٖ فَإِنَّهُۥ رِجۡسٌ أَوۡ فِسۡقًا أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦۚ فَمَنِ ٱضۡطُرَّ غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ١٤٥﴾ [الأنعام] وتذييل الآية بقوله ﷻ: "إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ" تَذْيِيلٌ قُصِدَ بِهِ الامْتِنَانُ، أَيْ: إِنَّ اللَّهَ مَوْصُوفٌ بِهَذَيْنِ الْوَصْفَيْنِ فَلَا جَرَمَ أَنْ يَغْفِرَ لِلْمُضْطَرِّ أَكْلَ الْمَيْتَةِ؛ لِأَنَّهُ رَحِيمٌ بِالنَّاسِ، فَالْمَغْفِرَةُ هُنَا بِمَعْنَى التَّجَاوُزِ عَمَّا تُمْكِنُ الْمُؤَاخَذَةُ عَلَيْهِ لَا بِمَعْنَى تَجَاوُزِ الذَّنْبِ، وَنَحْوِه. ولا يخفى أن رَفْعَ الْإِثْمِ عَنِ الْمُضْطَرِّ حُكْمٌ يُنَاسِبُ مَنِ اتَّصَفَ بالمغفرة وَالرَّحْمَةِ.(١)

- **إنجاء الصالحين وإعانتهم:**

من آثار رحمة الله بعباده انجاؤه الصالحين وإعانته لهم، ونصرهم على ما يعتريهم من ملمات الحياة، وقد حفل القرآن الكريم بأمثلة يضيق عنها المقام، لكن ما لا يدرك لا يترك؛ لذا سأكتفي هنا بنماذج مختصرة كالعناوين على ما يماثلها:

- فنبي الله هود عليه السلام نجاه الله والذين معه من الريح الشديدة التي أهلكت الكافرين من قومه ودمرتهم تدميرًا، وفي ذلك يقول الله تعالى ﴿فَأَنجَيۡنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَقَطَعۡنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۖ وَمَا كَانُواْ مُؤۡمِنِينَ ٧٢﴾ [الأعراف] وفي موضع آخر قال ﷻ: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا هُودٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَنَجَّيۡنَٰهُم مِّنۡ عَذَابٍ غَلِيظٖ ٥٨﴾ [هود].
- وعن نجاة نبي الله صالح عليه السلام ومن معه برحمة الله قال تعالى: ﴿فَلَمَّا

(١) التحرير والتنوير: ٢/ ١٢١.

جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا صَٰلِحٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَمِنۡ خِزۡيِ يَوۡمِئِذٍۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ [هود] ونجاته كانت من الصيحة التي أهلكت كفار قومه أو من ذلهم وفضيحتهم يوم القيامة[1].

- وعن نجاة شعيب عليه السلام ومن معه من المؤمنين قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا شُعَيۡبٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمۡ جَٰثِمِينَ ﴿٩٤﴾ [هود] صيحة من السماء أخمدتهم، فأهلكتهم بكفرهم بربهم. وقيل: إن جبريل عليه السلام، صاح بهم صَيحةً أخرجت أرواحهم من أجسامهم ﴿فَأَصۡبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمۡ جَٰثِمِينَ﴾ على ركبهم، وصرعى بأفنيتهم.[2] وقد جاءت الرحمة بصيغة التنكير في جميع المواضع التي وردت فيها؛ للتعظيم، ووصفها بأنها من الله للدلالة على كمالها[3].

- وعن رحمة الله بعبده ونبيه أيوب عليه السلام حيث كشف الله عنه ضره الذي أصابه قال تعالى: ﴿وَأَيُّوبَ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ فَكَشَفۡنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرّٖۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ أَهۡلَهُۥ وَمِثۡلَهُم مَّعَهُمۡ رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِنَا وَذِكۡرَىٰ لِلۡعَٰبِدِينَ ﴿٨٤﴾ [الأنبياء] وكما أن كشف الضر عن أيوب عليه السلام رحمة من الله به، فكذلك هو ذكرى للعابدين؛ لنعتبر ونعلم أن رحمة الله قريب من المحسنين، وأن مع العسر يسرًا، وأن الإنسان لا يقنط من الفرج بعد الشدة[4].

- وممن نجاهم الله برحمته من مكر النساء، يوسف عليه السلام قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَتَبَوَّأُ مِنۡهَا حَيۡثُ يَشَآءُۚ نُصِيبُ بِرَحۡمَتِنَا مَن نَّشَآءُۖ وَلَا نُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٥٦﴾ [يوسف].

(١) أنوار التنزيل للبيضاوي: ٣/١٤٠.
(٢) جامع البيان للطبري: ١٥/٤٦٤.
(٣) التحرير والتنوير: ٨/٢١٤.
(٤) تفسير المراغي: ٢٣ /١٢٦.

- كذا خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام بانت آثار رحمة الله عليه وبه من خلال مسيرته مع قومه وأمر النار أن تكون عليه بردًا وسلامًا، قال تعالى: ﴿ قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾ وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ ﴿٧٢﴾ ﴾ [الأنبياء] ونبي الله يونس عليه السلام ممن شملتهم آثار رحمة الله لكونه من الصالحين، حيث نجاه الله من ظلمات كثيرة أحاطت به في بطن الحوت، ورعاه الله عندما نبذه الحوت بالعراء وهو سقيم، قال تعالى: ﴿ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُنجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ ﴾ [الأنبياء] وقال أيضًا ﴿ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾ فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾ فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾ فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ﴿١٤٦﴾ وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔامَنُوا۟ فَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١٤٨﴾ ﴾ [الصافات] وكذا زكريا عليه السلام نالته رحمة الله سبحانه وتعالى عندما طلب من ربه الذرية الصالحة فأصلح له سبحانه وتعالى زوجه ووهبه يحيي عليه السلام قال تعالى: ﴿ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ﴿٢﴾ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّى وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴿٤﴾ وَإِنِّى خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِىَ مِن وَرَآءِى وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾ يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ۖ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴿٦﴾ يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ﴿٧﴾ ﴾ [مريم].

- وختام مسك الصالحين نبينا ﷺ الذي نصره ربه وأيده واظفره على عدوه، قال تعالى: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾ [التوبة] وأهل الكهف الذين اختاروا ربهم فنشر لهم من رحمته وهيأ لهم من أمرهم رشدًا، قال تعالى: ﴿إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١٠﴾ فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓا۟ أَمَدًا ﴿١٢﴾ نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا۟ فَقَالُوا۟ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا ۖ لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾﴾ [الكهف] والمواقف التى تبين آثار رحمة الله على الصالحين أكثر من أن تحصى لكن المقام مقام اختصار وإيجاز.

بقي لنا ما يتعلق بآثار رحمة الله في الآخرة بعد أن سردنا من خلال الآيات لفظًا ومعنى ما تيسر من آثار رحمة الله بالإنسان في الدنيا.

من آثار رحمة الله بعباده في الآخرة:

وعد المولى ﷻ عبادَه الصالحين برحمة ينعمون بها في يوم ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ [الشعراء] من هذه الرحمات:

- **تبييض وجوه الطائعين:**

قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ

أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١٠٧﴾ [آل عمران] وتبييض الوجه علامة من علامات الصلاح يوم القيامة إذ يتبع ذلك تكريم صاحب الوجه وتشريف منزلته بتخليده في دائم النعيم(١).

- **صرف العذاب عن المتقين:**

قال تعالى: ﴿ قُلْ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُۥ ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾ ﴾ [الأنعام] وقد بينت آية أخرى أن مجرد الزحزحة عن النار تثمر الفوز، قال تعالى: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ﴾ [آل عمران:١٨٥].

- **دخول الجنة مع عظم الدرجة:**

قال تعالى: ﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨﴾ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٩﴾ ﴾ [غافر] وقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِهِۦ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِى رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿١٧٥﴾ ﴾ [النساء] وقوله تعالى: ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٠﴾ ﴾ [الجاثية] وقال تعالى: ﴿ دَرَجَٰتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٩٦﴾ ﴾ [النساء].

هذا ما تيسر ذكره من آثار رحمة الله بالكون وبخليفة الله في الأرض الإنسان الذي رحمه ﷻ في الدنيا وفي الآخرة، فاللهم يا رحمن يا رحيم ارحمنا برحمة منك إنك على كل شيء قدير وبالإجابة جدير.. والله ولي التوفيق.

(١) جامع البيان: ٧/ ٩٦

الخاتمة

بعد رحلة تفسيرية مع كتاب الله ﷻ ومن خلال موضوع «رحمة الله ﷻ بعباده أسبابها وآثارها في ضوء القرآن الكريم» أوجز أهم نقاط هذا الموضوع فأقول ومن الله العون:

- قمت بتعريف الرحمة مفرقًا بين الرحمة في حق الله وحق الآدميين.
- ذكرت أسباب رحمة الله بعباده في القرآن الكريم من خلال استقراء الآيات وهي:

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وطاعة الله ورسوله، وتقوى الله في السر والعلن والاعتصام بالله ﷻ والاستماع للقرآن والانصات له، وقيام الليل، وإصلاح ذات البين، والصبر لحكم الله ﷻ والعفو عن المقدرة والهجرة أو الجهاد في سبيل الله ﷻ، والموت أو القتل في سبيل الله ﷻ، واعتزال الكافرين وما يعبدونه.

- أتبعت أسباب الرحمة بآثارها في الكون المنظور الممثل في الأرض والسماء والرياح.

- ثم شرعت في بيان آثار رحمة الله التي تخص الإنسان في الدنيا وهي:

إرسال الرسل وإنزال الكتب، والزواج والذرية، وحفظ الصالحين وذريتهم، واحتياج الخلق إلى بعضهم البعض، والوقاية من الشيطان وكيده وقبول توبة التائب واستغفار المستغفر ووعده ﷻ للمجاهدين والمهاجرين والصابرين بالرحمة، وإباحة المحظور لرفع الضرر وإنجاء الصالحين وإعانتهم.

- ختمت رحلتي العلمية مع هذا البحث الذي أرجو له القبول والنفع بذكر آثار رحمة الله بعباده في الآخرة فذكرت منها: تبييض وجوه الطائعين صرف العذاب عن المتقين دخول الجنة مع عظم الدرجة. اللهم ارزقنا إياها بعد عمر مديد في طاعة وصلاح.

التوصيات:

أوصي بترجمة الأعمال المتصلة بموضوع الرحمة، ومنها هذا العمل وطبعها وتوزيعها لبيان جوهر ديننا الحنيف، وكشف كل زيف يعكر صفوه.

فهرس المصادر والمراجع

- **التفسير:**

١. إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، لأبي السعود، دار إحياء التراث العربي – بيروت.
٢. أضواء البيان، للشنقيطي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت – لبنان ١٤١٥هـ- ١٩٩٥م.
٣. البحر المحيط، لأبي حيان، دار الكتب العلمية – لبنان/ بيروت – ١٤٢٢هـ – ٢٠٠١م الأولى.
٤. التحرير والتنوير، لابن عاشور، دار سحنون تونس.
٥. التفسير القرآني للقرآن، لـ عبدالكريم الخطيب، دار الفكر العربي – القاهرة.
٦. التفسير الميسر، لنخبة من العلماء، طبع مجمع الملك فهد بالمدينة المنورة السعودية.
٧. التفسير الوسيط، لطنطاوي، طبع مجمع البحوث بالأزهر الشريف ١٩٨٠م.
٨. الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي، دار قرطبة الأولى .
٩. أنوار التنزيل، للبيضاوي، بتحقيق: محمد عبدالرحمن المرعشلي، دار إحياء التراث العربي – بيروت الأولى – ١٤١٨هـ.
١٠. تفسير القرآن الحكيم المشتهر بتفسير المنار، لـ محمد رشيد رضا، الثانية، دار المنار، القاهرة: ١٣٣٦هـ / ١٩٤٧م.
١١. تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، تحقيق: محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، منشورات محمد علي بيضون – بيروت الأولى- ١٤١٩هـ.
١٢. تفسير المراغي، شركة مكتبة ومطبعة، مصطفى البابى الحلبي وأولاده بمصر، الأولى، ١٣٦٥هـ – ١٩٤٦م.
١٣. حاشية الجمل على الجلالين، طبعة الحلبي الثالثة ٢٠٠١م.

١٤. تيسير الكريم الرحمن، للسعدي، ت: عبدالرحمن اللويحق، مؤسسة الرسالة الأولى ١٤٢٠هـ -٢٠٠٠م.
١٥. جامع البيان للطبري، تحقيق: التركي، دار هجر الأولى، ١٤٢٢هـ-٢٠٠١م.
١٦. زهرة التفاسير، لأبي زهرة، دار الفكر العربي د ت.
١٧. صفوة الآثار والمفاهيم من تفسير القرآن العظيم، عبدالرحمن بن محمد الدوسري الأولى دار المغني الرياض ١٤٢٥هـ.
١٨. المحرر الوجيز، لابن عطية، محقق: عبدالسلام عبدالشافي محمد، دار الكتب العلمية - بيروت الأولى - ١٤٢٢هـ.
١٩. معالم التنزيل، دار السلام للنشر والتوزيع - الرياض الطبعة: الأولى، ١٤١٦هـ.
٢٠. مفاتيح الغيب، دار إحياء التراث العربي - بيروت الثالثة - ١٤٢٠هـ.

- **من كتب العقيدة:**

١. الصواعق المرسلة، لابن قيم الجوزية، تحقيق: علي بن محمد الدخيل الله، دار العاصمة، الرياض، الأولى، ١٤٠٨هـ.

- **اللغة العربية:**

١. لسان العرب لابن منظور دار صادر - بيروت الثالثة - ١٤١٤هـ.
٢. المفردات للراغب الأصفهاني، تحقيق محمد سيد كيلاني، دار المعرفة، لبنان د ت.
٣. مقاييس اللغة، لابن فارس، تحقيق: عبدالسلام محمد هارون، دار الفكر ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

رحمة النبي ﷺ بأعدائه

دراسة قرآنية

إعداد:
أ. عبير مشبب محمد آل جعال الأحمري
محاضرة – جامعة تبوك
قسم الدراسات الإسلامية



المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام الأتّمان الأكملان على خير خلقه نبينا محمد، وعلى آله وصحبه التابعين له بإحسان إلى يوم الدين.

أمّا بعد: فإن نظرة الإسلام إلى البشرية ملؤها الرحمة، والشفقة، ولا يمكن أن تكون غير هذا؛ لأن الدين الإسلامي آخر الأديان التي شرعها الله ﷻ، وأمر الناس كافة بالدخول فيه، وإضافة إلى ذلك كله، فإن الله قد بعث رسول الإسلام رحمة للإنسانية ورحمة للعالمين فقال: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾ [الأنبياء]، ولذا فقد رأيت أن أقدم لكم هذا البحث، تحت عنوان: "رحمة النبي ﷺ بأعدائه دراسة قرآنية".

أولًا: أهداف البحث:

١. التأكيد على أن الإسلام هو دين الرحمة، في زمان كثرت فيه الافتراءات على الإسلام.

٢. إثبات فطرية الرحمة في الرسول عليه السلام، وتأصلها في نفسه.

٣. إبراز صور رحمة النبي ﷺ بأعدائه في القرآن الكريم.

٤. بيان الآيات الدالة على شفقة النبي ﷺ بأعدائه وعفوه عنهم، وشرح الآيات الدالة على حزنه ﷺ على إصرار أعدائه على الكفر والشرك.

٥. بيان أن موضوع الرحمة من أهم الموضوعات، التي ينبغي أن يُعنى بالبحث فيها، ونشرها في هذا الزمان.

ثانيًا: مشكلة البحث:

اُتهم الإسلام زورًا وكذبًا بأنه دين العنف والشدة والقتل، وخفي على بعض المسلمين جوانب الرحمة فيه وفي نبيه محمد ﷺ وجاء هذا البحث ليبين رحمة النبي ﷺ بأعدائه.

ثالثًا: الدراسات السابقة في الموضوع:

لم أجد بعد البحث من كتب في الموضوع سوى بعض الأبحاث المطبوعة المتعلقة بمؤتمر نبي الرحمة، التي تطرقت بصورة مخالفة لما ورد في البحث، والمتأمل في عناوين هذه الأبحاث ومحتوياتها يلحظ الاختلاف بين مضمون تلك الأبحاث، ومضمون هذا البحث، ومن هذه الأبحاث:

١. رحمة النبي ﷺ بأعدائه، إعداد د: فوزى بن درامن.

٢. معالم الرحمة في تعامل النبي ﷺ مع المبتدئ والجاهل والعاصي، إعداد د: سليمان الشجراوي.

أما البحث الأول: فمباحثه تختلف عن موضوع البحث، إلا في مبحث واحد، وهو الآيات التي أشارت إلى رحمته ﷺ بأعدائه، وهذا المبحث كذلك اختلف معه من ناحية المنهج الذي سار عليه الباحث في بحثه. وأما البحث الثاني فمباحثه أيضًا تختلف عن موضوع البحث، وقد أبرز البحث من جانب السيرة النبوية.

رابعًا: منهج البحث:

لقد اعتمدت في كتابة هذا البحث المنهج الاستقرائي التحليلي. ويتلخص فيما يلي:

١. جمعت الآيات القرآنية التي لها علاقة بعناوين هذا البحث.

٢. اقتصرتُ على الأحاديث الصحيحة، وقد حرصتُ على اختيار ما ورد في الصحيحين أو أحدهما.

٣. حرصت على عزو الأقوال لأصحابها، وعزو ذلك إلى مصادره، وما تصرفت فيه أشرت إلى ذلك بعبارة: (تصرف).

خامسًا: خطة البحث:

تشتمل خطة البحث على مقدمةٍ، وتمهيد، وثلاثة مباحث، وخاتمة على التفصيل التالي:

المقدمة: وفيها أهداف الموضوع، ومشكلة البحث، ومنهجه وخطته.

التمهيد: ويتضمن مفهوم الرحمة ونظائرها في القرآن الكريم.

المبحث الأول: حرص النبي ﷺ على هداية أعدائه، وعفوه وصفحه عنهم، وفيه مطلبان:

المطلب الأول: حرص النبي ﷺ، على هداية أعدائه.

المطلب الثاني: عفو النبي ﷺ، وصفحه عن أعدائه.

المبحث الثاني: تحسر النبي ﷺ، وأساه وحزنه على عدم هداية الكفار، وفيه مطلبان:

المطلب الأول: تحسر النبي ﷺ، وأساه على عدم هداية الكفار.

المطلب الثاني: حزن النبي ﷺ، على عدم هداية الكفار.

المبحث الثالث: وصف النبي ﷺ بأنه رحمة للمنافقين، واستغفاره لهم. وفيه مطلبان:

المطلب الأول: رحمة النبي ﷺ بالمنافقين.

المطلب الثاني: استغفار النبي ﷺ للمنافقين.

الخاتمة: وفيها أبرز النتائج والتوصيات، التي توصلت إليها من خلال هذا البحث.

ويلي ذلك الفهارسُ العامة.

وختامًا: فالشكر كله لله ﷻ على ما وفق ويسر لاختياري هذا البحث وإتمامه، فما كان فيه من صواب فمن الله وحده، وما كان فيه من خطأ فمن نفسي والشيطان، والله أعلم وأجل.

التمهيد
مفهوم الرحمة، ونظائرها في القرآن الكريم

معنى الرَّحْمَة لغةً:

الرحمة: من رَحِمَهُ يرحمه، رحمةً ومرحمةً، إذا رقَّ له، وتعطف عليه، وهي مأخوذة من مادة (رَحِمَ)، التي تدل في الأصل على (الرِّقَّة والعطْف والرَّأفة)[1].

جاء في لسان العرب الرحمة بمعنى (المغفرة)[2]، وحكى ابن سيده: "أصل الرّحمة النّعمة" من قوله ﷻ: ﴿قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي﴾ [الكهف:٩٨]، كما أن حقيقة الرحمة (الإنعام على المحتاج)[3].

معنى الرَّحْمَة اصطلاحًا:

عرّف أهل العلم الرحمة في الاصطلاح بمعانٍ، عدة مأخوذة من دلالة المعنى اللغوي للكلمة، ومن هذه التعريفات:

قال الراغب الأصفهاني: "الرحمة رقة تقتضي الإحسان إلى المرحوم، وقد تستعمل تارة في الرقة المجردة، وتارة في الإحسان المجرد عن الرقة، نحو رحم الله فلانًا"[4]؛ ولذا فإن الرحمة ليست عبارة عن انفعالات

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس مادة: رحم، (٢/ ٤٩٨).
(٢) انظر: لسان العرب، لابن منظور مادة: رحم، (٥/ ١٧٣).
(٣) انظر: المخصص، لابن سيده (٥/ ٢٢٥).
(٤) انظر: المفردات في غريب القرآن، الراغب الأصفهاني، مادة: رحم (١/٢٥٣).

وأحاسيس عاطفية داخل النفس فحسب، بل إن لها آثارًا واضحة للعيان في العلاقة بين الراحم والمرحوم. وقيل: "الرحمة حالة وجدانية تعرض غالبًا لمن به رقة القلب، وتكون مبدأ للانعطاف النفساني الذي هو مبدأ الإحسان"(١).

وحدّها الطاهر بن عاشور، فقال: الرحمة: "اسم مصدر لصفة الراحم، وهي من صفات الإنسان، فهي رقة في النفس تبعث على سوق الخير لمن تتعدى إليه". ويعرفها السعدي بأنها: "رقة القلب وصفوه ورحمته للخلق، وزوال قسوته وغلظته، وهي من أخلاق صفوة الخلق"(٢). وفيما تقدم من معاني الرحمة، قال ابن القيم: "مما ينبغي أن يُعلم: أن الرحمة صفة تقتضي إيصال المنافع والمصالح إلى العبد، وإن كرهتها نفسه، وشقَّت عليها، فهذه هي الرحمة الحقيقية، فأرحم الناس بك من أوصل إليك مصالحك، ودفع المضار عنك، ولو شق عليك في ذلك"(٣). وعلى الجملة، فإن لفظ (الرحمة) من الألفاظ العامة والشاملة، التي يدخل في معناها كل خير ونفع يعود على الإنسان في دنياه وآخرته.

نظائر الرَّحْمَة في القرآن:

هناك نظائر لكلمة الرحمة، وردت في القرآن الكريم، يدور معناها حول معنى الرحمة، وهي:

١. الرأفة: عبَّر ابن فارس عن أصل هذه الكلمة، فقال: "الراء والهمزة والفاء كلمةٌ واحدة تدلُّ على رِقّة ورحمة، وهي الرَّأفة»(٤)، وقد

(١) انظر: الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية، الكفوي (ص٤٧١). الرحمة في القرآن الكريم، موسى عسيري (ص٢١-٢٢).
(٢) انظر: فتح الرحيم الملك العلام في علم العقائد والتوحيد والأخلاق والأحكام المستنبطة من القرآن، عبدالرحمن السعدي: (ص: ١٤٤)، الرحمة في القرآن الكريم، موسى عسيري (٢١-٢٢).
(٣) انظر: إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان، ابن قيم الجوزية، (٢/٩٠١).
(٤) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس، مادة: رأف (٢/٤٧١).

ذهب المفسرون إلى أن الرَّأفة أخص من الرحمة، ومما ذكروه على هذا المعنى قولهم: الرَّأفة: أشد الرحمة[١]، أو الرَّأفة: أعلى معاني الرحمة[٢]، أو الرَّأفة: ألطف الرحمة وأرقها[٣].

قال الزجاج: "الرَّأفة هي المنزلة الثانية، يقال: فلان رحيم، فإذا اشتدت رحمته فهو رءوف"[٤]. وقد وردت هذه اللفظة مفردة كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ﴾ [النور:٢]. ومقترنة بلفظ الرحمة كقوله تعالى: ﴿رَأْفَةً وَرَحْمَةً﴾ [الحديد:٢٧].

٢. الحَنَان: عرّف ابن فارس هذه الكلمة فقال: "الحاء والنون أصلٌ واحد، وهو الإشفاق والرّقّة...، والحَنَانُ: الرحمة». قال الله تعالى: ﴿وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا﴾ [مريم:١٣]. وتقول: حَنَانَك أي رحمَتَك... وحنانَيْكَ، أي حنانًا بعْدَ حنان، ورحمةً بعدَ رحمة»[٥]. قال ابن عطية: "والحنان الرحمة والشفقة والمحبة قاله جماعة المفسرين"[٦] قال ابن الأنباري: "لم يختلف اللغويون أن الحنان الرحمة"[٧]، وقد وردت هذه اللفظة في موضع واحد من القرآن الكريم في حق نبي الله يحيى عليه السلام، قال تعالى: ﴿وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةً وَكَانَ تَقِيًّا﴾ [مريم:١٣].

٢. اللين: (اللام والياء والنون كلمةٌ واحدة، وهي اللِّين: ضدُّ الخُشُونَة...

(١) انظر: مجاز القرآن، معمر البصري، (٥٩/١)، تفسير القرآن، السمعاني (١٥٠/١)، معالم التنزيل، البغوي (١٦١/١).
(٢) انظر: جامع البيان عن تأويل آي القرآن، للطبري (١٠٤/١)، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ابن عطية (٢٢١/١).
(٣) انظر: مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، ابن قيم الجوزية (٤٢١/١)، تفسير القرآن الكريم من سورة الحجرات وحتى الحديد، ابن عثيمين (ص: ٤٢٨).
(٤) انظر: تفسير أسماء الله الحسنى، براهيم الزجاج، (ص: ٦٢).
(٥) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس، مادة: حَنَّ (٢٢٥/٢، ٢٢٤).
(٦) انظر: المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ابن عطية (٤/ ٧)، الوسيط في تفسير القرآن المجيد، علي الواحدي (١٧٨/٣)،
(٧) نقله عنه ابن الجوزي في زاد المسير في علم التفسير، جمال الدين ابن الجوزي (٢١٤/٥).

وفلانٌ مَلْيَنَة، أي ليِّن الجانب»[1]. وقال الراغب الأصفهاني: "اللين ضد الخشونة، ويستعمل ذلك في الأجسام، ثم يستعار للخلق وغيره من المعاني"[2]. وقد وردت هذه اللفظة في موضعين من القرآن الكريم: الأول في صفة خير الخلق ﷺ وهو قوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ ۚ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [الزمر:٢٢]، والثاني في صفات المؤمنين عند سماعهم لكلام ربهم، قال تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الكهف:٩٨].

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس، مادة: لين (٥/٢٢٥).
(٢) انظر: المفردات في غريب القرآن، الراغب الأصفهاني مادة لين (١/٥٨٩).

المبحث الأول
حرص النبي ﷺ على هداية أعدائه، وعفوه وصفحه عنهم

لقد كان النبي ﷺ شديد الحرص على هداية أعدائه رحيمًا بهم، بل كان يدعو لهم بالهداية، ولا يدعو عليهم بالهلاك؛ ليكشف عن قلوبهم ظلمات الجهل المدلهمَّة، ويطهرهم من أدناسِ الرَّيْن وأجناس الرَّيب؛ ولهذا كان يتألم لعدم استجابتهم شفقة ورحمة منه ﷺ عليهم، حتى أشفق عليه المولى ﷻ وهَدَّأ روعه من الحالة التي كان عليها، قال ابن تيمية: "الرسول ﷺ بعثه الله ﷻ هدى ورحمة للعالمين، فإنه كما أرسله بالعلم والهدى والبراهين العقلية والسمعية، فإنه أرسله بالإحسان إلى الناس، والرحمة لهم بلا عوض، وبالصبر على أذاهم"(١).

المطلب الأول
حرص النبي ﷺ على هدية أعدائه

قال تعالى: ﴿وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ ١٠٣﴾ [يوسف] قال الشوكاني: "أي وما أكثر الناس المعاصرين لك يا محمد، أو ما أكثر الناس

(١) انظر: مجموع الفتاوى، أحمد بن عبدالحليم ابن تيمية (٣١٣/١٦).

على العموم ولو حرصت على هدايتهم، وبالغت في ذلك بمؤمنين بالله، لتصميمهم على الكفر الذي هو دين آبائهم"[1]، حيث اشتملت هذه الآية على فوائد منها، رحمة النبي ﷺ بأمته وحرصه على هدايتهم، ومن ذلك أيضًا تسلية لقلب النبي ﷺ كي لا يتحسر ولا يحزن على عدم استجابتهم له. وكون أكثر الناس ليسوا بمؤمنين، ومع ذلك يحرص ﷺ على هدايتهم ودعوتهم، فهذا دليل على عظيم رحمته وكمال شفقته بهم. والمتدبر لكتاب الله يجد آيات كثيرة وصفت النبي ﷺ بأنه صاحب القلب الرحيم، الذي جمع الله له القلوب، وتآلفت بدعوته الجموع، وما ذاك إلا جانب من جوانب رحمته بهذه الأمة وحرصه على هدايتهم؛ ولهذا سلاه الله ﷻ ، وربط على قلبه، وطمأنه بأن لا ييأس من عدم إيمانهم واستجابتهم، وأن مهمته مقتصرة على البلاغ، حيث قال تعالى: ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ﴾ [الشورى: ٤٨]. وهذا ما أشار إليه الطاهر بن عاشور عند كلامه على هذه الآية، فقال: "وجملة ﴿وَمَا تَسْـَٔلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ﴾ [يوسف:١٠٤] معطوفة على جملة ﴿ وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ﴾ إلى آخرها باعتبار ما أفادته من التأييس من إيمان أكثرهم. أي لا يسوءك عدم إيمانهم، فلست تبتغي أن يكون إيمانهم جزاء على التبليغ، بل إيمانهم لفائدتهم"[2] كقوله: ﴿قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم﴾ [الحجرات:١٧].

لم يفرق ﷺ في دعوته بين أحمر وأسود، ولا بين أعجمي وعربي، قال تعالى: ﴿ إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ ۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴾ [النحل: ٣٧]. وهذا ما جبل عليه النبي ﷺ من الشفقة والرحمة، وما ميزه به الله حيث جعله يحرص على إيصال ما جاء به ﷺ من الخير

(١) انظر: فتح القدير، محمد الشوكاني (٣/٧٩-٨٠)، زاد المسير في علم التفسير، جمال الدين ابن الجوزي (٤/٢٩٣)، مفاتيح الغيب، محمد الرازي (١٨/١٧٨).
(٢) انظر: التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور (١٣/٦٢).

والهدى، حتى يعم نفعه جميعَ المخلوقين، وهذه الآية خير شاهد على ذلك، قال الطبري: "فتأويل الكلام: لو كان الأمر على ما وصفنا: إن تحرص يا محمد على هداهم، فإن من أضله الله فلا هادي له، فلا تجهد نفسك في أمره، وبلغه ما أرسلت به لتتم عليه الحجة"[1]، وقال القرطبي: عند تفسيره لهذه الآية "أي: إن تطلب يا محمد بجهدك هداهم. ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَن يُضِلُّۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ أي: لا يرشد من أضله، أي من سبق له من الله الضلالة لم يهده[2]، ثم أخبر الله ﷻ رسوله ﷺ أن حرصه على هدايتهم لا ينفعهم، إذا كان الله قد أراد إضلالهم"[3]. والمستقرئ للسنة النبوية يجد الكثير من الأحاديث التي زخرت بها سنته ﷺ في رحمته وحرصه على هداية أعدائه فكما اتسع قلبه لأصفيائه، اتسع أيضًا لأعدائه، مع ما لقيه ﷺ منهم من أذية وصدود، فعن عائشة رضي الله عنها أنها قالت للنبي ﷺ: هل أتى عليك يوم أشد من يوم أحد؟ قال: (لقد لقيت من قومك ما لقيت وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة؛ إذ عرضت نفسي على ابن عبد ياليل بن عبد كلال فلم يجبني إلى ما أردت، فانطلقت وأنا مهموم على وجهي، فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب، فرفعت رأسي فإذا أنا بسحابة قد أظلتني، فنظرت فإذا فيها جبريل: فناداني فقال: إن الله قد سمع قول قومك لك وما ردوا عليك، وقد بعث الله إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم، فناداني ملك الجبال، فسلم علي ثم قال يا محمد: فقال ذلك فيما شئت، إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين؟ فقال النبي ﷺ: «بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبدالله وحده لا يشرك به شيئًا»[4]. «لقد وسعهم قلبه الرحيم فرأف بهم وأبى أن يهلكوا

(١) انظر: جامع البيان في تأويل القرآن، الطبري (٢١٨/١٤).
(٢) انظر: الجامع لإحكام القرآن، القرطبي (٣٢٢/١٢-٣٢٣).
(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (٥٧١/٤).
(٤) أخرجه البخاري، كتاب بدء الخلق، باب: إذا قال أحدكم: آمين والملائكة في السماء، فوافقت إحداهما الأخرى غفر له ما تقدم من ذنبه، حديث رقم: (٣٢٣١)، (٤/ ١١٥)، ومسلم في صحيحه، =

معاقبة على سوء ردهم، ونظر إلى الغد نظرة مشرقة بالأمل، لم يقف عند حاضرهم المظلم بل تجاوزه إلى الغد المرتقب ورجا إن لم تنشرح قلوبهم للإيمان أن يهدي الله قلوبًا تنبثق من أصلابهم»[1]. وما هذا إلا أنموذج من سيرته ﷺ في بيان رحمته وشفقته مع أعدائه من المشركين.

وعند قوله تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [البقرة:٢٧٢]. وجدت رحمة النبي ﷺ بالمدعوين مع علمه ﷺ بأن هداية التوفيق بيد الله وحده. قال الطبري في بيان هذه الآية: "يعني ليس عليك يا محمد هدى المشركين إلى الإسلام، فتمنعهم صدقة التطوع، ولا تعطيهم منها ليدخلوا في الإسلام حاجة منهم إليها، ولكن الله هو يهدي من يشاء من خلقه إلى الإسلام فيوفقهم له، فلا تمنعهم الصدقة"[2]. والناظر في كلام المفسرين عند هذه الآية يجد أنه واضح الدلالة على أن هداية التوفيق هي بيد الله ﷻ وأن النبي ﷺ لا يملكها، ولكن لشفقته ورحمته ﷺ بهم كان شديد الحرص على إخراجهم من ظلام الشرك إلى نور الإسلام والهداية، لكنهم صم عن سماع الحق لا يعقلونه كما قال الله عنهم ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ ۚ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [يونس:٤٢].

ويقول ابن عطية عند قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَـَٔامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس:٩٩] والمعنى أن هذا الذي تقدم إنما كان جميعه بقضاء الله عليهم ومشيئته فيهم، ولو شاء الله لكان الجميع مؤمنًا، فلا تأسف أنت يا محمد على كفر من لم يؤمن بك، وادع ولا عليك فالأمر محتوم، أفتريد أنت أن تكره الناس بإدخال الإيمان في قلوبهم، وتضطرهم إلى ذلك، والله ﷻ قد شاء

= كتاب الجهاد والسير، باب: ما لقي النبي ﷺ من أذى المشركين والمنافقين، حديث رقم (١١١)، (٨٦٤/٢).

(١) انظر: الرسالة المحمدية وشواهدها، محمود عبدالوهاب (ص: ٢٣٨).

(٢) انظر: جامع البيان في تأويل القرآن، الطبري (١٩/٥).

غيره[1]. وعن ابن عباس ﷺ قال: (ونحو هذا في القرآن، فإن رسول الله ﷺ كان يحرص أن يؤمن جميع الناس ويتابعوه على الهدى، فأخبره الله أنه لا يؤمن إلا من قد سبق له من الله السعادة في الذكر الأول، ولا يضل إلا من سبق له من الله الشقاء في الذكر الأول)[2].

قال الطبري عند قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ [القصص:٥٦] "يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: ﴿إِنَّكَ﴾ يا محمد ﴿لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ هدايته ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُ﴾ أن يهديه من خلقه، بتوفيقه للإيمان به وبرسوله». ولو قيل: معناه: إنك لا تهدي من أحببته لقرابته منك، ولكن الله يهدي من يشاء، كان مذهبًا ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ يقول جل ثناؤه: والله أعلم من سبق له في علمه أنه يهتدي للرشاد، ذلك الذي يهديه الله فيسدده ويوفقه، وذُكِرَ أن هذه الآية نزلت على رسول الله ﷺ من أجل امتناع أبي طالب عمه من إجابته، إذ دعاه إلى الإيمان بالله، إلى ما دعاه إليه من ذلك"[3].

وقد ذكر الواحدي أن سبب نزول هذه الآية كما رواه سعيد بن المسيب عن أبيه أنه قال: لما حضرت أبا طالب الوفاة جاءه رسول الله ﷺ فوجد عنده أبا جهل وعبدالله بن أبي أمية، فقال رسول الله ﷺ: «يا عم قل لا إله إلا الله، كلمة أحاج لك بها عند الله ﷻ»، فقال أبو جهل وعبدالله بن أبي أمية: يا أبا طالب أترغب عن ملة عبدالمطلب؟ فلم يزل رسول الله ﷺ يعرضها عليه، ويعاودانه بتلك المقالة، حتى قال أبو طالب آخر ما كلمهم به: أنا على ملة عبدالمطلب، وأبى أن يقول: لا إله إلا الله، فقال رسول الله ﷺ «والله لَأَسْتَغْفِرَنَّ لك ما لم أُنْهَ عنك»، فأنزل الله ﷻ

(١) انظر: المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ابن عطية (١٤٥/٣).
(٢) انظر: جامع البيان في تأويل القرآن، الطبري (٢٩٨/١٢).
(٣) انظر: جامع البيان في تأويل القرآن، الطبري (٢٨٢/١٨-٢٨٣).

﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسۡتَغۡفِرُواْ لِلۡمُشۡرِكِينَ﴾ [التوبة: ١١٣] الآية، وأنزل في أبي طالب: ﴿إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ﴾[1] [القصص:٥٦] وهذا يدل على أن النبي ﷺ لا يملك هداية التوفيق، وليست بيده، ولو كانت بيده لجعلها لعمه أبي طالب؛ لكن الشفقة والرحمة التي امتلأ بها فؤاده جعلته يشفق على عمه ويرحمه، فاجتهد النبي ﷺ أن يوصل إلى عمه نظير ما صنع له.

المطلب الثاني
عفو النبي ﷺ وصفحه عن أعدائه

لقد بلغ النَّبيُّ ﷺ غاية الحِلْم والعفو، فكان النبي ﷺ يتألف القلوب، ويلاطف من يرجى إسلامه ويعفو عنه، ويحلم عند الغضب، ويحسن إلى المسيء، فكانت هذه الأخلاق العالية من أعظم الأسباب في إجابة دعوته، والإيمان به واجتماع القلوب عليه[2]. فربما أثقل ﷺ على نفسه وتنازل عن حقه في سبيل إيصال ما أرسل به، حيث لم ينبثق هذا العفو والصفح، إلا من قلب رحيم مشفق على دعوة أمته للخير، وفي هذا جانب من جوانب رحمته بالمدعوين، ومن تلك الآيات الدالة على ذلك:

قوله تعالى: ﴿فَبِمَا نَقۡضِهِم مِّيثَٰقَهُمۡ لَعَنَّٰهُمۡ وَجَعَلۡنَا قُلُوبَهُمۡ قَٰسِيَةٗۖ يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَنَسُواْ حَظّٗا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦۚ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٖ مِّنۡهُمۡ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنۡهُمۡۖ فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱصۡفَحۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [المائدة:١٣] في هذه الآية أمر الله ﷻ نبيَّه محمدًا ﷺ بالعفو عن هؤلاء

(١) انظر: أسباب النزول، الواحدي (٣٤٧/١)، وأصله في مسلم، كتاب: الإيمان، باب: أول الإيمان قول لا إله إلا الله، حديث رقم: (٣٩)، (٣٣/١).

(٢) انظر: رحمة للعالمين محمد رسول الله، نشأته وأخلاقه ومعجزاته وعموم رسالته ﷺ في ضوء الكتاب والسنة، سعيد القحطاني (١٥١/١).

القوم، الذين همُّوا أن يبسطوا أيديهم إليه من اليهود. يقول الله ﷻ له: اعف، يا محمد، عن هؤلاء اليهود، الذين همُّوا بما هموا به من بسط أيديهم إليك وإلى أصحابك بالقتل، واصفح لهم عن جُرْمهم بترك التعرُّض لمكروههم، فإني أحب من أحسنَ العفو والصَّفح إلى من أساء إليه"[1].

قال السعدي مفسرًا هذه الآية، ومبينًا أن العفو والصفح من الإحسان، ﴿فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱصۡفَحۡ﴾ أي: لا تؤاخذهم بما يصدر منهم من الأذى، الذي يقتضي أن يعفو عنهم، واصفح، فإن ذلك من الإحسان»[2] ﴿وَأَحۡسِنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [البقرة:١٩٥]، ولا شك أن العفو والصفح عنهم من الرحمة بهم.

قال ابن عاشور: "وأمْرُه بالعفو عنهم والصفح حمل على مكارم الأخلاق»، وذلك فيما يرجع إلى سوء معاملتهم للنبي ﷺ. وليس المقام مقام ذكر المناوأة القومية أو الدينية، فلا يعارض هذا قوله في براءة ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلۡحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ عَن يَدٖ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ﴾ [التوبة:٢٩]؛ لأن تلك أحكام التصرفات العامة، فلا حاجة إلى القول بأن هذه الآية نسخت بآية براءة»[3].

قال تعالى: ﴿فَٱصۡفَحۡ عَنۡهُمۡ وَقُلۡ سَلَٰمٞۚ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ﴾ [الزخرف:٨٩]. في الآية إرشاد وتسلية من الله ﷻ لنبيه. أي: فأعرض عنهم، ولا تطمع في إيمانهم لشدة كفرهم[4]. وقد تضمنت هذه الآية الكريمة ثلاثة أمور: الأول: أمره ﷺ بالصفح عن الكفار. والثاني: أن يقول لهم سلام. والثالث: تهديد الكفار بأنهم سيعلمون حقيقة الأمر وصحة ما يوعد به الكافر من عذاب

(١) انظر: جامع البيان في تأويل القرآن، الطبري (٨/ ٢٥٥).
(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن السعدي (ص: ٢٢٦).
(٣) انظر: التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور (٦/ ١٤٥).
(٤) انظر: التفسير الوسيط للقرآن الكريم، محمد الطنطاوي (١٣/ ١٠٨).

النار[1]. كما أن في هذه الآية أمرًا من الله ﷻ لنبيه ﷺ بأن يعرض عنهم ولا يحزن لحالهم، فهذا يدل على أنه ﷺ من رحمته بهم كان كثير الصفح والعفو عنهم.

وهذا ما ألمح إليه ابن عاشور بقوله في معنى هذه الآية: "فاصفح عنهم، أي أعرض عنهم ولا تحزن لهم وقل لهم إن جادلوك: سلام، أي سلمنا في المجادلة وتركناها"[2].

(١) انظر: أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، محمد الشنقيطي (٣٣٥/٧).
(٢) انظر: التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور (٢٧٣/٢٥).

المبحث الثاني
تحسر النبي ﷺ وأساه وحزنه على عدم هداية الكفار

المطلب الأول
تحسر النبي ﷺ، وأساه على عدم هداية الكفار

أبان القرآن الكريم أن من نعم الله على البشرية أن رسول الله ﷺ بُعث بالرحمة للناس جميعًا، كما قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾ [الأنبياء]، ورحمة النبي ﷺ بالمسلمين المؤمنين به أمر معلوم، لكن رحمته ﷺ لم تقتصر عليهم، بل شملت حتى الكافرين به، فما كان من حالهم إلا أن قابلوه بالرد والتكذيب والاستكبار عن قبول الحق، ومع هذا كله لم يكن همه ﷺ إلا أن ينقذهم من النار، ويؤكد الرسول ﷺ ذلك بقوله: (أنا ... نبي الرحمة)[1].

قال تعالى: ﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَسۡتُمۡ عَلَىٰ شَيۡءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡۗ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرٗا مِّنۡهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ طُغۡيَٰنٗا وَكُفۡرٗاۖ فَلَا تَأۡسَ عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [المائدة:٦٨]. قال الطبري: "يقول تعالى ذكره لنبيه: لا تحزن، يا محمد، على تكذيب هؤلاء الكفار من اليهود والنصارى من بني إسرائيل لك، فإن مثل ذلك منهم عادة وخلق في التعامل مع أنبيائهم، فكيف

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب: في أسمائه ﷺ، حديث رقم: (١٢٦)، (٢/١١٠٦).

فيك"؟[1] وفي الآية «استخفاف بأمر أهل الكتاب- وصرف النظر عنهم، وتركهم فى ضلالهم يعمهون، ليلقوا المصير السيّء الذي يلقاه المحادّون لله، الكافرون به، غير مأسوف عليهم.. إذ كان ذلك من صنع أيديهم، وما جنته عليهم أنفسهم، وقد نصحوا فلم ينتصحوا، وأنذروا فلم تغنهم النّذر..ومن كان هذا شأنه فلا يستحق أن يأسى (أي يحزن) عليه أحد»[2].

قال الآلوسي وقوله: ﴿فَلَا تَأۡسَ عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ أي: "لا تأسف ولا تحزن عليهم لزيادة طغيانهم وكفرهم، فإن غائلة ذلك موصولة بهم وتبعته عائدة إليهم، وفي المؤمنين غنى لك عنهم، ووضع المظهر موضع المضمر للتسجيل عليهم بالرسوخ في الكفر، وقيل: المراد لا تحزن على هلاكهم وعذابهم، ووضع الظاهر موضع الضمير للتنبيه على العلة الموجبة لعدم الأسى، ولا يخلو عن بعد إن الذين آمنوا كلام مستأنف مسوق للترغيب في الإيمان والعمل الصالح"[3].

وقد سلَّى الله رسوله ﷺ بقوله: ﴿فَلَا تَأۡسَ عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ فالفاء للفصيحة لتتمّ التّسلية؛ لأنّ رحمة الرسول ﷺ بالخَلْق تحزنه ممَّا بلغ منهم من زيادة الطّغيان والكفر، فنبّهتْ فاء الفصيحة على أنّهم ما بَلغوا ما بَلغوه إلاّ من جرّاء الحسد للرسول ﷺ، فحقيق أن لا يحزن لهم[4].

قال أبو حيان في تفسيره لهذه الآية قال تعالى: ﴿فَلَا تَذۡهَبۡ نَفۡسُكَ عَلَيۡهِمۡ حَسَرَٰتٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ﴾ [فاطر: ٨]. "هذا من فرط رحمته للناس، ورأفته بهم»[5] والآية بمعنى: لا تهلك نفسك حزنًا على ضلالتهم وكفرهم بالله وتكذيبهم لك[6] وقال الشوكاني: "إن الله ﷻ نهى نبيه ﷺ عن شدّة الاغتمام

(١) انظر: جامع البيان في تأويل القرآن، الطبري (٥٤٧/٨)
(٢) انظر: التفسير القرآني للقرآن، عبدالكريم الخطيب (٣/ ١١٤٣).
(٣) انظر: روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، شهاب الدين الآلوسي (٢٠٠/٦).
(٤) انظر: التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور (٦/ ٢٦٧).
(٥) انظر: البحر المحيط في التفسير، أبو حيان الأندلسي (١٢٦/٣).
(٦) انظر: جامع البيان في تأويل القرآن، الطبري (٣٣٤/١٩)، الوسيط في تفسير القرآن المجيد، =

بهم والحزن عليهم[1]. ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ﴾ أي فلا تفعل ذلك، أي لا ينبغي لك ذلك؛ فإنهم أوقعوا أنفسهم في تلك الحالة بتزيين الشيطان لهم ورؤيتهم ذلك حسنًا وهو من فعل أنفسهم فلماذا تتحسر عليهم»[2].

قال تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ۝٦﴾ [الكهف]. دلت هذه الآية بمفهومها على نهي النبي ﷺ عن إهلاك نفسه أسفًا على المكذبين. قال ابن كثير: يقول تعالى مسليًا رسوله ﷺ في حزنه على المشركين، لتركهم الإيمان وبعدهم عنه، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ﴾ [فاطر:٨] وقال: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء:٣] باخع: أي مهلك نفسك بحزنك عليهم؛ ولهذا قال ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ﴾ يعني: القرآن، ﴿أَسَفًا﴾ يقول: لا تهلك نفسك أسفًا، أي: لا تأسف عليهم، بل أبلغهم رسالة الله، فمن اهتدى فلنفسه، ومن ضل فإنما يضل عليها، فلا تذهب نفسك عليهم حسرات[3]. قال أبو حيان عند ذكر معاني لعل عند تفسير قوله تعالى ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ﴾: "والذي يظهر أنها للإشفاق أشفق أن يبخع الرسول ﷺ نفسه لكونهم لم يؤمنوا"[4].

وعند قوله تعالى: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء:٣] يقول تعالى ذكره: لعلك يا محمد قاتل نفسك ومهلكها إن لم يؤمن قومك بك، ويصدقوك على ما جئتهم به، والبخع: هو القتل والإهلاك في كلام العرب[5]؛ لأن نفسه ﷺ كادت تهلك وتتلف؛ إشفاقًا عليهم بما ينزل بهم بتركهم الإسلام، وهذا ليس على النهي، ولكن على تسكين نفسه وتقريرها

= لعلي الواحدي (٣/ ٥٠١).
(١) انظر: فتح القدير، محمد الشوكاني (٤/٤٤٨).
(٢) انظر: التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور (٢٢/٢٦٤).
(٣) تفسير ابن كثير: (٥/١٣٧).
(٤) البحر المحيط: (٦/٩٦).
(٥) انظر: جامع البيان في تأويل القرآن، الطبري (١٧/٥٤٣).

على ما هي عليه[1]. قال ابن كثير "وقوله: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفۡسَكَ﴾ أي: مهلك ﴿نَّفۡسَكَ﴾ أي: مما تحرص (عليهم) وتحزن عليهم ﴿أَلَّا يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ﴾، وفي هذا تسلية من الله لرسوله، ﷺ، في عدم إيمان مَنْ لم يؤمن به من الكفار"[2].

المطلب الثاني
حزن النبي ﷺ على عدم هداية الكفار

لقد أبان القرآن الكريم في مواضع كثيرة حزن النبي ﷺ من عدم استجابة الكفار لدعوته، وما ذاك إلا لكمال شفقته ورحمته بهم طمعًا منه ﷺ في إيمانهم، حيث لم تقف رحمته ﷺ عند الإعراض عن أذيَّتهم، والحلمِ عن جهالتهم، بل إنها تعدَّت ذلك إلى مجال أرحب وأفسح، يتجلى في حرصه البالغ على دعوتهم وهدايتهم، وإنقاذهم من النار، وهذه هي غاية الرحمة التي اتصف بها نبي الرحمة، وما ذكره المفسرون عند كلامهم على الآيات الدالة على حزن النبي ﷺ من عدم استجابتهم للحق دليل واضح على رحمته بهم، ومن تلك الآيات:

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحۡزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِۚ إِنَّهُمۡ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗاۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجۡعَلَ لَهُمۡ حَظّٗا فِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٌ ١٧٦﴾ [آل عمران:١٧٦]. هذه الآية فيها التقليل من شأن المكذبين؛ ولذلك نهى الله ﷻ نبيه عن الحزن على أولئك المكذبين، «فاغتم النبي ﷺ لذلك، فسلاه الله ﷻ، ونهاه عن الحزن، وعلل ذلك بأنهم لن يضروا الله شيئًا، وإنما ضروا أنفسهم بأن لا حظ لهم في الآخرة، ولهم عذاب عظيم»[3].

(١) انظر: تأويلات أهل السنة، محمد الماتريدي (٨/ ١٣١).
(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (٦/١٣٥).
(٣) انظر: فتح القدير، محمد الشوكاني (١/٦٥٣).

كان النبي ﷺ حريصًا على الخلق، مجتهدًا في هدايتهم، وكان يحزن إذا لم يهتدوا، قال الله تعالى: ﴿وَلَا يَحۡزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِ﴾ من شدة رغبتهم فيه، وحرصهم عليه ﴿إِنَّهُمۡ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗا﴾ فالله ناصر دينه، ومؤيد رسوله، ومنفذ أمره من دونهم، فلا تبالهم ولا تحفل بهم، إنما يسعون في ضرر أنفسهم، بفوات الإيمان في الدنيا، وحصول العذاب الأليم في الأخرى، من هوانهم على الله وسقوطهم من عين (رعايته)، وإرادته أن لا يجعل لهم نصيبًا في الآخرة من ثوابه؛ فخذلهم ولم يوفقهم لما وفق له أولياءه، ومن أراد به خيرًا، عدلًا منه وحكمة؛ لعلمه بأنهم غير زاكين على الهدى، ولا قابلين للرشاد، لفساد أخلاقهم وسوء قصدهم»[1].

فهذه الآية دلت على أن النبي ﷺ لكثير اهتمامه وألمه بحال أولئك حزن عليهم؛ وهذه هي غاية الرحمة والشفقة، خاصة أن هذا الحزن كان على أولئك القوم، الذين لم يستجيبوا لدعوته، ومع هذا حزن النبي ﷺ من عدم انصياعهم للحق الذي جاء به، وهذا مصداق قوله تعالى ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾ [الأنبياء]، فوجه الله ﷻ الخطاب للنبي ﷺ بأن لا يتأثر بحال أولئك القوم، وأن لا يهتم بأمرهم.

يختلف أسلوب القرآن من موضع إلى آخر في تسلية النبي ﷺ ومواساته في عدم التأثر بحال المكذبين الذين حزن النبي ﷺ من عدم استجابتهم رحمة بهم، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحۡزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَلَمۡ تُؤۡمِن قُلُوبُهُمۡ﴾ [المائدة:٤١]. حيث أخبره الله ﷻ في هذه الآية الكريمة أن قلوب أولئك صادة عن قبول الحق، الذي جاء به نبي الرحمة وقد ورد في سبب نزولها ما رواه البراء بن عازب قال: مر رسول الله ﷺ بيهودي محممًا[2] مجلودًا، فدعاهم، فقال: «أهكذا

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن السعدي (١٥٧-١٥٨).
(٢) مُسَوَّد الوجه، من الحُمَمَة: الفحمة، وجمعها حُمَم. انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، مادة حَمَمَ، ابن الأثير (١/٤٤٤).

تجدون حد الزاني في كتابكم» قالوا: نعم، قال: فدعا رجلًا من علمائهم فقال: أنشدك الله الذي أنزل التوراة على موسى أنك نشدتني لم أخبرك، نجد حد الزاني في كتابنا الرجم، ولكنه كثر في أشرافنا، فكنا إذ أخذنا الشريف تركناه، وإذا أخذنا الوضيع أقمنا عليه الحد، فقلنا: تعالوا نجتمع على شيء نقيمه على الشريف والوضيع فاجتمعنا على التحميم والجلد مكان الرجم، فقال رسول الله ﷺ «اللهم إني أول من أحيا أمرك إذ أماتوه»، فأمر به فرجم، فأنزل الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحۡزُنكَ﴾ إلى قوله: ﴿إِنۡ أُوتِيتُمۡ هَٰذَا فَخُذُوهُ﴾ [المائدة:٤١][1].

في هذه الآيات تأثير كفرهم في نفس النبي ﷺ وحزنه مما يقولون في نبوته، وسلاه عن ذلك ببيان سنته ﷻ في الرسل مع أقوامهم وإياسه من إيمان الجاحدين المعاندين منهم[2] فسلاه الله بقوله: ﴿قَدۡ نَعۡلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحۡزُنُكَ ٱلَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمۡ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ﴾ [الأنعام:٣٣] وقد جاء في سبب نزول هذه الآية الكريمة ما ذكره الواحدي، قال السدي: "التقى الأخنس بن شريق وأبو جهل بن هشام، فقال الأخنس لأبي جهل: يا أبا الحكم أخبرني عن محمد أصادق هو أم كاذب؟ فإنه ليس هنا من يسمع كلامك غيري، فقال أبو جهل: والله إن محمدًا لصادق، وما كذب محمد قط، ولكن إذا ذهب بنو قصي باللواء والسقاية والحجابة والندوة والنبوة فماذا يكون لسائر قريش؟ فأنزل الله ﷻ هذه الآية»[3].

ويضيف أبو السعود في تفسيره بعد بيانه: أن ذلك تسلية للنبي ﷺ، بأن مكانته عليه السلام عظيمة عند الله ﷻ وأن إيذاء النبي ﷺ إيذاء لله ﷻ، فيقول: «وهذا استئنافٌ مَسوقٌ لتسلية رسول الله ﷺ عن الحزن الذي يعتريه، مما

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الحدود، باب: رجم اليهود أهل الذمة في الزنى، حديث رقم: (٢٨)، (٢/٨١٢-٨١٣).
(٢) انظر: تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار)، محمد رضا (٧/٣١٠).
(٣) انظر: أسباب النزول، الواحدي (١/٢١٨).

حُكي عن الكفرة من الإصرار على التكذيب والمبالغة فيه ببيان أنه عليه الصلاة والسلام بمكانةٍ من الله ﷻ، وأن ما يفعلون في حقه فهو راجعٌ إليه ﷻ في الحقيقة، وأنه ينتقم منهم لا محالة أشدَّ انتقام»[1].

وعند قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحۡزُنكَ قَوۡلُهُمۡۘ إِنَّ ٱلۡعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًاۚ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ [يونس:٦٥]. قال الطبري: "يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: لا يحزنك، يا محمد، قول هؤلاء المشركين في ربهم ما يقولون، وإشراكهم معه الأوثان والأصنام فإن العزة لله جميعًا، فإن الله هو المنفرد بعزة الدنيا والآخرة، لا شريك له فيها، وهو المنتقم من هؤلاء المشركين القائلين فيه من القول الباطل ما يقولون، فلا ينصرهم عند انتقامه منهم أحد؛ لأنه لا يعازه شيء ﴿هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾، يقول: وهو ذو السمع لما يقولون من الفرية والكذب عليه، وذو علم بما يضمرونه في أنفسهم و يعلنونه، محصى ذلك عليهم كله، وهو لهم بالمرصاد"[2]، وإلى هذا المعنى الذي ذكره الطبري في تفسير الآية أشار عدد من المفسرين[3].

ثم أمره الله بعدم النظر إلى هؤلاء المترفين بقوله: ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيۡنَيۡكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعۡنَا بِهِۦٓ أَزۡوَٰجٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الحجر:٨٨]. أي: لا تتمنين يا محمد ما جعلنا من زينة هذه الدنيا متاعًا للأغنياء من قومك، الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر، يتمتعون فيها، فإن من ورائهم عذابًا غليظًا ﴿وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ﴾ يقول: ولا تحزن على ما متعوا به فعجل لهم؛ فإن لك في الآخرة ما هو خير منه، مع الذي قد عجلنا لك في الدنيا من الكرامة بإعطائنا السبع المثاني والقرآن العظيم»[4]. قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحۡزَنۡ

(١) انظر: إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، أبو السعود العمادي (١٩٥/٢-١٩٦).
(٢) انظر: جامع البيان في تأويل القرآن، الطبري (٢٢٦/١٢).
(٣) انظر: الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، محمود الزمخشري (٣٢٨/٢)، فتح القدير، محمد الشوكاني (٦٤٣/٢-٦٤٤)، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، شهاب الدين الآلوسي (١٧٩/١١).
(٤) انظر: جامع البيان في تأويل القرآن، الطبري (١٢٧/١٤، ١٢٦).

عَلَيۡهِمۡ﴾ أي ولا تحزن على المشركين إن لم يؤمنوا، وقيل: المعنى لا تحزن على ما متعوا به في الدنيا فلك في الآخرة أفضل منه، وقيل: لا تحزن عليهم إن صاروا إلى العذاب فهم أهل العذاب[1].

ثم أمره ﷻ بالصبر، فقال: ﴿وَٱصۡبِرۡ وَمَا صَبۡرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ وَلَا تَكُ فِي ضَيۡقٖ مِّمَّا يَمۡكُرُونَ ١٢٧﴾ [النحل:]. قال الطبري: واصبر يا محمد على ما أصابك من أذى في الله. ﴿وَمَا صَبۡرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ يقول: وما صبرك إن صبرت إلا بمعونة الله، وتوفيقه إياك لذلك ﴿وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ﴾ يقول: ولا تحزن على هؤلاء المشركين الذين يكذبونك وينكرون ما جئتهم به في آن ولوا عنك وأعرضوا عما أتيتهم به من النصيحة ﴿وَلَا تَكُ ضَيۡقٖ مِّمَّا يَمۡكُرُونَ﴾ يقول: ولا يضق صدرك بما يقولون من الجهل، ونسبتهم ما جئتهم به إلى أنه سحر أو شعر أو كهانة، مما يمكرون: مما يحتالون بالخدع في الصد عن سبيل الله، من أراد الإيمان بك، والتصديق بما أنزل الله إليك»[2].

قال تعالى: ﴿وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ وَلَا تَكُن فِي ضَيۡقٖ مِّمَّا يَمۡكُرُونَ﴾ [النمل:٧٠]. فقوله: ﴿وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ﴾ «يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: ولا تحزن على إدبار هؤلاء المشركين عنك وتكذيبهم لك ﴿وَلَا تَكُن فِي ضَيۡقٖ مِّمَّا يَمۡكُرُونَ﴾ يقول: ولا يضق صدرك من مكرهم بك، فإن الله ناصرك عليهم، ومهلكهم قتلًا بالسيف»[3]، ويذكر ابن كثير في تفسيره لهذا الآية تسلية الله جل وعلا لنبيه ﷺ في نهيه عن الحزن على هؤلاء، الذين اهتم بشأنهم شفقة ورحمة بهم، حيث قال: «ثم قال ﷻ مسليًا لنبيه، صلوات الله وسلامه عليه: ﴿وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ﴾ أي: المكذبين بما جئت به، ولا تأسف عليهم، وتذهب نفسك عليهم حسرات»[4].

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (١٢/٢٥٤).
(٢) انظر: جامع البيان في تأويل القرآن، الطبري (١٤/٤٠٧).
(٣) انظر: جامع البيان في تأويل القرآن، الطبري (١٨/١١٢).
(٤) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (٦/٢٠٨).

قال تعالى: ﴿ وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحۡزُنكَ كُفۡرُهُۥٓۚ إِلَيۡنَا مَرۡجِعُهُمۡ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ [لقمان:٢٣]. يقول تعالى ذكره: «ومن كفر بالله فلا يحزنك كفره، ولا تذهب نفسك عليهم حسرة، فإن مرجعهم ومصيرهم يوم القيامة إلينا، ونحن نخبرهم بأعمالهم الخبيثة التي عملوها في الدنيا، ثم نجازيهم عليها جزاءهم، يقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ أي: إن الله ذو علم بما تكنه صدورهم من الكفر بالله، وإيثار طاعة الشيطان»[١]. فهذه نهاية من يكفر ويخدعه متاع الحياة، نهايته في الدنيا تهوين شأنه على رسول الله ﷺ وعلى المؤمنين. ﴿ وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحۡزُنكَ كُفۡرُهُۥٓۚ﴾ فشأنه أهون من أن يحزنك، وأصغر من أن يهمك[٢]. وانشغاله ﷺ وحزنه في شأن أولئك القوم، دليل واضح على الرحمة، التي يحويها قلبه ﷺ، فهو ينظر إليهم نظر الشفقة والرحمة فرأف بهم، وأبى أن يهلكوا وهم على حالهم، فجاءه الوحي من الله ﷻ تسلية له ﷺ بأن لا يحزن عليهم لأن الهداية بيد الله ﷻ.

(١) انظر: جامع البيان في تأويل القرآن، الطبري (١٨/ ٥٧٠).
(٢) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب (٥/ ٢٧٩٤).

المبحث الثالث
وصف النبي ﷺ بأنه رحمة للمنافقين[1]، واستغفاره لهم

المطلب الأول
رحمة النبي ﷺ بالمنافقين

كان بعض المنافقين في المدينة إذا خلوا إلى بعضهم أخذوا يتحدثون في النبي ﷺ بما يؤذيه، ويسخرون منه، وينتقصون من قدره، وكان ﷺ يطلع على كثير مما يدور بينهم، أحيانًا عن طريق الوحي، وأحيانًا عن طريق بعض المؤمنين الذين يؤلمهم ما يسمعونه عنه ﷺ. حيث كان النبي ﷺ يغض عن أولئك المنافقين كرمًا منه وتسامحًا، وإذا جاؤوا إليه معتذرين لم يجبهم باللوم والتعسف، بل يقبل منهم ظواهرهم، ويكل سرائرهم إلى الله ﷻ. ومع هذا فقد كانوا يخافون من انكشاف أمرهم باطلاع النبي ﷺ على ما يقولونه في حقه من الكلام السيئ، ولكن بعضهم لكثرة ما يعاملهم به النبي ﷺ من العفو قد ظنوا أن أمرهم قد خفي عليه، وأنه يصدقهم في كل ما يقولونه له وقبل جميع اعتذاراتهم، فلجوا في الطغيان في غوايتهم حتى بلغ لؤمهم وخبث نفوسهم أن اعتبروا ما كان يعاملهم به ﷺ من العفو والسماحة نوعًا من الغفلة والبله، فنزل القرآن يكشف حقيقتهم ويبن لهم خطأ ما توهموه في النبي ﷺ من أنه يقبل اعتذاراتهم[2].

(١) اقتصرت في هذا المبحث على هذه الآية لورود لفظ الرحمة فيها.
(٢) انظر: المنافقون في القرآن الكريم، عبدالله الحميدي (ص: ٤١٨).

قال تعالى: ﴿ وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌۚ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [التوبة: ٦١]. قال الرازي: "كان النبي ﷺ يسعى في إيصال الخير والرحمة إلى المنافقين مع كونهم في غاية الخبث والخزي، ثم إنهم بعد ذلك يقابلون إحسانه بالإساءة وخيراته بالشرور»[١]؛ وقد جرأهم على ذلك إغضاؤه ﷺ عن إجرامهم وإمهالهم حتى يتمكن من الإيمان من وفقه الله للإيمان منهم[٢]؛ فإنه لو أمره الله ﷻ أن يعاملهم بما يخفون من الكفر لكان ذلك أمرًا بقطع رقابهم، وبقاؤهم خير لهم بالمعنى الذي يعتقدونه من لفظ الخير، وخير لهم في نفس الأمر؛ لأنه إمهال لهم يرجى أن يتوب بسببه من فيه استعداد للإيمان منهم بما يراه من آيات الله وتأييده لرسوله وللمؤمنين[٣].

وقد خُصَّ المؤمنون في قوله: ﴿وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ﴾ وإن كان رحمة للعالمين؛ لأن ما حصل لهم بالإيمان بسبب الرسول ﷺ لم يحصل لغيرهم، وخصوا هنا بالذكر وإن كانوا قد دخلوا في العالمين؛ لحصول مزيتهم[٤]. وعلى هذا يكون المراد بالذين آمنوا: من اتبعه واهتدى بهداه، وصدَّق بما جاء به من عند ربه؛ لأن الله استنقذهم به من الضلالة، وأورثهم باتِّباعه جنّاته[٥]؛ ولذا قال أبو الليث السمرقندي: "﴿لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ﴾ في السر والعلانية»[٦]. ويؤيد هذا القول: قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ يُرِيدُ﴾ فهو مقابل قوله: ﴿وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ﴾ على إيذاء الرسول

(١) انظر: مفاتيح الخير التفسير الكبير، محمد بن عمر الرازي (٩٤/١٦).
(٢) انظر: التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور (٢٤٣/١٠).
(٣) انظر: تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار)، محمد رضا (١٠/ ٤٤٨).
(٤) انظر: البحر المحيط في التفسير، أبو حيان الأندلسي (٥/ ٤٤٩).
(٥) انظر: جامع البيان في تأويل القرآن، الطبري (٥٣٩/١١)، التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور (٢٤٤/١٠)، تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار)، محمد رضا (٤٤٨/١٠)
(٦) انظر: بحر العلوم، نصر بن محمد السمرقندي (٥٨/٢).

ﷺ بالقول أو الفعل ينافي الإيمان الذي هو سبب الرحمة، فجزاؤه ضد جزائه وهو العذاب الشديد الإيلام[١]. وقيل: إنَّ المراد بالذين آمنوا هنا: المتظاهرين بالإيمان المبطنين للكفر، وهم المنافقون[٢]. وكونه رحمة لهم؛ لأنه قبل منهم الإيمان الظاهر لا تصديقًا لهم بل رفقًا بهم، ولم يكشف أسرارهم ولم يهتك أستارهم، وأنه رحمة لهم بقبول ظواهرهم ومعاملتهم بها معاملة المؤمنين[٣]. ويؤيد هذا أن الله قال: ﴿لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ فعبر عنهم بالفعل، ولم يقل المؤمنين بالوصف[٤]. وهذا القول لم يرتضه عدد من أهل العلم؛ لأن النبي ﷺ إنما بعث رحمة لمن آمن به حقًا، وأما غير المؤمنين فإنهم لم يقبلوا هذه الرحمة بل ردوها، فخسروا دنياهم وآخرتهم[٥]. وأما قولهم: إن الله قال: ﴿لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ فعبر عنهم بالفعل، ولم يقل المؤمنين بالوصف؛ فهذا القول ضعيف؛ لأن كثيرًا ما ناط التنزيل الجزاء على الإيمان بالتعبير عن أهله بالفعل الماضي[٦]. وأما تفسيرهم كونه رحمة بالمنافقين بستره عليهم وقبول الإيمان منهم ظاهرًا؛ فهو خطأ أيضًا؛ لأن ذلك يُعدُّ استدراجًا من الله لهم، وكيف يكون رحمة لهم وهم يعيشون في الدنيا في أسوأ حال، وهم يتوقعون في كل يوم أن يوقع بهم النبي ﷺ إذا انكشفوا وظهرت حقيقتهم، وسيؤول أمرهم في الآخرة إلى أسوأ حال، حيث يكونون في الدرك الأسفل من النار؟![٧]، ولما كان كل منهم يدعي الإيمان كان قوله ﴿مِنكُمْ﴾، تعريضًا

(١) انظر: تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار)، محمد رشيد رضا (٤٤٩/١٠).
(٢) انظر: التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور (٢٤٤/١٠).
(٣) انظر: الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، محمود الزمخشري (٦١/٣)، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، أبو السعود العمادي، (٤/ ٧٧)، فتح القدير، محمد الشوكاني (٥٣٥/٢)، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، شهاب الدين الآلوسي (١٢٧/١٠).
(٤) انظر: تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار)، محمد رضا (٤٤٨/١٠).
(٥) انظر: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن السعدي (ص٣٤٢)، تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار)، محمد رضا (٤٤٨/١٠)، تفسير المراغي، أحمد مصطفى المراغي (١٤٨/١٠)، المنافقون في القرآن الكريم، عبدالله الحميدي (ص: ٤١٩).
(٦) انظر: تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار)، محمد رضا (٤٤٨/١٠).
(٧) انظر: المنافقون في القرآن الكريم، عبدالله الحميدي (ص: ٤١٩).

بغير الصادقين منهم. والذي يظهر لي والله أعلم ثبوت رحمة النبي ﷺ للمنافقين أخذًا من قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾ [الأنبياء]. قال ابن القيم في تفسير هذه الآية: "... وأما المنافقون فحصل لهم بإظهار الإيمان به حقن دمائهم وأموالهم وأهلهم واحترامها وجريان أحكام المسلمين عليهم في التوارث وغيره"(١). و قال محمد رشيد رضا: "وتخصيص رأفته ورحمته ﷺ بالمؤمنين في مقابلة ما أمر به من الغلظة على الكفار والمنافقين - لا يعارض كون رسالته رحمة للعالمين، كما هو ظاهر، فإن هذه الرحمة مبذولة لجميع الأمم، لعموم بعثته ﷺ ولكن منهم من قبلها ومنهم من ردَّها، وقد بينَّا في تفسير ﴿وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡ﴾ [التوبة: ٧٣] أنه إنما أمر بذلك صلوات الله تعالى عليه، لأن الغالب على طبعه الشريف الرقة والرحمة والأدب في المقابلة والمعاشرة"(٢)، وقد قال تعالى: ﴿وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلۡقَلۡبِ لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَ﴾ [آل عمران:١٥٩]. وقد اشتملت هذه الآية بوجازة ألفاظها على مدح الرسول عليه السلام، ومدح مرسله ﷻ، ومدح رسالته؛ بأن كانت مظهر رحمة الله ﷻ للناس كافة، وبأنها رحمة الله ﷻ بخلقه(٣).

والرحمة على عمومها في الآية الكريمة، وهذا العموم يحتمل وجهين: أحدهما: أن عموم العالمين حصل لهم النفع برسالته(٤)؛ لأن الناس كانوا ثلاثة أصناف: مؤمن، وكافر، ومنافق، وكان رحمة للمؤمنين، حيث هداهم طريق الجنة، ورحمة للمنافقين حيث أمنوا القتل، ورحمة للكافرين بتأخير العذاب(٥). الوجه الثاني: أنه رحمة لكل أحد، لكنَّ المؤمنين قبلوا

(١) انظر: جلاء الأفهام في فضل الصلاة على محمد خير الأنام، ابن قيم الجوزية (ص: ١٩٦). وأما دلالة الآية الكريمة على رحمته ﷺ بالمنافقين على قراءة الخفض ففيها عدم ظهور لهذا المعنى كما تقدم النقل عن الشنقيطي.
(٢) انظر: تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار)، محمد رضا (٧٢/١١).
(٣) انظر: التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور (١٦٥/١٧).
(٤) انظر: جامع البيان في تأويل القرآن، الطبري (٥٥٢/١٨).
(٥) انظر: بحر العلوم، السمرقندي (٣٨٢/٢)، جلاء الأفهام، ابن قيم الجوزية (ص: ١٩٦).

هذه الرحمة فانتفعوا بها دنيا وأخرى، والكفار ردوها، فلم يخرج بذلك عن أن يكون رحمة لهم لكن لم يقبلوها[1].

المطلب الثاني
استغفار النبي ﷺ للمنافقين

كان النبي ﷺ يسعى في إيصال الخير والرحمة إلى المنافقين بالاستغفار لهم تارة وبدعوتهم تارة أخرى مع كونهم في غاية الخبث والخزي، حيث قابلوا إحسانه بالإساءة وخيراته بالشرور، مع علمه ﷺ أن الاستغفار لا يفيد شيئًا، ولا ينفع لمثل حال أولئك المنافقين لكن شفقة منه ﷺ عليهم ورحمة بهم، استغفر لبعضهم.

الآية الأولى: قال تعالى: ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [التوبة: ٨٠].

قال ابن كثير "يخبر ﷻ نبيه ﷺ بأن هؤلاء المنافقين ليسوا أهلًا للاستغفار، وأنه لو استغفر لهم، ولو سبعين مرة، فإن الله لا يغفر لهم. وقد قيل: إن السبعين إنما ذكرت حسمًا لمادة الاستغفار لهم؛ لأن العرب في أساليب كلامها تذكر السبعين في مبالغة كلامها، ولا تريد التحديد بها، ولا أن يكون ما زاد عليها بخلافها"[2]. وقال الشوكاني "وليس المراد من هذا أنه لو زاد على السبعين لكان ذلك مقبولًا كما في سائر مفاهيم الأعداد، بل المراد بهذا المبالغة في عدم القبول. فقد كانت العرب تجري ذلك مجرى المثل

(١) انظر: جلاء الأفهام، ابن قيم الجوزية (ص: ١٩٦)، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (٣٨٥/٥)، أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، محمد الشنقيطي (٢٨٨/٤)، و تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن السعدي (ص: ٥٣٢).

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١٨٨/٤).

في كلامها عند إرادة التكثير، والمعنى: أنه لن يغفر الله لهم، وإن استغفرت لهم استغفارًا بالغًا في الكثرة، غاية المبالغ"[1]، فهذه الآية دلت على أن الاستغفار لا ينفع لمثل حال أولئك المنافقين، لكن شفقة منه ﷺ ورحمة بهم استغفر لبعضهم مع علمه ﷺ أن الاستغفار لا يفيدهم شيئًا، وذلك عندما طلب ابن عبدالله بن أبي ابن سلول من النبي ﷺ أن يصلي على أبيه وأن يشعره قميصه، فعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: (لما توفي عبدالله بن أُبي جاء ابنه عبدالله بن عبدالله إلى رسول الله ﷺ فسأله أن يعطيه قميصه يكفن فيه أباه، فأعطاه ثم سأله أن يصلي عليه، فقام رسول الله ﷺ ليصلي، فقام عمر فأخذ بثوب رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله تصلي عليه وقد نهاك ربك أن تصلي عليه؟ فقال رسول الله ﷺ: «إنما خيرني الله فقال: ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً﴾ وسأزيده على السبعين»، قال: إنه منافق، قال: فصلى عليه رسول الله ﷺ فأنزل الله ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ﴾[2]. وقول ابن حجر في شرحه لهذا الحديث قد جلَّى الاستشكال الذي في هذا الحديث من أن النبي ﷺ لم يأخذ بقول عمر رضي الله عنه في الصلاة على عبدالله بن أبي ابن سلول فنقل قول الخطابي في ذلك وأن النبي ﷺ فعل ذلك لكمال شفقته على من تعلق بطرف من الدين ولتَطْيِيب قلب ولده فقال: وإنما لم يأخذ النبي ﷺ بقوله وصلى عليه إجراء له على ظاهر حكم الإسلام واستصحابًا لظاهر الحكم، ولما فيه من إكرام ولده الذي تحققت صلاحيته ومصلحة الاستئلاف لقومه، ودفع المفسدة، وكان النبي ﷺ في أول الأمر يصبر على أذى المشركين ويعفو ويصفح، ثم أمر بقتال المشركين فاستمر صفحه وعفوه عمن يظهر الإسلام ولو كان باطنه

(١) انظر: فتح القدير، محمد الشوكاني (٥٤٩/٢).
(٢) أخرجه البخاري، كتاب التفسير، بَابُ قَوْلِه: ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾ [النمل:٧]، حديث رقم: (٤٦٧٠)، (٦٧/٦)، ومسلم في صحيحه، كتاب صفات المنافقين وأحكامهم، حديث رقم: (٣)، (١٢٨٠/٢).

على خلاف ذلك؛ مصلحةً للاستئلاف وعدم التنفير عنه؛ ولذلك قال: (لا يتحدث الناس أن محمدا يقتل أصحابه)، فلما حصل الفتح ودخل المشركون في الإسلام، وقلَّ أهل الكفر وذلوا، أمر بمجاهرة المنافقين، وحملهم على حكم مر الحق، ولا سيما وقد كان ذلك قبل نزول النهي الصريح عن الصلاة على المنافقين، وغير ذلك مما أمر فيه بمجاهرتهم وبهذا التقرير يندفع الإشكال عما وقع في هذه القصة بحمد الله ﷻ.

ويقول د. صلاح الخالدي: "ولكن الرسول ﷺ غلب جانب الرحمة والشفقة من رسالته وشخصيته فصلى عليه، ومشى في جنازته ووقف على قبره»[1].

الآية الثانية: قال تعالى: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ [التوبة: ٨٤]. قال الطبري: "يقول جل ثناؤه لنبيه محمد ﷺ: ولا تصلِّ، يا محمد، على أحد مات من هؤلاء المنافقين الذين تخلفوا عن الخروج معك أبدًا ﴿وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ﴾، يقول: ولا تتولَّ دفنه وتقبيره»[2]، حيث ورد في سبب نزول هذه الآية أنه لما توفي عبدالله بن أبي جاء ابنه إلى رسول الله صلوات الله عليه وقال: أعطني قميصك حتى أكفنه فيه وأصلي عليه واستغفر له، فأعطاه قميصه ثم قال: «آذني حتى أصلي عليه»، فآذنه، فلما أراد أن يصلي عليه جذبه عمر بن الخطاب وقال: أليس قد نهاك الله أن تصلي على المنافقين؟ فقال: «أنا بين خيرتين: استغفر لهم أو لا تستغفر»، ثم نزلت عليه هذه الآية: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ﴾ فترك الصلاة عليهم[3]، ويقول القرطبي: "في توجيه استغفار النبي ﷺ

(١) انظر: عتاب الرسول ﷺ في القرآن تحليل وتوجيه، د. صلاح عبدالفتاح (ص: ٧٦).
(٢) انظر: جامع البيان في تأويل القرآن، الطبري (١١/ ٦١٠).
(٣) تقدم تخريجه.

للمنافقين وصلاته على ابن أبي ابن سلول «وأما الاستغفار للمنافقين الذي خير فيه فهو استغفار لساني لا ينفع وغايته تطييب قلوب بعض الأحياء من قرابات المستغفر له. والله أعلم"[1].

الآية الثالثة: قال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسۡتَغۡفِرُواْ لِلۡمُشۡرِكِينَ وَلَوۡ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرۡبَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ﴾ [التوبة: ١١٣]. هذه الآية اختلف أهل التأويل في نزولها على أربعة أقوال: فقال بعضهم: نزلت في شأن أبي طالب عم النبي ﷺ؛ لأن النبي ﷺ أراد أن يستغفر له بعد موته، وقال آخرون: بل نزلت في سبب أمِّ رسول الله ﷺ، وذلك أنه أراد أن يستغفر لها، فمنع من ذلك. وقال آخرون: بل نزلت من أجل أن قومًا من أهل الإيمان كانوا يستغفرون لموتاهم من المشركين، فنهوا عن ذلك. وقد تأوّل قوم قولَ الله: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسۡتَغۡفِرُواْ لِلۡمُشۡرِكِينَ وَلَوۡ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرۡبَىٰ﴾، الآية أنّ النهي من الله عن الاستغفار للمشركين بعد مماتهم، لقوله: «من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم» وقال آخرون نزلت في رجل استغفر لأبويه، وكانا مشركين، فقال له علي بن أبي طالب: أتستغفر لهما وهما مشركان؟ فقال: أولم يستغفر إبراهيم لأبيه؟ فذكر ذلك عليّ للنبي ﷺ فنزلت هذه الآية والتي بعدها[2]. والذي عليه جمهور المفسرين أن الآية نزلت في أبي طالب٠قال ابن عطية: "واختلف المفسرون في سبب هذه الآية، فقال الجمهور: ومداره على ابن المسيب وعمرة بن دينار، نزلت في شأن أبي طالب»[3] فعن سعيد بن المسيب، عن أبيه قال: لما حضر أبا طالب الوفاة دخل عليه رسول الله ﷺ وعنده أبو جهل وعبدالله بن أبي أمية فقال: (أي عم قل معي لا إله إلا الله

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٣٢٢/١٠).
(٢) انظر: جامع البيان في تأويل القرآن، الطبري (١٩/١٢-٢٤)، زاد المسير في علم التفسير، لجمال الدين ابن الجوزي (٥٠٧/٣).
(٣) انظر: المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، لابن عطية (٩٠/٣).

أحاج لك بها عند الله)، فقال أبو جهل وابن أبي أمية: يا أبا طالب أترغب عن ملة عبدالمطلب؟ فلم يزالا يكلمانه حتى قال آخر شيء كلمهم به على ملة عبدالمطلب، فقال النبي ﷺ: (والله لأَسْتَغْفِرَنَّ لك ما لم أُنْهَ عنك)، فنزلت: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾»[1] أما بالنسبة لكلام المفسرين عن هذه الآية فقال أبو حيان: "ودلت الآية على المبالغة في إظهار البراءة عن المشركين والمنافقين والمنع من مواصلتهم ولو كانوا في غاية القرب، ونبه على الوصف الشريف من النبوة والإيمان، وأنه مناف للاستغفار لمن مات على ضده وهو الشرك بالله"[2]. والآية متضمنة لقطع الموالاة للكفار، وتحريم الاستغفار لهم، والدعاء بما لا يجوز لمن كان كافرًا، ولا ينافي هذا ما ثبت عنه ﷺ في الصحيح أنه قال يوم أحد حين كسر المشركون رباعيته وشجوا وجهه: (اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون)؛ لأنه يمكن أن يكون ذلك قبل أن يبلغه تحريم الاستغفار للمشركين، وعلى فرض أنه قد كان بلغه، كما يفيده سبب النزول، فإنه كان قبل يوم أحد بمدّة طويلة، فصدور هذا الاستغفار منه لقومه إنما كان على سبيل الحكاية عمن تقدّمه من الأنبياء، فعن عبدالله، قال: كأني أنظر إلى النبيّ ﷺ يحكي نبيًا من الأنبياء ضربه قومه، وهو يمسح الدم عن وجهه ويقول: «ربّ اغفر لقومي، فإنهم لا يعلمون»[3] وفي البخاري، قال عبدالله: كأني أنظر إلى النبي ﷺ، يحكي نبيًا من الأنبياء، ضربه قومه فأدموه، وهو يمسح الدم عن وجهه ويقول: «اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون»[4] قوله:

(١) أخرجه البخاري، كتاب التفسير، باب قوله: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ﴾ [التوبة:١١٣]، حديث رقم: (٤٦٧٥)، (٦/ ٦٩)، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب: باب أول الإيمان قول لا إله إلا الله، حديث رقم: (٣٩)، (١/ ٣٣).
(٢) انظر: البحر المحيط في التفسير، أبو حيان الأندلسي (٥/ ١٠٨).
(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب: الجهاد والسير، باب: غزوة أحد، حديث رقم: (١٠٥)، (٢/ ٨٦٢).
(٤) أخرجه البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب: حديث الغار: حديث رقم: (٣٤٧٧)، (٤/ ١٧٦).

﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ﴾ هذه الجملة تتضمن التعليل للنهي عن الاستغفار، والمعنى: أن هذا التبيين موجب لقطع الموالاة لمن كان هكذا، وعدم الاعتداد بالقرابة؛ لأنهم ماتوا على الشرك.

وقد قال ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ﴾ [النساء: ٤٨]؛ فطلب المغفرة لهم في حكم المخالفة لوعد الله ووعيده»[1].

(١) انظر: فتح القدير، محمد الشوكاني (٢/ ٥٨٠).

الخاتمة

الحمد لله الذي امتنّ علينا بنبي الرحمة ﷺ، وجعله رحمة للعالمين، وبعد تلك الرحلة العلمية الممتعة، يحسن إيراد بعض النتائج والتوصيات التي تم التوصل إليها من خلال البحث، والمتلخصة فيما يأتي:

١. لفظ الرحمة من الألفاظ العامة والشاملة، التي يدخل في معناها كل خير ونفع يعود إلى الإنسان في دنياه وآخرته.

٢. وردت ألفاظ في القرآن الكريم، هي نظائر لكلمة الرحمة، حيث تقاربها في المعنى والدلالة وهي: اللين، الحنان، الرأفة.

٣. دلت هذه الدراسة على أن الرحمة أصل من أصول الأخلاق؛ فلابد أن تعطى حقها من الإيضاح والدعوة.

٤. أبانت هذه الدراسة فطرية الرسول ﷺ على الرحمة، وتأصلها في خلقه ونفسه، بدلالة آيات الكتاب العزيز.

٥. أشاد الله ببيان رحمته ﷺ؛ ولذا فبيان رحمته أمر في غاية الأهمية للمسلمين وغيرهم.

٦. يؤكد البحث أن الرسول ﷺ كان رحيمًا بأعدائه مشفقًا عليهم، بل كان يدعو لهم بالهداية، ولا يدعو عليهم بالهلاك.

٧. أشار البحث إلى أن مبعثه ﷺ رحمة للعالمين.

٨. أكدت الآيات سعي النبي ﷺ في إيصال الخير والنفع إلى المنافقين، رحمة بهم مع كونهم في غاية الخبث والخزي.

التوصيات:

١. تركيز المؤتمرات حول جانب معين من جوانب شخصيته ﷺ؛ لتعميق الدراسات حوله.

٢. إفراد مصنفات في جوانب رحمته ﷺ، وخاصة جانب رحمته بأعدائه؛ لأنه الأكثر دلالة وقوة.

٣. التغطية الإعلامية المباشرة لوقائع المؤتمر بلغات مختلفة، وعلى فضائيات متنوعة، حيث يسهم هذا في الدفاع عنه ﷺ.

فهرس المصادر والمراجع

١. إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، أبو السعود، محمد ابن محمد العمادي (ت: ٩٨٢هـ)، تحقيق: عبدالقادر أحمد عطا، مطبعة السعادة- مصر، دون ذكر الطبعة والتاريخ.

٢. أسباب النزول، أبو الحسن علي بن أحمد الواحدي، (ت: ٤٦٨هـ)، تحقيق: كمال بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية - بيروت، ط١، ١٤١١هـ.

٣. أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، محمد الأمين بن محمد المختار الشنقيطي (ت: ١٣٩٣هـ)، تحقيق: بكر بن عبدالله أبو زيد، دار عالم الفوائد- مكة، دون ذكر الطبعة والتاريخ

٤. إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان، محمد بن أبي بكر بن أيوب ابن قيم الجوزية (ت: ٧٥١هـ)، تحيق: علي بن حسن الحلبي، دار ابن الجوزي- الدمام، دون ذكر الطبعة التاريخ.

٥. بحر العلوم، لنصر بن محمد السمرقندي، تحقيق: عادل أحمد عبدالموجود، علي محمد معوض، وآخرون، دار الكتب العلمية- بيروت، ط١، ١٤١٣هـ-١٩٩٣م.

٦. البحر المحيط، أبو حيان محمد بن يوسف بن حيان (ت: ٧٤٥هـ)، تحقيق: عادل أحمد عبدالموجود، علي محمد معوض، دار الكتب العلمية- بيروت، ط١، ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م.

٧. تفسير أسماء الله الحسنى، أبو إسحاق، إبراهيم بن السري الزجاج (ت: ٣١١هـ)، تحقيق: أحمد يوسف الدقاق، دار المأمون للتراث- بيروت، ط٥، ١٤٠٦هـ- ١٩٨٦م.

٨. التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور، محمد الطاهر بن عاشور (ت: ١٣٩٣هـ) دار سحنون-تونس، ١٩٨٤م، دون ذكر الطبعة.
٩. تفسير القرآن، أبو المظفر، منصور بن محمد السمعاني (ت: ٤٨٩هـ)، تحقيق: أبي تميم ياسر بن إبراهيم، دار الوطن- الرياض، ط١، ١٤١٨هـ-١٩٩٧م.
١٠. تفسير القرآن العظيم، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير (ت: ٧٧٤هـ)، تحقيق: سامي بن محمد سلامة، دار طيبة- الرياض، ط٢، ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م.
١١. تفسير القرآن الكريم، من سورة الحجرات وحتى الحديد، محمد ابن صالح العثيمين، دار الثريا- عنيزة، ط١، ١٤٢٥هـ-٢٠٠٤م.
١٢. التفسير القرآني للقرآن، عبدالكريم يونس الخطيب (ت: بعد ١٣٩٠هـ)، دار الفكر العربي - القاهرة، دون ذكر الطبعة والتاريخ.
١٣. تفسير الماتريدي، تأويلات أهل السنة، أبو منصور، حمد بن محمد الماتريدي (ت: ٣٣٣هـ)، تحقيق: مجدي باسلوم، دار الكتب العلمية - بيروت، ط١، ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م
١٤. تفسير المراغي، أحمد بن مصطفى المراغي (ت: ١٣٧١هـ)، مطبعة مصطفى البابى الحلبي وأولاده- مصر
١٥. التفسير الوسيط للقرآن الكريم، محمد سيد طنطاوي، دار نهضة مصر- القاهرة، ط١، ١٩٩٨م.
١٦. تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن بن ناصر السعدي (ت: ١٣٧٦هـ)، تحقيق: عبدالرحمن بن معلا اللويحق، مؤسسة الرسالة- بيروت، ط١، ١٤٢٣هـ-٢٠٠٢م.
١٧. الرحمة في القرآن الكريم، موسى عبده عسيري، مكتبة الرشد- الرياض، ط١، ١٤١٢هـ- ١٩٩١م.

١٨. جامع البيان عن تأويل آي القرآن، أبو جعفر، محمد بن جرير الطبري (ت: ٣١٠هـ)، تحقيق: عبدالله بن عبدالمحسن التركي، دار هجر- القاهرة، ط١، ١٤٢٢هـ-٢٠٠١م.
١٩. الجامع لأحكام القرآن، أبو عبدالله محمد بن أحمد القرطبي (ت: ٦٧١هـ)، تحقيق: عبدالله بن عبدالمحسن التركي، مؤسسة الرسالة- بيروت، ط١، ١٤٢٧هـ- ٢٠٠٦م.
٢٠. جلاء الأفهام في فضل الصلاة على محمد خير الأنام، محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية (ت: ٧٥١هـ)، تحقيق: زائد بن أحمد النشيري، دار عالم الفوائد- مكة، دون ذكر الطبعة والتاريخ.
٢١. دار الكتب العلمية- بيروت، ط١، ١٤١٥هـ - ١٩٩٤م.
٢٢. رحمة للعالمين محمد رسول الله، نشأته وأخلاقه ومعجزاته وعموم رسالته ﷺ في ضوء الكتاب والسنة، سعيد بن علي بن وهف القحطاني، مؤسسة الجريسي- الرياض، ط١، ١٤٢٧هـ-٢٠٠٦م.
٢٣. الرسالة المحمدية وشواهدها، محمود عبدالوهاب، مكتبة القاهرة- القاهرة، ط١، ١٣٨٩هـ- ١٩٦٩م.
٢٤. روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، لشهاب الدين الآلوسي، اعتنى به: السيد محمود شكري الآلوسي، دار إحياء التراث-بيروت، دون ذكر الطبعة والتاريخ.
٢٥. زاد المسير في علم التفسير، جمال الدين أبو الفرج عبدالرحمن ابن علي بن محمد الجوزي (المتوفى: ٥٩٧هـ)، المكتب الإسلامي- دمشق، ط٤، ١٤٠٤هـ-١٩٨٤م.
٢٦. صحيح البخاري، أبو عبدالله، محمد بن إسماعيل البخاري، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة، ط١، ١٤٢٢هـ.
٢٧. صحيح مسلم، أبو الحسن، مسلم بن الحجاج النيسابوري (ت: ٢٦١هـ)،

تحقيق: أبو قتيبة نظر بن محمد الفاريابي، دار طيبة- الرياض، ط١، ١٤٢٧هـ- ٢٠٠٦م.

٢٨. ط١، ١٣٦٥هـ - ١٩٤٦م.

٢٩. عتاب الرسول ﷺ في القرآن تحليل وتوجيه، صلاح عبدالفتاح الخالدي، دار القلم- دمشق، دون ذكر الطبعة والتاريخ.

٣٠. فتح الرحيم الملك العلام في علم العقائد والتوحيد والأخلاق والأحكام المستنبطة من القرآن، عبدالرحمن السعدي' اعتنى به: عبدالرزاق بن عبدالمحسن البدر، دار الفضيلة- الجزائر، ط١، ١٤٣٠هـ-٢٠٠٩م.

٣١. فتح القدير، لمحمد علي الشوكاني، تحقيق: عبدالرحمن عميرة، دار الوفاء- مصر، ط٢، ١٤١٨هـ-١٩٩٧م.

٣٢. الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، أبو القاسم محمود بن عمرو الزمخشري (ت: ٥٣٨هـ)، تحقيق: عادل أحمد عبدالموجود، علي محمد معوض، وآخرون، مكتبة العبيكان- الرياض، ط١، ١٤١٨هـ- ١٩٩٨م.

٣٣. الكليات، أبو البقاء، أيوب بن موسى الكفوي، تحقيق: عدنان درويش ومحمد المصري، دار: الرسالة- بيروت، ط٢، ١٤١٩ه-١٩٩٨م.

٣٤. لسان العرب، أبو الفضل، محمد بن مكرم بن على، جمال الدين ابن منظور الأنصاري (ت: ٧١١هـ)، تحقيق: أمين محمد عبدالوهاب ومحمد الصادق العبيدي، دار إحياء التراث- بيروت، ط٣، ١٤١٩هـ- ١٩٩٩م.

٣٥. مجاز القرآن، أبو عبيدة معمر بن المثنى البصري (ت: ٢٠٩هـ)، تحقيق: محمد فواد سزكين، مكتبة الخانجى - القاهرة، ١٣٨١هـ، دون ذكر الطبعة.

٣٦. مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف- المدينة النبوية، ١٤٢٥هـ- ٢٠٠٤م، دون ذكر الطبعة.
٣٧. مجموع الفتاوى، أبو العباس، أحمد بن عبدالحليم بن تيمية (ت: ٧٢٨هـ)، تحقيق: عبدالرحمن بن قاسم، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف- المدينة المنورة، ١٤٢٥هـ-٢٠٠٤م، دون ذكر الطبعة.
٣٨. المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، أبو محمد عبدالحق بن غالب بن عطية (ت: ٥٤٢هـ)، تحقيق: عبدالسلام محمد، دار الكتب العلمية - بيروت، ط١، ١٤٢٢هـ.
٣٩. المخصص، أبو الحسن علي بن إسماعيل بن سيده المرسي (ت: ٤٥٨هـ)، تحقيق: خليل جفال، دار إحياء التراث العربي - بيروت، ط١، ١٤١٧هـ ١٩٩٦م.
٤٠. مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية (ت: ٧٥١هـ)، تحقيق: رضوان جامع رضوان، مؤسسة المختار- القاهرة، ط١، ١٤٢٢هـ-٢٠٠١م.
٤١. معالم التنزيل في تفسير القرآن، أبو محمد، الحسين بن مسعود البغوي (ت: ٥١٠هـ). تحقيق: محمد النمر وعثمان ضميرية وسليمان الحرش، دار طيبة- الرياض، ط٤، ١٤١٧ه-١٩٩٧م.
٤٢. مفاتيح الغيب، أبو عبدالله محمد بن عمر الرازي (ت: ٦٠٦هـ)، دار إحياء التراث العربي- بيروت، ط٣، ١٤٢٠هـ.
٤٣. المفردات في غريب القرآن، أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني (ت:٥٠٢هـ)، تحقيق: مركز الدراسات والبحوث بمكتبة نزار مصطفى الباز، مكتبة: نزار مصطفى الباز، دون ذكر الطبعة والتاريخ.

٤٤. مقاييس اللغة، أبو الحسين، أحمد بن فارس بن زكريا الرازي، (ت: ٣٩٥هـ)، تحقيق: عبدالسلام هارون، دار الفكر- بيروت، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م، من دون ذكر الطبعة.

٤٥. المنافقون في القرآن الكريم، عبدالله الحميدي، دار المجتمع- جدة، ط١، ١٤٠٩ه- ١٩٨٩م.

٤٦. النهاية في غريب الحديث والأثر، أبو السعادات، محمد بن محمد بن ابن الأثير (ت:٦٠٦هـ)، طاهر أحمد الزاوى ومحمود محمد الطناحي، المكتبة العلمية - بيروت، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م، دون ذكر الطبعة.

٤٧. الوسيط في تفسير القرآن المجيد، أبو الحسن علي بن أحمد الواحدي، (ت: ٤٦٨هـ)، تحقيق: عادل أحمد عبدالموجود، علي محمد معوض، وآخرون، دار الكتب العلمية- بيروت، ط١، ١٤١٥هـ- ١٩٩٤م.



مظاهر الرحمة
في حفظ الضرورات الخمس
من خلال سورة البقرة

إعداد:
د. عبدالله بن سالم بن يسلم بافرج
أستاذ التفسير وعلومه المشارك
جامعة أم القرى
كلية الشريعة والدراسات الإسلامية
مركز الدراسات الإسلامية



المقدمة

إن الحمد لله نحمده، ونستعينه، ونستهديه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾﴾ [النساء]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾﴾ [الأحزاب]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾﴾ [الحشر]، أما بعد: فإن أصدق الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمد ﷺ، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة[1].

وإنّ من المواضيع التي ينبغي دراستها وإمعان النظر فيها لتجليتها وإيضاحها لعموم الناس بيان رحمة الله ﷻ، الذي خلق الخلق برحمته، وأرسل إليهم الرسل برحمته، وأمرهم ونهاهم وشرع لهم الشرائع برحمته،

(١) هذه خطبة الحاجة التي رواها جابر بن عبدالله ﷺ وابن عباس ﷺ عن النبي ﷺ، أخرجها مسلم في صحيحه، في كتاب: الجمعة، باب: تخفيف الصلاة والخطبة ١١/١، ح: (٢٠٤٢)، (٢٠٤٥).

وأسبغ عليهم نعمه الظاهرة والباطنة برحمته، ودبر لهم أنواع التدبير وصرفهم بأنواع التصريف برحمته، وملأ الدنيا والآخرة من رحمته، فلا طابت الأمور، ولا تيسرت الأشياء، ولا حصلت المقاصد وأنواع المطالب إلا برحمته، ورحمته فوق ذلك، وأجل وأعلى[1]، ومظاهر رحمة الله ﷻ كثيرة لا تعد ولا تحصى؛ فحاولت الكتابة في بيان مظاهر رحمة الله ﷻ في حفظ الضرورات الخمس، والمقصود بها: الدين، والنفس، والعقل، والنسل، والمال، وسميت بذلك؛ لأن الإنسان مضطر إليها، ومحتاج إليها في غاية درجات الاحتياج، وجاءت شريعة الإسلام بأحكام وافية لحفظ هذه الضروريات الخمس، سواء من حيث الوجود؛ إذ شرعت لها ما يحقق وجودها في المجتمع، أو من حيث البقاء والاستمرار بإنمائها وحمايتها من أسباب الفساد والزوال، وبحفظها يعيش المسلم في هذه الدنيا آمنا مطمئنًا يعمل لدنياه وآخرته، ويعيش المجتمع المسلم أمة واحدة متماسكة، وبفقدها لم تجرِ حياة الناس في الدنيا على استقامة، وإنما تتعطل معايشهم، ويعتريها الفساد، وكذلك حياتهم الأخروية يعتريها الفساد من جهة فوات النعيم المقيم في الجنة؛ فحاولتُ جاهدًا للكتابة في هذا الموضوع من خلال سورة البقرة؛ لاشتمالها على هذه الضرورات واخترت عنوان البحث: (**مظاهر الرحمة في حفظ الضرورات الخمس من خلال سورة البقرة**)، وسأقتصر على عرض بعض آيات من السورة المباركة.

أسباب اختيار الموضوع:

أسباب اختيار الموضوع ترجع لأمور:

١. الحاجة لتأصيل خلق الرحمة من خلال القرآن الكريم، وقد اخترت بيان مظاهر الرحمة في حفظ الضرورات الخمس من خلال سورة البقرة.

(١) ينظر: تفسير أسماء الله الحسنى للسعدي ص: ٥١.

٢. أهمية استشعار عظمة رحمة الله ﷻ بعباده، وتناولها لجميع جوانب الحياة اليومية، للفرد والجماعة.

٣. الدفاع عن الإسلام؛ إذ كثر في الآونة الأخيرة جرائم الاعتداء عليه، وعلى ثوابته بشكل لم يعرف له مثيل من قبل ووصفه بما لا يليق من أنه عدواني وهمجي.

٤. المشاركة في المؤتمر الدولي عن الرحمة في الإسلام المقام بجامعة الملك سعود بالرياض المملكة العربية السعودية.

هدف البحث:

بيان كيفية تناول القرآن الكريم لمظاهر رحمة الله ﷻ؛ وذلك من خلال سورة البقرة، وربط الموضوع بالواقع من خلال حفظ الضرورات الخمس.

الدراسات السابقة:

لم أقف على دراسة سابقة في هذا الموضوع بهذا العنوان، والذي وقفت عليه من الدراسات السابقة كان بموضوعات مختلفة، وجزئيات متفرقة.

والجديد في بحثي هذا أنه دراسة تطبيقية على سورة من سور القرآن الكريم، وهي دراسة تساعد الطالب وتفيده وتنمي لديه القدرة على كيفية تناول مثل هذا الموضوع، واستخراج اللطائف والفوائد منه، وربطه بالواقع المعاصر.

مشكلة البحث وتساؤلاته:

يعتبر إبراز مظاهر الرحمة من خلال القرآن الكريم في الوقت

الحاضر الذي كثر فيه الطعن في الإسلام من أهم الأمور التي ينبغي على أهل العلم أن يعتنوا بها؛ لما فيها من بيان عظمة الإسلام وعظمة مبادئه، وهذا البحث يجلي جانبًا من جوانب الرحمة، ألا وهو جانب حفظ الضرورات الخمس التي بها يسعد الإنسان والمجتمع بحفظها.

وتتلخص مشكلة البحث فيما يلي:

١. تجاذب النص الواحد في الاستدلال على نوع الضرورة.

٢. الحيرة في الاستدلال على نوع الضرورة نظرًا للتردد بين العلماء رحمهم الله في ضبط الضرورة وماهيتها.

٣. قلة النصوص عند من اعتنى بأمر الضرورات وما شاكلها خصوصًا ما يتعلق بسورة البقرة.

٤. لم يسبقني أحد فيما علمت في استخراج مثل ذلك في سورة البقرة.

لذلك سيكون هذا البحث إن شاء الله في إبراز مظاهر الرحمة في حفظ الضرورات الخمس من خلال سورة البقرة.

ومن استعراض المشكلة فيما سبق يمكن صياغة تساؤلات الدراسة في أربعة أسئلة رئيسة هي:

١. ما معنى الرحمة؟

٢. هل اشتملت سورة البقرة عليها؟

٣. ما هي مظاهر الرحمة في حفظ الضرورات الخمس؛ وهي الدين والنفس والعقل والنسل والمال من خلال سورة البقرة؟

٤. هل أبرز المفسرون رحمهم الله ﷻ مظاهر الرحمة في حفظ الضرورات الخمس في سورة البقرة؟

خطة البحث:

تكونَّ البحث من مقدمة وتمهيد وخمسة مطالب وخاتمة وفهارس وفق الترتيب الآتي:

المقدمة: فيها أسباب اختيار الموضوع، وهدفه، والدراسات السابقة، وخطة البحث، ومنهجه.

التمهيد: بيان معنى الرحمة واشتمال سورة البقرة عليها.

المطلب الأول: مظاهر الرحمة في حفظ الدين من خلال سورة البقرة.

المطلب الثاني: مظاهر الرحمة في حفظ النفس من خلال سورة البقرة.

المطلب الثالث: مظاهر الرحمة في حفظ العقل من خلال سورة البقرة.

المطلب الرابع: مظاهر الرحمة في حفظ النسل من خلال سورة البقرة.

المطلب الخامس: مظاهر الرحمة في حفظ المال من خلال سورة البقرة.

الخاتمة: أهم النتائج والتوصيات.

الفهارس: وتشمل فهرس المصادر والمراجع وفهرس الموضوعات.

منهج البحث:

١. اعتمدت في البحث على طريقة المنهج الوصفي الذي يجمع بين الاستقراء والتحليل لآيات السورة الكريمة لتتبع مظاهر الرحمة.

٢. رتبت الضرورات حسب ترتيب الغزالي في المستصفى[١].

٣. حاولت جاهدًا أن أنوع بين الآيات، وإن كان في بعضها دلالة على أكثر من ضرورة فإني أكتفي بذكر ضرورة واحدة فقط من خلال تلك الآية المستشهد بها.

(١) ينظر: المستصفى للغزالي ٤١٧/١.

٤. وثقت النصوص التي أنقلها، توثيقًا علميًا دقيقًا من مصادرها الأصلية، ما أمكنني ذلك.

٥. عزوت الآيات القرآنية إلى سورها.

٦. خرجت الأحاديث التي ورد ذكرها، وذكرت أقوال أهل العلم في بيان درجتها.

٧. عند الإحالة إلى صفحة النص المنقول فإن الإحالة تكون للصفحة التي فيها بدايته.

٨. المعول عليه في معرفة طبعات المصادر والمراجع هو الفهرس الخاص بذلك في آخر البحث، وقد التزمت طبعة واحدة لكل كتاب.

٩. ضبطت بالشكل ما يحتاج إلى ضبط، مما قد يُشكل قراءته، ويلتبس نطقه.

١٠. ذيلت البحث بفهارس للمصادر والمراجع، والموضوعات.

وفي الختام أسأل الله تبارك وتعالى أن يتقبل مني هذا العمل، وأن يجعله خالصًا لوجهه الكريم، وأن يكون موافقًا للصواب، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

التمهيد
بيان معنى الرحمة
واشتمال سورة البقرة عليها

أثبت الله ﷻ لنفسه صفة الرحمة، وهي حقيقية دلّ عليها السمع، والعقل؛ أما السمع: فهو ما جاء في الكتاب والسنّة من إثبات الرحمة لله، وهو كثير جدًا، وأما العقل: فكل ما حصل من نعمة، أو اندفع من نقمة فهو من آثار رحمة الله[1].

والرحمن والرحيم اسمان من أسماء الله ﷻ يدلان على الذات، وعلى صفة الرحمة، وعلى الأثر؛ أي: الحكم الذي تقتضيه هذه الصفة[2]، ذهب الجمهور إلى أن الرحمن اسم مشتق من الرحمة مبني على المبالغة؛ إذ بناء فعلان يدل على المبالغة، ومعناه: ذو الرحمة التي لا نظير له فيها؛ ولذلك لا يُثنى ولا يجمع، كما يُثنى الرحيم ويجمع، قال الخطابي رحمه الله: "فالرحمن ذو الرحمة الشاملة التي وسعت الخلق في أرزاقهم، وأسباب معايشهم، ومصالحهم، وعمت المؤمن والكافر، والصالح والطالح، وأما الرحيم فخاص للمؤمنين كقوله: ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب:٤٣]، والرحيم وزنه فعيل بمعنى فاعل، أي: راحم، وبناء فعيل أيضًا للمبالغة

(١) ينظر: تفسير ابن عثيمين ٢/٢.
(٢) ينظر: تفسير ابن عثيمين ٢/٢.

كعالم وعليم، وقادر وقدير"[1]، ورحمن أشد مبالغة من رحيم، وفي تفسير بعض السلف ما يدل على ذلك[2]؛ فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: الرحمن وهو: الرقيق، الرحيم وهو: العاطف على خلقه بالرزق، وهما اسمان رقيقان، أحدهما أرق من الآخر[3].

وهما صفتان من صفات الله تعالى يثنى عليه بهما، ويعظم بهما؛ ففي الحديث عن أبي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قال سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: قَسَمْتُ الصَّلاَةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ؛ فَإِذَا قَالَ الْعَبْدُ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾ [الفاتحة]، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: حَمِدَنِي عَبْدِي، وَإِذَا قَالَ: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣﴾ [الفاتحة]، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: أَثْنَى عَلَيَّ عَبْدِي»... الحديث.[4]

وورد اسم الرحمن في القرآن الكريم سبعًا وخمسين مرة، وورد اسم الرحيم خمسًا وتسعين مرة.[5]

وجاء وصف القرآن الكريم بأنه رحمة في أحدى عشرة آية في تسع سور، وهي: الأنعام والأعراف ويونس ويوسف والنحل والإسراء والنمل ولقمان والجاثية، وتلك الآيات هي: قول الله تبارك وتعالى: ﴿فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ﴾ [الأنعام:١٥٧]، وقوله: ﴿وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝٥٢﴾ [الأعراف]، وقوله: ﴿هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف:٢٠٣]، وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۝٥٧﴾ [يونس]،

(١) أورده عنه البيهقي، ينظر: الأسماء والصفات للبيهقي ١/١٣٥.
(٢) ينظر: تفسير ابن كثير ١/١٢٤.
(٣) رواه الطبري في تفسيره ١/١٢٨، والبغوي في تفسيره ١/٥١، والبيهقي في الأسماء والصفات ١/١٣٩.
(٤) رواه مسلم في صحيحه، كتاب: الصلاة، باب: وُجُوب قِرَاءَة الْفَاتِحَة فِي كُلِّ رَكْعَةٍ، وَإِنَّهُ إِذَا لَمْ يُحْسِن الْفَاتِحَةَ وَلاَ أَمْكَنَهُ تَعَلُّمُهَا قَرَأَ مَا تَيَسَّرَ لَهُ مِنْ غَيْرِهَا، ٢/٩، ح: (٩٠٤).
(٥) ينظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم مادة (ر ح م).

وقوله: ﴿مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [يوسف:١١١]، وقوله: ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۙ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [النحل:٦٤]، وقوله: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل:٨٩]، وقوله: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾﴾ [الإسراء]، وقوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾﴾ [النمل]، وقوله: ﴿هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ﴿٣﴾﴾ [لقمان]، وقوله: ﴿هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [الجاثية].

ويلاحظ في الآيات السابقة ما يلي:

١. كل السور الوارد فيها وصف القرآن الكريم بأنه رحمة مكية.

٢. أن الهدى مقترن بالرحمة في عشر آيات؛ وذلك والله أعلم؛ لأن الهدى والرحمة جنسان عامان يشملان أنواع البصائر فالهدى يقارن البصائر، والرحمة غاية للبصائر، ولأن الهدى والرحمة معنيان كليان يصلحان للعدد الكثير؛ ولأن الهدى ما يرجع من التبيان إلى تقويم العقائد والأفهام، والإنقاذ من الضلال، وطريق نفع لمن اتبع إرشاده فاتباعه كالاهتداء للطريق الموصلة إلى المقصود، والمراد بالرحمة: ما يشمل رحمة الدنيا وهي: استقامة أحوال الجماعة وانتظام المدنية، ورحمة الآخرة وهي: الفوز بالنعيم الدائم.[١]

٣. أن الهدى والرحمة خاصة بالمسلمين والمؤمنين والمحسنين والموقنين؛ وذلك لأنهم انتفعوا به فصار هدى لهم يهتدون به إلى أمر دينهم ودنياهم، ورحمة ينالون به كل خير في الدنيا والآخرة، فالهدى ما نالوه به من علم نافع وعمل صالح، والرحمة ما ترتب على ذلك من

(١) ينظر: تفسير ابن عاشور ٤٠٩/٨، ٢٠٤/١٣.

ثواب الدنيا والآخرة، كصلاح القلب وبره وطمأنينته، وتمام العقل الذي لا يتم إلا بتربيته على معانيه التي هي أجل المعاني وأعلاها، والأعمال الكريمة والأخلاق الفاضلة، والرزق الواسع، والنصر على الأعداء بالقول والفعل، ونيل رضا الله ﷻ وكرامته العظيمة التي لا يعلم ما فيها من النعيم المقيم إلا الرب الرحيم.[1]

وبين الله تبارك وتعالى أن اتباع القرآن الكريم من أسباب نيل رحمة ﷻ؛ فقال تعالى: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾﴾ [الأنعام].

وشملت سورة البقرة أمهات الأحكام ومعظم أصول الدين وفروعه، والإرشاد إلى كثير من مصالح العباد، ونظام المعاش، ونجاة المعاد[2]، قال العيني رحمه الله: (هي أول سورة نزلت بالمدينة في قول، وقيل لها: فسطاط القرآن، فيها خمسة عشر مثلًا، وخمسمائة حكمة، وفيها ثلاثمائة وستون رحمة)[3]، وذكر اسم الرحمن فيها مرتين، واسم الرحيم ثلاث عشرة مرة، وجاء الاسم رحمه مرتين، وبنسبة الرحمة لله ﷻ ثلاث مرات، وبدعاء المؤمنين لتحصيلها مرة واحدة؛ لذا سأذكر بإذن الله ﷻ مظاهر رحمة الله ﷻ في حفظ الضرورات الخمس من خلال سورة البقرة.

(١) ينظر: تفسير السعدي ص: ٤٤٦، وتفسير الطبري ٦٣/١٥، وتفسير البحر المحيط ٤٠٩/٨، وتفسير ابن عاشور ٣٦٨/٢٥.
(٢) ينظر: فيض القدير للمناوي ١٩٦/٤.
(٣) ينظر: عمدة القارئ ٣٨٨/٢٦، والبرهان ١٩٤/١، والإتقان ٣٩/١.

المطلب الأول
مظاهر الرحمة في حفظ الدين
من خلال سورة البقرة

قدر الإسلام ما للدين من أهمية في حياة الإنسان؛ حيث يلبي النزعة الإنسانية إلى عبادة الله، ولما يمد به الإنسان من وجدان وضمير، ولما يقوي في نفسه من عناصر الخير والفضيلة، وما يضفي على حياته من سعادة وطمأنينة.

١. فمن مظاهر الرحمة في حفظ الدين:

أن أهل الحق والحكمة حريصون على صلاح أنفسهم وصلاح أمتهم، حريصون على دوام الحق في الناس متبعًا مشهورًا؛ فكان من سننهم التوصية لمن يظنونهم خلفًا عنهم في الناس؛ بأن لا يحيدوا عن طريق الحق، ولا يفرطوا فيما حصل لهم منه؛ فإن حصوله بمجاهدة نفوس ومرور أزمان؛ فكان ذلك أمرا نفيسا يجدر أن يحتفظ به، وقد كانت هذه الوصية من الرسل عليهم السلام لمن بعدهم، فنفذها إبراهيم ويعقوب عليهما السلام كما قال تعالى: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبۡرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعۡقُوبُ يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ١٣٢﴾ [البقرة]، فالله ﷻ اختار الدين وتخيره لعباده رحمة بهم، وإحسانًا إليهم، فينبغي أن يقوموا به، ويتصفوا بشرائعه، وينصبغوا بأخلاقه، حتى يستمروا على ذلك؛ فلا

يفارقوا هذا الدين وهو الإسلام أيام حياتهم؛ وذلك أن أحدًا لا يدري متى تأتيه منيته من ليل أو نهار؛ فينبغي الإحسان في حال الحياة ولزوم الدين ليرزقهم الله الوفاة عليه؛ فإن المرء يموت غالبًا على ما كان عليه، ويبعث على ما مات عليه، وقد أجرى الله الكريم عادته بأن من قصد الخير وُفّق له ويسر عليه، ومن نوى صالحًا ثبت عليه، وهذا على الحقيقة نهي عن تعاطي الأشياء التي تكون سببًا للموافاة على غير الإسلام[1]، وهذا من مظاهر الرحمة في حفظ الدين.

٢. ومن مظاهر الرحمة في حفظ الدين:

تفضيل الله ﷻ لهذه الأمة على سائر الأمم، وجعلها أمة وسطًا عدولًا خيارًا في كل أمور الدين قال الله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ [البقرة:١٤٣]؛ فخصَّها الله ﷻ بأكمل الشرائع وأقوم المناهج وأوضح المذاهب، فهم أهل دين وسط بين الغلو والتقصير؛ لأنهما مذمومان في الدين؛ فلا هم أهل تقصير فيه، تقصير اليهود الذين بدلوا كتاب الله، وقتلوا أنبياءهم، وكذبوا على ربهم وكفروا به، ولا هم أهل غلو فيه، غلو النصارى الذين غلوا بالترهب، وقولهم في عيسى عليه السلام ما قالوا فيه؛ ولكنهم أهل توسط واعتدال فيه؛ فوصفهم الله بذلك، وهم وسط في الشريعة؛ فلا تشديدات اليهود وآصارهم، ولا تهاون النصارى، ففي باب الطهارة والمطاعم لا كاليهود الذين لا تصح لهم صلاة إلا في بِيَعِهم وكنائسهم، ولا يطهرهم الماء من النجاسات، وقد حرمت عليهم الطيبات؛ عقوبة لهم، ولا كالنصارى الذين لا ينجسون شيئًا، ولا يحرمون شيئًا، بل أباحوا ما دب ودرج، بل طهارتهم أكمل طهارة وأتمها، وأباح الله لهم الطيبات من المطاعم والمشارب والملابس

(١) ينظر: تفسير الطبري ٢/٥٨٥، وتفسير البحر المحيط ١/٦٣٨، وتفسير ابن كثير ١/٤٤٦، وتفسير السعدي ص: ٦٦، وتفسير أضواء البيان ٩/٩٣، وتفسير ابن عاشور ١/٧٠٧.

والمناكح، وحرم عليهم الخبائث من ذلك؛ فلهذه الأمة من الدين أكمله، ومن الأخلاق أجلها، ومن الأعمال أفضلها، ووهبهم الله من العلم والحلم والعدل والإحسان، ما لم يهبه لأمة سواهم، فلذلك كانوا ﴿أُمَّةً وَسَطًا﴾.[1]

٣. ومن مظاهر الرحمة في حفظ الدين:

أنه لا إكراه لأحد على الدخول في الإسلام؛ فكفل حرية العقيدة والتدين وحماها، وسمح بتعايش مختلف الأديان داخل دياره وفي رحاب دولته، ويترك الحرية لأهل الأديان في عقائدهم وممارستهم التعبدية وتصرفاتهم المدنية، فالحق بيّن واضح، ودلائله وبراهينه جلية، وتبينت أعلامه للعقول، وظهرت طرقه، وتبين أمره، وهو دين العقل والعلم، ودين الفطرة والحكمة، ودين الصلاح والإصلاح، ودين الحق والرشد؛ فلكماله وقبول الفطرة له، لا يحتاج إلى الإكراه عليه؛ فالموفق إذا نظر أدنى نظر إليه آثره واختاره، والإكراه إنما يقع على ما تنفر منه القلوب، ويتنافى مع الحقيقة والحق، أو لما تخفى براهينه وآياته، فمن هداه الله للإسلام وشرح صدره ونور بصيرته دخل فيه على بينة، ومن أعمى الله قلبه وختم على سمعه وبصره؛ فإنه لا يفيده الدخول في الدين مكرهًا مقسورًا؛ لأنه كان سيئ القصد فاسد الإرادة، خبيث النفس يرى الحق فيختار عليه الباطل، ويبصر الحسن فيميل إلى القبيح، فهذا ليس لله حاجة في إكراهه على الدين؛ لعدم النتيجة والفائدة فيه، والمُكْرَه ليس إيمانه صحيحًا[2]، قال الله تعالى: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ٢٥٦﴾ [البقرة].

فقوله تعالى: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِ﴾هذه الجملة نفي يحتمل وجهين:

(١) ينظر: تفسير الطبري ٦٢٦/٢، وتفسير البغوي١٥٨/١، وتفسير ابن كثير ٤٥٤/١، وتفسير السعدي ص: ٧٠.

(٢) ينظر: تفسير السعدي ص: ١١٠

الأول: بمعنى النهي؛ والمعنى: لا تكرهوا أحدًا على الدين.

الثاني: بمعنى النفي؛ والمعنى: أنه لن يدخل أحد دين الإسلام مكرَهًا؛ بل عن اختيار؛ وبينت السنة كيف نعامل الكفار؛ وذلك بأن ندعوهم إلى الإسلام؛ فإن أبوا فإلى بذل الجزية؛ فإن أبوا قاتلناهم[1].

فالإكراه في الحقيقة إلزام الغير فعلًا لا يرى فيه خيرا يحمله عليه، ولكن ﴿قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّ﴾، فتميز الإيمان من الكفر بالآيات الواضحة، ودلت الدلائل على أن الإيمان رشد يوصل إلى السعادة الأبدية، والكفر غي يؤدي إلى الشقاوة السرمدية، والعاقل متى تبين له ذلك بادرت نفسه إلى الإيمان طلبًا للفوز بالسعادة والنجاة ولم يحتج إلى الإكراه والإلجاء[2].

٤. ومن مظاهر الرحمة في حفظ الدين:

أن الله ﷻ بين طبيعة عداوة المشركين للمؤمنين، وبين غاية مرادهم من قتالهم للمؤمنين؛ بأن يترك المؤمنون دينهم، ومن مظاهر الرحمة تحذير الله تبارك وتعالى من ترك الدين والارتداد عنه؛ قال الله تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمۡ عَن دِينِكُمۡ إِنِ ٱسۡتَطَٰعُواْۚ وَمَن يَرۡتَدِدۡ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتۡ وَهُوَ كَافِرٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة:٢١٧].

فقوله تعالى: ﴿وَمَن يَرۡتَدِدۡ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ﴾الردة: الرجوع عن الإسلام إلى الكفر، أي: من يرجع منكم عن دينه، والتقييد في قوله: ﴿فَيَمُتۡ وَهُوَ كَافِرٞ﴾ يفيد أن عمل من ارتد إنما يبطل إذا مات على الكفر، والمعنى: من يرجع عن دينه دين الإسلام فيمت قبل أن يتوب من كفره فهو الذي حبط عمله[3]، وقوله:

(١) ينظر: تفسير ابن عثيمين ٢٠٦/٥، ٢٠٩.
(٢) ينظر: تفسير ابن كثير ٦٨٢/١، وتفسير البيضاوي ٥٥٧/١، وتفسير السعدي ص: ١١٠، ص: ٩٥٤.
(٣) ينظر: تفسير الشوكاني ٢٩١/١.

﴿حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ﴾ الحبوط: بطلان العمل وفساده، ومنه الحبط، وهو: فساد يلحق المواشي في بطونها من كثرة أكلها للكلأ، فتنتفخ أجوافها، وربما تموت من ذلك[1]، والمعنى: بطلت أعمالهم وذهبت، وبطلانها: ذهاب ثوابها، وبطلان الأجر عليها والجزاء في دار الآخرة، وقوله: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ يعني: الذين ارتدوا عن دينهم فماتوا على كفرهم، هم أهل النار المخلدون فيها، وإنما جعلهم أهلها؛ لأنهم لا يخرجون منها، فهم سكانها المقيمون فيها، وقوله: ﴿هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ أي: لابثون لبثًا من غير أمد ولا نهاية[2].

٥. ومن مظاهر الرحمة في الآية:

تحذير الله ﷻ للمؤمنين من الاغترار بالكفار، والدخول فيما يريدونه من ردّهم عن دينهم الذي هو الغاية لما يريدونه من المقاتلة للمؤمنين.

٦. ومن مظاهر الرحمة في الآية:

بيان أنه لا يبقى للمرتد حكم المسلمين في الدنيا، فلا يأخذ شيئًا مما يستحقه المسلمون، ولا يظفر بحظ من حظوظ الإسلام، ولا ينال شيئًا من ثواب الآخرة الذي يوجبه الإسلام، ويستحقه أهله؛ وفي هذا حث للمسلمين ليثبتوا على دين الإسلام[3]، وهذا من مظاهر الرحمة في حفظ الدين.

٧. ومن مظاهر الرحمة في الآية الكريمة:

بيان أن القلب الذي يذوق الإسلام ويعرفه، لا يمكن أن يرتد عنه ارتدادًا حقيقيًا أبدًا، إلا إذا فسد فسادًا لا صلاح له، وهذا أمر غير التقية من الأذى البالغ الذي يتجاوز الطاقة؛ فالله رحيم رخص للمسلم -حين يتجاوز

(١) ينظر تفسير القرطبي ٣/٤٦.
(٢) ينظر: تفسير الطبري ٣/٦٦٦.
(٣) ينظر: تفسير الشوكاني ١/٢٩١.

العذاب طاقته- أن يقي نفسه بالتظاهر، مع بقاء قلبه ثابتًا على الإسلام مطمئنًا بالإيمان، ولكنه لم يرخص له في الكفر الحقيقي، وفي الارتداد الحقيقي، بحيث يموت وهو كافر.. والعياذ باللّه[1].

٨. ومن مظاهر الرحمة:

ما تجلى في حكمة تشريع قتل المرتد مع أن الكافر بالأصالة لا يقتل؛ لأن الارتداد خروج فرد أو جماعة من الجماعة الإسلامية، فهو بخروجه من الإسلام بعد الدخول فيه ينادي على أنه لما خالط هذا الدين وجده غير صالح، ووجد ما كان عليه قبل ذلك أصلح؛ فهذا تعريض بالدين واستخفاف به، وفيه أيضًا تمهيد طريق لمن يريد أن ينسل من هذا الدين؛ وذلك يفضي إلى انحلال الجماعة المسلمة؛ فلو لم يجعل لذلك زاجرًا ما انزجر الناس، ولا يوجد شيء زاجر مثل توقع الموت؛ فلذلك جعل الموت هو العقوبة للمرتد حتى لا يدخل أحد في الدين إلا على بصيرة، وحتى لا يخرج منه أحد بعد الدخول فيه، وليس هذا من الإكراه في الدين المنفي بقوله تعالى: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِ﴾ [البقرة:٢٥٦][2]، قال ابن قدامة: "وأجمع أهل العلم على وجوب قتل المرتد، وروي ذلك عن أبي بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، ومعاذ، وأبي موسى، وابن عباس، وخالد، وغيرهم، ولم ينكر ذلك، فكان إجماعًا".[3]

(١) ينظر: تفسير في ظلال القرآن ٢٢٨/١.
(٢) ينظر: تفسير ابن عاشور ٣١٩/٢، وينظر: الأم للشافعي ١٥٦/٦.
(٣) ينظر: المغني لابن قدامة ٤٤٤/١٩.

المطلب الثاني
مظاهر الرحمة في حفظ النفس من خلال سورة البقرة

النفس في الإسلام ملك لله تعالى؛ شرع تبارك وتعالى لبقاء نوعها على الوجه الأكمل الزواج والتناسل؛ ليعمر العالم وتشكل بذرة الحياة الإنسانية في الجيل الخالف، وأوجب ﷻ الابتعاد مما يضرها ويتلفها من طعام وشراب وغير ذلك، وأوجب ﷻ دفع الضرر عنها؛ ففرض القصاص والدية، وحرم كل ما يلقي بها إلى التهلكة.

قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ﴾ [البقرة:٨٤]؛ فهذه الآية وإن كان المراد بها بنو إسرائيل إلا أنه دخل فيها بالمعنى من بعدهم[(١)]، والمعنى: لا تفعلوا ذلك بأنفسكم لشدّة تصيبكم وحنق يلحقكم؛ فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ قَتَلَ نَفْسَهُ بِحَدِيدَةٍ؛ فَحَدِيدَتُهُ فِي يَدِهِ يَتَوَجَّأُ بِهَا فِي بَطْنِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدًا مُخَلَّدًا فِيهَا أَبَدًا، وَمَنْ شَرِبَ سَمًّا؛ فَقَتَلَ نَفْسَهُ فَهُوَ يَتَحَسَّاهُ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدًا مُخَلَّدًا فِيهَا أَبَدًا، وَمَنْ تَرَدَّى مِنْ جَبَلٍ؛ فَقَتَلَ نَفْسَهُ فَهُوَ يَتَرَدَّى فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدًا مُخَلَّدًا فِيهَا أَبَدًا»[(٢)]، ويجوز أن يكون معنى قوله: ﴿لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ﴾ أي: لا

(١) ينظر: تفسير القرطبي ١٨/٢.

(٢) رواه مسلم في صحيحه، كتاب: الإيمان، باب: غلظ تحريم قتل الإنسان نفسه، وإن من قتل نفسه بشيء عذب به في النار، وأنه لا يدخل الجنة إلا نفس مسلمة، ١/٧٢، ح: (٣١٣).

يقتل الرجل منكم الرجل منكم، فيقاد به قصاصًا، فيكون بذلك قاتلا نفسه؛ لأنه كان الذي سبب لنفسه ما استحقت به القتل، فأضيف بذلك إليه قتل ولي المقتول إياه قصاصًا بوليه، كما يقال للرجل يرتكب فعلا من الأفعال يستحق به العقوبة فيعاقب: أنت جنيت هذا على نفسك، فلا تسفكوا دماء غيركم فتسفك دماءكم، فكأنكم سفكتم دماء أنفسكم[1]، وقيل معناه: لا تسفكوا دماء الناس، فإن من سفك دماءهم سفكوا دمه، وقيل: معناه: لا تقتلوا أنفسكم بارتكابكم ما يوجب ذلك، كالارتداد والزنا بعد الإحصان، والمحاربة، وقتل النفس، بغير حق ونحو ذلك مما يزيل عصمة الدماء[2].

١. فمن مظاهر الرحمة في هذه الآية:

الأمر بالاحتراز من قتل الإنسان نفسه أو قتل نفس غيره؛ وذلك لما في هذا الفعل من تجني على النفس البشرية وحرمان للإنسان من نعمة الحياة والازدياد من فعل الخير.

٢. ومن مظاهر الرحمة في حفظ النفس:

أن الله ﷻ حرم تعلم كل ما يوصل إليها الضرر، ومن ذلك تعلم السحر، الذي قال الله ﷻ فيمن يتعلمه: ﴿وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾ [البقرة:١٠٢]؛ فالسحر لا يعود على صاحبه بفائدة، ولا يجلب إليه منفعة، بل هو: ضرر محض، وخسران بحت[3]، وهو ضرر في الدين، وليس فيه نفع في المعاد، وإن كان في الدنيا قد يكون به مكسبًا وإصابة معاش، وقيل: الضرر وعدم النفع مختص بالآخرة، وقيل: هو في الدنيا والآخرة؛ فإن

(١) ينظر: تفسير الطبري٢/٢٠١، وتفسير البغوي ١/١١٧.
(٢) ينظر: تفسير البحر المحيط ١/٤٦٥، وتفسير البيضاوي ١/٣٥٤، وتفسير الآلوسي ١/٣١٠، وتفسير الخازن ١/٥٨، وتفسير ابن عاشور ١/٥٦٨.
(٣) ينظر: تفسير الشوكاني ١/١٥١.

تعلمه إن كان غير مباح فهو يجر إلى العمل به، وإلى التنكيل بصاحبه إذا عثر عليه، وإلى أن ما يأخذه عليه حرام، هذا في الدنيا، وأما في الآخرة فلما يترتب عليه من العقاب.[1]

قال الإمام الشنقيطي رَحِمَهُ اللَّهُ: "اعلم أن الناس اختلفوا في تعلم السحر من غير عمل به، هل يجوز أو لا؟ والتحقيق وهو الذي عليه الجمهور: هو أنه لا يجوز، ومن أصرح الأدلة في ذلك تصريحه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بأنه يضر ولا ينفع في قوله: ﴿وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾، وإذا أثبت الله أن السحر ضار ونفى أنه نافع، فكيف يجوز تعلم ما هو ضرر محض لا نفع فيه؟"[2].

٣. ومن مظاهر الرحمة في حفظ النفس:

ما جاء في قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٧٢﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٧٣﴾﴾ [البقرة]؛ فهذا أمر للمؤمنين خاصة؛ وذلك لأنهم هم المنتفعون على الحقيقة بالأوامر والنواهي؛ بسبب إيمانهم، فأمرهم بأكل الطيبات من الرزق، والشكر لله على إنعامه، باستعمالها بطاعته، والتقوي بها على ما يوصل إليه.

٤. ومن مظاهر الرحمة في حفظ النفس في هذه الآية:

ما أمر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى به من الأكل من طيبات ما رزقهم؛ قال الله تعالى: ﴿كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾؛ وهذا الأمر للوجوب إن كان الهلاك، أو الضرر بترك الأكل[3]؛ فيجب على الإنسان أن يمد نفسه بوسائل الإبقاء على حياته من

(١) ينظر: تفسير البحر المحيط ٥٣٥/١، والأم للشافعي ٢٥٦/١.
(٢) ينظر: تفسير أضواء البيان ٥٥/٤، وينظر: تفسير الطبري ٣٦٢/٢، وتفسير القرطبي ٥٥/٢، وتفسير ابن كثير ٣٦٤/١.
(٣) ينظر: تفسير الرازي ١٩٠/٥، وتفسير ابن عثيمين ٢٠٢/٤.

تناول للطعام والشراب، ويحرم عليه أن يمتنع عن هذه الضروريات إلى الحد الذي يهدد بقاء حياته.[١]

٥. ومن مظاهر الرحمة في حفظ النفس في هذه الآية:

الأمر بالأكل مما طاب من الرزق الذي أحله الله لعباده؛ فطاب بتحليل الله ﷻ إياه بدلا مما حرموه على أنفسهم من المطاعم والمشارب متبعين في تحريمه خطوات الشيطان.[٢]

٦. ومن مظاهر الرحمة في حفظ النفس في هذه الآية:

ما ذكره ﷻ من تحريم الخبائث فقال: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ﴾؛ فالله ﷻ حرم علينا هذه الخبائث ونحوها، لطفا بنا، وتنزيها عن المضر، وهي غير محصورة في هذه المحرمات، وإنما جيء به لبيان أجناس الخبائث[٣].

والميتة: ما مات بغير تذكية شرعية؛ لأن الميتة خبيثة مضرة، لرداءتها في نفسها، ولأن الأغلب أن تكون عن مرض، فيكون زيادة ضرر، فالحيوان لا يموت غالبًا إلا وقد أصيب بعلة، والعلل مختلفة، وهي تترك في لحم الحيوان أجزاء منها، فإذا أكلها الإنسان قد يخالط جزءًا من دمه جراثيم الأمراض، مع أن الدم الذي في الحيوان إذا وقفت دورته غلبت فيه الأجزاء الضارة على الأجزاء النافعة؛ ولذلك شرعت الذكاة؛ لأن المذكى مات من غير علة غالبًا، ولأن إراقة الدم الذي فيه تجعل لحمه نقيًا مما يخشى منه من أضرار[٤]؛ فالميتة مستودع للجراثيم، ومستودع للأمراض الفتاكة، والقوانين في أوربا تحرم أكل الميتة[٥]، والطب الحديث يؤكد الأضرار

(١) ينظر: مقاصد الشريعة لليوبي ص: ٢٣١.
(٢) ينظر: الموافقات للشاطبي ١٩٨/١.
(٣) ينظر: تفسير السعدي ص: ٨١، والمبسوط للسرخسي ٤٢/١٤.
(٤) ينظر: تفسير ابن عاشور ١١٦/٢.
(٥) من حوار علمي أجرته الهيئة العالمية للإعجاز العلمي في القرآن والسنة مع الدكتور جون =

الناجمة عن أكل الميتة بسبب التغيرات التي تحدث بعد موت الحيوان من ترسب الدم في جسمه بما يسمى في الطب بـ « الزرقة الجيفية» وتكون أحماض، بعدها تتكون الجراثيم الهوائية واللاهوائية التي تؤدي إلى تعفن الحيوان، وتكون روائح كريهة وآثار سامة، أضف إلى ذلك أحياناً أن موت الحيوان يكون بسبب مرض عانى منه الحيوان؛ فهذه الأضرار التي أكدها الطب الحديث كفيلة ببيان حكم تحريم الميتة.[1]

واستثنى الشارع من هذا العموم ميتة الجراد والسمك؛ فإنهما حلال طيب؛ فعَنْ عَبْدِاللهِ بْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما قَالَ: قَالَ رَسُولَ اللهِ ﷺ: «أُحِلَّتْ لَكُمْ مَيْتَتَانِ وَدَمَانِ؛ فَأَمَّا الْمَيْتَتَانِ: فَالْحُوتُ وَالْجَرَادُ، وَأَمَّا الدَّمَانِ: فَالْكَبِدُ وَالطِّحَالُ».[2]

٧. ومن مظاهر الرحمة في حفظ النفس في هذه الآية:

ما ذكره ﷻ من تحريم الدَّمَ المسفوح كما قيد في الآية الأخرى، وهي قوله تعالى: ﴿أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا﴾ [الأنعام:١٤٥]، وحكمة تحريم الدم أن شربه يورث ضراوة في الإنسان، فتغلظ طباعه ويصير كالحيوان المفترس، وهذا مناف لمقصد الشريعة؛ لأنها جاءت لإتمام مكارم الأخلاق، وإبعاد الإنسان عن التهور والهمجية[3]، ومن ناحية طبية فإن الدم يحتوي على كمية كبيرة من حمض البوليك، وهو مادة سامة تضر بالصحة لو استعملت كغذاء.[4]

٨. ومن مظاهر الرحمة في حفظ النفس في هذه الآية:

ما ذكره ﷻ من تحريم لحم الخنزير؛ وبين أنه نجس في قوله تعالى:

= هونوفر لارسن أستاذ قسم البكتريا في مستشفي غيس هوسبيتال - المستشفى الرسمي - أكبر مستشفيات كوبنهاجن، موقع الهيئة العالمية للإعجاز العلمي في القرآن والسنة.

(١) مجلة البحوث الإسلامية؛ العدد: ٧١، ص: ٣٦٣.

(٢) رواه الإمام أحمد في مسنده، ٢/٩٧، ح: (٥٧٢٣)، وقال شعيب الأرنؤوط: حسن.

(٣) ينظر: تفسير ابن عاشور ٢/١١٧.

(٤) ينظر: موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن الكريم والسنة المطهرة ص: ٥٩.

﴿فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ﴾ [الأنعام:١٤٥]، فهو ضار ومؤذ ونتن؛ وهذه علة ذاتية قائمة لا تنفك عن لحم الخنزير أبدًا، وهذا يبين أن العلة في التحريم ليست عارضة أو مكتسبة؛ فالعلة العارضة كأكله القاذورات والقمامة، وهذا يحدث في بعض البلدان دون غيرها؛ لأن الغرب يطعمون الخنازير أعلافًا طيبة، ويربونها في حظائر نظيفة مغلقة ومكيفة، وهنالك تنتفي هذه العلة العارضة، كما أن العلة أيضًا ليست مكتسبة تزول بزوال سببها كإصابته ببعض الأمراض الطفيلية والبكتيرية والفيروسية؛ لأن كل هذه الأمراض مكتسبة، ومن الممكن السيطرة عليها إما بالعلاج بالمضادات الحيوية ضد مسببات هذه الأمراض أو باستخدام اللقاحات وهى الآن شائعة وتستخدم على نطاق واسع، وبذلك تنتفي هذه العلل المكتسبة، وبانتفاء العلة العارضة أو العلة المكتسبة ينتفي الحكم، وهذا تكذيب لكتاب الله ﷻ الذي يتلى إلى أن تقوم الساعة، وبذلك تبقى العلة الذاتية التي لا تنفك عن لحم الخنزير في كونه نجسًا وضارًا ومؤذيًا لمن يأكله هي الأصل فى بقاء الحكم الشرعي، وقد تحققت نجاسة لحم الخنزير كما تحقق الضرر من أكل لحمه من خلال الأبحاث العلمية العديدة[١]، ومن حكم تحريم لحم الخنزير أنه يتناول القاذورات بإفراط، فتنشأ في لحمه دودة مما يقتاته لا تهضمها معدته، فإذا أصيب بها آكله قتلته.[٢]

٩. ومن مظاهر الرحمة في حفظ النفس في هذه الآية:

ما ذكره ﷻ من تحريم ما ذبح لغير الله، كالذي يذبح للأصنام والأوثان من الأحجار والقبور ونحوها[٣]؛ حماية للتوحيد؛ إذ أنه من أعمال الوثنية،

(١) من أبحاث المؤتمر العالمي العاشر للإعجاز العلمي في القرآن والسنة بتركيا ١٤٣٢هـ - ٢٠١١م، أ. د/ حنفي محمود مدبولي، موقع الهيئة العالمية للإعجاز العلمي في القرآن والسنة، وينظر: موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن الكريم والسنة المطهرة ص: ٦٤٨.
(٢) ينظر: تفسير ابن عاشور ١١٨/٢.
(٣) ينظر: تفسير ابن عاشور ١١٩/٢.

ولأن ما ذبح على هذه الصفة قد اكتسب خبثًا أوجب تحريمه، فهو ملحق بالنجاسة المادية والقذارة الحقيقية.[1]

١٠. ومن مظاهر الرحمة في حفظ النفس في هذه الآية:

ما أمر الله ﷻ به من الأكل منه مما هو محرم في الأصل، وهي ﴿ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ﴾[2]؛ فأباحها ﷻ عند الضرورة، والاحتياج إليها عند فقد غيرها من الأطعمة، فقال تعالى: ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ﴾ أي: غير قاطع للسبيل، أو مفارق للأئمة، أو خارج في معصية الله؛ فله الرخصة، ومن خرج باغيًا أو عاديًا أو في معصية الله فلا رخصة له، وإن اضطر إليه.[3]

١١. ومن مظاهر الرحمة في حفظ النفس في هذه الآية:

قوله تعالى: ﴿فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ أي: لا جناح عليه، وإذا ارتفع الإثم رجع الأمر إلى ما كان عليه، والإنسان بهذه الحالة مأمور بالأكل، بل منهي أن يلقي بيده إلى التهلكة، وأن يقتل نفسه؛ فيجب إذًا عليه الأكل، ويأثم إن ترك الأكل حتى يموت؛ فيكون قاتلًا لنفسه.[4]

١٢. ومن مظاهر الرحمة في حفظ النفس في هذه الآية:

ما جاء في ختام الآية الكريمة بهذين الاسمين الكريمين المناسبين غاية المناسبة فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ وذلك لما يلي:

أولًا: لما كان الحل مشروطا بعدم البغي وعدم الاعتداء، وكان الإنسان في هذه الحالة، ربما لا يستقصي تمام الاستقصاء في تحقيقها

(١) ينظر: تفسير في ظلال القرآن ١٥٧/١.
(٢) ينظر: تفسير الطبري ٥٣/٣.
(٣) ينظر: تفسير الطبري ٥٨/٣، وتفسير ابن كثير ٤٨٢/١.
(٤) ينظر: تفسير السعدي ص: ٨١، ومقاصد الشريعة لليوبي ص: ٢٣٣.

أخبر ﷻ أنه غفور؛ فيغفر ما أخطأ فيه في هذه الحال، خصوصًا وقد غلبته الضرورة، وأذهبت حواسه المشقة.[1]

ثانيًا: لعل المضطر يزيد على تناول الحاجة، فهو ﷻ غفور بأن يغفر ذنبه في تناول الزيادة، رحيم حيث أباح في تناول قدر الحاجة.

ثالثًا: أن هذه الإباحة والتوسعة من رحمة الله ﷻ بعباده، فغفور للعصاة إذا تابوا، رحيم بالمطيعين المستمرين على نهج حكمه ﷻ.[2]

١٣. ومن مظاهر الرحمة في حفظ النفس:

ما أوجبه الله ﷻ من القصاص في القتل العمد، والدية والكفارة في القتل خطأ؛ فقال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ فِي ٱلۡقَتۡلَىۖ ٱلۡحُرُّ بِٱلۡحُرِّ وَٱلۡعَبۡدُ بِٱلۡعَبۡدِ وَٱلۡأُنثَىٰ بِٱلۡأُنثَىٰۚ فَمَنۡ عُفِيَ لَهُۥ مِنۡ أَخِيهِ شَيۡءٞ فَٱتِّبَاعُۢ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيۡهِ بِإِحۡسَٰنٖۗ ذَٰلِكَ تَخۡفِيفٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَرَحۡمَةٞۗ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٞ ١٧٨ وَلَكُمۡ فِي ٱلۡقِصَاصِ حَيَوٰةٞ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ١٧٩﴾ [البقرة].

١٤. ومن مظاهر الرحمة في حفظ النفس في هذه الآية:

ما جاء في قول الله تعالى: ﴿ٱلۡحُرُّ بِٱلۡحُرِّ وَٱلۡعَبۡدُ بِٱلۡعَبۡدِ وَٱلۡأُنثَىٰ بِٱلۡأُنثَىٰ﴾ وجملة الحكم فيه أنه إذا تكافأ الدمان من الأحرار المسلمين، أو العبيد من المسلمين، أو الأحرار من المعاهدين، أو العبيد منهم؛ قتل من كل صنف منهم الذكر إذا قتل بالذكر وبالأنثى، وتقتل الأنثى إذا قتلت بالأنثى وبالذكر[3]، قال ابن قدامة: "هذا قول عامة أهل العلم؛ منهم النخعي، والشعبي، والزهري، وعمر بن عبدالعزيز، ومالك، وأهل المدينة،

(١) ينظر: تفسير السعدي ص: ٨١.
(٢) ينظر: تفسير الرازي ٥/١٩٤.
(٣) ينظر: تفسير البغوي ١/١٨٩.

والشافعي، وإسحاق، وأصحاب الرأي، وغيرهم". [١]

١٥. ومن مظاهر الرحمة في حفظ النفس في هذه الآية:

خروج الأبوين وإن علوا من عموم هذا، فلا يقتلان بالولد، لورود السنة بذلك؛ فعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «لاَ يُقْتَلُ بِالْوَلَدِ الْوَالِدُ»[٢]، مع أن في قوله: ﴿ٱلْقِصَاصُ﴾ ما يدل على أنه ليس من العدل، أن يقتل الوالد بولده، ولأن في قلب الوالد من الشفقة والرحمة ما يمنعه من القتل لولده إلا بسبب اختلال في عقله، أو أذية شديدة جدًا من الولد له[٣].

١٦. ومن مظاهر الرحمة في حفظ النفس في هذه الآية:

أن الذمي والكافر خرجا من عموم الآية بالسنة، فلا يقاد المسلم بالذمي ولا بالكافر[٤]؛ فعن أَبِي جُحَيْفَةَ قَالَ: سَأَلْتُ عَلِيًّا رضي الله عنه: هَلْ عِنْدَكُمْ شَيْءٌ مِمَّا لَيْسَ فِي الْقُرْآنِ ؟ فَقَالَ: وَالَّذِي فَلَقَ الْحَبَّةَ وَبَرَأَ النَّسَمَةَ مَا عِنْدَنَا إِلاَّ مَا فِي الْقُرْآنِ، إِلاَّ فَهْمًا يُعْطَى رَجُلٌ فِي كِتَابِهِ، وَمَا فِي الصَّحِيفَةِ، قُلْتُ: وَمَا فِي الصَّحِيفَةِ ؟ قَالَ: الْعَقْلُ، وَفِكَاكُ الأَسِيرِ، وَأَنْ لاَ يُقْتَلَ مُسْلِمٌ بِكَافِرٍ[٥]، ولأن الآية في خطاب المؤمنين خاصة، وأيضًا فليس من العدل أن يقتل ولي الله بعدوه، ويقاد الذمي بالمسلم.[٦]

١٧. ومن مظاهر الرحمة في حفظ النفس في هذه الآية:

أن العبد يقاد بالعبد، ذكرًا كان أو أنثى، تساوت قيمتهما أو اختلفت،

(١) ينظر: المغني ٣٦٣/١٨.
(٢) رواه ابن ماجه في سننه، كتاب: الدِّيَات، باب: بَابُ لاَ يُقْتَلُ وَالِدٌ بِوَلَدِهِ، ٨٨٨/٢، ح: (٢٦٦١)، وصححه الألباني في صحيح ابن ماجة ١٠١/٢، ح: (٢٦٥١).
(٣) ينظر: تفسير البغوي ١٨٩/١، وتفسير السعدي ص: ٨٤.
(٤) ينظر: فيض القدير للمناوي ٥٨٦/٦.
(٥) رواه البخاري في صحيحه، كتاب: الديات، باب: لاَ يُقْتَلُ الْمُسْلِمُ بِالْكَافِرِ، ١٦/٩، ح: (٦٩١٥).
(٦) ينظر: تفسير البغوي ١٨٩/١، وتفسير السعدي ص: ٨٤.

ودلت الآية بمفهومها على أن الحر لا يقتل بالعبد لكونه غير مساو له، ويقاد العبد بالحر.[1]

١٨. ومن مظاهر الرحمة في حفظ النفس في هذه الآية:

ما جاء في قول الله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ تَخۡفِيفٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَرَحۡمَةٞ﴾؛ فتخفيفه ﷻ لنا مما أثقل على غيرنا بتحريم ذلك عليهم ورحمة منه ﷻ لنا[2]، عن قتادة رحمه الله قال: "إنما هي رحمة رحم الله بها هذه الأمة أطعمهم الدية، وأحلها لهم، ولم تحل لأحد قبلهم، فكان أهل التوراة إنما هو القصاص أو العفو، وليس بينهم أرش، وكان أهل الإنجيل إنما هو عفو أمروا به، فجعل الله لهذه الأمة القود، والعفو، والدية إن شاءوا، أحلها لهم ولم تكن لأمة قبلهم"[3].

١٩. ومن مظاهر الرحمة في حفظ النفس في هذه الآية:

جواز أخذ مال بسببها، وأنه ليس من المال الذي يؤخذ من غير وجهه[4].

٢٠. ومن مظاهر الرحمة في حفظ النفس في هذه الآية:

ما جاء في قول الله تعالى: ﴿وَلَكُمۡ فِي ٱلۡقِصَاصِ حَيَوٰةٞ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾؛ فهذا من الكلام البليغ الوجيز، ومعناه: أن القصاص إذا أقيم وتحقق الحكم فيه ازدجر من يريد قتل آخر، مخافة أن يقتص منه فحييا بذلك معا؛ فتحقن بذلك الدماء، وتنقمع به الأشقياء؛ لأن من عرف أنه مقتول إذا قتل، لا يكاد يصدر منه القتل، وإذا رئي القاتل مقتولًا انذعر بذلك غيره وانزجر، فلو كانت عقوبة القاتل غير القتل لم يحصل انكفاف

(١) ينظر: تفسير البغوي ١/١٨٩، وتفسير السعدي ص: ٨٤، والمغني لابن قدامة ١٨/٣٢٤.
(٢) ينظر: تفسير الطبري ٣/١١١.
(٣) ينظر: تفسير الطبري ٣/ ٩٣، ١١٣، وتفسير ابن كثير ١/٤٩١، والأم للشافعي ٦/٩.
(٤) ينظر: تفسير البحر المحيط ٢/١٤٣، والأم للشافعي ٧/٣١٩.

الشر، الذي يحصل بالقتل؛ فمشروعية القصاص مصلحة عامة، وإبقاء القاتل والعفو عنه مصلحة خاصة به؛ فتقدّم المصلحة العامة لتعذر الجمع بينهما[1]، وهكذا سائر الحدود الشرعية، فيها من النكاية والانزجار، ما يدل على حكمة الحكيم الغفار، وكانت العرب إذا قتل الرجل الآخر حمي قبيلاهما وتقاتلوا، وكان ذلك داعيًا إلى قتل العدد الكثير، فلما شرع الله القصاص قنع الكل به وتركوا الاقتتال؛ فلهم في ذلك حياة[2]؛ ولذا نكَّر الله ﷻ لفظ ﴿حَيَوٰةٌ﴾ لإفادة التعظيم والتكثير[3].

٢١. ومن مظاهر الرحمة في حفظ النفس في هذه الآية:

ما جاء في آخرها في قوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ وذلك أن من عرف ربه، وعرف ما في دينه وشرعه من الأسرار العظيمة والحكم البديعة والآيات الرفيعة؛ أوجب له ذلك أن ينقاد لأمر الله، ويعظم معاصيه فيتركها؛ فيستحق بذلك أن يكون من المتقين، وفي ذلك حث على الابتعاد عن القتل وأسبابه.[4]

٢٢. ومن مظاهر الرحمة في حفظ النفس:

ما جاء في النهي عن الإلقاء باليد إلى التهلكة كما قال الله تعالى: ﴿وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة:١٩٥]؛ فهذه الآية وإن نَزَلَتْ فِي النَّفَقَةِ كما جاء عَنْ حُذَيْفَة رضي الله عنه[5]، إلا أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب؛ فكل ما صدق عليه أنه تهلكة في الدين أو الدنيا، وكل ما كان سببًا موصلًا إلى

(١) ينظر: تفسير البحر المحيط ١٥٣/٢، ومقاصد الشريعة لليوبي ص: ٢٢٠.
(٢) ينظر: تفسير القرطبي ٢٥٦/٢.
(٣) ينظر: تفسير ابن عاشور ١٤٣/٢.
(٤) ينظر: تفسير السعدي ص: ٨٤، ومقاصد الشريعة لليوبي ص: ٢١٦.
(٥) رواه البخاري في صحيحه، كتاب: التفسير، باب: قَوْلِهِ: ﴿وَأَنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ ٣٣/٦، ح: (٤٥١٦).

تلف النفس أو الروح؛ فهو داخل في هذا[1]؛ ولذا يجب على العبد فعل المكره عليه مثل ما إذا أكره على شرب الخمر، أو أكل الخنزير، أو أكل الميتة؛ فيجب عليه الأكل؛ وذلك لأن صون الروح عن الفوات واجب، ولا سبيل إليه في هذه الصورة إلا بهذا الأكل، وليس في هذا الأكل ضرر على حيوان، ولا فيه إهانة لحق اللّه تعالى؛ فوجب عليه أن يفعل ذلك لقوله تعالى: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾[2]، كما يجب عليه ترك ما فيه تغرير بنفسه في مقاتلة، أو سفر مخوف، أو محل مسبعة أو حيات، أو يصعد شجرًا أو بنيانًا خطرًا، أو يدخل تحت شيء فيه خطر ونحو ذلك؛ فمن فعل هذا ونحوه كان ممن ألقى بيده إلى التهلكة.[3]

٢٣. ومن مظاهر الرحمة في حفظ النفس:

ما جاء في الأمر برعاية اليتامى والإحسان إليهم بشتى صور الإحسان لينشأوا تنشئة اجتماعية مثلى؛ تعينهم على اجتياز محنة اليتم، والخروج للمجتمع كأفراد فاعلين، لا يحقدون على بني جنسهم، ولا يسلكوا سبيل الانحراف أو العزلة، قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُعْرِضُونَ ﴿٨٣﴾﴾ [البقرة]، وقال تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴿٢١٥﴾﴾ [البقرة]؛ فأمر ﷻ بالعطف على اليتامى ورحمتهم والرأفة بهم، وحض على كفالتهم وحفظ مالهم، وكل

(١) ينظر: تفسير الشوكاني ٢٥٦/١.
(٢) ينظر: تفسير الرازي ٢٧٥/٢٠، وينظر: تفسير أضواء البيان ٦٥/١، ومقاصد الشريعة لليوبي ص: ٢٣١.
(٣) ينظر: تفسير السعدي ص: ٩٠.

إحسان قولي وفعلي، ونهى عن الإساءة إليهم، أو عدم الإحسان والإساءة؛ لأن الواجب الإحسان، والأمر بالشيء نهي عن ضده.(١)

ومن الآيات العظيمة التي اشتملت على جمَل عظيمة، وقواعد عميمة، وعقيدة مستقيمة، قوله تعالى: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾﴾ [البقرة].

٢٤. فمن مظاهر الرحمة في حفظ النفس في هذه الآية الكريمة:

أن الله ﷻ أوصى العباد، وفرض عليهم في أموالهم الإحسان إلى اليتامى الذين فقدوا أباءهم قبل البلوغ، ولا كاسب لهم، وليس لهم قوة يستغنون بها، فهم مظنة الضعف بفقدهم ما كان ينالهم من والدهم من رفاهية العيش، وانقطعت بهم الحيلة من كل الوجوه؛ فإيتاؤهم المال يجبر صدع حياتهم؛ ليصيروا كمن لم يفقد والده، ولأن الجزاء من جنس العمل؛ فمن رحم يتيم غيره رُحِمَ يتيمه، وهذا من رحمته ﷻ بالعباد، الدالة على أنه ﷻ أرحم بهم من الوالد بولده.(٢)

٢٥. ومن مظاهر الرحمة في حفظ النفس:

ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَٰمَىٰ ۖ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ ۖ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة:٢٢٠]؛ فلطف الله ﷻ وإحسانه وتوسعته على المؤمنين

(١) ينظر: تفسير الطبري ١٩٢/٢، وتفسير القرطبي ١٤/٢، وتفسير السعدي ص: ٥٧.
(٢) ينظر: تفسير الرازي ٢١٦/٥، وتفسير ابن كثير ٤٨٥/١، وتفسير السعدي ص: ٨٣، وتفسير ابن عاشور ١٣٠/٢.

في مخالطة اليتامى، وإلا فلو شاء اللَّهُ لشق علينا بعدم الرخصة بذلك وأحرجنا[١]، قال ابن قدامة: "ومتى كان خلط مال اليتيم أرفق به، وألين في الخبز، وأمكن في حصول الأدم، فهو أولى"[٢].

٢٦. ومن مظاهر الرحمة في حفظ النفس في الآية الكريمة:

ما جاء في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ﴾؛ فكلمة: ﴿إِصْلَاحٌ﴾ تعني أنه ينبغي على الناس اتباع ما هو أصلح لهم في جميع الشؤون، سواء كان ذلك في التربية أو في المال، وسواء كان ذلك بالإيجاب أم السلب؛ فأيّ شيء يكون إصلاحًا لهم فهو خير، وحذف المفضل عليه للعموم[٣].

٢٧. ومن مظاهر الرحمة في حفظ النفس في الآية الكريمة:

أن النظر في مصالح الأيتام من أهم مقاصد الشريعة في حفظ النظام.[٤]

٢٨. ومن مظاهر الرحمة في حفظ النفس:

أن أفعال الله ﷻ وأحكامه تابعة لحكمته، فلا يخلق شيئًا عبثًا، بل لا بد له من حكمة، عرفناها أم لم نعرفها، وكذلك لم يشرع لعباده شيئًا مجردًا عن الحكمة، فلا يأمر إلا بما فيه مصلحة خالصة أو راجحة، ولا ينهى إلا عما فيه مفسدة خالصة أو راجحة؛ لتمام حكمته ورحمته[٥].

(١) ينظر: تفسير السعدي ص: ٩٩.
(٢) ينظر: المغني ٤٤٦/٨.
(٣) ينظر: تفسير ابن عثيمين ٥٥/٥.
(٤) ينظر: تفسير ابن عاشور ٣٣٦/٢.
(٥) ينظر: تفسير السعدي ص: ٩٩.

المطلب الثالث
مظاهر الرحمة في حفظ العقل
من خلال سورة البقرة

ميز الله ﷻ بني آدم بالعقل، والعقل: المنع، ومنه عقال البعير؛ لأنه يمنع عن الحركة، ومنه العقل للدية، لأنه يمنع ولي المقتول عن قتل الجاني، ومنه اعتقال البطن واللسان، ومنه يقال للحصن: معقل، والعقل: نقيض الجهل[١]، والعقل يعقل به ما ينفع من الخير، وينعقل به عما يضر من الشر[٢]، والعقل نوعان: عقل هو مناط التكليف، وهو إدراك الأشياء وفهمها؛ وهو الذي يتكلم عليه الفقهاء في العبادات والمعاملات وغيرها، وعقل الرشد، وهو أن يحسن الإنسان التصرف؛ وسمي إحسان التصرف عقلًا؛ لأن الإنسان عَقَل تصرفه فيما ينفعه.[٣]

وأوجب الله ﷻ حفظ العقل من كل ما يسيء إليه ويعطل الانتفاع به سواءًا في أمور الدين أو أمور الدنيا.[٤]

١. فمن مظاهر الرحمة في حفظ العقل:

ما أوجب الله ﷻ من منع تقليد الآباء في الباطل؛ إذ بذلك يتحرر

(١) ينظر: مفردات ألفاظ القرآن للأصفهاني ص: ٥٧٨، وتفسير القرطبي ١/٣٦٩.
(٢) ينظر: تفسير السعدي ص: ٥١.
(٣) ينظر: تفسير ابن عثيمين ٣/١٠٩.
(٤) مقاصد الشريعة لليوبي ص: ٢٣٥.

العقل حرية حقيقية كاملة، ويقوم بعملية التثبت والتبين قبل الإقدام أو الاعتقاد والتصديق، كما حرم كل مسكر، وعاقب من يتناوله.

٢. ومن مظاهر الرحمة في حفظ العقل عما يضره في أمور الدين:

ما ذكره الله ﷻ عن نهي بني إسرائيل من أمر الناس بالبر ونسيان أنفسهم عن فعله في قوله تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [البقرة]؛ فالاستفهام في قوله تعالى: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ للتوبيخ، فالله ﷻ يوبخ بني إسرائيل على قبح ما أتوا من المعاصي مع نهيهم الناس عن اقترافها، فالعقل يحث صاحبه أن يكون أول فاعل لما يأمر به، وأول تارك لما ينهى عنه، فمن أمر غيره بالخير ولم يفعله، أو نهاه عن الشر فلم يتركه، دل على عدم عقله وجهله، خصوصًا إذا كان عالمًا بذلك، قد قامت عليه الحجة، وهذه الآية وإن كانت نزلت في سبب بني إسرائيل فهي عامة لكل أحد.[١]

٣. ومن مظاهر الرحمة في حفظ العقل:

ما جاء في الحض على الاعتبار في قول الله تعالى: ﴿فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُحْىِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾﴾ [البقرة]؛ فهذا خطاب من الله ﷻ لعباده المؤمنين، واحتجاج منه ﷻ على المشركين المكذبين بالبعث، وأمرهم بالاعتبار بما كان منه جل ثناؤه من إحياء قتيل بني إسرائيل بعد مماته في الدنيا، والمعنى: أيها المكذبون بالبعث بعد الممات، اعتبروا بإحيائي هذا القتيل بعد مماته، فإني كما أحييته في الدنيا فكذلك أحيي الموتى بعد مماتهم، فأبعثهم يوم البعث وأريكم أيها الكافرون المكذبون بمحمد ﷺ وبما جاء به من عند الله من أعلامه وحججه الدالة على نبوته، لتعقلوا وتفهموا أنه محق صادق فتؤمنوا به وتتبعوه.[٢]

(١) ينظر: تفسير الطبري ٦١٦/١، وتفسير السعدي ص: ٥١.
(٢) ينظر: تفسير الطبري ١٢٨/٢، وتفسير ابن عطية ١٠١/١، وتفسير البيضاوي ٣٤٤/١، =

٤. ومن مظاهر الرحمة في حفظ العقل:

ما وجه الله ﷻ إليه من علم النظر والتفكر في عجائب الصنع، ليعلم أنه لا بد له من فاعل لا يشبهه شيء[١]؛ فقال ﷻ: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾﴾ [البقرة]؛ فكلما تدبر العاقل في هذه المخلوقات، وتغلغل فكره في بدائع المبتدعات، وازداد تأمله للصنعة وما أودع فيها من لطائف البر والحكمة، علم بذلك أنها خلقت للحق وبالحق، وأنها صحائف آيات، وكتب دلالات، على ما أخبر به الله ﷻ عن نفسه ووحدانيته، وما أخبرت به الرسل عليهم السلام من اليوم الآخر، وأنها مسخرات، ليس لها تدبير ولا استعصاء على مدبرها ومصرفها، وأن العالم العلوي والسفلي كلهم إلى الله مفتقرون، وإليه صامدون، وأنه الغني بالذات عن جميع المخلوقات، فلا إله إلا الله، ولا رب سواه.[٢]

٥. ومن مظاهر الرحمة في حفظ العقل:

التعقل لما ضربه الله ﷻ مثلًا محسوسًا للكافر في قلة فهمه عن الله ما يتلى عليه من كتابه، وسوء قبوله لما يدعى إليه من توحيد الله، فمثله مثل البهيمة التي تسمع الصوت إذا نعق بها ولا تعقل ما يقال لها[٣]؛ فما هم فيه من الغي والضلال والجهل كالدواب السارحة التي لا تفقه ما يقال لها، بل إذا نعق بها راعيها، فدعاها إلى ما يرشدها، لا تفقه ما يقول ولا تفهمه،

= وتفسير ابن كثير ١/٣٠٣، وتفسير أضواء البيان ١/٣٨.
(١) ينظر: تفسير القرطبي ٢/١٩٠.
(٢) ينظر: تفسير السعدي ص: ٧٨.
(٣) ينظر: تفسير الطبري ٣/٤٤، ومقاصد الشريعة لليوبي ص: ٢٤٣.

بل إنما تسمع صوته فقط[1]، وقوله: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ﴾ أي: صُمٌّ عن سماع الحق، بُكْمٌ لا يتفوهون به، عُمْيٌ عن رؤية طريقه ومسلكه ﴿فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ أي: لا يعقلون شيئًا ولا يفهمونه[2]؛ فهل يستريب العاقل، أن من دعي إلى الرشاد، وذيد عن الفساد، ونهي عن اقتحام العذاب، وأمر بما فيه صلاحه وفلاحه وفوزه ونعيمه؛ فعصى الناصح، وتولى عن أمر ربه، واقتحم النار على بصيرة، واتبع الباطل، ونبذ الحق، أن هذا ليس له مسكة من عقل، وأنه لو اتصف بالمكر والخديعة والدهاء، فإنه من أسفه السفهاء[3]، وفي هذا أجل رحمة، وأعظم دعوة في إعمال العقل لقبول الحق وإتباعه، ونبذ الباطل والابتعاد عنه ولو كان العامل به أقرب قريب وأعز عزيز.

٦. ومن مظاهر الرحمة في حفظ العقل:

ما جاء في التفكر للمقارنة بين مضار الخمر والميسر ومنافعهما لاجتنابهما، وبيان مقدار ما يتصدق به المرء، والتفكر في الدنيا وسرعة انقضائها وفي الآخرة وبقائها، فكل هذا البيان للأحكام وما اشتملت عليه من أسرار إنما هي من رحمة الله ﷻ، قال الله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ۗ وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ [البقرة:٢١٩-٢٢٠]؛ فهذه دعوة من الله ﷻ لعباده للتفكر وإعمال العقل للمقارنة بين مضار الخمر والميسر ومنافعهما لاجتنابهما؛ حتى يحفظ العقل ويحفظ المال، فتصلح الدنيا والآخرة، فقوله تعالى: ﴿قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾ بيان لكبر الإثم على المنافع؛ فإثمهما في الدين، وأما المنافع فدنيوية؛ من حيث إن فيها نفع

(١) ينظر: تفسير ابن كثير ١/ ٤٨٠.
(٢) ينظر: تفسير ابن كثير ١/ ٤٨٠.
(٣) ينظر: تفسير السعدي ص: ٨١.

البدن، وتهضيم الطعام، وإخراجَ الفضلات، وتشحيذ بعض الأذهان، ولذّة الشدّة المطربة التي فيها، وبيعها والانتفاع بثمنها، وما كان ينتفع بعضهم من الميسر فينفقه على نفسه أو عياله، ولكن هذه المصالح لا توازي مضرّته ومفسدته الراجحة لتعلقها بالعقل والدين.[1]

٧. ومن مظاهر الرحمة في حفظ العقل في الآية الكريمة:

أن الله ﷻ بين الحكم مع بيان علته حتى تتلقاه الأمة بطيب نفس، وحتى يلحقوا به نظائره، ومن مظاهر الرحمة في حفظ العقل بيان لقاعدة الإنفاق بما لا يشذ عن أحد من المنفقين[2].

٨. ومن مظاهر الرحمة في حفظ العقل في الآية الكريمة:

تعليل البيان؛ فاللام في ﴿لَكُمُ﴾ للتعليل، وهو امتنان وتشريف بهذه الفضيلة؛ لإشعاره بأن البيان على هذا الأسلوب مما اختصت به هذه الأمة؛ ليتلقوا التكاليف على بصيرة، بمنزلة الموعظة التي تلقى إلى كامل العقل موضحة بالعواقب؛ لأن الله أراد لهذه الأمة أن يكون علماؤها مشرعين[3].

٩. ومن مظاهر الرحمة في حفظ العقل في الآية الكريمة:

أن الله ﷻ لما بيّن هذا البيان الشافي، وأطلع العباد على أسرار شرعه قال: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ﴾ أي: ليحصل للأمة تفكر وعلم في أمور الدنيا وأمور الآخرة؛ لأن التفكر مظروف ﴿فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ﴾، فتقدير المضاف لازم بقرينة قوله: ﴿وَٱلْآخِرَةِ﴾، إذ لا معنى لوقوع التفكر يوم القيامة، فلو اقتصر على بيان الحظر والوجوب، والثواب والعقاب؛ لكان

(١) ينظر: تفسير ابن كثير ١/٤٧٩.
(٢) ينظر: تفسير ابن عاشور ٢/٣٣٤.
(٣) ينظر: تفسير ابن عاشور ٢/٣٣٤.

بيانًا للتفكر في أمور الآخرة خاصة، ولو اقتصر على بيان المنافع والمضار، بأن قيل: قل فيهما نفع وضر؛ لكان بيانًا للتفكر في أمور الدنيا خاصة، ولكن ذكر المصالح والمفاسد، والثواب والعقاب؛ تذكيرًا بمصلحتي الدارين، وفي هذا تنويه بشأن إصلاح أمور الأمة في الدنيا والآخرة[1].

١٠. ومن مظاهر الرحمة في حفظ العقل في الآية الكريمة:

الأمر بالتفكر في الدنيا وسرعة انقضائها، فلا يركن إليها، والتفكر في الآخرة وبقائها، وأنها دار الجزاء فيستعد لها وتعمر[2].

١١. ومن مظاهر الرحمة في حفظ العقل:

ما جاء من تحريم نكاح المشركين والمشركات لما في نكاحهما من ضرر عظيم على الزوج المسلم وذريته؛ لأنهم يدعون إلى العمل بما يدخل النار من الكفر بالله ورسوله، ولا يألون المسلمين خبالًا، والله ﷻ يدعو إلى الجنة بإعلامه سبيله وطريقه الذي به الوصول إلى الجنة والمغفرة، قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ۚ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ۗ وَلَا تُنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا۟ ۚ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِۦ ۖ وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٢١﴾﴾ [البقرة]؛ فالله ﷻ يوضح حججه وأدلته في كتابه الذي أنزله على لسان رسوله ﷺ لعباده ليتذكروا فيعتبروا، ويميزوا بين الأمرين اللذين أحدهما دعاء إلى النار والخلود فيها، والآخر دعاء إلى الجنة وغفران الذنوب، فيختاروا خيرهما لهم، ولم يجهل التمييز بينهما إلا ضعيف الرأي والعقل.[3]

(١) ينظر: تفسير ابن عطية ١/٢٤٥، وتفسير السعدي ص: ٩٨، وتفسير ابن عاشور ٢/٣٣٤، وتفسير ابن عثيمين ٥/٥٤.
(٢) ينظر: تفسير ابن كثير ١/٥٨٠، وتفسير السعدي ص: ٩٨.
(٣) ينظر: تفسير الطبري ٣/٧١٩، ومقاصد الشريعة ص: ٢٣٦.

١٢. ومن مظاهر الرحمة في حفظ العقل في الآية الكريمة:

أن الله ﷻ يظهر آياته ويكشفها بحيث لا يحصل فيها التباس على أحد من الناس؛ فالآية متى كانت جلية واضحة، كانت بصدد أن يحصل بها التذكر، فيحصل الامتثال لما دلت عليه تلك الآيات، ولما ركز في العقول من ميل للخير ومخالفة للهوى[١].

١٣. ومن مظاهر الرحمة في حفظ العقل:

ما جاء في الثناء عليه حيث جعله الله غاية لأمر محمود وهو تبيين الآيات؛ والمراد عقل الرشد السالم من الشبهات والشهوات والإرادات السيئة[٢]؛ فقال الله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٤٢﴾﴾ [البقرة]؛ فالله ﷻ يبيّن الأحكام العظيمة المشتملة على الحكمة والرحمة، ويمتن بها على العباد لما فيها من تبيين الحدود، والحلال والحرام، والمنافع العظيمة الدنيوية والأخروية؛ لعل العباد يعقلونها فيعرفونها ويعرفون المقصود منها؛ فإن من عرف ذلك أوجب له العمل بها، وكمل عقله وانصرف عقله إليها فتدبرها، وفهم ما أريد منها[٣].

١٤. ومن مظاهر الرحمة في حفظ العقل:

ما جاء في أن المعتبر والمتفهم للأمثال والمعاني، والمنزل لها على المراد منها إنما هم العالمون بالله ﷻ ومراده؛ فلذا عملوا بأمره واجتنبوا نهيه، فمن كان له أدنى مسكة من عقل لم يقدم على ما فيه مضرته ونهاية حسرته، ولكن ضعف الإيمان والعقل، وقلة البصيرة، يصير صاحبه إلى حالة لو صدرت من مجنون لا يعقل لكان ذلك عظيمًا وخطره جسيمًا؛ فلهذا أمر ﷻ

(١) ينظر: تفسير البحر المحيط ٤٢١/٢، وتفسير البيضاوي ٥٠٨/١.
(٢) ينظر: تفسير ابن عثيمين ١٥١/٥.
(٣) ينظر: تفسير ابن كثير ٦٦٠/١، وتفسير الآلوسي ٥٥٢/١، وتفسير السعدي ص: ١٠٦.

بالتفكر وحثَّ عليه؛ فقال الله تعالى: ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٦٦﴾﴾ [البقرة][1].

١٥. ومن مظاهر الرحمة في حفظ العقل:

ما جاء في بيان الحكمة وتخصيص أولوا الألباب بالتذكر والتفهم لأوامر الله ﷻ؛ فقال تعالى: ﴿يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٦٩﴾﴾ [البقرة]، وفي معنى الحكمة أقوال؛ فقال السدي رحمه الله: هي النبوة، وقال ابن عباس رضي الله عنهما وقتادة والضحاك ومجاهد رحمهم الله: القرآن والفهم فيه، وقال ابن أبي نجيح رحمه الله: الإصابة في القول والفعل، وقال إبراهيم النخعي رحمه الله: معرفة معاني الأشياء وفهمها[2]، وكل هذه الأقوال صحيحة، فالحكمة مأخوذة من الحكم وفصل القضاء، والإصابة بما دل على صحته الدليل؛ لأن الإصابة في الأمور إنما تكون عن فهم بها وعلم ومعرفة وخشية لله وفقه، والنبوة من أقسامها؛ لأن الأنبياء مسددون، وموفقون لإصابة الصواب؛ فالله ﷻ يؤتي العلم النافع والعمل الصالح ومعرفة أسرار الشرائع وحكمها وإصابة الصواب في القول والفعل من يشاء ممن منَّ عليه وآتاه الحكمة[3]؛ فمن مظاهر الرحمة في حفظ العقل إن من أعطى الحكمة والقرآن فقد أعطى أفضل ما أعطى من جمع علم كتب الأولين من الصحف وغيرها[4]، وأي خير أعظم من خير فيه سعادة الدارين والنجاة من شقاوتهما! فكمال العبد

(١) ينظر: تفسير الطبري ٦٩٣/٤، وتفسير ابن كثير ٦٩٦/١، وتفسير السعدي ص: ١١٤.
(٢) ينظر: تفسير البغوي ٣٣٤/١.
(٣) ينظر: تفسير الطبري ١٢/٥، وتفسير السعدي ص: ١١٥.
(٤) ينظر: تفسير القرطبي ٣٣٠/٣.

متوقف على الحكمة، إذ كماله بتكميل قوتيه العلمية والعملية؛ فتكميل قوته العلمية بمعرفة الحق ومعرفة المقصود به، وتكميل قوته العملية بالعمل بالخير وترك الشر؛ وبذلك يتمكن من الإصابة بالقول والعمل، وتنزيل الأمور منازلها في نفسه وفي غيره، وبدون ذلك لا يمكنه ذلك[١].

١٦. ومن مظاهر الرحمة في حفظ العقل في الآية الكريمة:

بيان أنه ما يتعظ بما وعظ به الله في آي كتابه، فيذكر وعده ووعيده فيها، فينزجر عما زجره عنه ربه، ويطيعه فيما أمره به، إلا أولو العقول الذين عقلوا عن الله ﷻ أمره ونهيه، فأخبر جل ثناؤه أن المواعظ غير نافعة إلا لأولي الحجا والأحلام، وأن الذكرى غير ناهية إلا لأهل النهى والعقول؛ وفي هذا بيان فضيلة العقل[٢].

١٧. ومن مظاهر الرحمة في حفظ العقل:

ذم المعرضين عن التذكر وبيان نقص عقولهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾؛ فإن الحكم إذا علق بوصف ازداد قوة بقوة ذلك الوصف، ونقص بنقص ذلك الوصف[٣].

(١) ينظر: تفسير السعدي ص: ١١٥.
(٢) ينظر: تفسير الطبري ١٢/٥، وتفسير ابن كثير ٧٠١/١، وتفسير ابن عثيمين ٢٨٠/٥.
(٣) ينظر: تفسير ابن عثيمين ٢٨٠/٥.

المطلب الرابع
مظاهر الرحمة في حفظ النسل من خلال سورة البقرة

نسل: قال ابن فارس: "النون والسين واللام أصلٌ صحيح يدلُّ على سَلِّ شيءٍ وانسلاله، والنَّسْل: الولَد؛ لأنَّه يُنْسل من والدته، وتناسَلُوا: ولد بعضُهم من بعض"(١)، قال السرخسي: "ولده جزء منه فينفق عليه من ماله حفظًا لنسله"(٢)، وحفظ النسل ضروري، لأنه يترتب على فقده انقطاع الوجود الإنساني وإنهاؤه وخراب العالم وفساده(٣)، قال الشاطبي: "ولو عُدِمَ النسلُ لم يكن في العادة بقاء"(٤).

وتستمد الأحكام التفصيلية للمحافظة على النسل وإعداده للاستخلاف من الشريعة الإسلامية، وإن كانت طرق رعاية الأولاد وتربيتهم قد جبل عليها الإنسان بفطرته؛ إلا أن الشارع الحكيم أسس قواعد وحدد ضوابط تقوم عليها الرعاية في كل زمان ومكان، تماشيًا مع الفطرة، وتصحيحًا للطبائع القبيحة؛ فعن عَنْ عَبْد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: قَالَ: النَّبِيُّ ﷺ: «كُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْؤُولٌ؛ فَالإِمَامُ رَاعٍ وَهُوَ مَسْؤُولٌ، وَالرَّجُلُ رَاعٍ عَلَى أَهْلِهِ وَهُوَ مَسْؤُولٌ، وَالْمَرْأَةُ رَاعِيَةٌ عَلَى بَيْتِ زَوْجِهَا وَهِيَ مَسْؤُولَةٌ، وَالْعَبْدُ رَاعٍ عَلَى مَالِ سَيِّدِهِ وَهُوَ مَسْؤُولٌ، أَلاَ فَكُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْؤُولٌ»(٥).

(١) ينظر: معجم مقاييس اللغة ٥/ ٤٢٠.
(٢) ينظر: المبسوط للسرخسي ١٣/ ٩٤.
(٣) ينظر: مقاصد الشريعة لليوبي ص: ٢٥٤.
(٤) ينظر: الموافقات للشاطبي ٢/ ٣٢.
(٥) رواه البخاري في صحيحه، كتاب: النكاح، باب: ﴿قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا﴾ [التحريم:٦]، ٧/ ٣٤، ح: (٥١٨٨)،=

وهذه الضوابط لا يمكنها أن تؤدي دورها في غياب المحضن الأسري الذي يجمع أفراد العائلة الواحدة؛ الذين جمعهم عقد زواج شرعي بين الأب والأم، وتحقق المقصد الأصلي بالتناسل؛ فالنسل هو خلف الزواج، وبوجود الأسرة وتعدد الأفراد فيها، تتحدد وظيفة كل فرد في هذه الأسرة، حقوقًا وواجبات، بما يحقق التكامل الذي يتكفل بالنسل رعاية وتنشئة؛ فرعاية النسل، والحفاظ عليه حتى يبلغ أشده ويقوم بأداء واجبه تجاه خالقه وأمته، لا يتحقق إلا داخل المحيط الأسري؛ لأن الأسرة هي الكفيلة بتهيئة المناخ الذي يحقق مصالح النسل في حفظه ورعايته وتربيته وتنشئته، ومن ثمة تتحدد للأسرة وظائفها، الأمر الذي بيّنته نصوص الشريعة، وبإيجاد النسل يكتمل البناء الأسري، وهكذا تتعدد وظائف الأسرة بين إنجاب الأولاد الشرعيين، ثم رعايتهم منذ الولادة والعناية برضاعهم وحضانتهم، وتتحدد أسس الرأفة والحنو برضاعة الوليد وحضانته في السنوات الأولى من الميلاد إلى الصبا، ورعايته وتربيته في السنوات التالية التي ينشأ فيها ويترعرع[1]، وجاء بيان أحكام الرضيع في قول الله تعالى: ﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ ۚ وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةٌۢ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦ ۚ وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ ۗ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا ۗ وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّآ ءَاتَيْتُم بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٣﴾﴾ [البقرة]، مدللا على مظاهر الرحمة في حفظ النسل.

١. **فقول الله تعالى:** ﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ﴾ أي: المطلقات اللائي لهن أولاد في سن الرضاعة، ودليل التخصيص أن الخلاف في مدة الإرضاع لا

= ومسلم في صحيحه، كتاب: الإمارة، باب: فَضِيلَةِ الإِمَامِ الْعَادِلِ وَعُقُوبَةِ الْجَائِرِ وَالْحَثِّ عَلَى الرِّفْقِ بِالرَّعِيَّةِ وَالنَّهْيِ عَنْ إِدْخَالِ الْمَشَقَّةِ عَلَيْهِمْ، ٦/٧، ح: (٤٨٢٨).

(١) ينظر: حفظ النسل من خلال التنشئة والرعاية، د. فريدة صادق زوزو، موقع بحوث ودراسات.

يقع بين الأب والأم إلا بعد الفراق، ولا يقع في حالة العصمة؛ إذ من العادة المعروفة عند العرب ومعظم الأمم أن الأمهات يرضعن أولادهن في مدة العصمة، وأنهن لا تمتنع منه من تمتنع إلا لسبب طلب التزوج بزوج جديد، بعد فراق والد الرضيع؛ فإن المرأة المرضع لا يرغب الأزواج فيها؛ لأنها تشتغل برضيعها عن زوجها في أحوال كثيرة[1]؛ فهذا خبر من الله ﷻ وهو بمعنى الأمر تنزيلًا له منزلة المتقرر، الذي لا يحتاج إلى أمر بأن ﴿يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ﴾[2]، وإنما عبر عن الأمر بالخبر للمبالغة، ومعناه الندب، أو الوجوب فيخص في حال الزوجية، وإذا عدم الأب لاختصاصها به، وإذا لم يرتضع الصبي إلا من أمه، أو لم يوجد له ظئر، أو عجز الوالد عن الاستئجار[3]؛ فهذا من مظاهر الرحمة في حفظ النسل.

٢. ومن مظاهر الرحمة في حفظ النسل:

أن في هذا إرشاد من الله ﷻ للوالدات أن يرضعن أولادهن كمال الرضاعة؛ وهي سنتان[4]، وهو قول ابن مسعود وابن عباس وابن عمر رضي الله عنهم، وقول عطاء والثوري رحمهما الله[5].

٣. ومن مظاهر الرحمة في حفظ النسل:

أن الحولين أو النقصان منهما إنما يكون عند عدم الإضرار بالمولود وعند رضا الوالدين.[6]

(١) ينظر: تفسير ابن عاشور ٢/٤٠٩.
(٢) ينظر: تفسير السعدي ص: ١٠٤.
(٣) ينظر: أحكام القرآن لابن العربي ١/٤٠٣، وتفسير البيضاوي ١/٥٢٤، وحاشية الدسوقي ٢/٣٨٢، ٣٨٣، بداية المجتهد ٢/٥٦، والمغني لابن قدامة ١٨/٢٥٥.
(٤) ينظر: تفسير ابن كثير ١/٦٣٣، والأم للشافعي ٥/٢٦، والمنتقى شرح الموطأ للباجي ٣/٢٦٥.
(٥) تفسير الطبري ٤/٢٠٧، والمغني لابن قدامة ١٨/٨٢، ٢١٦.
(٦) ينظر: تفسير القرطبي ٣/١٦٢، والأم للشافعي ٥/٢٨ وفتح القدير للكمال بن الهمام ٧/٣٩٦.

٤. ومن مظاهر الرحمة في حفظ النسل:

بيان أن رحمة الله ﷻ أعظم من رحمة الأم بولدها؛ إذ أمرها أن ترضع طفلها، مع أن فطرتها، وما جبلت عليه تستلزم الإرضاع.[١]

وفي قول الله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ أن على والد الطفل نفقة الوالدات وكسوتهن بما جرت به عادة أمثالهن في بلدهنّ من غير إسراف ولا إقتار، بحسب قدرته في يساره وتوسطه وإقتاره، قال الضحاك: إذا طلَّقَ الرجل زوجته وله منها ولد، فأرضعت له ولده وجب على الوالد نفقتها وكسوتها بالمعروف[٢]؛ ففي هذه التوصية من الله ﷻ للأب برعاية جانب الأم حتى تكون قادرة على رعاية مصلحة الطفل[٣] من مظاهر الرحمة في حفظ النسل.

٥. ومن مظاهر الرحمة في حفظ النسل:

في قوله تعالى: ﴿لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةٌۢ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦ﴾ فلا تدفعه عنها لتضر أباه بتربيته، وليس لها دفعُه إذا ولدته حتى تسقيه اللّبأ الذي لا يعيش بدون تناوله غالبًا، ثم بعد هذا لها رفعه عنها إذا شاءت، ولكن إن كانت مضارة لأبيه فلا يحل لها ذلك، كما لا يحل له انتزاعه منها لمجرد الضّرار لها؛ ولهذا قال: ﴿وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦ﴾ أي: بأن يريد أن ينتزع الولد منها إضرارًا بها، قاله مجاهد وقتادة والضحاك والزهري والسدي والثوري وابن زيد وغيرهم رحمهم الله.[٤]

٦. ومن مظاهر الرحمة في حفظ النسل:

أن الله ﷻ وصى الورثة بالرضيع في قوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ

(١) ينظر: تفسير ابن عثيمين ٥/١١٥.
(٢) ينظر: تفسير ابن كثير ١/٦٣٤، والموسوعة الفقهية الكويتية ٤١/٧٨.
(٣) ينظر: تفسير الرازي ٦/٤٦١.
(٤) ينظر: تفسير ابن كثير ١/٦٣٤، وينظر: الغرر البهية للأنصاري ٤/٤٠٠.

ذَٰلِكَ﴾ قيل: في عدم الضرار لقريبه قاله مجاهد والشعبي والضحاك، وقيل: عليه مثل ما على والد الطفل من الإنفاق على والدة الطفل والقيام بحقوقها وعدم الإضرار بها[1]، قال ابن قدامة في قوله تعالى "﴿وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ﴾: فأوجب على الأب نفقة الرضاع، ثم عطف الوارث عليه، فأوجب على الوارث مثل ما أوجب على الوالد"[2].

٧. ومن مظاهر الرحمة في حفظ النسل:

في قوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا﴾ أنه إذا اتفقا والدا الطفل على فطامه قبل الحولين، ورأيا في ذلك مصلحة له، وتشاورا في ذلك، وأجمعا عليه؛ ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا﴾ في ذلك، وأن انفراد أحدهما بذلك دون الآخر فيؤخذُ منه، ولا يجوز لواحد منهما أن يستبد بذلك من غير مشاورة الآخر قاله الثوري وغيره، وهذا فيه احتياط للطفل، وإلزام للنظر في أمره، وهو من رحمة الله بعباده، حيث حجر على الوالدين في تربية طفلهما وأرشدهما إلى ما يصلحه ويصلحهما.[3]

(١) ينظر: تفسير ابن كثير ٦٣٥/١.
(٢) ينظر: المغني لابن قدامة ١٧٣/١٨.
(٣) ينظر: تفسير ابن كثير ٦٣٥/١، والمبسوط للسرخسي ٣٧٥/٦، والمغني لابن قدامة ٢١٦/١٨.

المطلب الخامس
مظاهر الرحمة في حفظ المال
من خلال سورة البقرة

لا تستقيم الحياة إلا بالمال فهو عصبها، وقد جبل الإنسان على حبه للمال قال الله تعالى: ﴿وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾ [البقرة:١٧٧]، يعني وأعطى ماله وأخرجه في حين محبته إياه وضنه به وشحه عليه[١].

١. فمن مظاهر الرحمة في حفظ المال:

أن الله ﷻ ملك العباد إياه، ونسبه إليهم، وأباح التملك الفردي قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٤﴾﴾ [البقرة]، وقال تعالى: ﴿وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ﴾ [البقرة:٢٧٩].

٢. ومن مظاهر الرحمة في حفظ المال:

أن الله ﷻ ملكهم إياه بالطرق المشروعة كتحصيله عن طريق الوصية التي كانت فريضة في ابتداء الإسلام للوالدين والأقربين على من مات وله مال[٢]؛ فقدر الله ﷻ للوالدين الوارثين وغيرهما من الأقارب الوارثين هذا المعروف في آيات المواريث، بعد أن كان مجملًا وبقي الحكم فيمن

(١) ينظر: تفسير الطبري ٣/٧٨، وتفسير ابن كثير ١/٤٨٦.
(٢) ينظر تفسير البغوي ١/١٩٢.

لم يرثوا من الوالدين الممنوعين من الإرث وغيرهما ممن حجب بشخص أو وصف، فإن الإنسان مأمور بالوصية لهم وهم أحق الناس ببره، قال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ ﴿١٨٠﴾﴾ [البقرة].(١)

٣. ومن مظاهر الرحمة في حفظ المال:

أن الله ﷻ ملك العبدالمال عن طريق بذل الجهد البدني أو الفكري أو البيع والشراء؛ وذلك لما فيه من عموم المصلحة، وشدة الحاجة، وحصول الضرر بتحريمه، قال الله تعالى: ﴿وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ﴾ [البقرة:٢٧٥]، وهذا أصل في حل جميع أنواع التصرفات الكسبية حتى يرد ما يدل على المنع.(٢)

٤. ومن مظاهر الرحمة في حفظ المال:

أن الله ﷻ حث على كسب المنافع الأخروية؛ فلا ينصرف هم العبد للمنافع الدنيوية فقط، وقرب ﷻ للناس فضل الإنفاق في سبيله بما يفهمونه واللّه هو الغني الحميد، فشبه ﷻ عطاء المؤمن في الدنيا بما يرجو ثوابه في الآخرة بالقرض(٣)؛ فقال الله تعالى: ﴿مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٤٥﴾﴾ [البقرة]، وبدئت الآية بالاستفهام للحث والتشويق للبذل والعطاء في سبيل الله(٤)، ولم يبين ﷻ هنا قدر هذه الأضعاف الكثيرة، ولكنه بينه ﷻ في قوله: ﴿مَّثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾﴾ [البقرة](٥)؛ ففي الآية بيان شرف النفقة في سبيل الله وحسنها،

(١) ينظر: تفسير السعدي ص: ٨٥.
(٢) ينظر: تفسير السعدي ص: ١١٦، وينظر: مقاصد الشريعة لليوبي ص: ٢٨٣.
(٣) ينظر: تفسير القرطبي ٢٤٠/٣، وتفسير البحر المحيط ٥٦٥/٢، وتفسير الشوكاني ٣٥٣/١.
(٤) ينظر: تفسير ابن عاشور ٤٥٩/٢، وتفسير ابن عثيمين ١٥٧/٥
(٥) تفسير أضواء البيان ١٥٣/١.

وضمنها التحريض على ذلك بالمثل المضروب، وهو أبلغ في النفوس من ذكر عدد السبعمائة؛ فإن هذا فيه إشارة إلى أن الأعمال الصالحة ينميها الله ﷻ لأصحابها كما ينمي الزرع لمن بذره في الأرض الطيبة.[1]

٥. ومن مظاهر الرحمة في حفظ المال:

أن الله ﷻ جعل الزكاة نماء للمال وبركة، وبسببها يحصل الأجر للمزكي، وتطهر نفسه من حب المال[2]، وأمارة على صدق الإيمان؛ إذ قال لبني إسرائيل: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرْكَعُوا۟ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾﴾ [البقرة][3]، وبين تبارك وتعالى أن مما أمر به بنو إسرائيل من الأوامر، وأخذ الميثاق عليهم فيه إيتاء الزكاة، قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ﴿٨٣﴾﴾ [البقرة][4]، وحث ﷻ المؤمنين على الاشتغال بما ينفعهم وتَعُودُ عليهم عاقبتُه يوم القيامة، من إقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وفعل كل القربات، ووعدهم أنهم مهما فعلوا من خير؛ فإنه لا يضيع عند الله، بل يجدونه عنده وافرا موفرا قد حفظه قال تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٠﴾﴾ [البقرة].[5]

٦. ومن مظاهر الرحمة في حفظ المال:

أن الله ﷻ أمر بالإنفاق في سبيله في سائر وجوه القُرُبات، ووجوه الطاعات، وخاصّة صرفَ الأموال في قتال الأعداء؛ إذ في ذلك من

(١) ينظر: تفسير القرطبي ٣/٣٠٢، وتفسير ابن كثير ١/٦٩١.
(٢) ينظر: تفسير البغوي ١/٨٨، وتفسير القرطبي ١/٣٤٣
(٣) ينظر: تفسير ابن عاشور ١/٤٥٧.
(٤) ينظر: تفسير ابن كثير ١/٣١٦.
(٥) ينظر: تفسير ابن كثير ١/٣٨٣، وتفسير السعدي ص: ٦٢.

المصالح العظيمة، من الإعانة على تقوية المسلمين، وعلى توهية الشرك وأهله، وعلى إقامة دين الله وإعزازه؛ فالجهاد في سبيل الله لا يقوم إلا على ساق النفقة؛ فالنفقة له كالروح، لا يمكن وجوده بدونها، وفي ترك الإنفاق في سبيل الله، إبطال للجهاد، وتسليط للأعداء، وشدة تكالبهم، وأخبر ﷻ أن من ترك فعل ذلك ولزمه واعتاده أدى بنفسه للهلاك والدمار؛ فقال تعالى: ﴿وَأَنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ ۛ وَأَحْسِنُوٓا۟ ۛ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٩٥﴾﴾ [البقرة].(١)

٧. ومن مظاهر الرحمة في حفظ المال:

أن الله ﷻ بين المصارف التي يجعل فيها الإنفاق، ومن مظاهر الرحمة في حفظ المال أن الله ﷻ بين مقدار ما ينفق العبد، فمهما أنفق من خير قل أو كثر؛ فإن الله ﷻ يعلم كنهه ويوفي ثوابه؛ فقال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ ۖ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٢١٥﴾﴾ [البقرة].(٢)

٨. ومن مظاهر الرحمة في حفظ المال:

أن الله ﷻ حرم العدوان على المال وأخذه بالباطل وبغير وجه حق قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُوا۟ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا۟ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٨﴾﴾ [البقرة]؛ فالخطاب بهذه الآية يتضمن جميع أمة محمد ﷺ، والمعنى: لا يأكل بعضكم مال بعض بغير حق؛ فيدخل في هذا: القمار والخداع والغصب والنهب والرشوة والخيانة، وما لا تطيب به نفس مالكه، أو حرمته الشريعة وإن طابت به نفس مالكه؛ كمهر البغيّ وحلوان الكاهن وثمن الخمور والخنازير،

(١) ينظر: تفسير ابن كثير ١/٥٣٠، وتفسير السعدي ص: ٩٠.
(٢) ينظر: تفسير البيضاوي ١/٤٩٩، وتفسير السعدي ص: ٩٦، وتفسير ابن عثيمين ٥/٣٦.

وغير ذلك من الملاهي والقيان والشرب والبطالة، وجحد الحقوق؛ كما لو حصل فيه النزاع، وحصل الارتفاع إلى حاكم الشرع، وأدلى من يريد أكلها بالباطل بحجة، غلبت حجة المحق، وحكم له الحاكم بذلك؛ فإن حكم الحاكم لا يبيح محرمًا، ولا يحلل حرامًا، إنما يحكم على نحو مما يسمع، وإلا فحقائق الأمور باقية؛ فليس في حكم الحاكم للمبطل راحة ولا شبهة؛ فمن أدلى إلى الحاكم بحجة باطلة وحكم له بذلك؛ فإنه لا يحل له، ويكون آكلًا لمال غيره بالباطل والإثم، وهذا في سائر الأموال.(١)

٩. ومن مظاهر الرحمة في حفظ المال:

ما جاء في تحريم الميسر؛ قال الله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ۗ وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾﴾ [البقرة]، والميسر يطلق على سائر ضروب القمار؛ وهو كل كسب عن طريق المخاطرة والمغالبة، وضابطه: أن يكون فيه بين غانم وغارم، والإجماع منعقد على تحريمه، قال علي وابن عباس ﷺ وعطاء وابن سيرين والحسن وابن المسيب وقتادة وطاووس ومجاهد ومعاوية بن صالح رحمهم الله: كل شيء فيه قمار من نرد وشطرنج وغيره فهو ميسر؛ حتى لعب الصبيان بالكعاب والجوز، إلا ما أبيح من الرهان في الخيل، والقرعة في إبراز الحقوق، وأصل المقصد من الميسر الربح واللهو المحرم، فالمنافع في الميسر خاصة وعامة إنما هي دنيوية كلها، والإثم الذي فيه هو ما يوقعه من العداوة والبغضاء، ومن إضاعة الوقت، والاعتياد على الكسل والبطالة واللهو، والصد عن ذكر الله وعن الصلاة وعن التفقه في الدين، وترك التجارة ونحوها مما به قوام المدنية.(٢)

(١) ينظر: تفسير البغوي ١/ ٢١٠، وتفسير القرطبي ٢/٣٣٨، وتفسير السعدي ص: ٨٨.
(٢) ينظر: تفسير البحر المحيط ٢/٤٠٣، وتفسير ابن عاشور ٢/٣٣١، وتفسير ابن عثيمين ٥/٥٢.

١٠. ومن مظاهر الرحمة في حفظ المال:

ما جاء في تحريم كسبه عن طريق الربا؛ فهو متلف للأموال مهلك للناس، وفيه ظلم وسوء عاقبة، ويذهب بركة المال ويهلكه، وجاء بيان التحريم في صور شتى؛ فبين الله ﷻ أن آكل الربا لا يقوم من قبره يوم القيامة إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِي يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ مِنَ ٱلۡمَسِّۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡبَيۡعُ مِثۡلُ ٱلرِّبَوٰاْ﴾ [البقرة:٢٧٥]، وصرح ﷻ بتحريم الربا بقوله: ﴿وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ﴾ [البقرة:٢٧٥]، وبين ﷻ أنه ممحق بركته بقوله: ﴿يَمۡحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ﴾ [البقرة:٢٧٦]، وبأن المتعامل بالربا محارب لله تعالى بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ٢٧٨ فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ فَأۡذَنُواْ بِحَرۡبٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَإِن تُبۡتُمۡ فَلَكُمۡ رُءُوسُ أَمۡوَٰلِكُمۡ لَا تَظۡلِمُونَ وَلَا تُظۡلَمُونَ ٢٧٩﴾ [البقرة].(١)

١١. ومن مظاهر حفظ المال:

ما جاء في الأمر بتوثيق الديون والإشهاد عليها قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيۡنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى فَٱكۡتُبُوهُۚ وَلۡيَكۡتُب بَّيۡنَكُمۡ كَاتِبُۢ بِٱلۡعَدۡلِۚ وَلَا يَأۡبَ كَاتِبٌ أَن يَكۡتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُۚ فَلۡيَكۡتُبۡ وَلۡيُمۡلِلِ ٱلَّذِي عَلَيۡهِ ٱلۡحَقُّ وَلۡيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا يَبۡخَسۡ مِنۡهُ شَيۡـٔٗاۚ فَإِن كَانَ ٱلَّذِي عَلَيۡهِ ٱلۡحَقُّ سَفِيهًا أَوۡ ضَعِيفًا أَوۡ لَا يَسۡتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلۡيُمۡلِلۡ وَلِيُّهُۥ بِٱلۡعَدۡلِۚ وَٱسۡتَشۡهِدُواْ شَهِيدَيۡنِ مِن رِّجَالِكُمۡۖ فَإِن لَّمۡ يَكُونَا رَجُلَيۡنِ فَرَجُلٞ وَٱمۡرَأَتَانِ مِمَّن تَرۡضَوۡنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحۡدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحۡدَىٰهُمَا ٱلۡأُخۡرَىٰۚ وَلَا يَأۡبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُواْۚ وَلَا تَسۡـَٔمُوٓاْ أَن تَكۡتُبُوهُ صَغِيرًا أَوۡ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦۚ ذَٰلِكُمۡ أَقۡسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقۡوَمُ

(١) ينظر: تفسير ابن عطية ١/٣٥٤، وتفسير البيضاوي ١/٥٧٥، وتفسير السعدي ص: ١١٦، وتفسير أضواء البيان ١/١٦٠.

لِلشَّهَٰدَةِ وَأَدۡنَىٰٓ أَلَّا تَرۡتَابُوٓاْ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيۡنَكُمۡ فَلَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَلَّا تَكۡتُبُوهَاۗ وَأَشۡهِدُوٓاْ إِذَا تَبَايَعۡتُمۡۚ وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٞ وَلَا شَهِيدٞۚ وَإِن تَفۡعَلُواْ فَإِنَّهُۥ فُسُوقُۢ بِكُمۡۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ﴿٢٨٢﴾ وَإِن كُنتُمۡ عَلَىٰ سَفَرٖ وَلَمۡ تَجِدُواْ كَاتِبٗا فَرِهَٰنٞ مَّقۡبُوضَةٞۖ فَإِنۡ أَمِنَ بَعۡضُكُم بَعۡضٗا فَلۡيُؤَدِّ ٱلَّذِي ٱؤۡتُمِنَ أَمَٰنَتَهُۥ وَلۡيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥۗ وَلَا تَكۡتُمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَۚ وَمَن يَكۡتُمۡهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٞ قَلۡبُهُۥۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ ﴿٢٨٣﴾ [البقرة].

١٢. فمن مظاهر الرحمة في حفظ المال في الآية الكريمة:

الأمر بتوثيق الديون بالكتابة؛ فهي أمر مفروض بالنص غير متروك للاختيار في حالة الدين إلى أجل ﴿وَلۡيَكۡتُب بَّيۡنَكُمۡ كَاتِبُۢ بِٱلۡعَدۡلِۚ﴾، قال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ: "لما أمر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بالكتب والإشهاد وإخذ الرهان كان ذلك نصًا قاطعًا على مراعاة حفظ الأموال وتنميتها".[١]

١٣. ومن مظاهر الرحمة في حفظ المال في الآية الكريمة:

الأمر بتعيين شخص يقوم بكتابة الدين للاحتياط والحيدة المطلقة، وهذا الكاتب مأمور بأن يكتب بالعدل، فلا يميل مع أحد الطرفين، ولا ينقص أو يزيد في النصوص.[٢]

١٤. ومن مظاهر الرحمة في حفظ المال في الآية الكريمة:

الأمر بأن لا يمتنع الكاتب ما دام الضرر عنه منفي ﴿وَلَا يَأۡبَ كَاتِبٌ أَن يَكۡتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُۚ فَلۡيَكۡتُبۡ﴾؛ فهي وفاء لفضل اللّه عليه.[٣]

١٥. ومن مظاهر الرحمة في حفظ المال في الآية الكريمة:

أن المدين الذي عليه الحق هو الذي يملي على الكاتب اعترافه بالدين،

(١) ينظر: تفسير القرطبي ٣/٤١٧.
(٢) ينظر: أحكام القرآن للجصاص ٢/٢٠٨، والموسوعة الفقهية الكويتية ١٤/١٤٣.
(٣) ينظر: تفسير السعدي ص: ١١٨.

ومقدار الدين، وشرطه وأجله؛ لكي لا يقع الغبن على المدين لو أملى الدائن ﴿وَلْيُمْلِلِ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْـًٔا﴾.(١)

١٦. ومن مظاهر الرحمة في حفظ المال في الآية الكريمة:

أنه إذا كان المدين سفيهًا لا يحسن تدبير أموره أو ضعيفا كالصغير وضعيف العقل، أو لا يستطيع أن يمل هو؛ إما لعي أو جهل أو آفة في لسانه، أو لأي سبب من الأسباب المختلفة الحسية أو العقلية، فليملل ولي أمره القيم عليه ﴿فَإِن كَانَ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُۥ بِٱلْعَدْلِ﴾.(٢)

١٧. ومن مظاهر الرحمة في حفظ المال:

الشهادة، إذ لا بد من شاهدين على العقد ﴿مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ﴾.(٣)

١٨. ومن مظاهر الرحمة في حفظ المال:

أنه قد لا يتيسر وجود شاهدين من الرجال؛ فيسر الله تشريع شهادة النساء؛ ﴿فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ﴾، قال الكاساني رحمه الله: "الشهادة على الأموال، فالذكورة ليست فيها بشرط، والأنوثة ليست بمانعة بالإجماع، فتقبل فيها شهادة النساء مع الرجال".(٤)

١٩. ومن مظاهر الرحمة في حفظ المال:

ألا يأبى الشهداء للشهادة ﴿وَلَا يَأْبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُوا۟﴾.(٥)

(١) ينظر: الأم للشافعي ٣/٢١٨.
(٢) ينظر: الأم للشافعي ٣/٢١٨.
(٣) ينظر: الفتاوى الكبرى لابن تيمية ٥/٥٧٤.
(٤) ينظر: بدائع الصنائع للكاساني ١٤/٣٦٤.
(٥) ينظر: الأم للشافعي ٣/٩٢، والمبسوط للسرخسي ١٩/٢٩٩، والمغني لابن قدامة ٢٣/ ١٣٤.

٢٠. ومن مظاهر الرحمة في حفظ المال:

أن الشهادة على شيء مكتوب أقوم من الشهادة الشفوية التي تعتمد على الذاكرة وحدها، وشهادة رجلين أو رجل وامرأتين أقوم للشهادة، وأصح من شهادة الواحد، أو الواحد، والواحدة ﴿وَأَدْنَىٰٓ أَلَّا تَرْتَابُوٓاْ﴾.(١)

٢١. ومن مظاهر الرحمة في حفظ المال:

عدم المضارة بالكاتب أو الشهيد؛ فيوجب الله ﷻ لهم الحماية والرعاية ليتوازن الحق والواجب في أداء التكاليف العامة ﴿وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ وَإِن تَفْعَلُواْ فَإِنَّهُۥ فُسُوقٌۢ بِكُمْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾؛ فلا يقع ضرر على كاتب أو شهيد، بسبب أدائه لواجبه الذي فرضه اللّه عليه.(٢)

٢٢. ومن مظاهر الرحمة في حفظ المال:

حين يكون الدائن والمدين على سفر فلا يجدان كاتبًا؛ فتيسيرا للتعامل، مع ضمان الوفاء، رخص الشارع في التعاقد الشفوي بلا كتابة مع تسليم رهن مقبوض للدائن ضامن للدين ﴿وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُواْ كَاتِبًا فَرِهَٰنٌ مَّقْبُوضَةٌ﴾.(٣)

(١) ينظر: تفسير في ظلال القرآن ١/٣٣٦.
(٢) ينظر: المغني لابن قدامة ٢٣/ ١٣٤، والموسوعة الفقهية الكويتية ٢/٣٤٠.
(٣) ينظر: تفسير في ظلال القرآن ١/٣٣٥، والأم للشافعي ٣/٨٨، والموسوعة الفقهية الكويتية ٣٣/١١٤.

الخاتمة

في نهاية هذا البحث الذي أرجو من الله ﷻ أن يتقبله مني أذكر أهم وأبرز ما توصلت إليه من نتائج وتوصيات:

أولًا: النتائج:

١. بين البحث أهمية استشعار عظمة رحمة الله ﷻ بعباده، وتناولها لجميع جوانب الحياة اليومية، للفرد والجماعة.

٢. بين البحث شيئًا من كيفية تناول القرآن الكريم لمظاهر رحمة الله ﷻ؛ وذلك من خلال سورة البقرة، وربط الموضوع بالواقع من خلال حفظ الضرورات الخمس.

٣. يُعدّ البحث دراسة تطبيقية على سورة من سور القرآن الكريم، وهي دراسة تساعد الطالب وتفيده وتنمي لديه القدرة على كيفية دراسة مثل هذا الموضوع، واستخراج اللطائف والفوائد منه، وربطه بالواقع المعاصر.

ثانيًا: التوصيات:

١. إن الحاجة لتأصيل خلق الرحمة من خلال القرآن الكريم ملحة ولعل مما يعين على تأصيلها:

أ. ضرورة غرس وتعزيز ثقافة خلق الرحمة في المجتمع، عبر المناهج والمقررات الدراسية في المدارس والمعاهد والجامعات، ووسائل الإعلام والمواقع الإلكترونية، والمؤسسات الاجتماعية ليصبح هذا الخلق عادة ومنهجًا تقبل عليه كل فئات المجتمع؛ لا سيما الأجيال الناشئة باعتباره مظهرًا لالتزام الفرد بدينه وقيمه ومسؤولياته تجاه نفسه ومجتمعه.

ب. كتابة رسائل علمية في خلق الرحمة في حفظ الضرورات الخمس من خلال القرآن الكريم، يشترك فيه كل من اشتغل بالتفسير والفقه والأصول؛ بحيث يكون مشروعًا علميًا يبرز عظمة هذا الخلق وشدة اهتمام الإسلام به.

ج. إنشاء مراكز وكراسي بحثية لدراسات القيم الإسلامية، وتنظيم الندوات العلمية، والدورات التدريبية التي تتناول هذه القيم.

د. إعداد خطة علمية لإعداد البحوث العلمية في شتى القيم الإسلامية بالتعاون مع الجامعات ومراكز البحث العلمي.

٢. الدفاع عن الإسلام؛ إذ كثر في الآونة الأخيرة جرائم الاعتداء عليه، وعلى ثوابته بشكل لم يعرف له مثيل من قبل، ووصفه بما لا يليق من أنه عدواني وهمجي، ولا يكون ذلك إلا بالدعوة إلى هذا الدين ومبادئه، وإظهار محاسنه بالحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالتي هي أحسن.

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

فهرس المصادر والمراجع[1]

أولًا: الكتب العلمية:

١. القرآن الكريم
٢. ابن العربي، أبو بكر محمد بن عبدالله. أحكام القرآن، تحقيق: علي محمد البجاوي. بدون رقم طبعة؛ بيروت: دار المعرفة، بدون تاريخ طبع.
٣. ابن تيمية، أبو العباس أحمد بن عبدالحليم الحراني. الفتاوى الكبرى. تحقيق: محمد عبدالقادر عطا - مصطفى عبدالقادر عطا، الطبعة الأولى؛ بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤٠٨هـ.
٤. ابن حنبل، الإمام أحمد بن محمد الشيباني. المسند، أشرف عليه ورقمه وأعد فهارسه: بدر الدين جتين أر. بدون رقم طبعة؛ تونس: دار سحنون، ١٤١٣هـ.
٥. ابن عاشور، محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر التونسي. التحرير والتنوير، الطبعة الأولى؛ بيروت: مؤسسة التاريخ العربي، ١٤٢٠هـ.
٦. ابن فارس؛ أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا. معجم مقاييس اللغة. تحقيق: عبدالسلام محمد هارون. بدون رقم طبعة، بيروت: دار الفكر، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.
٧. ابن قدامة، موفق الدين عبدالله بن أحمد بن محمد. المغني في فقه الإمام أحمد بن حنبل الشيباني. دون رقم طبعة؛ دون بلد طبع: دون دار طبع، دون سنة طبع.
٨. الأرنؤوط، شعيب. تحقيق مسند الإمام أحمد، تحقيق مجموعة من الأساتذة بإشراف الشيخ شعيب الأرنؤوط. الطبعة الأولى؛ بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤١٩هـ.

(١) رتب هذا الفهرس حسب الترتيب الهجائي لألقاب المؤلفين.

٩. الأشقر، عمر بن سليمان بن عبدالله. أسماء الله الحسنى الهادية إلى الله والمعرفة به، الطبعة الثانية؛ الأردن: دار النفائس، ١٤٢٧هـ-٢٠٠٧م.

١٠. الأصفهاني، الراغب الأصفهاني. مفردات ألفاظ القرآن، تحقيق: صفوان بن عدنان الداودي. الطبعة الثالثة؛ دمشق، بيروت: دار القلم، والدار الشامية، ١٤٢٣هـ.

١١. الآلوسي، محمود بن عبدالله الحسيني. روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، تحقيق: على عبدالبارى عطية. بدون رقم طبعة؛ بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤١٥هـ.

١٢. الأندلسي، أبو عبدالله محمد بن يوسف بن حيان. البحر المحيط، تحقيق: صدقي محمد جميل. الطبعة الأولى؛ بيروت: دار الفكر، ١٤٢٠هـ.

١٣. الأندلسي، أبو محمد عبدالحق بن عطية. المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تحقيق: السيد عبدالعال السيد إبراهيم. بدون رقم طبعة؛ بدون بلد نشر: بدون دار نشر، بدون سنة طبع.

١٤. البخاري، الإمام أبي عبدالله محمد بن إسماعيل. الجامع الصحيح المسند من حديث رسول الله ﷺ وسننه وأيامه، الطبعة الأولى؛ القاهرة: دار الشعب، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.

١٥. البغوي، الحسين بن مسعود. معالم التنزيل، تحقق: محمد عبدالله النمر وعثمان جمعة ضميرية وسليمان مسلم الحرش. الطبعة الرابعة؛ الرياض: دار طيبة، ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م.

١٦. البيضاوي، عبدالله بن محمد الشيرازي. أنوار التنزيل وأسرار التأويل، تحقق: عبدالقادر عرفات. بدون رقم طبعة؛ بيروت: دار الفكر، ١٤٢٥هـ.

١٧. الباجي، سليمان بن خلف بن سعد بن أيوب. المنتقى شرح الموطأ. دون رقم طبعة؛ دون بلد طبع: دون دار طبع، دون سنة طبع.
١٨. البيهقي، أحمد بن الحسين بن علي. الأسماء والصفات، تحقيق: عماد الدين أحمد حيدر. الطبعة الثانية؛ بيروت: دار الكتاب العربي، ١٤١٥هـ - ١٩٩٤م.
١٩. الجصاص، أحمد بن علي المكني بأبي بكر الرازي الجصاص الحنفي. أحكام القرآن، تحقيق: محمد الصادق قمحاوي، بدون رقم طبعة، بيروت: دار احياء التراث العربى، ١٤٠٥هـ.
٢٠. الحاج أحمد، يوسف. موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن الكريم والسنة المطهرة. الطبعة الثانية؛ دمشق: دار ابن حجر، ١٤٢٤هـ.
٢١. الخازن، على بن محمد بن إبراهيم البغدادي الشهير بالخازن. لباب التأويل في معاني التنزيل، ضبطه وصححه: عبدالسلام محمد علي شاهين. الطبعة الأولى؛ بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤٢٥هـ.
٢٢. الدسوقي، محمد بن أحمد. حاشية الدسوقي على الشرح الكبير. دون رقم طبعة؛ دون بلد طبع: دون دار طبع، دون سنة طبع.
٢٣. الرازي، محمد بن عمر بن الحسين. التفسير الكبير، بدون رقم طبعة؛ بيروت: دار إحياء التراث العربي، بدون سنة طبع.
٢٤. الزركشي، محمد بن عبدالله بن بهادر. البرهان في علوم القرآن، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم. الطبعة الأولى؛ مصر: دار إحياء الكتب العربية، ١٣٧٦هـ - ١٩٥٧م.
٢٥. السرخسي، محمد بن أحمد بن أبي سهل. المبسوط. دون رقم طبعة؛ دون بلد طبع: دون دار طبع، دون سنة طبع.
٢٦. السيوطي، عبدالرحمن بن الكمال. الإتقان في علوم القرآن، بدون رقم طبعة؛ بدون بلد نشر: بدون دار نشر، بدون سنة طبع.

٢٧. السعدي، عبدالرحمن بن ناصر بن عبدالله. تفسير أسماء الله الحسنى، دراسة وتحقيق: عبيد بن علي العبيد. بدون رقم طبعة، المدينة المنورة: مجلة الجامعة الإسلامية، العدد ١١٢ - السنة ٣٣ - ١٤٢١هـ.

٢٨. السعدي، عبدالرحمن بن ناصر بن عبدالله. تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان. تحقيق: عبدالرحمن بن معلا اللويحق. الطبعة الأولى؛ بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م.

٢٩. الشاطبي؛ إبراهيم بن موسى بن محمد. الموافقات. تحقيق: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان

٣٠. الطبعة الأولى؛ بدون بلد نشر: دار ابن عفان، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م.

٣١. الشافعي، محمد بن إدريس أبو عبدالله. الأم. دون رقم طبعة؛ بيروت: دار المعرفة، دون سنة طبع.

٣٢. الشنقيطي، محمد الأمين بن محمد المختار الجكني. أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، مع تتمته للشيخ عطية محمد سالم. بدون رقم طبعة؛ بيروت: دار الفكر، ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م.

٣٣. الشوكاني، محمد بن علي بن محمد. فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، بدون رقم طبعة؛ بيروت: دار الفكر، ١٤٠٣هـ، ١٩٨٣م.

٣٤. الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير. جامع البيان عن تأويل آي القرآن، تحقيق: عبدالله بن عبدالمحسن التركي بالتعاون مع مركز البحوث والدراسات العربية والإسلامية بدار هجر. الطبعة الأولى؛ الجيزة: دار هجر، ١٤٢٢هـ.

٣٥. العيني، بدر الدين محمود بن أحمد بن موسى الحنفي. عمدة القاري شرح صحيح البخاري، بدون رقم طبعة؛ بدون بلد نشر: بدون دار نشر، بدون سنة طبع.

٣٦. عبدالباقي، محمد فؤاد. المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، بدون رقم طبعة؛ استنابول: المكتبة الإسلامية، ١٩٨٢م.
٣٧. العثيمين، محمد بن صالح بن محمد. تفسير القرآن، بدون رقم طبعة؛ بدون بلد نشر: بدون دار نشر، بدون سنة طبع.
٣٨. الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي. المستصفى في علم الأصول، تحقق: محمد بن سليمان الأشقر. الطبعة الأولى؛ بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م.
٣٩. القرشي، أبو الفداء إسماعيل بن كثير. تفسير القرآن العظيم، تحقيق: سامي بن محمد سلامة. الطبعة الثانية؛ المدينة المنورة: دار طيبة، بدون سنة طبع.
٤٠. القرطبي، محمد بن أحمد. الجامع لأحكام القرآن، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش. الطبعة الثانية؛ القاهرة: دار الكتب المصرية، ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤م.
٤١. القرطبي، محمد بن أحمد بن محمد الشهير بابن رشد الحفيد. بداية المجتهد ونهاية المقتصد. الطبعة الرابعة؛ مصر: مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، ١٣٩٥هـ.
٤٢. القزويني، الحافظ محمد بن يزيد. سنن ابن ماجه، تعليق: محمد فؤاد عبدالباقي، والأحاديث مذيلة بأحكام الألباني عليها. بدون رقم طبعة؛ بيروت: دار الفكر، بدون سنة طبع.
٤٣. قطب، سيد قطب إبراهيم. في ظلال القرآن، بدون رقم طبعة؛ القاهرة: دار الشروق، بدون سنة طبع.
٤٤. المناوي، زين الدين محمد المدعو بعبدالرؤوف بن تاج العارفين. فيض القدير شرح الجامع الصغير. الطبعة الاولى؛ بيروت، لبنان: دار الكتب العلمية، ١٤١٥هـ - ١٩٩٤م.

٤٥. القشيري، أبو الحسين مسلم بن الحجاج. صحيح مسلم، وقف على طبعه وتحقيق نصوصه وتصحيح وترقيمه وعد كتبه وأبوابه وأحاديثه وعلق عليه: محمد فؤاد عبدالباقي، بدون رقم طبعة؛ بيروت: دار الجيل ودار الأفاق الجديدة، بدون سنة طبع.

٤٦. الكاساني، أبو بكر بن مسعود بن أحمد. بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع. دون رقم طبعة؛ بيروت: دار المعرفة، دون سنة طبع.

٤٧. وزارة؛ الأوقاف والشؤون الإسلامية. الموسوعة الفقهية الكويتية. الأجزاء ١-٢٣: الطبعة الثانية؛ الكويت: دار السلاسل. الأجزاء ٢٤-٣٨: الطبعة الأولى؛ مصر: مطابع دار الصفوة. الأجزاء ٣٩-٤٥: الطبعة الثانية؛ الكويت: طبع الوزارة، من ١٤٠٤ - ١٤٢٧ هـ.

٤٨. اليوبي، محمد سعد بن أحمد بن مسعود. مقاصد الشريعة الإسلامية وعلاقتها بالأدلة الشرعية. الطبعة الثانية؛ الرياض، المملكة العربية السعودية: دار الهجرة، ١٤٢٣هـ.

ثانيًا: المجلات العلمية:

١. مجلة البحوث الإسلامية. الرئاسة العامة للبحوث العلمية والإفتاء. دون رقم طبعة؛ الرياض: بدون دار طبع، العدد: ٧١، من ذو القعدة إلى صفر لسنة ١٤٢٤هـ.

ثالثًا: المواقع الإلكترونية:

١. موقع الهيئة العالمية للإعجاز العلمي في القرآن والسنة.

٢. موقع بحوث ودراسات.

المؤتمر الدولي عن الرحمة في الإسلام
The International Conference on Mercy in Islam
قسم الدراسات الإسلامية - كلية التربية

مظاهر الرحمة
في مواقف النبي ﷺ
من اجتهادات الصحابة الفقهية

إعداد:
حمد بن حسين بن صالح الجعيدي



مقدمة

بعث النبي ﷺ رحمة للعالمين، وعلى ذلك قامت شريعته بشقيها العلمي والعملي، فكانت نعمة ومنّة من الله أتمها الله على هذه الأمة. وقد اكتملت أصول هذا الدين وأسسه ونصوصه في زمانه ﷺ، وتعلّم أصحابه ﷺ منه منهج التعامل مع الأحداث والمستجدات وما يواجههم من أزمات في ضوء أصول هذا الدين ومقاصده، فكان ما حدث في زمن الصحابة من المستجدات وتعاملهم معها واجتهاداتهم في التوصل إلى الحكم فيها وتنوع فقههم في تناولها أنموذجًا استفاد منه الفقهاء المجتهدون الذين اتبعوهم بإحسان، فورثوا منهجًا، وبنوا علمًا على هذا التنوع الفقهي الموروث عن أصحاب النبي ﷺ في الأصول والفروع، واتسعت حدقة الرؤية للرحمة في ذلك باتساع دائرة الفقه الإسلامي واستيعابه لكل القضايا والمحدثات والمستجدات، ووجد من العلماء والخلفاء من يغتبط بهذا التعدد الفقهي والتنوع العلمي في تناول المسألة الواحدة من قبل أصحاب النبي ﷺ في التوسعة على من بعدهم والهداية لمناهج في التفكير في تناول القضايا الفقهية على أسس علمية مبنية على أصول الدين التي تربّوا عليها ووعوها جيدًا في زمن نبيهم وإمامهم ﷺ، فكانوا النموذج الأمثل في حياة الأمة

لتطبيق الإسلام وتحقيق مقاصده لمعايشتهم منبعه ومصدره في شخص رسول الله ﷺ، واستفادتهم من توجيهاته وتسديداته، واجتهادهم بين يديه وفي حياته وتزويدهم بالتغذية الراجعة في صحة الاجتهاد ومنهجه أو تعديله وتصويبه والتوجيه له الوجهة السليمة، وهو يُعدّهم في ذلك كله لتحمل مدّ الرسالة المباركة من بعده، فلم يغادر الدنيا ﷺ إلا وقد قرّت عينه ﷺ بأنه سيترك مِن خلفه مَن هو أهل لحمل هذا الدين على أصوله إلى الآفاق، ويشهد لهذا اغتباطه ﷺ في مرض موته بتراص الصحابة في الصلاة خلف من رشحه لهم عندما يشغر مكانه أبو بكر الصديق رضي الله عنه، والقيام بهذا الواجب العظيم خلف هذا الإمام على أحسن حال[1].

تحمّل الصحابة رضي الله عنهم تلك الأمانة وقد استفادوا من مدرسة النبوة العلم وفقه العمل والتطبيق، ووعوا الدرس جيدًا، لما عاصروا من التنزيل والتأويل والبيان النبوي لمراد الله وتحقيق مقاصد هذا الدين العظيم، فتلك العصبة من الأمة صُنعت على عين الله فكانوا نبراسًا يهتدى بهم ومقياسًا تقاس على أقوالهم الأقوال وعلى أفعالهم الأفعال. وكان من فضل تلك النخبة المصطفاة لصحبة نبيه ﷺ على الأمة أن حوادث وقعت منهم كانت بركة في سبب نزول آية أو توجيه نبوي كريم يتبين منه مراد الله، ويتضح منه منهج في هذا الدين القويم، ويترتب عليه حكم ينفع المسلمين، وكان امتثالهم لأمر رسول الله ﷺ فيما يأمرهم به، وانتهاؤهم عما ينهاهم عنه، سببًا في جعل أحكام هذا الدين سهلة ميسورة، فلم تُحمّل الصحابة أمة محمد ﷺ ما حمّل أصحاب الرسل السابقين أممهم من التكاليف التي ترتبت على كثرة أسئلتهم لأنبيائهم واختلافهم عليهم.

(١) روى البخاري في صحيحه عن أنس بن مالك رضي الله عنه، أن المسلمين بينما هم في الفجر يوم الاثنين، وأبو بكر رضي الله عنه يصلي بهم، ففجئهم النبي ﷺ قد كشف ستر حجرة عائشة رضي الله عنها فنظر إليهم وهم صفوف، فتبسم يضحك، فنكص أبو بكر رضي الله عنه على عقبيه، وظن أن رسول الله ﷺ يريد أن يخرج إلى الصلاة، وهمّ المسلمون أن يفتتنوا في صلاتهم، فرحًا بالنبي ﷺ حين رأوه، فأشار بيده: أن أتموا، ثم دخل الحجرة، وأرخى الستر، وتوفي ذلك اليوم. صحيح البخاري، ٦٣/٢ حديث رقم ١٢٠٥.

إن مما بدر من الصحابة وكان له أثر في فقه الأمة الاجتهاد في تطبيق دين الله وتحقيق مراده ﷻ منهم، ومن هذا الاجتهاد ما وقع في زمن النبي ﷺ، وقد جاءت حوادث ووقائع تدل على حدوثه فعلًا، فضلًا عن إمكانيته، وهو على قسمين: منه ما كان في وجود النبي ﷺ وبعد إذنه، ومنه ما كان يحتاج إليه الصحابي لبعده عن النبي ﷺ حتى إذا عاد إلى النبي ﷺ أخبره بما وقع منه، فيقره أو يصحح له، ومن رحمة الله بهذه الأمة في هذا الجانب أن تبين لهم حكم الله ابتداءً في تلك الوقائع، بالإضافة إلى التأسيس لأصل الاجتهاد في التوصل للحكم الشرعي ومشروعيته. وفي هذا البحث نتعرف على مظاهر الرحمة في مواقف النبي ﷺ من اجتهادات الصحابة رضي الله عنهم الفقهية في عهد النبوة.

أهداف البحث:

يهدف البحث إلى:

١. بيان رحمة النبي ﷺ بأمته في أحكامه على اجتهادات أصحابه رضي الله عنهم.

٢. إبراز جوانب اليسر والرفق في تعامل النبي ﷺ مع اجتهادات أصحابه رضي الله عنهم.

٣. بيان إمكانية وقوع الاجتهاد من الصحابة في زمن النبي ﷺ.

٤. إبراز فقه الصحابة بأصول الشريعة ومقاصدها.

منهج البحث:

أما منهج البحث فهو منهج مسحي وصفي، مادته العلمية اجتهادات الصحابة الفقهية في زمن النبي ﷺ، لإثبات أن موقف النبي ﷺ وحكمه على تلك الاجتهادات تتجلى فيه الرحمة بالأمة، ولبيان ذلك يممت وجهي

شطر كتب السنة والأثر استنطقها المواقف التي حدث فيها أعمال اجتهادية من الصحابة في زمن النبي ﷺ فوجدت عددًا منها يفي ببيان المقصود بالبحث، فصنفتها في أربعة مستويات:

الأول: ما أقره النبي ﷺ مطلقًا.

الثاني: ما أقره النبي ﷺ ولكن بعض من وقع منهم الاجتهاد أحظى بالقرب إلى سماحة الشريعة من الآخر مع تصويب الجميع.

الثالث: ما أقر النبي ﷺ اجتهاد قوم في مسألة وخطّأ اجتهاد آخرين فيها.

الرابع: ما خطّأ النبي ﷺ فيه الاجتهاد مع بيان البديل الصحيح.

ولم أتطرق لأقوال الفقهاء في هذه المسائل التي ذكرت، إذ أن مسألة البحث في هذه الاجتهادات ليس القصد منها بيان الحكم الشرعي بل المقصود بيان الرحمة وانسجام الاجتهاد مع الحقيقة العامة التي قامت عليها هذه الشريعة وهي الرحمة والسعة واليسر، ووضع الأمور في مواضعها. وغالب الأحاديث التي ذكرتها مما ثبتت من صحيح السنة والأثر، وما كان منها ضعيفًا فإني اعتمدت في إيراده على قول من أهل الشأن في الحديث باعتباره.

وقد جاءت خطة البحث في مقدمة وتمهيد وأربعة مباحث وخاتمة. أبرزت في المقدمة أهداف البحث ومنهجه وخطة بحثي التي سرت عليها، وفي التمهيد أبرزت إمكانية الاجتهاد من الصحابة في زمن النبي ﷺ ووقوعه، وبيان فقه الصحابة بمقاصد الشريعة في اجتهاداتهم التي وقعت بالفعل منهم عند الحاجة إليها أو أذن الرسول ﷺ لهم فيها، وإرجاعهم الأمر لصاحب الشريعة فيقر من أصاب ويصحح لمن أخطأ فينشأ بذلك

زيادة بيان لمناهج الشريعة في الوصول إلى الحكم الشرعي مع زيادة تأكيد على قيام هذه الشريعة على اليسر وعدم المشقة، وعلى الحكمة والرحمة.

أما المباحث الأربعة فقد جاءت على النحو التالي:

المبحث الأول: مظاهر الرحمة فيما أقره النبي ﷺ من اجتهادات الصحابة مطلقًا.

المبحث الثاني: مظاهر الرحمة فيما أقر النبي ﷺ الجميع عليه، ولكن بعضهم حظه من الصواب أكبر من الآخر.

المبحث الثالث: مظاهر الرحمة فيما أقر النبي ﷺ من أصاب في اجتهاده وتنبيه من ابتعد عن الصواب.

المبحث الرابع: مظاهر الرحمة فيما نبه النبي ﷺ على خطأ الاجتهاد فيه وتشريع البديل.

أما الخاتمة فقد جعلتها في أهم نتائج البحث، وما تراءى لي من توصيات. ثم ذيلت البحث بقائمة المراجع والمصادر التي استقيت مادة البحث منها مرتبة بحسب الفنون الشرعية مبتدأً بالقرآن وعلومه، ثم السنة وعلومها، ثم العقيدة، فكتب الفقه وأصوله، وأخيرًا كتب اللغة. والله الموفق.

تمهيد

اتفق الأصوليون على جواز اجتهاد الصحابة ﷺ بعد عصر النبوة وانقطاع الوحي، واختلفوا في اجتهاد الصحابة في زمن النبي ﷺ، فالجمهور على جوازه، وهو اختيار كثير من المحققين، ومنع منه قليل من الأصوليين[١]، بحجة إمكانية الرجوع في زمن النبي ﷺ إلى النص ومصدره فنضمن يقينية الحكم، فلا داعي للاجتهاد الذي يؤدي إلى الظن في إصابة الحكم، فصار اجتهادهم في هذا الموضع كاجتهاد علماء الأمة في موضع النص[٢]. ولكن هذا مردود بأن إمكان النص لا يجعل النص موجودًا، حتى يقال لا يسوغ الاجتهاد مع النص[٣]، وأن الصحابي إذا اجتهد في زمن النبي ﷺ فإن العلم بصحة نتيجة اجتهاده يؤخذ من إقرار النبي ﷺ له، فإذا كان الاجتهاد خاطئًا فإن النبي ﷺ يصوب له ما أخطأ فيه، فكان مؤدى اجتهاد الصحابي في زمن النبي ﷺ مصيره العلم لا الظن[٤]. والحكم في زمن النبي ﷺ لايبنى على اجتهاد الصحابي فهو ليس مشرعًا في زمن التشريع، ولكن إقرار النبي ﷺ له أو تصحيح ما وقع فيه باجتهاده هو المعتمد، إلا أن اجتهاد الصحابة ﷺ في زمن النبي ﷺ يفيدنا في أمور

(١) الإحكام في أصول الأحكام، الآمدي ١٧٥/٤. وإرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول، الشوكاني، ٢٢١/٢

(٢) انظر: قواطع الأدلة في الأصول، منصور بن محمد المروزي ١٠٣/٢. المستصفى، الغزالي ٢٩٩/٢. وروضة الناظر وجنّة المناظر، ابن قدامة ٩٦٥/٣. والإحكام في أصول الأحكام، الآمدي ١٧٧/٤.

(٣) انظر: المستصفى، الغزالي ٢٩٩/٢. وروضة الناظر وجنّة المناظر، ابن قدامة ٩٦٧/٣

(٤) انظر: العدة، الفراء، القاضي أبو يعلى، ١٥٩٣/٥. التبصرة في أصول الفقه للشيرازي ٥٢٠/١. وقواطع الأدلة في الأصول، منصور بن محمد المروزي ١٠٥/٢.

كثيرة منها نقدها في ضوء مقومات هذا الدين ومن أعظمها الرحمة التي هي الأساس الذي قام عليه، بالإضافة إلى أن الاجتهاد في زمن النبي ﷺ يعطي بعدًا آخر وهو تدريب الأمة على مواجهة المستجدات وتلمس الأحكام لها في أصول الشريعة، وقد وجه النبي ﷺ أصحابه لضرورة إعمال الفكر للوصول إلى الحكم الشرعي، فبشرهم بأن المجتهد لن يعدم الأجر ما أخذ بأدوات الاجتهاد في الوصل إلى الحكم الشرعي فقال ﷺ: (إذا حكم الحاكم فاجتهد ثم أصاب، فله أجران، وإذا حكم فاجتهد ثم أخطأ، فله أجر)[1]، وفي حديث معاذ المشهور مشروعية الاجتهاد لاستنباط الأحكام الشرعية، فقد روي عن معاذ: أن رسول الله ﷺ حين بعثه إلى اليمن، قال: «كيف تصنع إن عرض لك قضاء؟» قال: أقضي بما في كتاب الله. قال: «فإن لم يكن في كتاب الله؟» قال: فبسنة رسول الله ﷺ. قال: «فإن لم يكن في سنة رسول الله ﷺ؟» قال: أجتهد رأيي، لا آلو. قال: فضرب رسول الله ﷺ صدري، ثم قال: «الحمد لله الذي وفق رسول رسول الله لما يرضي رسول الله»[2]. وهو حديث مشهور قد تلقته الأمة بالقبول[3]، وقد حكّم الرسول ﷺ سعد بن معاذ في بني قريظة لما طلبوا ذلك[4]، وما روي أنه ﷺ كلف عمرو بن العاص رضي الله عنه بالحكم بين خصمين فإن أصاب فله عشر حسنات، وإن أخطأ فله حسنة[5]، وغيرها من الوقائع التي تضمنت اجتهادات من الصحابة رضي الله عنهم في زمن النبي ﷺ منها ما كان في حضرته ﷺ وبعد إذنه في ذلك، ومنها ما كان في غيبته ﷺ، وقد جزم ابن حجر في فتح الباري بثبوت وقوع الاجتهاد من الصحابة رضي الله عنهم في زمن النبي

(١) رواه البخاري، صحيح البخاري ١٠٨/٩ حديث رقم: ٧٣٥٢. ومسلم، صحيح مسلم ١٣٤٢/٣ حديث رقم: ١٧١٦

(٢) رواه الإمام أحمد في المسند ٣٣٣/٣٦ حديث رقم: ٢٢٠٠٧. وأبو داود في السنن ٤٤٣/٥ حديث رقم: ٣٥٩٢ تحقيق الأرناؤوط. والترمذي ٦٠٨/٣ حديث رقم: ١٣٢٧ تحقيق أحمد شاكر.

(٣) المستصفى، الغزالي ٣٠٠/٢

(٤) رواه البخاري، صحيح البخاري ١١٢/٥ حديث رقم: ٤١٢١.

(٥) رواه الإمام أحمد في المسند، ٣٥٧/٢٩ حديث رقم: ١٧٨٢٤.

ﷺ في حضرته[1] وجاءت آثار تدل على اجتهاد الصحابة في غيبته في زمن النبوة[2]، وفي مباحث الدراسة نذكر بعض الوقائع التي حدث فيها اجتهاد من الصحابة في زمن النبي ﷺ وإن كانت الحوادث فردية وفي قضايا جزئية، وثبوتها ظني، لأنها من أخبار الآحاد، فإن (المقصود من الأخبار المذكورة إنما هو الدلالة على وقوع الاجتهاد في زمن النبي عليه السلام ممن عاصره)[3]، وليست المعول عليها في التشريع، فالتشريع من صاحب الشرع والعبرة بإقراره لها، ولكنّ المرجو من تحقيق هذه المسألة وإيراد الأمثلة من اجتهادات الصحابة رضي الله عنهم إبراز جانب الرحمة في تقويم النبي ﷺ لاجتهادات الصحابة رضي الله عنهم في عصره ﷺ، وهي فائدة بالإمكان تلمسها وإظهارها، لأن هذه الشريعة قامت على الرحمة واليسر والحكمة والعدل، فلابد أن تنسجم تلك الاجتهادات معها بإقرار النبي ﷺ أو تصحيحه لها وردها إلى هذا الأصل العظيم، فكان اجتهادهم على كل حال رحمة بالأمة، إذ لا شك أن إعطاء النبي ﷺ أصحابه فرصة في الاجتهاد للوصول إلى الحكم الشرعي وإذنه لهم في ذلك بين يديه وعمل الصحابة بذلك عند احتياجهم لمعرفة حكم شرعي في غيبتهم عن رسول الله ﷺ وسؤالهم له ﷺ عمّا فعلوا وإقراره لهم أو تصحيحه لاجتهادهم من رحمة الله بهذه الأمة حتى تواجه المستجدات القادمة بعد انقطاع الوحي بوفاته ﷺ بأصل أقره النبي ﷺ وهو الاجتهاد المبني على أصول الشريعة. فإن مما وعاه الصحابة رضي الله عنهم من معاصرة التنزيل والتأويل الصحيح من النبي ﷺ لمراد الله ﷻ من الخطاب الشرعي اكتساب ملكة الفقه للشريعة والعلم بمقاصد التشريع، وإن كانوا يختلفون بمقتضى الطبيعة البشرية في القدرة على الاستنباط، ولكنهم يشتركون جميعًا في علمهم بأن هذا التشريع يقوم

(١) فتح الباري شرح صحيح البخاري، ابن حجر ٧/ ٤٨٠
(٢) منها الأحاديث التي تعتمدها الدراسة، وسيأتي بيانها في مواضعها.
(٣) الإحكام في أصول الأحكام، الآمدي ٤/ ١٧٧

على أصول وعوها وأدركوها، فكان اجتهادهم يدور في فلكها. ولم يكن استيعاب هذا الدرس وإتقان تطبيقه وسنّ المنهج في تحقيقه اعتباطًا أو ارتجالًا، بل جاء نتيجة ذلك التدريب والتصويب من النبي ﷺ عندما كان ﷺ يعطيهم فرصة أمامه للاجتهاد في إيقاع بعض الأحكام على النوازل، أو إبداء الرأي في بعض القضايا، ثم يقر ذلك أو يعقب عليه بالتصويب أو التصحيح، وكذلك ما كان من اجتهادهم في غيابهم وبعدهم عنه ﷺ لحاجتهم إلى الاجتهاد في أمر لا يحتمل التأخير؛ فكان من فقه الصحابة للدرس الاجتهادي في زمنه عليه الصلاة والسلام أن يحدث لأحدهم أو مجموعة منهم أمر وهم بعيدون عن النبي ﷺ ولا يمكنهم تأخير الأمر حتى يعودوا إليه ﷺ فيعرفوا حكم الله فيما جدّ أو حدث، فيجتهدون في الحكم وتطبيق ما يدينون الله به شرعًا في هذا الظرف، فإذا عادوا إلى رسول الله ﷺ عرضوا عليه ما حدث لهم وما حدث منهم اجتهادًا في الوصول لحكم الله، فيقر النبي ﷺ من أصاب ويصحح لمن أخطأ، وربما وجد أن كل فريق عند اختلافهم قد أصاب؛ ولكن أحدهم أقرب من الآخر لمقتضى الشرع؛ فيدعمهم بالقول الذي يطمئنهم على نتيجة اجتهادهم أو يقرهم جميعًا.

المبحث الأول
مظاهر الرحمة فيما أقر النبي ﷺ من اجتهادات الصحابة مطلقًا

حدثت للصحابة رضي الله عنهم مواقف في حياة النبي ﷺ اقتضت منهم الاجتهاد فيها لبعدهم عنه ﷺ، ثم يطلعون الرسول ﷺ عليها فيقرهم، وقد يؤيد صحة اجتهادهم بالفعل أو القول أو السكوت المتضمن الإقرار لصواب اجتهادهم، ومن هذه المواقف ما يلي:

١. جاء في صحيح مسلم ومسند الإمام أحمد وغيرهما من كتب السنة عن جابر بن عبدالله رضي الله عنهما، قال: بعثنا رسول الله ﷺ وأمّر علينا أبا عبيدة، نتلقى عيرًا لقريش، وزودنا جرابًا من تمر لم يجد لنا غيره، فكان أبو عبيدة يعطينا تمرة تمرة، قال: فقلت: كيف كنتم تصنعون بها؟ قال: نمصها كما يمص الصبي، ثم نشرب عليها من الماء، فتكفينا يومنا إلى الليل، وكنا نضرب بعصينا الخبط[1]، ثم نبله بالماء فنأكله، قال: وانطلقنا على ساحل البحر، فرفع لنا على ساحل البحر كهيئة الكثيب الضخم، فأتيناه فإذا هي دابة تدعى العنبر، قال: قال أبو عبيدة: ميتة، ثم قال: لا، بل نحن رسل رسول الله ﷺ، وفي سبيل الله، وقد اضطررتم فكلوا، قال: فأقمنا عليه شهرًا ونحن ثلاث

(١) الخبط: الخبط ورق الشجر يضرب بالعصا فيسقط. معالم السنن، الخطابي ٢٥٢/٤

مائة حتى سمنّا، قال: ولقد رأيتنا نغترف من وقب عينه[١] بالقلال الدهن، ونقتطع منه الفدر[٢] كالثور، أو كقدر الثور، فلقد أخذ منّا أبو عبيدة ثلاثة عشر رجلًا، فأقعدهم في وقب عينه، وأخذ ضلعًا من أضلاعه فأقامها ثم رحل أعظم بعير معنا، فمر من تحتها وتزودنا من لحمه وشائق[٣]، فلما قدمنا المدينة أتينا رسول الله ﷺ، فذكرنا ذلك له، فقال: «هو رزق أخرجه الله لكم، فهل معكم من لحمه شيء فتطعمونا؟»، قال: فأرسلنا إلى رسول الله ﷺ منه فأكله[٤].

فيظهر من هذه الحادثة أن الصحابة رضي الله عنهم لم يكن عندهم حكم شرعي خاص في ميتة البحر، ولهذا اجتهد أبو عبيدة بناء على ما يعرفه من الشريعة أن الميتة تباح للمضطر غير باغٍ ولا عادٍ، وهذا الحوت ميتة، وهم رسل رسول الله خارجون في طاعة الله غير باغين ولا عادين، وقد بلغ بهم الجوع مبلغًا تباح لهم به الميتة لقول الله تعالى ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ ۖ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٥﴾﴾ [النحل] فبناء على هذا النص المسوغ لهم في تلك الحال الأكل من الميتة - وهو ما اجتهدوا في ضوئه - أكلوا من ذلك الحوت على أنه ميتة تباح في حالة استثنائية، والدليل على أنهم اجتهدوا في أمر ليس عندهم فيه نص أنهم لما رجعوا إلى النبي ﷺ عرضوا عليه ما حدث معهم. ولم يكن الإشكال عند أولئك النفر من الصحابة في إباحة أكل الحوت

(١) وقب العين: ما تقعر منها. والوقب كالنقرة في الشيء. كشف المشكل من حديث الصحيحين، ابن الجوزي ١/٢٦٤.
(٢) الفدر جمع فدرة: وهي القطعة من اللحم. المرجع السابق ١/٢٦٥
(٣) الوشائق: جمع وشيقة وهي اللحم يغلى إغلاءة دون أن ينضج ليحمل في السفر. غريب الحديث، أبو عبيد القاسم بن سلام ٣/٣٣.
(٤) رواه الإمام أحمد في المسند ٢٢/٢٤٢ حديث رقم: ١٤٣٣٨. ومسلم، صحيح مسلم ٣/١٥٣٥ حديث رقم: ١٩٣٥.

فقد استقر عندهم إباحته بما امتن الله به عليهم بما خلق لهم في البحر مما يأكلون ويلبسون كما في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا﴾ [النحل:١٤] لكن هذا الحوت وجدوه ميتة قد قذف به البحر أو جزر عنه فمات، فاجتهد أبو عبيدة ﷺ في ضوء ما عنده من النصوص، ثم توصل إلى حكم جواز أكلهم من هذه الميتة البحرية، لعموم إباحة أكل الميتة للمضطر، ولكن الرسول ﷺ بعد ما بلغه أمرهم أراد أن يبين لهم صحة ما فعلوا من جواز الأكل من ذلك الحوت، ليس لأنه ميتة اضطروا إليها، بل إن له حكمًا آخر وهو حل ميتة البحر مطلقًا للمضطر وغيره، فأراد النبي ﷺ أن يطمئن قلوبهم بأن ما بدر منهم من أكل ذلك الحوت الميت حلال، وزادهم ﷺ حكمًا آخر عمليًا في إباحة ميتة البحر للمضطر وغيره عندما أكل منه ولم يكن مضطرًا كحالهم التي استساغوا بها الأكل من ذلك الحوت بناء على اجتهاد أبي عبيدة، وهذا الحكم الجديد هو ما أكدته نصوص الشريعة بعد ذلك[١]، كما في قول الله تعالى في سورة المائدة: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ وَطَعَامُهُۥ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ ۖ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ ٱلْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا﴾ [المائدة:٩٦] قال عمر بن الخطاب ﷺ طعامه ما رمى به، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: طعامه ميتته[٢]، وما رواه أبو هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال عن البحر: (هو الطهور ماؤه الحل ميتته)[٣]، وذلك لما سأله رجل، وفي رواية أناس يركبون البحر للصيد فيمكثون فيه أيامًا هل يتوضؤون من ماء البحر؟ فأجابهم الرسول بذلك وزادهم حكمًا في إباحة ميتة البحر، وظاهر. أن هذا

(١) يرجح ابن حجر العسقلاني في فتح الباري أن حادثة سرية أبي عبيدة المذكورة هنا كانت في السنة الثانية من الهجرة. انظر: فتح الباري، ابن حجر ٥٣٥/٩.
(٢) رواه البخاري، صحيح البخاري ٨٩/٧
(٣) رواه الإمام مالك، الموطأ، كتاب الطهارة باب الطهور للوضوء ٢٢/١. والإمام أحمد، في المسند ٣٤٩/١٤ حديث رقم: ٨٧٣٥.

السؤال للنبي ﷺ عن ذلك الحكم لأناس اعتادوا البحر في تحصيل مصالحهم من صيد أو غيره، ولن يكون هذا إلا متأخرًا عن حادثة أبي عبيدة رضي الله عنه التي وقعت في السنة الثانية للهجرة على ما رجح ابن حجر في فتح الباري[1]؛ وبيان ذلك أن حدود الإسلام وأهله في السنة الثانية للهجرة لا تتجاوز المدينة، وسؤال هؤلاء البحارة واستفتاؤهم يدل على أن الإسلام قد جاوز حدود المدينة وضرب في الآفاق حتى شملت أحكامه أناس يركبون البحر عادة، ولن يكون ذلك قريبًا من السنة الثانية للهجرة قطعًا، فدل على أن هذا التصريح لهم بأن ميتة البحر مباحة حكم متأخر على حادثة أبي عبيدة رضي الله عنه وأصحابه، فلم يكن ثمتئذٍ هذا الحكم، فاجتهد أبو عبيدة رضي الله عنه في حدود ما يعلم من الشريعة واعتبره ميتة يجوز لمن اضطر إلى الأكل أن يأكل منها، فكان من رحمة الله بهذه الأمة أن اتسعت دائرة ما يباح من الميتة في بيان حكم ميتة البحر. وهذا الحدث في هذا الحديث يدل على وجود الاجتهاد من الصحابة في زمن النبي ﷺ. قال ابن القيم عن هذه القصة: (وفيها دليل على جواز الاجتهاد في الوقائع في حياة النبي ﷺ وإقراره على ذلك، لكن هذا كان في حال الحاجة إلى الاجتهاد، وعدم تمكنهم من مراجعة النص)[2]، وقال النووي عند شرح هذا الحديث في صحيح مسلم: (وفيه جواز الاجتهاد في الأحكام في زمن النبي ﷺ كما يجوز بعده)[3]. وهذا الاجتهاد وموقف النبي ﷺ منه تتجلى فيه مظاهر الرحمة من عدة جوانب منها:

الأول: فتح باب رحمة على الأمة في حل ميتة البحر مطلقًا، وأنه ليس كميتة البر التي تباح في حالة الاضطرار.

(١) فتح الباري، ابن حجر ٥٣٥/٩
(٢) زاد المعاد في هدي خير العباد، ابن القيم ٣٤٧/٣
(٣) المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، النووي ٦٨/١٣.

الثاني: رفق النبي ﷺ ولطفه بأصحابه وتطييب خواطرهم في مشاركتهم فيما اجتهدوا في أكله.

الثالث: إقرار النبي ﷺ لأصحابه على الاجتهاد، الذي ستحتاجه الأمة بعد انقطاع الوحي.

٢. عن علي رضي الله عنه، قال: بعثني رسول الله ﷺ إلى اليمن، فانتهينا إلى قوم قد بنوا زبية[١] للأسد، فبينما هم كذلك يتدافعون إذ سقط رجل، فتعلق بآخر، ثم تعلق رجل بآخر، حتى صاروا فيها أربعة، فجرحهم الأسد، فانتدب له رجل بحربة فقتله، وماتوا من جراحتهم كلهم، فقام أولياء الأول إلى أولياء الآخر، فأخرجوا السلاح ليقتتلوا، فأتاهم علي رضي الله عنه على تفيئة ذلك[٢]، فقال: تريدون أن تقاتلوا ورسول الله ﷺ حي؟ (وفي رواية فقال لهم علي: أتقتلون مائتين في أربعة؟) إني أقضي بينكم قضاء إن رضيتم فهو القضاء، وإلا حجز بعضكم عن بعض حتى تأتوا النبي ﷺ فيكون هو الذي يقضي بينكم، فمن عدا بعد ذلك فلا حق له، أجمعوا من قبائل الذين حضروا البئر ربع الدية، وثلث الدية، ونصف الدية، والدية كاملة، فللأول الربع، لأنه هلك من فوقه، وللثاني ثلث الدية، وللثالث نصف الدية، (وللرابع الدية كاملة). فأبوا، أن يرضوا، فأتوا النبي ﷺ وهو عند مقام إبراهيم، فقصّوا عليه القصة، فقال: «أنا أقضي بينكم» واحتبى، فقال: رجل من القوم: إن عليًّا قضى فينا، فقصوا عليه القصة، فأجازه رسول الله ﷺ[٣].

(١) الزبية بضم الزاي، وإسكان الباء: الحفرة تحفر في المكان المرتفع لاصطياد بعض السباع. انظر: كتاب العين، الفراهيدي ٣٩٢/٧. وغريب الحديث، أبو عبيد القاسم بن سلام ٣٢٤/٣

(٢) على تفيئة ذلك، تفيئة الشيء: حينه وزمانه، ودخل على تفيئته: دخل على أثره. انظر: المحكم والمحيط الأعظم، ابن سيده ٥١٣/٩. وتاج العروس، الزبيدي ١٦٠/١. والقاموس المحيط، الفيروزآبادي ص٤٣.

(٣) رواه الإمام أحمد في المسند ٤١١/١ حديث رقم ٥٧٣، ٤١٢/١ حديث رقم ٥٧٤، ٥٧/٢ حديث =

إن هذه الحادثة من الناحية التاريخية وقعت في أواخر عهد النبوة، فالنبي ﷺ أرسل عليًا ﷺ إلى اليمن قبل حجة الوداع بأشهر.

وقد أعمل علي الحكمة والرحمة التي عرفها من طول الفترة التي قضاها في هذا الدين وتعامله مع الأحداث والمستجدات، وفي موقفه هذا لعلمه أن هذا الدين جاء ليذهب عن العرب وغيرهم عبَّية الجاهلية وأعباءها، أول ما عمله أن لفت أنظارهم إلى خطئهم في موقفهم الذي اعتادوا عليه في الجاهلية من ردود الفعل عندما تحدث فيهم جناية القتل بقيام الثارات والثورات التي يتسلسل على إثرها القتل عندما قال لهم: (أتقتلون مائتين في أربعة؟) فأنتم تزيدون المشكلة لا تحلونها بإيجابية تقطع القتل وتنهيه، وهنا تبرز الرحمة والحكمة في العقل المسلم، وهو العقل العربي الجديد الذي أصبح يقيس الأمور بميزان العدل والنقد البناء[1]، ويرجع الأمر إلى أهله (تريدون أن تَقاتلوا ورسول الله ﷺ حي؟) صاحب الحق والعدل والمنهج السوي في التعامل مع الحياة، وقد أنزل إليه الحكم في الجنايات عمدها وخطئها، والمرجعية عند الاختلاف والتنازع، فقد رحمكم الله بوجود الحق الذي ترجعون إليه[2]، فلماذا

= رقم ١٠٦٣، ٢/ ١٤٠ حديث رقم ١٣٠٩، وقد صحح اسناده محقق المسند المحدث أحمد محمد شاكر. ومدار الحديث على رواية حنش بن المعتمر عن علي بن أبي طالب ﷺ، وحنش بن المعتمر الكناني تكلموا فيه، وقيل عنه: إنه ثقة ولم يتابع، وقيل: صدوق له أوهام. انظر تخريج الحديث في: تحقيق شعيب الأرناؤوط وآخرون لمسند الإمام أحمد ٢/ ١٥ حديث رقم: ٥٧٣. وتحقيق أحمد شاكر ١/ ١١٤ حديث رقم: ٥٧٣.

(١) ربى القرآن الصحابة ﷺ على الارتفاع بمستوى التفكير، والتعقل في الأمور وضبطها بمقاييس الحكمة، وفي قصة الإفك درس عملي وتربوي للأمة في تحكيم العقل في مواجهة الشائعات، والترفع على جهالات الجاهلية وضلالاتها.

(٢) إن ما تحتاجه الأمة اليوم فقه هذا المنهج في أهمية إرجاع الأمر إلى أهله، وتوحيد الرؤية، حتى لا تخترق ويعبث بها كل ناعق. وقد نبه القرآن إلى خطورة الفوضى والتصرف الفردي وبخاصة فيما يتعلق بحق الأمة ومصيرها وما يؤثر عليها قال الله تعالى: ﴿ وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا۟ بِهِۦ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ ﴾ [النساء:٨٣] فإيجاد أهل الحل والعقد والخبراء في جميع شؤون الحياة واتحادهم في مجلس يُرجع إليه أمر ضروري للأمة.

هذه الفوضى؟ (إني أقضي بينكم قضاء إن رضيتم فهو القضاء، وإلا حجز بعضكم عن بعض حتى تأتوا النبي ﷺ فيكون هو الذي يقضي بينكم، فمن عدا بعد ذلك فلا حق له) إنه الضبط للنفس والاتزان في التصرف، حكم خذوه مؤقتًا إن لم ترضوا به مطلقًا، فهو يمنع بعضكم من الاعتداء على بعض، إنه مقتضى الحكمة والعقل والرحمة التي تعلمها علي رضي الله عنه من نبيه ﷺ.

اجتهد علي رضي الله عنه في القضاء بينهم وحل المشكلة في ضوء ما تعلمه من الحكمة النبوية، فالجناية خطأ وفيها الدية، وبالنظر الموفق كلف من تسبب في هذه الجناية بجمع الدية ابتداء ممن حفر الزبية ومن زاحم حولها ومن جذب غيره ممن سقطوا فيها، وقسمها بين الهلكى بحسب تسببهم في وفاة غيرهم، فالأول جذب الثاني، والثاني جذب الثالث، والثالث جذب الرابع فكان لهم نصيب من الجناية، فنقص نصيب كل واحد من القتلى بمقدار ما تسبب في وفاة الآخرين في هذه المهلكة التي آلتها الأسد الذي جرحهم جميعًا فماتوا من جراحته، فتركبت الجناية من فعل مضمون وهو التسبب في الهلكة بالدفع والجذب، ومهدر وهو مباشرة الأسد للجرح، فسقط ما يقابل المهدر، واعتبر ما يقابل المضمون[1]، فكان للأول من الدية الربع فقط، لأنه تسبب في قتل ثلاثة، وللثاني الثلث، لأنه تسبب في قتل اثنين، وللثالث النصف، لأنه تسبب في قتل واحد، وللرابع الدية كاملة، لأنه لم يتسبب في قتل أحد. قال ابن العربي معلقًا على هذا الحكم: (وهذا من بديع الاستنباط)[2]. وقال ابن القيم ردًا على بعض الفقهاء الذي يرون أن هذا الحكم جاء على خلاف القياس: (ما قضى به علي أفقه؛ فإن

(١) انظر: إعلام الموقعين، ابن القيم ٢/٣٠
(٢) أحكام القرآن، ابن العربي ٤/٤٤.

الحاضرين ألجأوا الواقفين بمزاحمتهم لهم فعواقلهم أولى بحمل الدية من عواقل الهالكين، وأقرب إلى العدل من أن يجمع عليهم بين هلاك أوليائهم وحمل دياتهم، فتتضاعف عليهم المصيبة، ويكسروا من حيث ينبغي جبرهم، ومحاسن الشريعة تأبى ذلك، وقد جعل الله ﷻ لكل مصاب حظًا من الجبر، وهذا أصل شرع حمل العاقلة الدية جبرًا للمصاب وإعانة له)[1].

أما موقف النبي ﷺ من هذه القضية والقضاء فيها؛ فإنه لما عرض عليه أهل اليمن القضية عدّل جلسته استعدادًا للقضاء فيها، فأخبر أن عليًا قضى فيها، ثم عرضوا عليه قضاء علي فأقره. وربما حكم النبي ﷺ فيها بمثل هذا أو غيره بما يتضمن العدل والحق لا محالة، ولكن لما سمع قضاء علي أقره، وإقرار النبي ﷺ لذلك دليل على أن له وجهًا شرعيًا ونصيبًا من الصحة، إذ لو كان باطلًا لنقضه النبي ﷺ، وفي هذا درس نبوي في احترام القضاء إذا كان له نصيب من الصواب.

وقد كان النبي ﷺ حريصًا على تعويد أصحابه على فصل القضاء وحثهم على الاجتهاد فيه، وربما أمر أحدهم بالحكم بين يديه في بعض ما يعرض عليه من مرافعات، وذلك لأن القضاء والحكم بين الناس مما يبتلى به الناس في كل زمان ومكان، ويحتاجه كل تجمع بشري، وتتجدد وسائله بتطور المجتمعات، فلا بد من أصول ثابتة ووسائل متطورة، واجتهاد متجدد، ولذلك من رحمة الرسول ﷺ بأمته أن فسح المجال لأصحابه في الاجتهاد القضائي وتحت نظره وتحفيزه، وأحيانًا إبداء إعجابه بأسلوب فض المنازعات كما في ثنائه ﷺ على أبي شريح الذي

(١) إعلام الموقعين، ابن القيم ٣٢/٢

كان يدعى أبو الحكم، فاستفسره النبي ﷺ عن سبب هذه التسمية فقال: إن قومه إذا اختصموا أتوه فيفصل بينهم فيذهب كل فريق راضٍ بحكمه، فقال النبي ﷺ: (ما أحسن هذا!)[1]، لأنه يحقق مقصدًا شرعيًا هو العدل بين الناس وفض المنازعات بالتي هي أحسن. وكان من تحفيزه لأصحابه للاجتهاد في القضاء والحكم أن وعد القاضي بالأجر، فإن أصاب فله الأجر كاملًا، وإن أخطأ فلن يعدم الحسنة بشرط أن يجتهد في التوصل للحكم الصواب، ففي الصحيحين عن عمرو بن العاص رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: « إذا حكم الحاكم فاجتهد ثم أصاب فله أجران، وإذا حكم فاجتهد ثم أخطأ فله أجر»[2] وقد روي عن عبدالله بن عمرو عن عمرو بن العاص، قال: جاء رسول الله ﷺ خصمان يختصمان، فقال لعمرو: «اقض بينهما يا عمرو»، فقال: أنت أولى بذلك مني يا رسول الله، قال: «وإن كان» قال: فإذا قضيت بينهما فما لي؟ قال: «إن أنت قضيت بينهما فأصبت القضاء، فلك عشر حسنات، وإن أنت اجتهدت وأخطأت، فلك حسنة»[3]، ويروى نحوه عن عقبة بن عامر[4].

وفي هذا الفضل من الحسنات عند الإصابة والسداد في الحكم دافع لتحري الصواب والحرص عليه وتحصيل أدواته، وإن أخطأ بعد استفراغ الجهد في التوصل للصواب فلن يعدم أجر الاجتهاد.

(١) رواه أبو داود، سنن أبي داود ٣٠٩/٧ حديث رقم: ٤٩٥٥. والنسائي، سنن النسائي ٢٢٦/٨ حديث رقم: ٥٣٨٧. وصححه الألباني، صحيح سنن النسائي ٤٣٣/٣ حديث رقم: ٥٤٠٢.

(٢) رواه البخاري، صحيح البخاري، حديث رقم: ٧٣٥٢. ومسلم، حديث رقم: ١٧١٦

(٣) رواه الإمام أحمد في المسند، ٣٥٧/٢٩ حديث رقم: ١٧٨٢٤. وأورده الحاكم في المستدرك ٩٩/٤ حديث رقم ٧٠٠٤ وقال: (هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه بهذه السياقة). وقد خطأه محقق المسند في تصحيحه هذا، وحكم على الحديث بالضعف، مسند الإمام أحمد ٣٥٨/٢٩.

(٤) رواه الإمام أحمد في المسند ٣٥٨/٢٩ حديث رقم: ١٧٨٢٥، ولفظه: «إن اجتهدت فأصبت فلك عشرة أجور، وإن اجتهدت فأخطأت فلك أجر واحد» واعتبر الهيثمي في مجمع الزوائد رجاله رجال الصحيح ١٩٥/٤ حديث رقم ٧٠٠٣. وضعفه محققو المسند شعيب الأرناؤوط ورفاقه ٣٥٩/٢٩.

ومن مظاهر الرحمة في هذه القضية ما يلي:

أولًا: إن هذه التربية على الاجتهاد في الحكم والقضاء بين الناس رحمة بالأمة لتتدبر شؤونها ويتحمل منهم من تأهل لهذه المسؤولية القيام بها دون أن يجبن عنها بدافع الورع والتقوى المطلوبة شرعًا من كل مؤمن، فهو مأجور غير مأزور ما دام حقق الشرط الشرعي وهو الاجتهاد واستفراغ الطاقة والوسع في التوصل إلى الصواب في الحكم والقضاء.

ثانيًا: احترام القضاء إذا كان له وجه من الصواب، وعدم نقضه، ويظهر هذا في إمضاء النبي ﷺ قضاء علي بن أبي طالب رضي الله عنه وإقراره في قضية الزبية.

ثالثًا: أن عليًا رضي الله عنه بحكمة الشريعة ورحمتها حجز القوم عن بعضهم من الوقوع في الاقتتال بينهم، وقد تهيؤوا له، عندما ذكّرهم بأهمية تحكيم العقل والشرع، وبادرهم بالحل الاجتهادي المبني على معرفة بالشريعة، وطلب منهم قبوله مؤقتًا حتى يرجعوا إلى مصدر الشرع نبي الله ﷺ فيتبينوا حكمه في قضيتهم.

رابعًا: ظهور النضج الفكري والقدرة على إدارة الأزمات في موقف علي بن أبي طالب رضي الله عنه في هذه القضية، مما يعكس حكمة الرسول ﷺ في اختيار الرجل المناسب للعمل المناسب[1].

٣. عن عمرو بن العاص رضي الله عنه لما بعثه رسول الله ﷺ عام ذات السلاسل، قال: فاحتلمت في ليلة باردة شديدة البرد، فأشفقت إن اغتسلت أن أهلك، فتيممت ثم صليت بأصحابي صلاة الصبح. قال: فلما

(١) هذه رحمة في السنة تحتاجها الأمة لتلافي الوقوع في المخاطر بوضع الشخص المناسب في المكان المناسب وبخاصة ما يتعلق بقضايا الأمة المهمة.

قدمنا على رسول الله ﷺ ذكرت ذلك له، فقال: «يا عمرو، صليت بأصحابك وأنت جنب؟» قال: قلت: نعم يا رسول الله، إني احتلمت في ليلة باردة شديدة البرد، فأشفقت إن اغتسلت أن أهلك، وذكرت قول الله ﷻ: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ [النساء:٢٩] فتيممت، ثم صليت. فضحك رسول الله ﷺ ولم يقل شيئًا[١].

قال العيني في فوائد الحديث التي ذكرها: (جواز الاجتهاد في زمن النبي عليه السلام في غيبته)[٢]. واجتهاد الغائب عن مجلس النبي ﷺ جائز بلا شك[٣]. والاجتهاد الذي وقع من عمرو بن العاص رضي الله عنه هو أنه رأى أن عليه الغسل من أجل الجنابة التي وقعت له، ولكن الجو بارد والماء كذلك، ورأى أنه لو اغتسل فلربما هلك، وإهلاك النفس عظيم في شرع الله، لأن الله يقول: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ [النساء:٢٩]، ومن رحمته ﷻ أن شرع البديل في التيمم لفاقد الماء، فتيمم رضي الله عنه وصلى بأصحابه لثقته التامة بصحة ما قام به، واعتبر الخوف من استعمال الماء كعدم الماء، فإذا كان عدم وجود الماء مبيحًا للتيمم، فإن وجوده مع الخوف من ضرره كعدمه مبيح للتيمم أيضًا، ولا عبرة بصورة الوجود، فإبقاء النفس من العدم أهم في شرع الله من حكم شرع بناءً على عدم الماء، فالتيمم لبقاء النفس مع وجود الماء في ميزان الشرع أولى منه عند عدم الماء، وهذا فقه في تطبيق الأحكام الشرعية وتحقيق المناط، قال الخطابي في معالم السنن عند شرحه لهذا الحديث: (فيه من الفقه أنه جعل عدم إمكان استعمال الماء كعدم عين الماء)[٤].

(١) رواه الإمام أحمد في المسند ٣٤٦/٢٩ حديث رقم: ١٧٨١٢. وأبو داود، سنن أبي داود ٢٤٩/١ حديث رقم: ٣٣٤. وصححه محققو مسند الإمام أحمد شعيب الأرناؤوط ورفاقه.
(٢) شرح سنن أبي داوود، العيني ١٥٠/٢
(٣) المحصول، الرازي ٢١/٦.
(٤) معالم السنن، الخطابي ١٠٣/١

وهذا عين الفقه، ففيه جمع بين النصوص وفقه بمقاصد الشريعة وأولوياتها، فالحفاظ على النفس أصل شرعي. ويؤيد صحة فقه عمرو ﷺ في هذه المسألة إقرار النبي ﷺ له، وذم رسول الله ﷺ في موقف آخر أولئك النفر الذين كانوا في سفر فأجنب أحدهم، وفي رأسه شجة، فلما سألهم ألزموه بالغسل، فاغتسل فمات، فحملهم الرسول ﷺ مسؤولية إفتائهم بغير علم، واعتبر ما قالوا به جهلًا، وقال: (قتلوه قتلهم الله، ألا سألوا إذ لم يعلموا، فإنما شفاء العي السؤال)[1]، فإذا لم يكونوا أهلًا للعلم بمقاصد الشريعة والاجتهاد والنظر فهلا سألوا!!.

وإذا نظرنا إلى هذه الحادثة التي وقعت في زمن النبي ﷺ وموقف النبي ﷺ منها وإقراره لفعل عمرو بن العاص ولم يزد على أن سكت فلم يأمره بإعادة ولم يلمه على الصلاة بأصحابه، وقد تيمم من جنابة، وربما فيهم أوكلهم قد توضأوا بالماء، ولم يسأله النبي ﷺ هل بإمكانه أن يسخن ماء ثم يغتسل وغير ذلك من الاحتمالات، وقارنّا ذلك بأقوال الفقهاء فيما بعد وتشدد بعضهم في عدم الرخصة لمن وجد الماء أن يتيمم مع شدة البرد والخوف من الهلكة، لأن هذا المحدث واجد للماء فلا رخصة له مطلقًا، وتفريق بعضهم بين السفر والحضر لمن كانت هذه حاله، وترخيص بعضهم له أن يتيمم ولكن يلزمه بالإعادة[2] علمنا أن اجتهاد الصحابة ﷺ وإقرار الرسول ﷺ لهم على اجتهاداتهم رحمة للأمة وأنهم ﷺ فقهوا مقاصد الدين ويسره ورحمته بالمكلف ورعايته لحقوقه.

(١) ابو داود، سنن أبي داود ٢٥٢/١ حديث رقم: ٣٣٧، وحسنه الألباني في صحيح سنن أبي داود ١٥٨/٢ حديث رقم: ٣٦٤.

(٢) انظر أقوال العلماء في: هذه المسألة في معالم السنن للخطابي ١٠٣/١، وفتح الباري لابن رجب، ٢٧٩/٢

ومن مظاهر الرحمة في هذه الحادثة:

أولًا: تقدير الأولويات في الشريعة والحرص على الأهم قبل المهم، فحفظ النفس أولى من الغسل الواجب مع هلاك النفس، وهو ما اعتمده عمرو بن العاص ﷺ في اجتهاده واستدل عليه بالآية التي نهت عن قتل النفس فالله رحيم بالأمة ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ [النساء:٢٩] ولذلك أقره النبي ﷺ على اجتهاده واستدلاله، واعتماده على سعة رحمة الله.

ثانيًا: تلطف الرسول ﷺ بأصحابه إذ أظهر تعجبه في ضحكه ﷺ من فعل عمرو ﷺ مع إقراره التام على ما فعله باجتهاده.

٤. عن ابن عمر ﷺ، قال: قال النبي ﷺ لنا لما رجع من الأحزاب: «لا يصلين أحد العصر إلا في بني قريظة»، فأدرك بعضهم العصر في الطريق، فقال بعضهم: لا نصلي حتى نأتيها، وقال بعضهم: بل نصلي، لم يرد منا ذلك، فذكر للنبي ﷺ، فلم يعنف واحدًا منهم[١].

هذا الموقف من أصحاب رسول الله ﷺ من أعظم أعمالهم واجتهاداتهم بركة ورحمة على الأمة، فقد فتح لها آفاق مناهج الفقه الإسلامي بين ظاهر القول وأبعاده ومعانيه ومقاصده، وعلى هذين المنهجين سار الفقه الإسلامي على طول تاريخه وتطوره بين مدرسة المعنى ومدرسة الظاهر، قال ابن عبدالبر: (هذه سبيل الاجتهاد على الأصول عند جماعة الفقهاء)[٢]، فمن الصحابة من نظر إلى ماذا قال النبي ﷺ، فاكتفى بظاهر النص، فلم يصل العصر إلا بعد غروب الشمس حيث وصل المكان الذي أمر النبي ﷺ بالصلاة فيه بحسب

(١) رواه البخاري، صحيح البخاري ٢/ ١٥ حديث رقم: ٩٤٦.
(٢) جامع العلم وفضله، ابن عبدالبر ٢/٨٧٦

ما فهم من النص، وبعضهم ذهب إلى أبعد مما ظهر على سطح العبارة، ففهم أن المراد المعنى الذي هو الحث على المبادرة بالذهاب إلى ديار بني قريظة، فأعمل النصوص كاملة بين الأمر بالصلاة في وقتها والقيام بالمراد من هذا الحديث، (فأخذ بعض أصحابه بظاهر اللفظ ولم يصلوا إلا هناك، وتعلق آخرون بالمعنى فقالوا: إنما أراد الاستعجال، فصلوا ولحقوا، فلم يعنف واحدًا من الفريقين، لأخذ كل بدليل)[1]، وقد دل عدم تعنيف النبي ﷺ لأحد منهم، على إقراره لكلتا الطريقتين في فقه النصوص والعمل بها على مشروعية المنهجين، لأن السُّكُوت على فعل أَمر كالقول بإجازته[2]، (ففيه دلالة لمن يقول بالمفهوم والقياس ومراعاة المعنى، ولمن يقول بالظاهر أيضًا)[3].

ومن مظاهر الرحمة في هذه الحادثة:

أولًا: أن هذا الاجتهاد من الصحابة رضي الله عنهم في هذا الموقف وموقف النبي ﷺ منه تتعلم منه الأمة مشروعية الاجتهاد للوصول إلى الحكم وضوابطه.

ثانيًا: أن الحكم المبني على اجتهاد في فهم النصوص بوجه يحتمله النص سائغ.

ثالثًا: أدب الاختلاف والائتلاف في مسائل الاجتهاد، فلا يُعنَّف مجتهد توصل لحكم شرعي باجتهاده إذا بذل وسعه في الاجتهاد في الوصول إليه وكان أهلًا له ملتزمًا بأصوله، وكان موضوعه مما يسوغ الاجتهاد والاختلاف فيه[4].

(١) كشف المشكل من حديث الصحيحين، ابن الجوزي ٥٥٩/٢
(٢) التوضيح لشرح الجامع الصحيح، ابن الملقن ٤٥/٨
(٣) شرح صحيح مسلم، النووي ٩٨/١٢
(٤) انظر: المرجع السابق نفسه ٩٨/١٢

رابعًا: إقرار النبي ﷺ لأصل عمل به العلماء في تعاملهم مع النصوص من حيث استنباط الحكم الشرعي، وذلك فيما نتج من مناهج فقهية يعتمد أكثرها المعنى، وتعتمد الأخرى الظاهر، مما كان له الأثر البالغ في إثراء الفقه الإسلامي الذي هو من أعظم النعم على الأمة الإسلامية والناس عامة لو كانوا يعلمون.

المبحث الثاني
مظاهر الرحمة فيما أقر النبي ﷺ الجميع عليه، ولكن بعضهم حظه من الصواب أكبر من الآخر

قد يجتهد أكثر من صحابي في مسألة واحدة في موقف واحد فيختلف اجتهادهم، فيعمل كل منهم بما توصل إليه من حكم يدين الله به باجتهاده في اعتماده على أصل شرعي، وقد يصيب أو يقترب من الصواب أو يخطئ، وفي هذا المطلب سنتطرق إلى مواقف اجتهادية للصحابة اختلفت وجهات نظرهم فيها، وكل عمل بما أداه اجتهاده، ولكن الرسول ﷺ أقر الجميع على اجتهادهم إلا أنه رجح أحد الاجتهادين على الآخر، ومن هذه الاجتهادات التي يكون لأحدهم نصيب من الصواب أكثر من الآخر ما يلي:

١. عن أبي سعيد الخُدريِّ، قال: خرج رجلان في سفر، فحضرت الصَّلاة وليس معهما ماء، فتيمَّما صعيدًا طيبًا، فصلَّيا، ثمَّ وجدا الماء في الوقت، فأعاد أحدهما الصلاة والوضوء، ولم يعد الآخر، ثم أتيا رسول الله ﷺ فذكرا ذلك له، فقال للذي لم يعد: «أصبت السنة وأجزأتك صلاتك» وقال للذي توضأ وأعاد: «لك الأجر مرتين»[1].

في هذه الحادثة اثنان من أصحاب النبي ﷺ تدركهما الصلاة في

(١) رواه أبو داود، سنن أبي داود ٢٥٣/١ حديث رقم: ٣٣٨. وصححه الألباني، صحيح أبي داود - ١٦٥/٢ حديث رقم: ٣٦٦.

سفر وليس معهما ماء للوضوء، فتيمما عملًا بالبديل المشروع عند عدم الماء لأداء الصلاة، ثم صليا الفريضة بطهارة شرعية بديلة للوضوء عند عدم الماء، وبعد قليل من الزمن وجدا الماء وما زال في الوقت متسع لتلك الصلاة؛ فتوضأ أحدهما وأعاد الصلاة؛ إما احتياطًا أو ظنًا منه أن الصلاة في هذه الحالة بعد وجود الماء لا تحل بذلك التيمم، وأما الآخر فاكتفى بأداء تلك الصلاة بذلك التيمم ولم يعد، لأنه يرى أنه أدى صلاة بطهارة مشروعة في ظرفها ذلك. وهنا قد اجتهدا في أمر هذه الصلاة وعمل كل واحد بما رأى أنه الصواب، فلما رجعا للنبي ﷺ وأخبراه الخبر، قال لمن لم يعد الصلاة: «أصبت السنة»، أي: وافقت الشريعة السمحة، ومن أصاب السنة في اجتهاده فهو أفقه بلا شك، وقد وفق لمقاصد الشريعة، «وأجزأتك صلاتك»، لأنها وقعت على مراد الله، وجاءت كاملة بشرطها، وعلى وفق ما شرع الله من الرخصة في التيمم لها عند عدم الماء، والله يحب أن تؤتى رخصه، وأن يعمل بشرعه في ظرفه، وهو ما كلف الإنسان به ليعبر عن طاعته وانقياده لأمر الله وقد حصل منه ذلك فأصاب سنن هذه الشريعة الرحمة الرحبة. وقال للآخر الذي توضأ وأعاد الصلاة: «لك أجرك مرتين» أجر الصلاة الأولى، وهذا يدل على قبولها ووقوعها على وفق الشريعة كاملة، وأجر الصلاة الأخرى التي ربما تكون له نافلة.

وهنا النبي ﷺ أقرهما جميعًا على فعليهما، وبين أن أحدهما أقرب لموافقة الشريعة، وحظه من سننها ومنهجها أكبر من صاحبه، وكل واحد منهما على خير. وفي هذا من المنهجية الشرعية والرحمة أن من أخذ بالأرفق الموافق للمشروع فهو على خير وهدى لموافقة الشريعة السمحة القائمة على اليسر، ومن أخذ بالأحوط فلا

تثريب عليه، وفي هذا الإقرار والبيان رحمة بالأمة لا يزال العمل به، وجريان الفتوى عليه عند العلماء؛ فمن المفتين من يرفق بالسائلين ويفتي لهم بالأيسر ما دام داخلًا في نطاق الشريعة وله مستند وأصل يسوغ الفتوى به، ومنهم من يفتي لهم بالأحوط ويلزمهم به إما احتياطًا لذمته من تبعة الفتوى، وإما حملًا للناس عليه، لأنه يرى أن الذمة تبرئ به بدون شك، وما وافق هدي الشريعة ومقاصدها العامة القائمة على الحكمة والرحمة ورعاية المصلحة وتحقيقها هو السنة التي جاءت في الحديث.

ومن مظاهر الرحمة في هذه الحادثة:

أولًا: أن الرخصة رحمة بالأمة، والأخذ بها في ظروفها أفضل من تكلف العزيمة.

ثانيًا: من رحمة الله بالأمة أن من أخذ بالأرفق الذي له مستند شرعي، ومن أخذ بالأحوط كلهما على خير.

ثالثًا: رفق النبي ﷺ بأصحابه، وتطيب خواطرهم بتزكية أفعالهم.

٢. عن عبدالله بن أبي قتادة، أن أباه، أخبره أن رسول الله ﷺ خرج حاجًا، فخرجوا معه، فصرف طائفة منهم فيهم أبو قتادة، فقال: «خذوا ساحل البحر حتى نلتقي» فأخذوا ساحل البحر، فلما انصرفوا، أحرموا كلهم إلا أبو قتادة لم يحرم، فبينما هم يسيرون إذ رأوا حمر وحش، (وفي رواية قال أبو قتادة: وأنا مشغول أخصف نعلي، فلم يؤذنوني له[1]، وأحبوا لو أني أبصرته، فالتفت فأبصرته) فحمل أبو قتادة على الحمر فعقر منها أتانًا، فنزلوا فأكلوا من لحمها، وفي رواية (فقال بعضهم: كلوا، وقال بعضهم: لا تأكلوا)

(١) فلم يؤذنوني له: أي: فلم يعلموني. إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري، القسطلاني ٨/٢٢٥.

وفي رواية (فأبى بعضهم، وأكل بعضهم) وقالوا: أنأكل لحم صيد ونحن محرمون؟ وفي رواية (ثم إنهم شكوا في أكلهم إياه وهم حرم) وفي رواية (فأكلوا فندموا) فحملنا ما بقي من لحم الأتان، فلما أتوا رسول الله ﷺ قالوا: يا رسول الله، إنا كنا أحرمنا، وقد كان أبو قتادة لم يحرم، فرأينا حمر وحش فحمل عليها أبو قتادة، فعقر منها أتانًا، فنزلنا، فأكلنا من لحمها، ثم قلنا: أنأكل لحم صيد ونحن محرمون؟ فحملنا ما بقي من لحمها، قال: «أمنكم أحد أمره أن يحمل عليها، أو أشار إليها». قالوا: لا، قال: «فكلوا ما بقي من لحمها»[1].

الصيد عملية اقتناص وترصد أو مطاردة ومباغتة لحيوان آمن يعيش في بيئته، فضل الله الإنسان عليه، وأكرمه بالاستفادة منه بأي وسيلة من وسائل الانتفاع المباحة له. وفي فترة زمنية يدخل فيها المسلم في حرم الله الزماني أو المكاني وتتسع فيها دائرة التحريم، التي هي أضيق شيء في الشريعة، لتشمل في هذه الحال التحريم المؤقت لما كان حلالًا من صيد البر الذي نهى الله المؤمنين المحرمين عنه، وابتلى أصحاب نبيه ﷺ به في أحد إحراماتهم بأن يأتي الصيد إلى رحالهم ويمر من أمامه تناله أيديهم ورماحهم في أمنة وسكينة تَنْزِل في قلوب تلك الحيونات البرية التي من عادتها الفرار من الإنسان، لأن الله أمّنها منهم بأمره القوم بكف أيديهم عنها، فلتعش في أمن، ولتستمتع به، لأمر الله الشرعي للعصبة المسلمة المحرمة بعدم الاعتداء عليها، فلتنعم بالأمان المؤقت، هذه ظاهرة لم تتكرر ولن تتكرر، ولكن ليعلّمنا الله أن هذا ما يجب أن يكون عليه المسلم المؤمن بأمر الله المتعبد له به يأمنه من أمره الله بكف أذاه عنه فضلًا عن ضرره.

(١) رواه البخاري في صحيحه حديث رقم: ١٨٢٤ وجميع الروايات المدرجة من صحيح البخاري في مواضع أخرى انظر: حديث رقم: ١٨٢٣ وحديث رقم: ٥٤٠٧ وحديث رقم: ٥٤٩٢ وحديث رقم: ٢٥٧٠ وحديث رقم: ٢٨٥٤.

وفي قصة أبي قتادة وأصحابه ﷺ يقصد القوم مكة مع نبيهم ﷺ ويكلفهم الرسول الأعظم ﷺ بمهمة فيؤدونها ويقفلون راجعين إلى النبي ﷺ ليلتقوا به فيكملوا مسيرهم إلى مكة المقدسة، لأداء النسك الذي خرجوا من المدينة لأجله، يحرم أصحاب أبي قتادة ويبقى حلالًا فيعرض لهم صيد من الحمر الوحش، وقد علموا من حكم الله أنه لا يحل لهم الصيد ما داموا حرمًا، فتتوق أنفسهم له وتشتهيه وودوا لو رآه أبو قتادة فهو لا يحرم عليه أن يصيده، لأنه لم يحرم بعد، كان منشغلًا بإصلاح نعله فلما رفع رأسه رأى الصيد عارضًا من بعيد، ولم يبدر من القوم ما يعينه على اصطياده من إشارة أو قول ولم يعربوا عمّا جال في أنفسهم من الرغبة فيه وبقي الأمر حديث نفس، حمل أبو قتادة على الصيد فاقتنص واحدًا منها وجاء به إليهم، وهنا انقسم القوم إلى فريقين، حول حكم هذا المصيد أيأكلون منه وهم حرم أم لا يأكلون؟ فأكل بعضهم مجتهدًا في حله لهم، لأنهم لم يصيدوه بأيديهم ولا بآلاتهم ولم يعينوا على صيده، وحملوا تحريم الصيد على عملية الاصطياد، فحملوا لفظ الصيد المحرّم على المصدر لا على المصيد فأكلوا منه، وامتنع الآخرون وعمّموا لفظ الصيد على عملية الصيد والاقتناص وعلى لحم المصيد ما داموا حرمًا، لكن الرجوع للنص قريب لا يحول بينهم وبينه إلا أن يلحقوا بالنبي ﷺ، فلما أدركوا نبي الرحمة ﷺ سألوه عما وقع لهم فبين لهم الرسول الكريم ﷺ أنها طعمة أطعمهم الله إياها إذ لم يباشر المحرمون صيده ولم يعينوا عليه، ولم يؤثر ما وقع من حديث النفس في حل ذلك الصيد، إذ أن حديث النفس معفو عنه ما لم يعمل الإنسان أو يتكلم.

ومن مظاهر الرحمة بالأمة في هذه الحادثة ما يلي:

أولًا: أن فيها التفسير الوسطي لما يحل ويحرم من الصيد اقتناصًا أو أكلًا.

ثانيًا: البيان العملي لفقه نص تحريم الصيد على المحرِم.

ثالثًا: العفو عن حديث النفس.



المبحث الثالث
ظواهر الرحمة فيما أقر النبي ﷺ من أصاب في اجتهاده من أصحابه وتنبيه من ابتعد عن الصواب

بعث رسول الله ﷺ جيشًا، وأمّر عليهم رجلًا، فأوقد نارًا، وقال: ادخلوها، فأراد ناس أن يدخلوها، وقال الآخرون: إنا قد فررنا منها، فذكر ذلك لرسول الله ﷺ، فقال للذين أرادوا أن يدخلوها: «لو دخلتموها لم تزالوا فيها إلى يوم القيامة»، وقال للآخرين قولًا حسنًا، وقال: «لا طاعة في معصية الله، إنما الطاعة في المعروف»(١).

حقيقة الاجتهاد في هذه القصة تتبين من افتراق المجموعة إلى فريقين: فريق همّ أن يدخل النار بناء على وجوب طاعة الأمير، وفريق نظر وقدّر فرأى أنه إنما اتبع النبي ﷺ فرارًا من النار، فكيف يدخلها لمجرد أمر من شخص تعسف في استخدام الحق، وليس هناك مصلحة شرعية تقتضي هذه الطاعة، فامتنعوا عن دخولها وأعلنوا الرفض لهذا الأمر، فلما ذكروا ما كان منهم وموقف الفريقين من أمر أميرهم لرسول الله ﷺ، حكم الرسول ﷺ على تصرفهم، وبين لهم أصلًا شرعيًا في الطاعة، فقال معاتبًا للذين همّوا، بدخول النار ظنًا منهم أن طاعة الأمير

(١) رواه الإمام مسلم، صحيح مسلم ١٤٦٩/٣ حديث رقم: ١٨٤٠.

واجبة مطلقًا: (لو دخلتموها لم تزالوا فيها إلى يوم القيامة) بيانًا لسوء تصرفهم لو حصل ذلك منهم وخطورته، وقال للآخرين الأكثر فقهًا وقربًا لحقيقة الشريعة قولًا حسنًا، لا شك أنه يتضمن مدحًا وثناءً على تصرفهم وموقفهم من ذلك الأمر من أميرهم المتعسف في استعمال حقه في الطاعة، ثم بين الرسول ﷺ القاعدة الشرعية في الطاعة لمن تولى أمرًا بقوله ﷺ: (لا طاعة في معصية الله، إنما الطاعة في المعروف).

ومن مظاهر الرحمة في هذه الحادثة:

أولًا: أن الصحابة الذين امتنعوا عن دخول النار ورفضوا طاعة أميرهم مع أن طاعة الأمير أصل شرعي للمحافظة على نظام المجتمع أنهم بنوا اجتهادهم في الرفض لطاعة الأمير على فقه لحقيقة الشريعة أقره النبي ﷺ وهو أنهم أسلموا هربًا من النار بطاعة الله، فكيف يدخلونها بأمر مَن طاعته تبعًا لطاعة الله؟.

ثانيًا: وضع القاعدة الشرعية الضابطة لحقوق الوالي والرعية في الطاعة الشرعية (لا طاعة في معصية الله، إنما الطاعة في المعروف).

المبحث الرابع
ظواهر الرحمة فيما نبه النبي ﷺ على خطأ الاجتهاد فيه وتشريع البديل

لا يقر النبي ﷺ فعلًا أو قولًا لا يتفق مع حقيقة هذا الدين ومنهجه وما يريده الله للناس في ضوء مبادئه، فإذا كان العمل الذي اجتهد فيه الصحابي لم يصب به الشريعة بين له النبي ﷺ الصواب الموافق لها. روى أبو موسى رضي الله عنه عن عمار رضي الله عنه إذ قال: بعثني رسول الله ﷺ في حاجة، فأجنبت فلم أجد الماء، فتمرغت في الصعيد كما تمرغ الدابة، فذكرت ذلك للنبي ﷺ، فقال: «إنما كان يكفيك أن تصنع هكذا، فضرب بكفه ضربة على الأرض، ثم نفضها، ثم مسح بهما ظهر كفه بشماله أو ظهر شماله بكفه، ثم مسح بهما وجهه»[1].

الصعيد الطيب الطاهر طهور المسلم البديل الذي يستحل به مزاولة العبادات التي يشترط لها الطهارة، يعرف عمار رضي الله عنه ذلك فقد أمّ الصعيد يتطهر به، ولكنه ظن أن الطريقة التي تجزئه أن يعمم جميع بدنه منه، فتمرغ في التراب ليصيب كل بدنه قياسًا على أن الطهارة بالماء من الجنابة التي ينبغي أن تعم جميع البدن، ولما رجع رضي الله عنه إلى النبي ﷺ وأخبره بصنيعه في طلب الطهارة بالصعيد الطيب، لم يقره النبي ﷺ على فعله ذلك، وبين

(١) رواه البخاري، صحيح البخاري ١/٧٧ حديث رقم: ٣٤٧.

له أن الأمر أيسر من ذلك، فيكفيه أن يضرب بكفيه التراب ثم ينفضهما ليتخلص من الغبار أو التراب الزائد؛ ثم يمسح ظهر يمينه بشماله والعكس ويمسح بكلتا كفيه وجهه، بدلًا من مشقة التقلب في التراب وما يترتب على ذلك من أذى، فالمقصد الامتثال لأمر الله بتيمم صعيد طيب من الأرض يمسح منه الإنسان أشرف عضوين فيه الوجه والكفين تعبدًا، وهذا الفعل الموحد في الكيفية كاف لرفع الحدث الأصغر والأكبر على حد سواء، فما عليك إلا أن تضرب الأرض بكفيك وتمسح وجهك وظاهر يديك على خلاف بين الفقهاء في عدد الضربات هل تكفي واحدة للوجه والكفين أو للوجه واحدة ولليدين أخرى، وهل يكتفى بظاهر الكفين أو يمتد المسح إلى المرفقين وجوبًا أو استحبابًا[1]، كل هذه التفصيلات ضربنا عنها صفحًا هنا، لأن المراد بيان اجتهاد عمار ﷺ الذي صححه له النبي ﷺ بصورة بسيطة تغنيه عن التمرغ في التراب.

ومظاهر الرحمة في هذه الحادثة تتجلى فيما يلي:

أولًا: يسر الشريعة في طهارة التيمم للحدثين، إذ أن صفته وكيفيته واحدة كافية مجزئة لرفع الحدث سواء كان أكبر أو أصغر.

ثانيًا: بعد أحكام هذه الشريعة عن التكلف والمشقة.

هذه بعض النماذج من اجتهادات الصحابة ﷺ في زمن النبي ﷺ وموقف النبي ﷺ منها في الإقرار لها أو الرفض والتصحيح لاجتهاد من أخطأ منهم فيه، ومدارها على الرحمة بالعباد؛ إما في إقرار التنوع في الاجتهاد في العمل الواحد، واعتبار كل مجتهد في ذلك العمل مصيبًا على حد سواء، أو أن بعضهم أوفر حظًا وأكثر قربًا للصواب في اجتهاده مع

(١) انظر: معالم السنن، الخطابي ٩٩/١ وما بعدها. فتح الباري شرح صحيح البخاري، ابن رجب ٢٤٥/٢ وما بعدها.

تسويغ الاجتهاد الآخر، أما إذا كان الاجتهاد بعيدًا عن الصواب ويسلك منهجًا لا يتفق مع الحقيقة التي تقوم عليها هذه الشريعة السمحة شريعة الرحمة فإن النبي ﷺ يبين ذلك بما يتفق مع هذه الشريعة التي قيامها على الرحمة والحكمة والعدل ومراعاة مصالح العباد في الدنيا والآخرة، (فإن الشريعة مبناها وأساسها على الحِكَم ومصالح العباد في المعاش والمعاد، وهي عدل كلها، ورحمة كلها، ومصالح كلها، وحكمة كلها؛ فكل مسألة خرجت عن العدل إلى الجور، وعن الرحمة إلى ضدها، وعن المصلحة إلى المفسدة، وعن الحكمة إلى العبث؛ فليست من الشريعة وإن أدخلت فيها بالتأويل)[1]، واجتهادات الصحابة التي وقعت في عهد النبوة وموقف النبي ﷺ منها بينت لنا قيام الشريعة الإسلامية المباركة على الرحمة الخاصة والعامة.

(١) إعلام الموقعين عن رب العالمين، ابن القيم ٣/ ١١

الخاتمة

ستكون الخاتمة في أهم النتائج والتوصيات.

أولًا: نتائج البحث:

- أن الاجتهادات التي أقرها النبي ﷺ مدارها على اليسر والسهولة، وما صححها النبي ﷺ نجد فيها تكلفًا وقع من الصحابي لا يتفق مع اليسر والسعة والرحمة التي قامت عليها الشريعة.
- أغلب الاجتهادات التي وقعت من الصحابة في زمن النبي ﷺ قد أقرّها ﷺ لتوافقها مع روح الشريعة، وجميعها تتسم بالرفق والرحمة ورفع المشقة عن الأمة، مما يعني قوة إدراك الصحابة لمقاصد الشريعة والحقيقة التي قامت عليها من اليسر والسعة والرفق والرحمة.
- تلطف الرسول ﷺ بأصحابه رضي الله عنهم في تقويم اجتهاداتهم، ورفقه بهم، فكان كما وصفه الله ﷻ ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة:١٢٨].
- أن الاجتهادات التي وقعت من الصحابة في زمن النبي ﷺ يمكن أن نقسمها إلى:

١. اجتهاد مع عدم النص، وأمده الرجوع إلى النبي ﷺ والعثور على النص المؤيد أو المصحح.

٢. اجتهاد في فهم النص، ومثاله ما حدث من الصحابة من اجتهاد في فهم نص: (لا يصلين أحدكم العصر إلا في بني قريظة).

٣. اجتهاد في الخيار بين البدائل النصية، كما حدث من عمرو بن العاص رضي الله عنه في العدول عن الغسل إلى التيمم للخوف من ضرر استعمال الماء.

وفي جميع هذه الأنواع من الاجتهادات تظهر رحمة الله بالأمة وفضله عليها في بيان مناهج الفقه والاجتهاد والاستنباط.

- أن اجتهادات الصحابة رضي الله عنهم تقوم على العلم بالحق وإدراك رحمة الشريعة بالخلق، فكانوا خيرًا على من بعدهم.
- الرحمة في مشروعية الاجتهاد للوصول للحكم الشرعي.
- أن العمل بالظن المستند إلى أصل شرعي جائز، وهذا من الرحمة بالأمة.
- استفاد الصحابة رضي الله عنهم من الممارسات الاجتهادية في زمن النبي ﷺ وتوسعت مدارك الاجتهاد عندهم، ولذلك ساروا على هذا الأصل في الوصول إلى الأحكام بعد وفاة النبي ﷺ بعد أن اتضح لهم منهاج الاجتهاد في زمنه وتحت إشرافه ﷺ. فتعددت اجتهاداتهم وتنوعت، ولكنها لم تخرج من إطار الشريعة ودائرة في فلكها، فكان فيها التوسعة على الأمة والرحمة التي اغتبط بها الفقهاء وأصحاب القرار في الأمة من بعدهم، وعدّها كثير من أصحاب المذاهب الفقهية في أصول مذاهبهم.

- ضرورة إرجاع الأمر إلى أهله، فلا ينفرد أحد باجتهاد تعود تبعاته على الأمة بعامة، وبخاصة فيما يتعلق بقضايا الأمة الكبرى كالسياسة والجهاد والعلاقات الدولية.
- الحرص على الائتلاف وتقريب الخلاف ما وجد لذلك مسلكًا، حتى لا يكون الاختلاف سببًا للافتراق والشقاق.

ثانيًا: التوصيات.

- السنة النبوية مصدر من مصادر تأمين المجتمع من الانحرافات وإمداده بالأفكار الصحيحة في التعامل مع الأحداث والأزمات، فيعنى بالأبحاث التي تبرز هذا الجانب مساهمة في حماية شباب الأمة من الاسترسال في الأفكار المنحرفة.
- عناية محاضن التربية، ومراكز التوجيه، وصناعة الفكر بتعويد الشباب على إرجاع الأمر لأهله.
- ضرورة قيام المؤسسات التي تعنى بالتفكير الجماعي الفاعل لتواجه الأمة التحديات بفكر موحد.

والله الموفق.

فهرس المصادر والمراجع

١. القرآن الكريم.
٢. أحكام القرآن. ابن العربي، محمد بن عبدالله (ت: ٥٤٣هـ). تحقيق: محمد عبدالقادر عطا. الطبعة الثالثة بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م.
٣. الموطأ. الإمام مالك بن أنس (ت: ١٧٩هـ). تصحيح وتخريج: محمد فؤاد عبدالباقي. د. ط بيروت: دار إحياء التراث العربي، ١٤٠٦هـ/١٩٨٥م.
٤. مسند الإمام أحمد بن حنبل. الإمام أحمد (ت: ٢٤١هـ). تحقيق: شعيب الأرناؤوط وآخرون. الطبعة الأولى، بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤٢١هـ/٢٠٠١م.
٥. مسند الإمام أحمد بن حنبل. الإمام أحمد (ت: ٢٤١هـ). تحقيق أحمد محمد شاكر. الطبعة الأولى، القاهرة: دار الحديث، ١٤١٦هـ/١٩٩٥م.
٦. صحيح البخاري. البخاري، محمد بن إسماعيل (ت: ٢٥٦هـ). تحقيق: محمد زهير الناصر. الطبعة ا لأولى دار طوق النجاة، د. م ١٤٢٢هـ.
٧. صحيح مسلم. الإمام مسلم (ت: ٢٦١هـ). تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي. د. ط بيروت دار إحياء التراث العربي، د. ت.
٨. سنن أبي داود، أبو داود، سليمان بن الأشعث (ت: ٢٧٥هـ). تحقيق شعيب الأرناؤوط ومحمد كامل قرّه بللي. الطبعة الأولى، د. م دار الرسالة العالمية ١٤٣٠هـ/٢٠٠٩م.

٩. سنن الترمذي. الترمذي، محمدبن عيسى (ت: ٢٧٩هـ). تحقيق: أحمد محمد شاكر ومحمد فؤاد عبدالباقي وإبراهيم عطوة. الطبعة الثانية، مصر: مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، ١٣٩٥هـ/١٩٧٥م.
١٠. معالم السنن. الخطابي، حمد بن محمد (ت: ٣٨٨هـ). الطبعة الأولى حلب: المطبعة العلمية ١٣٥١هـ/١٩٣٢م.
١١. غريب الحديث. أبو عبيد، القاسم بن سلام (ت: ٢٢٤هـ). تحقيق: محمد عبدالمعيد خان. الطبعة الأولى، حيدر آباد - الدكن: مطبعة دار المعارف العثمانية ١٣٨٤هـ/١٩٦٤م.
١٢. جامع بيان العلم وفضله. ابن عبدالبر، يوسف بن عبدالله (ت: ٤٦٣هـ). تحقيق: أبو الأشبال الزهيري. الطبعة الأولى، الدمام: دار ابن الجوزي، ١٤١٤هـ/١٩٩٤م.
١٣. كشف المشكل من حديث الصحيحين. ابن الجوزي، أبو الفرج، عبدالرحمن بن علي (ت: ٥٩٧هـ). تحقيق: علي حسين البواب. الطبعة الأولى، الرياض: دار الوطن، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م.
١٤. المستدرك على الصحيحين. الحاكم، محمد بن عبدالله (ت:٤٠٥هـ). تحقيق: مصطفى عبدالقادر عطا. الطبعة الأولى بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤١١هـ/١٩٩٠م.
١٥. مجمع الزوائد ومنبع الفوائد. الهيثمي، علي بن أبي بكر (ت: ٨٠٧). تحقيق: حسام الدين القدسي. د. ط القاهرة مكتبة القدسي، ١٤١٤هـ/١٩٩٤م.
١٦. إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري، أحمد بن محمد القسطلاني، (ت:٩٢٣هـ) الطبعة السابعة مصر، المطبعة الكبرى الأميرية، ١٣٢٣هـ.
١٧. التوضيح لشرح الجامع الصحيح. ابن الملقن، عمر بن علي (ت:٨٠٤هـ). الطبعة الأولى، دمشق: دار النوادر ١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م.

١٨. فتح الباري شرح صحيح البخاري. ابن رجب، عبدالرحمن بن أحمد (ت: ٧٩٥هـ). تحقيق: محمود بن شعبان بن عبدالمقصود وآخرون. الطبعة الأولى، المدينة: مكتبة الغرباء الأثرية، ١٤١٧هـ/١٩٩٦م.

١٩. فتح الباري بشرح صحيح البخاري. ابن حجر، أحمد بن علي (ت:٨٥٢هـ). تحقيق: محب الدين الخطيب. الطبعة الأولى، القاهرة: دار الريان، ١٤٠٧هـ/١٩٨٦م.

٢٠. شرح سنن أبي داود. العيني، بدرالدين، محمود بن أحمد (ت:٨٥٥هـ). تحقيق: خالد بن إبراهيم المصري. الطبعة الأولى، الرياض: مكتبة الرشد ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م.

٢١. المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج. النووي، يحيى بن شرف (ت:٦٧٦هـ). الطبعة الثانية، بيروت: دار إحياء التراث العربي ١٣٩٢ هـ.

٢٢. زاد المعاد في هدي خير العباد. ابن القيم، محمد بن أبي بكر (ت:٧٥١هـ). الطبعة السابعة والعشرون، بيروت: مؤسسة الرسالة- الكويت: مكتبة المنار الإسلامية د. ت.

٢٣. صحيح سنن أبي داود (الأم). الألباني، محمد ناصر الدين (ت:١٤٢٠هـ). الطبعة الأولى، الكويت: مؤسسة غراس، ١٤٢٣هـ ٢٠٠٢م.

٢٤. العدة في أصول الفقه. الفراء، القاضي أبو يعلى، محمد بن الحسين (ت: ٤٥٨هـ). تحقيق: أحمد سير مباركي. الطبعة الثانية، د. ن ١٤١٠هـ/١٩٩٠م.

٢٥. قواطع الأدلة في الأصول. المروزي السمعاني، أبو المظفر، منصور ابن محمد (ت: ٤٨٩هـ). تحقيق: محمد حسن إسماعيل الشافعي. الطبعة الأولى، بيروت: دار الكتب العلمية ١٤١٨هـ/١٩٩٩م.

٢٦. صحيح سنن النسائي. الألباني، محمد ناصر الدين (ت: ١٤٢٠هـ). الطبعة الأولى، الرياض: مكتبة المعارف ١٤١٩هـ ١٩٩٨م.
٢٧. التبصرة في أصول الفقه، الشيرازي، أبو إسحاق، إبراهيم بن علي (ت: ٤٧٦هـ). تحقيق: محمد حسن هيتو. الطبعة الأولى، دمشق: دار الفكر، ١٤٠٣هـ.
٢٨. المستصفى من علم الأصول. الغزالي، أبو حامد، محمد بن محمد (ت: ٥٠٥هـ). الطبعة الأولى، صيدا - بيروت: المكتبة العصرية، ١٤٢٨هـ/٢٠٠٨م.
٢٩. المحصول. الرازي، فخر الدين، محمد بن عمر (ت: ٦٠٦هـ). تحقيق: طه جابر فياض العلواني. الطبعة الثالثة، بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م.
٣٠. روضة الناظر وجنّة المناظر. ابن قدامة، عبدالله بن أحمد (ت: ٦٢٠هـ). تحقيق: عبدالكريم النملة. الطبعة السادسة، الرياض: مكتبة الرشد، ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م.
٣١. الإحكام في أصول الأحكام. الآمدي، علي بن محمد (ت: ٦٣١هـ). تحقيق عبدالرزاق عفيفي. د. ط بيروت- دمشق: المكتب الإسلامي، د. ت.
٣٢. إعلام الموقعين عن رب العالمين. ابن القيم، محمد بن أبي بكر (ت: ٧٥١هـ). تحقيق: محمد عبدالسلام إبراهيم. الطبعة الأولى، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤١١هـ/١٩٩١م.
٣٣. كتاب العين. الفراهيدي، الخليل بن أحمد (ت:١٧٠هـ). تحقيق: مهدي المخزومي وإبراهيم السامرائي. د. ط، د. م دار ومكتبة الهلال، د. ت.
٣٤. القاموس المحيط. الفيروزآبادي، محمد بن يعقوب (ت: ٨١٧هـ). الطبعة الثانية ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م بيروت مؤسسة الرسالة.

٣٥. إرشاد الفحول إلى تحقاق الحق من علم الأصول. الشوكاني، محمد ابن علي (ت: ١٢٥٥هـ). تحقيق: أحمد عزو عناية. الطبعة الأولى، د. م، دار الكتاب العربي ١٤١٩هـ/ ١٩٩٩م.

٣٦. تاج العروس من جواهر القاموس. الزبيدي، مرتضى محمد بن محمد (ت: ١٢٠٥هـ). د. ط، د. م، دار الهداية.

معالم الرحمة في الدعوة إلى الله في القرآن الكريم "مع سورة الأعراف أنموذجًا"

إعداد:
أ. د. خالد بن عبدالله بن عبدالعزيز القاسم



مقدمة

الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا.. أما بعد:

أهمية البحث:

الدعوة إلى الله سبيل الأنبياء وأتباعهم ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ [يوسف:] وهي مهمة أمة محمد ﷺ ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ [آل عمران:١١٠].

والدين إنما يقوم بالدعوة إليه، والدعوة إلى الله إذا قامت كما يجب تأتي بالخير للبشرية جمعاء، وإذا قامت على خلاف منهج الله فإن آثارها تكون عكسية وتكون صدًا عن سبيل الله.

ومنهج الدعوة يؤخذ من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، ومن سمات الدعوة إلى الله التي ينبغي أن تكون في الدعاة دعوتهم الرحمة التي هي رسالة النبي ﷺ ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ [الأنبياء].

هدف البحث:

يهدف البحث إلى إظهار معالم الرحمة في الدعوة إلى الله في القرآن عمومًا مع أخذ سورة الأعراف أنموذجًا، وما في السنة من المعاني القريبة.

منهج البحث:

سأنهج في البحث المنهج الاستقرائي الاستنباطي من القرآن الكريم لآيات الرحمة في الدعوة إلى الله وما تيسر من سنة رسول الله ﷺ.

الدراسات السابقة:

الدراسات السابقة لا تحصى في أهمية الرحمة في الدعوة إلى الله في الكتاب والسنة أو ضمن صفات الأنبياء وخاصة النبي ﷺ أو صفات الدعاة، وفي هذا البحث سأقتصر على معالم الرحمة في القرآن في الدعوة إلى الله مع سورة الأعراف أنموذجًا، وهو لم يأت في الدراسات التي رأيتها واطلعت عليها.

مشكلة البحث:

تتكرر آيات الرحمة في القرآن الكريم لا سيما في موضوع الدعوة إلى الله مع إعراض بعض الدعاة عن ذلك في دعوتهم.

ويأتي هذا البحث لبيان أهمية الرحمة في القرآن الكريم وبيان معالمها، مع سورة الأعراف أنموذجًا.

خطة البحث:

تمهيد في معاني الرحمة والدعوة إلى الله.

المبحث الأول: معالم الرحمة في الدعوة إلى الله في القرآن الكريم.

المطلب الأول: الرحمة في صفات الله في القرآن الكريم وصلته بالدعوة.

المطلب الثاني: الرحمة في ترغيب المخالفين في القرآن الكريم.

المطلب الثالث: وصف القرآن الكريم وبعض الكتب السماوية بالرحمة والهداية.

المطلب الرابع: رحمة الأنبياء في القرآن الكريم.

المطلب الخامس: رحمة النبي ﷺ.

المطلب السادس: رحمة الدعاة في القرآن الكريم.

المبحث الثاني: معالم الرحمة في الدعوة إلى الله في سورة الأعراف أنموذجًا.

تمهيد
معنى الرحمة

الرحمة في اللغة: الرقة والتعطف[١].

الرحمة تقتضي الإحسان إلى المرحوم[٢].

وهي رقة في النفس تبعث على سوق الخير لمن تتعدى إليه[٣].

ومنها الرحم، لأن منها ما يكون يرحم ويرق له من ولد[٤].

وهي بين الزوجين﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الروم:٢١].

وأعظم رحمة تعريف الناس بربهم وخالقهم وإنقاذهم من الضلال إلى الهدى والنجاة من عذابه في الآخرة، بل إسعادهم في الدنيا والآخرة.

كما أن المعرضين عنه المكذبين له الصادين عنه المقاتلين له يأمر الله بالشدة معهم وقتالهم، وهذا فيه معنى من معاني الرحمة من حماية الدين وقهر الكفار حتى يدخلوا في الدين وتبيين لهم حقائقه..

(١) انظر: تهذيب اللغة، الأزهري، ٥/٥٠. لسان العرب، ابن منظور، ١٢/٢٣٠. معجم مقاييس اللغة، ابن فارس، ٢/٤٩٨. القاموس المحيط، الفيروزآبادي، ص٨١٧.
(٢) انظر: مفردات اللغة، الراغب الأصفهاني، ١/٣٤٧.
(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٢٦/٤٩٨.
(٤) معجم مقاييس اللغة، ابن فارس، ٢/٤٩٨.

"وغاية الصراع في الإسلام هي هداية البشرية ودلالتها على سعادتها في الدنيا والآخرة، وترغيبها في الخضوع لربها، وأن تعبده ﷻ كما شرع. وأن تنبذ العداوات ويسيطر الحب والإخاء على قلوب الناس، وغاية الصراع عند أعداء الحق هي تحطيم البشرية وإضلالها عن الحق، وتجهيلها بربها، وتجهيلها بآخرتها دار القرار التي هي صائرة إليه، وإفشاء العداوات والأحقاد والفتن"(١). وهذا غاية الرحمة.

معنى الدعوة:

الدعوة في اللغة:

مأخوذة من الدعاء وهو النداء. وتطلق في اللغة على التداعي ودعوة العرس، ودعاء الله والزعم والرغبة والطلب، والدعاة قوم يدعون إلى بيعة هدى أو ضلالة، والمؤذن داعي الله، والنبي ﷺ داعي الأمة إلى توحيد الله وطاعته، والدعوة قد تكون للحق أو للباطل ﴿لَهُۥ دَعۡوَةُ ٱلۡحَقِّ﴾ [الرعد:١٤](٢).

الدعوة إلى الله اصطلاحًا:

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: "الدعوة إلى الله هي الدعوة إلى الإيمان به وبما جاءت به رسله، بتصديقهم فيما أخبروا به، وطاعتهم فيما أمروا، وذلك يتضمن الدعوة إلى الشهادتين، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت، والدعوة إلى الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله"(٣).

وقيل: "السعي لدعوة الناس بالقول والعمل إلى الإسلام، وإلى تطبيق منهجه واعتناق عقيدته وتنفيذ شريعته"(٤).

(١) الصراع بين الحق والباطل كما جاء في سورة الأعراف، عادل محمد صالح.
(٢) تهذيب اللغة، الأزهري، ١٢٢/٣. لسان العرب، ابن منظور ٢٦٨/٥.
(٣) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيمية، جمع وترتيب الشيخ عبدالرحمن بن قاسم، ١٥٧/١٥.
(٤) انظر: الدعوة إلى الله، توفيق الواعي، ص١٧.

والدعوة تشمل دعوة الكفار إلى الإسلام، وكذلك دعوة المسلمين إلى أحكام الصلاة ونحوها، ولذا فالأذان هو دعوة للمسلمين، فعن جابر بن عبدالله أن رسول الله ﷺ قال: "من قال حين يسمع النداء اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة آت محمدًا الوسيلة والفضيلة وابعثه مقاما محمودًا الذي وعدته حلت له شفاعتي يوم القيامة"(١).

"والمقصود بالرحمة في منهج دعوة الإسلام اشتمال الدين الإسلامي الحنيف على الرحمة والعطف بالخلق ودعوتهم بكل مسلك فاضل ومنهج الدعوة يشتمل على حقيقة الرحمة سواء في محتواه أو في طريق نشره"(٢).

أهمية الدعوة وفضلها:

وفضل الدعوة إلى الله عظيم ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾﴾ [فصلت].

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئًا، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئًا»(٣).

والدعوة وبلاغ الدين وظيفة الأنبياء وأتباعهم، يأمر الله ﷻ فيه النبي ﷺ: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ [يوسف:].

والدعوة في أقل أحوالها فرض كفاية على أمة محمد ﷺ، وقد تتعين

(١) رواه البخاري، كتاب الآذان، باب الدعاء عند النداء، برقم (٦١٤).
(٢) منهج الدعوة إلى الله في القرآن والسنة، راجح السباتين، من موقعه على الإنترنت.
(٣) رواه مسلم، كتاب العلم، باب من سن سنة حسنة أو سيئة ومن دعا إلى هدى أو ضلالة، برقم (٢٦٧٤).

أحيانًا عند وجود النقص وعدم الكفاية، قال ابن باز رحمه الله: دلت الأدلة من الكتاب والسنة على وجوب الدعوة إلى الله ﷻ، وأنها من الفرائض، والأدلة في ذلك كثيرة، منها قوله ﷻ: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران:١٠٤] ومنها قوله جل وعلا: ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ۖ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل:١٢٥] ومنها قوله ﷻ: ﴿وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [القصص:٨٧] ومنها قوله ﷻ: ﴿قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾ [يوسف:١٠٨] فبين ﷻ أن اتباع الرسول ﷺ هم الدعاة إلى الله، وهم أهل البصائر، والواجب كما هو معلوم هو اتباعه، والسير على منهاجه عليه السلام كما قال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب:٢١]، وصرح العلماء أن الدعوة إلى الله ﷻ فرض كفاية بالنسبة إلى الأقطار التي يقوم فيها الدعاة، فإن كل قطر وكل إقليم يحتاج إلى الدعوة وإلى النشاط فيها، فهي فرض كفاية إذا قام بها من يكفي سقط عن الباقين ذلك الواجب، وصارت الدعوة في حق الباقين سنة مؤكدة، وعملًا صالحًا جليلًا.

وإذا لم يقم أهل الإقليم أو أهل القطر المعين بالدعوة على التمام، صار الإثم عامًا، وصار الواجب على الجميع، وعلى كل إنسان أن يقوم بالدعوة حسب طاقته وإمكانه، أما بالنظر إلى عموم البلاد، فالواجب: أن يوجد طائفة منتصبة تقوم بالدعوة إلى الله جل وعلا في أرجاء المعمورة، تبلغ رسالات الله، وتبين أمر الله ﷻ بالطرق الممكنة، فإن الرسول ﷺ قد بعث الدعاة، وأرسل الكتب إلى الناس، وإلى الملوك الرؤساء ودعاهم إلى الله ﷻ"[1].

فالمسلم يدعو إلى الله على بصيرة، ولا يشترط أن يكون من العلماء،

(١) انظر: موقع الشيخ ابن باز بعنوان: حكم الدعوة إلى الله. وانظر أيضًا: مجلة البحوث الإسلامية، الصادرة عن الرئاسة العامة للبحوث والعلمية والافتاء بالسعودية عدد محرم ١٣٩٨هـ.

إنما يكفي أن يدعو بما يعلم أنه حق، فيدعو إلى لا إله إلا الله وإلى الصلاة وإلى الخير كما قال ﷻ: ﴿وَٱلۡعَصۡرِ ۝١ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ ۝٣﴾ [العصر:١-٣].

وقد قال النبي ﷺ في حجة الوداع مخاطبًا أكبر جمع رآه، والخطاب لجميع من آمن به: «ليبلغ الشاهد الغائب، فإن الشاهد عسى أن يبلغ من هو أوعى منه»[١].

وفي صحيح البخاري عن عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «بلغوا عني ولو آية»[٢] وكان من مع النبي ﷺ يتحول إلى الدعوة من أول يوم كالصديق رضي الله عنه والطفيل الدوسي رضي الله عنه[٣].

(١) متفق عليه: البخاري، كتاب العلم، باب قول النبي ﷺ: «رب مبلغ أوعى من سامع»، برقم (٦٧). ومسلم، كتاب القسامة والمحاربين والقصاص والديات، باب تغليظ تحريم الدماء والأعراض والأموال (١٦٧٩).
(٢) رواه البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب ما ذكر عن بني إسرائيل، برقم (٣٤٦١).
(٣) انظر قصته في ص١٨ من هذا البحث.

المبحث الأول
معالم الرحمة
في الدعوة إلى الله في القرآن الكريم

المطلب الأول
الرحمة في صفات الله في القرآن الكريم
وصلته بالدعوة

الرحمة من أعظم صفات الله، والله ﷻ هو أول داعي ﴿وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [يونس: ٢٥] ﴿وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱلۡجَنَّةِ وَٱلۡمَغۡفِرَةِ بِإِذۡنِهِۦ﴾ [البقرة:٢٢١] ﴿يَدۡعُوكُمۡ لِيَغۡفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ وَيُؤَخِّرَكُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمًّى﴾ [إبراهيم:١٠]، وهو ﷻ الرحمن الرحيم، جاءت في أكثر آية ترددت في القرآن الكريم، وهي البسملة ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [الفاتحة:١] وفي الفاتحة التي تتردد في كل ركعة من ركعات الصلاة.

والداعي يدعو إلى الله الرحمن الرحيم. قال ابن عباس رضي الله عنهما: اسمان رقيقان أحدهما أرق من الآخر[١]. وقال ابن كثير: والرحمن الرحيم اسمان مشتقان من الرحمة على وجه المبالغة ورحمن أشد مبالغة من رحيم، وفي كلام ابن جرير ما يفهم منه حكاية الاتفاق على هذا[٢].

(١) انظر: تفسير القرطبي، ١/١٠٦.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ١/١٢٤.

والرحمن لجميع الخلق، وقد عبر ﷻ في استوائه على العرش وهو أعظم مخلوقاته بالرحمن ليعم جميع خلقه، قال تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ [طه:٥]، والرحيم بالمؤمنين، قال ﷻ: ﴿وَكَانَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَحِيمٗا﴾ [الأحزاب:٤٣]، فخصهم باسمه الرحيم(١).

فرحمة الله وسعت كل شيء، وهي شاملة لجميع خلقه ومنهم الكفار، ولنتأمل بعض الآيات الكريمة في سعة رحمة الله؛ قال ﷻ: ﴿وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖ﴾ [الأعراف:١٥٦] ويقول ﷻ مبينًا سعة رحمته في دعاء ملائكته ﴿رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا فَٱغۡفِرۡ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ﴾ [غافر:٧]. فبدءوا بالرحمة.

والرحمة وردت في القرآن الكريم في أكثر من (٤٠٠) موضع(٢).

وفي الدعوة إلى التوحيد ﴿وَإِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة:١٦٣] ترغيبًا لهم.

والله ﷻ هو الذي كتب على نفسه الرحمة ﴿كَتَبَ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَ﴾ [الأنعام: ١٢] ورحمة الله سبقت غضبه ﷻ، فعن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «إن رحمتي سبقت غضبي»(٣)، والله يأمر نبيه ﷺ بهذا الأمر ﴿نَبِّئۡ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الحجر:٤٩].

فالله ﷻ هو أرحم الراحمين.

﴿وَأَدۡخِلۡنَا فِي رَحۡمَتِكَۖ وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [الأعراف:١٥١].

﴿فَٱللَّهُ خَيۡرٌ حَٰفِظٗاۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [يوسف: ٦٤].

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ١٢٦/١.

(٢) وبحسب البحث في معجم المصحف عن كلمات الرحمة؛ وجد: رحيم: ١١٥، رحمة: ٢٠١، راحم: ٦، غير الرحمة في البسملة ١١٢ مرة دون الفاتحة كل مرة احتوت على كلمتين، ليكون الإجمالي ٣٢٢ + ١١٢ = ٤٣٤ مرة.

(٣) رواه البخاري، كتاب التوحيد، باب وكان عرشه على الماء، برقم (٧٤٢٢).

﴿قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [يوسف:٩٢].

﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٣].

﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [المؤمنون:١٠٩].

﴿وَقُل رَّبِّ ٱغْفِرْ وَٱرْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [يوسف ١١٨].

والإسلام والهداية من رحمة الله ﴿لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِي رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ [الفتح:٢٥]، ﴿وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِي رَحْمَتِهِۦ ۚ وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [الشورى:٨]، ﴿يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِي رَحْمَتِهِۦ ۚ وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الإنسان:٣١].

ورحمة الله هي سبب نجاة الإنسان وهدايته ﴿فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَكُنتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [البقرة:٦٤]. ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ﴾ [النساء:١١٣].

وفضل الله ورحمته هي سبب هداية البشرية وعصمتها من الشيطان ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء:٨٣].

وهي خير من كل شيء ﴿وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [الزخرف:٣٢].

ورحمة الله لا ممسك لها ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [فاطر:٢].

عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال «إن لله مائة رحمة أنزل منها رحمة واحدة بين الجن والإنس والبهائم والهوام، فبها يتعاطفون، وبها يتراحمون، وبها تعطف الوحش على ولدها، وأخر الله تسعًا وتسعين رحمة يرحم بها عباده يوم القيامة»(١).

(١) رواه مسلم، كتاب التوبة، باب في سعة رحمة الله تعالى وأنها سبقت غضبه، برقم (٢٧٥٢).

المطلب الثاني
الرحمة في ترغيب المخالفين في القرآن الكريم

المتأمل لآيات القرآن الكريم أنه ﷻ يعرض برحمته ﷻ للكفار والعصاة لترغيبهم في التوبة والدخول في رحمة الله ﷻ في آيات كثيرة، ومن ذلك تأتي رحمة الله في ترغيب الكفار للإسلام والتوبة ﴿فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [البقرة:١٩٢].

ومع أهل الكتاب ﴿لَّقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٖۘ وَمَا مِنۡ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۚ وَإِن لَّمۡ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [المائدة:٧٣] جاء بعدها ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسۡتَغۡفِرُونَهُۥۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [المائدة:٧٤].

ويأمر الله نبيه ﷺ بمخاطبة أسرى الكفار ودعوتهم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِيٓ أَيۡدِيكُم مِّنَ ٱلۡأَسۡرَىٰٓ إِن يَعۡلَمِ ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمۡ خَيۡرٗا يُؤۡتِكُمۡ خَيۡرٗا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [الأنفال:٧٠].

وفي قصص الأنبياء ودعوة أقوامهم في سورة الشعراء، تتردد الآيات الكريمات ثماني مرات[1] ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الشعراء:٩] فهو ﷻ مع عزته وغلبته إلا أن رحمته باقية ﷻ في ثمان آيات بنفس اللفظ.

ومع الأعداء من الأزواج والأولاد ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ وَأَوۡلَٰدِكُمۡ عَدُوّٗا لَّكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُمۡ﴾ [التغابن:١٤]، ومع ذلك يأتي التوجيه الرباني ﴿وَإِن تَعۡفُواْ وَتَصۡفَحُواْ وَتَغۡفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [التغابن: ١٤].

وفي دعوة المكذبين ﴿أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ إِنِ ٱفۡتَرَيۡتُهُۥ فَلَا تَمۡلِكُونَ لِي مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗاۖ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِۖ كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدَۢا بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡۖ وَهُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الأحقاف:٨] وفي الرد على المفترين.

(١) سورة الشعراء الآيات: ٩/ ٦٨/ ١٠٤/ ١٢٢/ ١٤٠/ ١٥٩/ ١٧٥.

وفي خطاب المكذبين: ﴿وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٱكۡتَتَبَهَا فَهِيَ تُمۡلَىٰ عَلَيۡهِ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا﴾ [الفرقان:٥] يأتي التوجيه الرباني ﴿قُلۡ أَنزَلَهُ ٱلَّذِي يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا﴾ [الفرقان:٦]. ﴿وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ يَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا﴾ [الفتح:١٤] يأتي الترغيب بعد الترهيب.

وفي دعوته للكفار يكرر ﷻ صفة الرحمن في آيات عديدة، ليتعرضوا لرحمته بالتوبة، وهي آيات دعوة ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَى ٱلطَّيۡرِ فَوۡقَهُمۡ صَٰٓفَّٰتٖ وَيَقۡبِضۡنَۚ مَا يُمۡسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحۡمَٰنُۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيۡءِۭ بَصِيرٌ ١٩ أَمَّنۡ هَٰذَا ٱلَّذِي هُوَ جُندٞ لَّكُمۡ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحۡمَٰنِۚ إِنِ ٱلۡكَٰفِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ﴾ [الملك:١٩-٢٠].

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسۡجُدُواْ لِلرَّحۡمَٰنِ قَالُواْ وَمَا ٱلرَّحۡمَٰنُ أَنَسۡجُدُ لِمَا تَأۡمُرُنَا وَزَادَهُمۡ نُفُورٗا﴾ [الفرقان: ٦]. ﴿قُلۡ مَن يَكۡلَؤُكُم بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحۡمَٰنِۚ بَلۡ هُمۡ عَن ذِكۡرِ رَبِّهِم مُّعۡرِضُونَ﴾ [الأنبياء:٤٢].

ومع المنافقين: ﴿لِّيَجۡزِيَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدۡقِهِمۡ وَيُعَذِّبَ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوۡ يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا﴾ [الأحزاب:٢٤].

وهذا التوجيه الرباني للنبي ﷺ في دعوته للمكذبين من اليهود ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمۡ ذُو رَحۡمَةٖ وَٰسِعَةٖ وَلَا يُرَدُّ بَأۡسُهُۥ عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٧] فهو ﷻ يجمع بين الترغيب والترهيب، ومع أنهم يكذبونه إلا أن الله يأمره أن يخبرهم بسعة رحمة الله تعالى.

وها هو يرغب أهل الكتاب في دعوتهم إلى الإيمان ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤۡتِكُمۡ كِفۡلَيۡنِ مِن رَّحۡمَتِهِۦ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ نُورٗا تَمۡشُونَ بِهِۦ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [الحديد:٢٨] جاءت الرحمة والمغفرة في هذه الآية الكريمة.

وها هو المولى ﷻ في معرض تهديده للكفرة الصادين عن سبيل

الله المعذبين المؤمنين بالنار يدعوهم إلى التوبة ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ﴾ [البروج:١٠].

يقول الحسن البصري رَحِمَهُ اللَّهُ: انظروا إلى هذا الكرم والجود، قتلوا أولياءه وهو يدعوهم إلى التوبة والمغفرة(١).

المطلب الثالث
وصف القرآن الكريم وبعض الكتب السماوية بالرحمة والهداية

كتب السماء متضمنة للرحمة، وسبب نزولها هو رحمة الله بالناس، وقد ضمن سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى سور القرآن الكريم بالبسملة ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝١﴾ [الفاتحة: ١].

المتأمل لكلام الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يجد اقتران الهداية بالرحمة في آيات عديدة، ولا شك أن هذا المنهج يبين أهمية الرحمة في بيان الهدى وأكثر ما ورد في ذلك الكتب التي أنزلها الله، فهي نور ورحمة للناس وهي رحمة بهم تخرجهم من الظلمات إلى النور، قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عن التوراة: ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ ۖ وَفِى نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾ [الأعراف:١٥٤]، ويقول: ﴿ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ۝١٥٤﴾ [الأنعام:١٥٤] ويقول: ﴿وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً﴾ [هود:١٧] والقرآن رحمة ﴿وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٢] ويقول: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء:٨٢] ﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓا۟ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ [القصص:٨٦].

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ١٠٧/٧.

بل إنه ﷻ يصف آيات القرآن ﴿الٓمٓ ۝١ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ ۝٢ هُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّلۡمُحۡسِنِينَ ۝٣﴾ [لقمان:١-٣]. ﴿أَوۡ تَقُولُواْ لَوۡ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا ٱلۡكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهۡدَىٰ مِنۡهُمۡۚ فَقَدۡ جَآءَكُم بَيِّنَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞۚ فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنۡهَاۗ سَنَجۡزِي ٱلَّذِينَ يَصۡدِفُونَ عَنۡ ءَايَٰتِنَا سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يَصۡدِفُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٧].

قال الزجاج: أي: هاديًا ذا رحمة[1]، قال ﷻ: ﴿هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمۡ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾ [الأعراف:٢٠٣].

﴿فَقَدۡ جَآءَكُم بَيِّنَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ﴾ [الأنعام:١٥٧].

﴿وَإِذَا لَمۡ تَأۡتِهِم بِـَٔايَةٖ قَالُواْ لَوۡلَا ٱجۡتَبَيۡتَهَاۚ قُلۡ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ مِن رَّبِّيۚ هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمۡ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٣].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [يونس:٥٧].

﴿لَقَدۡ كَانَ فِي قَصَصِهِمۡ عِبۡرَةٞ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِۗ مَا كَانَ حَدِيثٗا يُفۡتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصۡدِيقَ ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَتَفۡصِيلَ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾ [يوسف:١١١].

﴿وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِي ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِۖ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾ [النحل:٦٤].

﴿وَيَوۡمَ نَبۡعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٖ شَهِيدًا عَلَيۡهِم مِّنۡ أَنفُسِهِمۡۖ وَجِئۡنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِۚ وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ تِبۡيَٰنٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُسۡلِمِينَ﴾ [النحل: ٨٩].

﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَكۡثَرَ ٱلَّذِي هُمۡ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ ۝٧٦ وَإِنَّهُۥ لَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٧٧﴾ [النمل: ٧٦-٧٧].

(١) انظر التفسير المنير، وهبة الزحيلي، (٢٢٦/٨).

قال ﷻ: ﴿هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [الجاثية: ٢٠].

القرآن عبر عنه ﷻ بأنه تنزيل منه بصفة الرحمة ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٣﴾ [فصلت:١-٣].

وذكر الرحمن الرحيم عند ذكر تنزيل الكتاب يشير إلى الصفة الغالبة في هذا التنزيل، وهي صفة الرحمة. وما من شك أن تنزيل هذا الكتاب جاء رحمة للعالمين، رحمة لمن آمنوا به واتبعوه، ورحمة كذلك لغيرهم لا من الناس وحدهم، ولكن للأحياء جميعًا، فقد سن منهجًا ورسم خطة تقوم على الخير للجميع وأثر في حياة للبشرية(١).

وفي سورة الرحمن: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝٢﴾ [الرحمن: ١-٢].

والقرآن العظيم: ﴿تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢﴾ [فصلت: ٢].

وجاءت رحمته ﷻ بمعنى الهداية، قال ﷻ: ﴿يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ﴾ [الشورى:٨. الإنسان:٣١]. ﴿لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ [الفتح:٢٥].

المطلب الرابع
رحمة الأنبياء في القرآن الكريم

الأنبياء هم أرحم الخلق بالخلق، وأكثرهم دعوة إلى الخالق، والقرآن الكريم مملوء بقصص الأنبياء، وما ذاك إلا ليقتدي بهم النبي ﷺ كما قال ﷻ: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنعام: ٩٠].

بل ليقتدي بهم أمته كما قال ﷻ: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب، ٣١٠٨/٥.

وَٱلَّذِىٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ كَبُرَ عَلَى ٱلۡمُشۡرِكِينَ مَا تَدۡعُوهُمۡ إِلَيۡهِۚ ٱللَّهُ يَجۡتَبِىٓ إِلَيۡهِ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِىٓ إِلَيۡهِ مَن يُنِيبُ ﴾ [الشورى: ١٣].

فالله يأمر الأمة بما أمر به الأنبياء من توحيد الله والدعوة إليه وإقامة الدين.

وأبو الأنبياء إبراهيم عليه السلام الذي أمرنا الله باتباعه ﴿ ثُمَّ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ أَنِ ٱتَّبِعۡ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾ [النحل:١٢٣] يدعو الله بالرحمة ﴿فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّيۖ وَمَنۡ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [إبراهيم: ٣٦].

ودعوة إبراهيم عليه السلام مليئة بالشفقة والرحمة، منها وهو يخاطب أباه بالرحمة ويقول له: ﴿ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعۡبُدِ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ عَصِيّٗا ٤٤ يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٞ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيۡطَٰنِ وَلِيّٗا ﴾ [مريم:٤٤-٤٥] ترغيبًا له.

ويقول ﷻ عن إبراهيم: ﴿ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنۡ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلرَّوۡعُ وَجَآءَتۡهُ ٱلۡبُشۡرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِي قَوۡمِ لُوطٍ ﴾ [هود: ٧٤].

من رحمة الأنبياء أنهم يحببون لهم الإيمان كما أنه يجلب لهم الخير في الدنيا ترغيبًا لهم ﴿ فَقُلۡتُ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارٗا ١٠ يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا ١١ وَيُمۡدِدۡكُم بِأَمۡوَٰلٖ وَبَنِينَ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ جَنَّٰتٖ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ أَنۡهَٰرٗا ١٢ مَّا لَكُمۡ لَا تَرۡجُونَ لِلَّهِ وَقَارٗا ١٣ وَقَدۡ خَلَقَكُمۡ أَطۡوَارًا ﴾ [نوح:١٠-١٤] ﴿ وَيَٰقَوۡمِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا وَيَزِدۡكُمۡ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمۡ وَلَا تَتَوَلَّوۡاْ مُجۡرِمِينَ ﴾ [هود: ٥٢].

ومن رحمة الأنبياء الإحسان إلى الناس ودعوتهم بأعمالهم وأخلاقهم كما يدعونهم بأقوالهم، فهذا يوسف عليه السلام وهو في السجن يتألف الناس بالإحسان إليهم، وحتى كان مرجعًا لهم ولنتأمل هذه الآية الكريم ﴿ وَدَخَلَ

مَعَهُ ٱلسِّجۡنَ فَتَيَانِۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعۡصِرُ خَمۡرٗاۖ وَقَالَ ٱلۡأٓخَرُ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحۡمِلُ فَوۡقَ رَأۡسِي خُبۡزٗا تَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِنۡهُۖ نَبِّئۡنَا بِتَأۡوِيلِهِۦٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [يوسف: ٣٦] قال ابن عثيمين: وكان يوسف عليه السلام قد اشتهر في السجن بالجود والإحسان، فصدقه الحديث، وحسن السمت، وكثرة والإحسان إلى أهل السجن، وعيادة مرضاهم، والقيام بحقوقهم.

قال القرطبي رحمه الله: كان في السجن يعزي فيه الحزين، ويعود فيه المريض، ويداوي فيه الجرحى، ويصلي الليل كله واستأنس من أهل السجن، فكان إذا خرج الرجل من السجن رجع حتى يجلس في السجن مع يوسف عليه السلام.

وأحبه صاحب السجن فوسع عليه، فيه ثم قال يا يوسف: لقد أحببتك حبًا لم أحب شيئًا حبك[1].

وقد استثمر هذه الأخلاق الكريم لدعوتهم إلى الله ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ٣٩ مَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسۡمَآءٗ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۚ أَمَرَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [يوسف:٣٩-٤٠].

وكان رسول الله ﷺ يقص على صحابته رحمة الأنبياء بأقوامهم، بل يحكيها لهم كأنهم يرونها، عن عبدالله بن مسعود قال: كأني أنظر إلى النبي ﷺ يحكي نبيًا من الأنبياء ضربه قومه فأدموه فهو يمسح الدم عن وجهه ويقول: رب اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون[2].

وسيأتي ذكر الأنبياء ورحمتهم في سورة الأعراف بمشيئة الله تعالى.

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ٩/١٨٩.
(٢) رواه البخاري، كتاب استتابة المرتدين، باب إذا عرض الذمي وغيره بسب النبي ﷺ برقم (٦٩٢٩). ومسلم، كتاب الجهاد والسير، باب غزوة أحد، برقم (١٧٩٢).

المطلب الخامس
رحمة النبي ﷺ في القرآن الكريم(١)

رسالة النبي ﷺ طابعها وعنوانها الرحمة، كما أخبر ﷻ بيانه للنبي ﷺ ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء:١٠٧] وكفى بهذه الآية بيانًا للدعاة من بعده ولمن تبعه على بصيرة أن تتجلى في دعوتهم الرحمة بمن يدعوهم.

وقال ﷻ: ﴿حمٓ ۝١ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ۝٢ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةٖ مُّبَٰرَكَةٍۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ۝٣ فِيهَا يُفۡرَقُ كُلُّ أَمۡرٍ حَكِيمٍ ۝٤ أَمۡرٗا مِّنۡ عِندِنَآۚ إِنَّا كُنَّا مُرۡسِلِينَ ۝٥ رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ [الدخان:١-٦]، والرحمة هو النبي ﷺ.

ولنتأمل بعض الآيات الكريمة في وصف النبي ﷺ.

يقول ﷻ: ﴿لَقَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ عَزِيزٌ عَلَيۡهِ مَا عَنِتُّمۡ حَرِيصٌ عَلَيكُم بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾ [التوبة:١٢٨].

ويقول ﷻ: ﴿لَقَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ بَعَثَ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران: ١٦٤] فهو رحمة بهم وهو من أنفسهم وهو يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم.

وها هو ﷻ يخاطب أهل الكتاب ويدعوهم إلى الإيمان بالنبي مبينًا هدايته وبعض صفات الرحمة: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ كَثِيرٗا مِّمَّا كُنتُمۡ تُخۡفُونَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖۚ قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ ۝١٥ يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِهِۦ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [المائدة:١٥-١٦].

(١) وفي هذا المبحث سنتوسع لنشمل الكتاب والسنة نظرًا لورود صفات الرحمة في سنته ﷺ.

وبين الله ﷻ صفة رسول الله ﷺ: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

يقول السعدي رحمه الله تعليقًا على الآية: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا﴾ من أوجب الواجبات وأهم المهمات الاقتداء بأخلاقه الكريمة ومعاملة الناس بما كان يعاملهم به ﷺ من اللين وحسن الخلق والتأليف امتثالًا لأمر الله وجذبًا لعباد الله لدين الله(١).

كما يأمر الله نبيه ﷺ بجواب المنافقين إنه رحمة ﴿وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِىَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ ۚ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [التوبة: ٦١].

كما كان رسول الله ﷺ حريصًا على هداية قومه ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ﴾ [فاطر: ٨] ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ [الكهف: ٦].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يا أيها الناس إنما أنا رحمة مهداة»(٢).

وعن جبير بن مطعم قال: سمّى لنا رسول الله ﷺ نفسه أسماء فقال: «أنا محمد وأنا أحمد، وأنا الماحي الذي يمحو الله بي الكفر، وأنا الحاشر الذي يُحشَرُ الناس على قدمي، وأنا العاقب الذي ليس بعده نبي»(٣).

ومن رحمته ﷺ وصيته بالرحمة:

عن بريدة عن أبيه قال: كان رسول الله ﷺ إذا أمر أميرًا على جيش أو

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن السعدي، ١/١٥٤.
(٢) رواه الحاكم في المستدرك ١/٣٥ وابن سعد في الطبقات ١/١٩٢. وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم (٤٩٠).
(٣) رواه البخاري، كتاب المناقب، باب ما جاء في أسماء رسول الله ﷺ، برقم (٣٥٣٢) ومسلم، كتاب الفضائل، باب في أسمائه ﷺ، برقم (٦٢٥١).

سرية أوصاه في خاصته بتقوى الله ومن معه من المسلمين خيرًا ثم قال: «اغزوا باسم الله في سبيل الله، قاتلوا من كفر بالله، اغزوا ولا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليدًا»[1].

عن أسامة بن زيد ﷺ قال: بعثنا رسول الله ﷺ إلى الحرقة فصبحنا القوم فهزمناهم ولحقت أنا ورجل من الأنصار رجلًا منهم فلما غشيناه قال: لا إله إلا الله، فكف الأنصاري، فطعنته برمحي حتى قتلته فلما قدمنا بلغ النبي ﷺ فقال: «يا أسامة أقتلته بعد ما قال: لا إله إلا الله»؟! قلت: كان متعوذًا فما زال يكررها حتى تمنيت أني لم أكن أسلمت قبل ذلك اليوم[2].

عن عبدالله بن مسعود قال: كأني أنظر إلى النبي ﷺ يحكي نبيًا من الأنبياء ضربه قومه فأدموه فهو يمسح الدم عن وجهه ويقول: رب اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون[3].

يقول ابن القيم رحمه الله: تأمل حال النبي ﷺ إذ ضربه قومه حتى أدموه، فجعل يمسح الدم عنه ويقول: اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون. كيف جمع ﷺ في هذه القامات أربع مقامات من الإحسان قابل به إساءتهم العظيمة له.

أحدها: عفوه عنهم. والثاني: استغفاره لهم. والثالث: اعتذار عنهم بأنهم لا يعلمون، والرابع: استعطافه لهم بإضافتهم إليه، كما يقول الرجل لمن يشفع عنده فيمن يتصل به: هذا ولدي[4].

ومن رحمته ﷺ النهي عن الظلم حتى مع المخالف.

عن ابن عباس ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ لمعاذ بن جبل حين بعثه

(١) رواه مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب تأمير الإمام الأمراء على البعوث، ووصيته إياهم بآداب الغزو وغيرها برقم (١٧٣١).
(٢) رواه البخاري، كتاب المغازي، باب بعث النبي ﷺ أسامة بن زيد برقم (٤٢٦٩) ومسلم، كتاب الإيمان، باب تحريم قتل الكافر بعد أن قل لا إله إلا الله، برقم (٢٨٨).
(٣) رواه البخاري، كتاب استتابة المرتدين، باب إذا عرض الذمي وغيره بسب النبي ﷺ، برقم (٦٩٢٩).
(٤) التفسير القيم، لابن القيم، دار مكتبة الهلال، ص٦٥٤.

إلى اليمن: «إنك ستأتي قومًا من أهل الكتاب، فإذا جئتهم فادعهم إلى أن يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، فإن هم طاعوا لك بذلك فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة، فإن هم طاعوا لك بذلك فأخبرهم أن الله قد فرض عليكم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم، فإن هم طاعوا لك بذلك فإياك وكرائم أموالهم واتق دعوة المظلوم فإنه ليس بينه وبين الله حجاب»[1].

عن أبي عبدالله الأسدي قال: سمعت أنس بن مالك ﷺ يقول: قال رسول الله ﷺ: «اتقوا دعوة المظلوم وإن كان كافرًا فإنه ليس دونها حجاب»[2]. فالنبي ﷺ في هذا الحديث ينهى عن ظلم الكفار. وهذا من رحمته ﷺ بهم.

ومن رحمته ﷺ امتناعه عن الدعاء على من عاداه وآذاه، بل وتفكره ﷺ في هداية من في الأصلاب.

جاء في الصحيحين أن أم المؤمنين عائشة ﷺ قالت للنبي ﷺ: هل أتى عليك يوم كان أشدّ من يوم أحد؟ قال: «لقد لقيت من قومك ما لقيت، وكان أشدّ ما لقيت منهم يوم العقبة، إذ عرضت نفسي على ابن عبد يا ليل بن عبد كلال فلم يجبني إلى ما أردت، فانطلقت وأنا مهموم على وجهي، فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب، فرفعت رأسي فإذا أنا بسحابة قد أظلتني، فنظرت فإذا فيها جبريل، فناداني فقال: إن الله قد سمع قول قومك لك، وما ردّوا عليك، وقد بعث الله إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم، فناداني ملك الجبال فسلّم عليّ، ثم قال: يا محمد، فقال: ذلك فيما شئت، إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين، فقال النبي ﷺ: بل

(١) رواه البخاري، كتاب المغازي، باب بعث أبي موسى، برقم (٤٣٤٨).
(٢) رواه أحمد في المسند برقم (١٢٥٧١) وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم (٧٦٧).

أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئًا»[1].

وعن أبي هريرة قال: قيل: يا رسول الله ادع على المشركين، قال: «إني لم أبعث لعانًا وإنما بعثت رحمة»[2].

ومن رحمته ﷺ رفقه بمخالفيه. فعن عائشة رضي الله عنها زوج النبي ﷺ قالت: دخل رهط من اليهود على رسول الله ﷺ فقالوا: السام عليكم، قالت عائشة: ففهمتها فقلت: وعليكم السام واللعنة، قالت: فقال رسول الله ﷺ: «مهلًا يا عائشة، إن الله يحب الرفق في الأمر كله»، فقلت: يا رسول الله، أو لم تسمع ما قالوا؟ قال رسول الله ﷺ: «لقد قلت وعليكم»[3].

ومن رحمته ﷺ أمره بالتبشير والتيسير ونهيه ﷺ عن التعسير والتنفير، وهذا في مقام الدعوة والتعليم، عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: قام أعرابي فبال في المسجد، فتناوله الناس، فقال لهم النبي ﷺ: «دعوه وهريقوا على بوله سجلًا من ماء، أو ذنوبًا من ماء، فإنما بعثتم ميسرين ولم تبعثوا معسرين»[4].

وعن أنس بن مالك قال: قال النبي ﷺ: «يسروا ولا تعسروا وبشروا ولا تنفروا»[5].

ومن رحمته ﷺ رفقه بالشباب العصاة.

عن أبي أمامة قال: أن فتى شابًا أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله ائذن لي بالزنا، فأقبل القوم عليه فزجروه وقالوا: مه مه، فقال: «أدنه»، فدنا منه

(١) رواه البخاري، كتاب بدء الخلق، باب إذا قال أحدكم: أمين والملائكة في السماء: آمين فوافقت إحداهما الأخر عفر له ما تقدم من ذنبه، برقم (٣٢٣١) ومسلم، كتاب الجهاد والسير، باب ما لقي النبي ﷺ من أذى المشركين والمنافقين، برقم (١٧٩٥).
(٢) رواه مسلم، كتاب البر والصلة والأداب، باب النهي عن لعن الدواب وغيرها، برقم (٢٥٩٩).
(٣) رواه البخاري برقم (٦٠٢٤) ومسلم برقم (٥٧٨٤).
(٤) رواه البخاري، كتاب الوضوء، باب صب الماء على البول في المسجد، برقم (٢٢٠).
(٥) رواه البخاري، كتاب العلم، باب ما كان النبي ﷺ يتخولهم بالموعظة والعلم كي لا ينفروا، برقم (٦٩) ومسلم برقم (٤٦٢٢).

قريبًا قال: فجلس، قال: «أتحبه لأمك؟» قال لا والله جعلني الله فداءك، قال: «ولا الناس يحبونه لأمهاتهم، قال: أفتحبه لابنتك؟» قال: لا والله يا رسول الله جعلني الله فداءك؟ قال: «ولا الناس يحبونه لبناتهم؟ قال: أفتحبه لأختك؟» قال: لا والله جعلني الله فداءك، قال: «ولا الناس يحبونه لأخواتهم، قال: أفتحبه لعمتك؟» قال: لا والله جعلني الله فداءك، قال: «ولا الناس يحبونه لعماتهم، قال: أفتحبه لخالتك؟» قال: لا والله جعلني الله فداءك، قال: «ولا الناس يحبونه لخالاتهم»، قال: فوضع يده عليه وقال: «اللهم اغفر ذنبه وطهر قلبه وحصن فرجه»، فلم يكن بعد ذلك الفتى يلتفت إلى شيء[1].

وكذلك ما فعله الرسول ﷺ مع الطفيل بن عمرو الدوسي رضي الله عنه، فقد أسلم الطفيل ابن عمرو الدوسي رضي الله عنه قبل الهجرة في مكة ثم رجع إلى قومه يدعوهم إلى الإسلام، فأمر بأهل بيته، فأسلم أبوه وزوجته، ثم دعا قومه إلى الله جل جلاله، فأبت عليه وعصت، وأبطئوا عليه، فجاء الطفيل بن عمرو الدوسي إلى رسول الله ﷺ فقال: «إن دوسا قد عصت وأبت فادع الله عليهم فاستقبل رسول الله ﷺ القبلة ورفع يديه فقال الناس: هلكوا فقال: اللهم اهد دوسًا وائت بهم اللهم اهد دوسًا وائت بهم»[2].

ومن رحمته ﷺ تجاوزه عن مخالفيه.

عن جابر بن عبدالله رضي الله عنه قال: غزونا مع رسول الله ﷺ غزوة نجد، فلما أدركته القائلة وهو في واد كثير العضاة، فنزل تحت شجرة واستظل بها وعلق سيفه، فتفرق الناس في الشجر يستظلون، وبينا نحن كذلك إذ دعانا رسول الله ﷺ فجئنا فإذا أعرابي بين يديه فقال: «إن هذا أتاني وأنا نائم فاخترط سيفي فاستيقظت وهو قائم على رأسي مخترط صلتًا

(١) رواه أحمد في المسند برقم (٢٢٢٦٥) وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد وعزاه إلى الطبراني، وقال: رجاله رجال الصحيح ١٢٩/١ وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم (٣٧٠).
(٢) رواه أحمد في المسند برقم (٧٣١٣) وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة ٤٤٠/٦.

قال: من يمنعك مني؟ قلت الله. فشامه ثم قعد فهو هذا»، قال: ولم يعاقبه رسول الله ﷺ[1].

ومن رحمته ﷺ فرحه بإسلام الكفار.

عن أنس ﷺ قال: كان غلام يهودي يخدم النبي ﷺ، فمرض فأتاه النبي ﷺ يعوده فقعد عند رأسه فقال: «له أسلم»، فنظر إلى أبيه وهو عنده فقال له: أطع أبا القاسم ﷺ فأسلم فخرج النبي ﷺ وهو يقول: «الحمد لله الذي أنقذه من النار»[2].

المطلب السادس
رحمة الدعاة في القرآن الكريم

بعد الحديث عن رحمة الأنبياء ورحمة نبينا محمد ﷺ وهو قدوتنا، وهذا بحد ذاته كاف لاقتداء كل مسلم به ﷺ، ولكن من المفيد ذكر بعض النصوص في فضل الرحمة والأمر بها، وأنها لا تختص بالأنبياء، بل هي حتى في أتباعهم.

الرحمة من الله، والرحمة يجعلها الله في قلوب من يشاء من عباده، ﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَـٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ۖ فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَـٰسِقُونَ﴾ [الحديد:٢٧].

بل إنه ﷻ يخبرنا أن النجاة بالتواصي بالمرحمة ﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ﴿١١﴾

(١) رواه البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة بني المصطلق من خزاعة، برقم (٤١٣٩).
(٢) رواه البخاري، كتاب الجنائز، باب إذا أسلم الصبي فمات، هل يصلى عليه، برقم (١٣٥٦).

وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ أَوۡ إِطۡعَٰمٌ فِي يَوۡمٖ ذِي مَسۡغَبَةٖ ﴿١٤﴾ يَتِيمٗا ذَا مَقۡرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوۡ مِسۡكِينٗا ذَا مَتۡرَبَةٖ ﴿١٦﴾ ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡمَرۡحَمَةِ ﴿١٧﴾ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ ﴿١٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا هُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ ﴿١٩﴾ عَلَيۡهِمۡ نَارٞ مُّؤۡصَدَةُۢ ﴾ [البلد:١١-٢٠].

والله أثنى على الخضر بالرحمة قبل العلم ﴿ فَوَجَدَا عَبۡدٗا مِّنۡ عِبَادِنَآ ءَاتَيۡنَٰهُ رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِنَا وَعَلَّمۡنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلۡمٗا ﴾ [الكهف: ٦٥].

وصاحب يس وهو يدعو قومه بالرحمة والشفقة كما قال ﷻ: ﴿ فَوَسۡوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيۡطَٰنُ لِيُبۡدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنۡهُمَا مِن سَوۡءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنۡ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيۡنِ أَوۡ تَكُونَا مِنَ ٱلۡخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٖۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتۡ لَهُمَا سَوۡءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخۡصِفَانِ عَلَيۡهِمَا مِن وَرَقِ ٱلۡجَنَّةِۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمۡ أَنۡهَكُمَا عَن تِلۡكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمَا عَدُوّٞ مُّبِينٞ ﴿٢٢﴾ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمۡنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمۡ تَغۡفِرۡ لَنَا وَتَرۡحَمۡنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ ٱهۡبِطُواْ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ وَلَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُسۡتَقَرّٞ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٖ ﴿٢٤﴾ قَالَ فِيهَا تَحۡيَوۡنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنۡهَا تُخۡرَجُونَ ﴿٢٥﴾ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ ﴿٢٦﴾ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوۡءَٰتِهِمَآۗ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمۡ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنۡ حَيۡثُ لَا تَرَوۡنَهُمۡۗ إِنَّا جَعَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴾ [يس:٢٠-٢٧].

فتأمل الرحمة في دعوته من عدة وجوه:

أولًا: بقوله: (يا قوم) يتحببهم بقرابته منهم ونصحه لهم.

ومنها أنه لا يوبخهم بالشرك، لم يقل لهم: كيف تعبدون وتتخذون آلهة وهي لا تغني عنكم شيئًا، بل يجعل الأمر على نفسه ﴿ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدۡنِ ٱلرَّحۡمَٰنُ بِضُرّٖ لَّا تُغۡنِ عَنِّي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا يُنقِذُونِ ﴾ [يس: ٢٣].

ومنها أنه يختار صفة الرحمن ترغيبًا لهم ودفعهم للهداية.

ومنها رحمته بهم وشفقته عليهم مع أنهم قتلوه بالحجارة وهو يقول: ﴿قَالَ يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ ٢٦ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ﴾ [يس:٢٦-٢٧].

قال ابن عباس: نصح لقومه حيًا وميتًا(١).

يقول قتادة: إنه كان يقول وهم يرمونه بالحجارة: اللهم اهد قومي، اللهم اهد قومي، اللهم اهد قومي(٢).

ويقول ابن مسعود: إنهم وطئوه بأرجلهم(٣).

وفي صفة النبي ﷺ وصحابته الكرام يقول ﷻ: ﴿مُّحَمَّدٞ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ تَرَىٰهُمۡ رُكَّعٗا سُجَّدٗا يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗاۖ سِيمَاهُمۡ فِي وُجُوهِهِم مِّنۡ أَثَرِ ٱلسُّجُودِۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ﴾ [الفتح: ٢٩].

عن النعمان بن بشير رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى»(٤).

وعن عبدالله بن عمرو رضي الله عنه قال: قال ﷺ: «الراحمون يرحمهم الرحمن»(٥).

وعنه أيضًا قال: قال ﷺ: «ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء»(٦). ومن في الأرض شاملة حتى الكفار.

وعن جرير بن عبدالله رضي الله عنه قال: قال ﷺ: «من لا يرحم الناس لا يرحمه الله جل جلاله»(٧).

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ٢٢/١٥.
(٢) رواه الترمذي برقم (١٩٢٤) وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي ٣٥٠/٢.
(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٥٧١/٦.
(٤) رواه مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم برقم (٦٧٥١).
(٥) رواه الترمذي برقم (١٩٢٤) وأبو داود برقم (٤٩٤٣) وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة ٦٣٠/٢.
(٦) رواه الترمذي، كتاب أبواب البر والصلة، باب ما جاء في رحمة المسلمين، برقم (١٩٢٤) وقال: حديث حسن صحيح.
(٧) رواه مسلم، كتاب الفضائل، باب رحمته ﷺ الصبيان والعيال، برقم (٦١٧٢).

عن عمرة عن عائشة ﵂ قالت: قال رسول الله ﷺ: «إن الله رفيق يحب الرفق، ويعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف، وما لا يعطى على سواه»[١].

وعن عائشة ﵂ قالت: قال رسول الله ﷺ: «إن الرفق لا يكون في شيء إلا زانه، ولا ينزع من شيء إلا شانه»[٢].

عن أبي الدرداء ﵁، عن النبي ﷺ قال: «من أعطي حظه من الرفق فقد أعطي حظه من الخير، ومن حرم حظه من الرفق فقد حرم حظه من الخير»[٣].

وعنه أيضًا قال: قال ﷺ: «من لا يَرحم لا يُرحم)[٤].

(١) رواه مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب الرفق، برقم (٦٧٦٦).
(٢) رواه مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب الرفق برقم (٦٧٦٧).
(٣) رواه الترمذي برقم (٢٠١٣) وقال حديث حسن صحيح، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة ٢/٤٥٠.
(٤) رواه البخاري، كتاب الأدب، باب راحمة الناس والبهائم، برقم (٦٠١٣).

المبحث الثاني
معالم الرحمة في الدعوة إلى الله في سورة الأعراف (أنموذجًا)

سورة الأعراف هي أطول سورة مكية (٢٠٦) آية، وهي في أصلها خطاب للنبي ﷺ في الفترة التي يدعو فيها كفار مكة إلى الإسلام، لذا هي سورة دعوية جاءت فيها قصص الأنبياء ودعوتهم إلى أقوامهم.

وجاءت مقدمة السورة ﴿كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا فَجَآءَهَا بَأْسُنَا بَيَٰتًا أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ ﴿٤﴾ فَمَا كَانَ دَعْوَىٰهُمْ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٥﴾ فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦﴾ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ ۖ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ﴿٧﴾ وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ ۚ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ﴾ [الأعراف: ٢-٩].

فمن رحمة الله في الآيات السابقة إرسال النبي ﷺ وإنزال الكتاب، ومن رحمة الله بيان عقوبة المكذبين في الدنيا، ومن رحمته ﷻ أن يقص لنا ذلك لنتعظ ونعتبر، ومن رحمته ﷻ بيان العاقبة الأخروية.

ومن رحمته ﷻ بيان فضله وتمكينه لنا في الأرض، وأيضًا منته علينا التي توجب شكره ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ

قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿١٠﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ ﴾ [الإسراء: ١٠-١١].

ثم تسير السورة في قصة آدم مع إبليس.

ومن رحمته بيان فضل الله علينا وعداوة الشيطان لنا الذي هو أكبر أسباب الضلال، وهو كان سبب خروج أبانا آدم من الجنة ﴿فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ ۚ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ ۖ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ [الأعراف:٢٢-٢٣].

ورحمة الله تتردد في هذه السورة.

وفي سياق السورة يناديني ربنا ﷻ نداءات بقوله: ﴿ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾ يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا ۖ وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٢٦﴾ يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا ۗ إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ۗ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٧﴾ وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ ۖ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ ۖ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ۚ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ ۗ إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٠﴾ يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا ۚ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ ۚ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ۖ فَإِذَا جَاءَ

أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٤﴾ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِي فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [الأعراف:٣٥-٣٥].

يناديا ربنا ﷻ بقوله: ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ ﴾ ورحمة الله تظهر في هذه النداءات من خلال بيان نعم الله علينا باللباس، وان معصيته ﷻ تنزع عنا هذا اللباس، وأن خير لباس التقوى.

والتحذير من الشيطان، وبيان خطورة القول على الله بغير علم، وبيان أن الله أوامره إنما هي بالقسط، وأن لا يأمر بالفحشاء، وإنما هو يحرم الفواحش ولا يحرم الزينة والطيبات، وأنه خالصة للمؤمنين يوم القيامة.

وفي الختام يبين أهمية اتباع الرسل وعاقبة التقوى والصلاح.

كما يعرض محاجات أهل النار بعضهم لبعض ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا﴾ [الأعراف:٣٨] وهذا من رحمته ﷻ أن بين لنا مصير المكذبين، كما يعرض لمصير المؤمنين ﴿ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٤٢﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ ۖ لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ ۖ وَنُودُوٓا۟ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [الأعراف:٤٢-٤٣].

فرحمة الله تتجلى في الآيات السابقة بالثناء على المؤمنين، وأنه ﷻ لا يكلف نفسًا إلا وسعها، وعاقبة المؤمنين وبيان فضل الله عليهم بهدايتهم.

ثم يعرض رحمة الله ﷻ في قصة أصحاب الأعراف ﴿ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحْمَةٍ ۚ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴾ [الأعراف:٤٩].

والمقسمون هم الكفار، أقسموا على بعض المؤمنين أو على أصحاب الأعراف ألا يدخلوا الجنة[1].

(١) انظر تفسير سورة الأعراف في: جامع البيان عن تأويل آي القرآن، الطبري، (١٢/٤٥٩). =

وتمضي الآيات الكريمة بقوله ﷻ: ﴿وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف:٥٢] فالقرآن الكريم هدى ورحمة.

ومن رحمته ﷻ كمال ربوبيته، وأنه ﷻ كما أنه الخالق وحده فهو الآمر وحده، ثم يدعونا ﷻ إلى دعائه، وبين ذلك بنهينا عن الفساد، وتختتم الآيات بمستحق رحمته.

يبين الله ﷻ عظمته وأن كل شيء بيده بلفظ الربوبية، ثم يدعو ﷻ إلى دعائه ورجاء رحمته ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ [الأعراف:٥٤-٥٦].

كما يعرف بنفسه ﷻ وبرحمته بإنزال الغيث ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ۚ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾ [الأعراف:٥٧-٥٨] وهو مثل للمؤمن والكافر، فهو ﷻ ينزل الغيث، وهنا يضرب مثلين الأول للبعث وإخراج الموتى كإخراج الزرع، والآخر للمؤمنين والكافرين في الإفادة من القرآن الكريم، فالمؤمنون كالأرض الطيبة التي تستنبت من الغيث والكافر كالأرض السبخة.

وهذه الأمثال من رحمة الله بعباده وبيان الحق لهم، وهي مقدمة لقصص الأنبياء.

ثم تمضي الآيات الكريمات إلى قصص الأنبياء، وقد ساق الله القصص

= وتفسير القرآن العظيم، ابن كثير، (٤٢١/٣). والجامع لأحكام القرآن، القرطبي، (٢١٤/٧) في تفسير الآية.

القرآني للأنبياء للعبرة والاقتداء ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام:٩٠].

فبدأ بقصة نوح عليه السلام ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾ قَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾ قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦١﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٦٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ﴾ [الأعراف:٥٩-٦٤].

نتأمل معالم الرحمة في دعوة نوح عليه السلام، فهو يخاطب قومه ويتلطفهم يقول: ﴿يَا قَوْمِ﴾ وأعظم الرحمة أمره لهم بالخير، وأعظمه عبادة الله وحده، وبيانه عليه السلام، أن ليس لهم إله غيره، وبين مظاهر رحمة نبي الله بهم، وخوفه عليهم من عذاب الله. ومع ذلك كانت إجابتهم جانبت الأدب، إذ يصفونه بالضلال المبين، وكان رده عليهم مظهرًا آخر من مظاهر الرحمة، حيث لم يجبهم بأنهم ضلال، ولو قال ذلك لكان حقًا، ولكنه بكل رحمة يستلطفهم بقوله: ﴿يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

ثم يبين أن دافعه إبلاغ الرسالة، ونصيحته لهم، كما بين لهم خطأ تعجبهم أن يأتيهم ذكر من ربهم على رجل منهم، فهو ذكر من ربهم وعلى رجل منهم ليس من غيرهم ومقصوده إنذارهم وحصول التقوى منهم وحصول الرحمة لهم فمقصود دعوته الرحمة بقومه.

ونتأمل قوله تعالى: ﴿وَأَنصَحُ لَكُمْ﴾ أي: أقصد صلاحكم بإخلاص وفي زيادة اللام مبالغة ودلالة على إمحاض النصيحة، وحقيقة النصح إرادة الخير لغيرك مما تريده لنفسك، أو النهاية في صدق العناية[1].

(١) انظر: مدارك التنزيل وحقائق التأويل، النسفي، ١/٥٧٧.

وقوله: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ ونوح عليه السلام في موضع آخر وهو يناجي ربه يقول: ﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا﴾ [نوح:٧] فمقصود دعوته الرحمة بقومه.

وفي قصة عاد ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٦٦﴾ قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٧﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ ۚ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصْطَةً ۖ فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا ۖ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ ۖ أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ ۚ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ ﴿٧١﴾ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ۖ وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف:٦٥-٧٢]. نلاحظ رحمة هود عليه السلام على قومه.

فنلاحظ قول المولى جل جلاله: ﴿أَخَاهُمْ هُودًا ۚ﴾ وهذا له مدلوله من الاستعطاف والنصح، ثم هو يدعوهم إلى الخير وأعظمه عبادة الله وحده ويحثهم على التقوى، كما بين لهم دوافعه وهو قيامه بالبلاغ والنصيحة لقومه.

نفس المشهد يتكرر، يقولون له: ﴿إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ﴾ وهو يرد عليهم بكل أدب ورحمة: ﴿يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ كما بين لهم الباعث له البلاغ والنصيحة ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾ ويرغبهم بالإيمان، ويذكرهم بنعم الله عليهم ﴿فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

وفي قصة ثمود تتكرر كثير من المشاهد يقول سبحانه: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ

أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً ۖ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ ۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا ۖ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ [الأعراف:٧٣-٧٤].

نلاحظ تكرار كثير مما سبق من استعطافهم والنصح لهم، ونلاحظ أيضًا مظاهر أخرى للرحمة بذكر البينات التي أعطاها الله إياه ﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً﴾، ويخوفهم من عذاب الله وما ذاك إلا رحمة بهم.

وهو يذكرهم أيضًا بنعم الله عليهم ﴿فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ وبعد نزول العذاب عليهم يخاطبهم نبيهم صالح بكل رحمة وشفقة ﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ [الأعراف:٧٩].

وفي قصة لوط عليه السلام، يخاطب قومه بكل شفقة: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف:٨٠].

وفي قصة مدين ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ فَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَلَا تَقْعُدُوا۟ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ ۖ وَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف:٨٥-٨٦].

سماه الله ﴿أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ وهو يبين لهم أن ما يأمرهم به هو خير لهم، ويذكرهم بنعم الله عليهم، ويخوفهم من عاقبة المفسدين.

وفي النهاية، وبعد نزول العذاب ﴿ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ ۖ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴾ [الأعراف:٩٣].

ومن رحمته أنه يصيب الأمم بالبلاء حتى يعودوا إلى ربهم ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّبِىٍّ إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴾ [الأعراف:٩٤]، قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ: هو البؤس وشظف المعيشة وضيقها، والضراء: الضر وسوء الحال في أسباب دنياهم، وقال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ: البأساء في الأموال، والضراء في الأبدان.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ: فعلنا ذلك بهم ليتضرعوا إلى ربهم ويستكينوا إليه وينيبوا بالإقلاع عن كفرهم والتوبة من تكذيب أنبيائهم.

فهذا البلاء هو من الرحمة ليعودوا إلى ربهم كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢١﴾﴾ [السجدة: ٢١].

ومن ذلك ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾ [الأعراف: ١٣٠] قال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ: ليتعظوا وترق قلوبهم.

وفي قصة موسى من معالم الرحمة.

فمن رحمة الله ما أعطى الله موسى من بينات ﴿حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِىَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ [الأعراف: ١٠٥] وبعد أن رأى قومه يعبدون العجل، موسى نفسه يتعرض لرحمة الله ﴿ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِأَخِى وَأَدْخِلْنَا فِى رَحْمَتِكَ ۖ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ [الأعراف: ١٥١].

كما أن الرب بعد أن توعد عبدة العجل فإنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بين رحمته وقبول توبة عباده، ﴿وَٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِهَا وَءَامَنُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الأعراف:١٥٣].

وبين الله ﷻ ما في الألواح من رحمة وهدى ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ ۖ وَفِى نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾ [الأعراف:١٥٤].

وها هي الرحمة تتكرر مرة أخرى في دعوة موسى بعد أن أخذت قومه الرجفة ﴿وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَٰتِنَا ۖ فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّىَّ ۖ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ ۖ إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ ۖ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا ۖ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ﴾ [الأعراف:١٥٥].

ونتأمل دعاء موسى عليه السلام وخطابه لله ﷻ، وجوابه ﷻ، ونتأمل ما فيها من تكرار الرحمة ﴿وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَٰتِنَا ۖ فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّىَّ ۖ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ ۖ إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ ۖ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا ۖ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٥٥] ﴿وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ ۚ قَالَ عَذَابِىٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ ۖ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ ۡيَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٦-١٥٧].

فلنتأمل هذه العبارة العظيمة ﴿وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ﴾. قال البغوي رحمه الله: أي: عمت كل شيء[1]. وقال الحسن وقتادة: وسعت رحمته في الدنيا البر والفاجر، وهي يوم القيامة للذين اتقوا خاصة[2].

(١) معالم التنزيل في تفسير القرآن، البغوي، ٢/٢٣٨.
(٢) معالم التنزيل، البغوي، ٢/٢٣٨.

قال ابن كثير في تفسير ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ﴾: «الآية عظيمة الشمول والعموم»(١).

وقال السعدي رحمه الله: وسعت كل شيء من العالم العلوي والسفلي، والبر والفاجر، والمؤمن والكافر، فلا مخلوق إلا وصلت إليه رحمة الله، وغمره فضله وإحسانه، لكن الرحمة الخاصة المقتضية لسعادة الدنيا والآخرة ليست لكل أحد ولهذا قال: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف: ١٠٨](٢).

ثم أثنى ﷻ على المتبعين للنبي ﷺ وهي بشارة به، وبيان أنهم يستحقون رحمة الله.

وفي قصة أصحاب السبت الذين عصوا الله بالصيد في يوم السبت فقامت طائفة بنصحهم، وهناك طائفة ثالثة قالت للناصحين: اتركوهم إنهم مهلكون، فأثنى الله على أولئك الناصحين وبين نجاتهم ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ۙ ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ قَالُوا۟ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾ [الأعراف:١٦٤-١٦٥].

فتأمل مظاهر الرحمة في نصح الناصحين في قولهم: (ولعلهم يتقون) قال ابن كثير: «ولعل بهذا الإنكار يتقون ما هم فيه ويتركونه ويرجعون إلى الله تائبين، فإذا تابوا تاب الله عليهم ورحمهم»(٣).

ومع ذكر القرآن مخازي بني إسرائيل وعصيانهم فإن الله يفتح باب الرحمة ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۗ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ ۖ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأعراف: ١٦٧].

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٣/٤٨١.
(٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، السعدي ١/٣٠٥.
(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٣/٤٩٤.

ومن رحمته ﷻ دلالته لهم عليه بالنظر في حال النبي ﷺ، وأيضًا في ملكوت السموات والأرض وتخويفهم من اقتراب أجلهم ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١٨٤﴾ أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ ۖ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف:١٨٤-١٨٥].

وكذلك بيان حال هؤلاء الشركاء وضعفهم وعجزهم ليوحدوا الله ﷻ، بعد أن ذكر ﷻ إشراك الأولين به في خلقه مع أنه هو الذي خلقهم ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ۖ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ ۖ فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٨٩﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا ۚ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٩٠﴾ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٢﴾ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ ۚ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَٰمِتُونَ ﴿١٩٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ ۖ فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٩٤﴾ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۗ قُلِ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ﴾ [الأعراف:١٨٩-١٩٥].

فلنتأمل هذا البيان الشافي الكافي من ربنا ﷻ في ضعف وعجز الشركاء.

ثم مظاهر الهداية بالموعظة والتذكير ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠١].

وفي ختام السورة تتجلى الرحمة في مواقع منها توجيه للنبي ﷺ في دعوته ومكابدته للكفار المعرضين ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩].

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ: أمر بذلك نبي الله ﷺ في المشركين ورجح أنه غير منسوخ فيمن لم يؤمر بقتالهم[1].

وقوله ﷻ: ﴿هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [الجاثية: آية:٢٠] ثم الرحمة في استماع القرآن ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٤].

(١) جامع البيان، الطبري، ٣٢٩/١٣.

الخاتمة

فإني أشير إلى أهم النتائج التي توصلت إليها من خلال بحثي هذا:

١. أهمية الدعوة إلى الله في إقامة الدين.

٢. وجوب الدعوة على هذه الأمة وفضلها على أفرادها.

٣. الرحمة من أهم صفات الله تعالى.

٤. القرآن الكريم وبعض كتب السماء رحمة وهدى.

٥. دعوة الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم كانت رحمة وبالرحمة، لا سيما دعوة النبي ﷺ طابعها الرحمة (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين).

٦. أهمية الرحمة في الدعوة إلى الله تعالى.

٧. تبين سورة الأعراف ظهور الرحمة في آيات السورة ومعانيها وقصص الأنبياء.

التوصيات:

كما نوصي في ختام هذا البحث بما يلي:

١. العناية بالرحمة في المؤتمرات العلمية والبحوث والكتب والندوات الثقافية لتثقيف أمتنا بهذه المعاني السامية في الأوساط الثقافية.

٢. أهمية غرس الرحمة من قبل المعلمين والمربين والآباء في نفوس النشء.

٣. ضرورة عناية الدعاة بخلق الرحمة في دعوتهم لما لها من أهمية بالغة حث عليها الشرع المطهر.

٤. ضرورة عناية وسائل الإعلام بموضوع الرحمة في الأمة.

٥. أهمية عناية المساجد في الخطب والدروس بغرس الرحمة وتوجيه المسلمين لها.

المراجع والمصادر

١. القرآن الكريم.
٢. التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور، الدار التونسية للنشر، تونس، ١٩٨٢هـ.
٣. تفسير القرآن العظيم، عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن كثير، دار الأندلس للباعة والنشر والتوزيع، بيروت، الطبعة السادسة، ١٤٠٥هـ.
٤. التفسير القيم، لابن القيم الجوزية، دار مكتبة الهلال،.
٥. التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، وهبة الزحيلي، دار الفكر المعاصر، دمشق، الطبعة الثانية، ١٤١٨هـ.
٦. تهذيب اللغة، أبي منصور محمد بن أحمد الأزهري، تحقيق: إبراهيم الإبياري، دار الكاتب العربي، القاهرة، ١٣٧٨هـ.
٧. تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن السعدي.
٨. جامع البيان عن تأويل آي القرآن، أبي جعفر محمد بن جرير الطبري، دار الفكر، بيروت، ١٤٠٨هـ.
٩. الجامع لأحكام القرآن، أبي عبدالله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٦٦.
١٠. الدعوة إلى الله، توفيق الواعي، مكتبة الفلاح، الكويت، ط١، ١٤٠٦هـ.
١١. الرحمة وأثرها في الدعوة إلى الله، حمزة سليمان الطيار، موقع طريق الإسلام،
١٢. سلسلة الأحاديث الصحيحة، محمد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف، الرياض، د. ط. ت.
١٣. سنن أبو داود، أبو داود السجستاني، تحقيق: عبدالفتاح أبو غدة، مكتب المطبوعات الإسلامية، حلب، الطبعة الثانية، ١٤٠٦هـ.

١٤. سنن الترمذي، أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة الترمذي، بيت الأفكار الدولية، الرياض، ١٤٢٠هـ.
١٥. صحيح البخاري، أبو عبدالله محمد بن إسماعيل البخاري، بيت الأفكار الدولية، الرياض، ١٤١٩هـ.
١٦. صحيح مسلم، مسلم بن حجاج النيسابوري، تحقيق: نظر بن محمد الفارابي أبو قتيبة، دار طيبة، الطبعة الأولى، ١٤٢٧هـ.
١٧. الصراع بين الحق والباطل كما جاء في سورة الأعراف، عادل محمد صالح، مكتبة الملك عبدالعزيز العامة، الرياض، الطبعة الثانية، ١٤٢٣هـ.
١٨. الطبقات الكبرى، ابن سعد.
١٩. في ظلال القرآن، سيد قطب، دار الشروق، لبنان الطبعة الثالثة عشر، ١٤٠٧هـ.
٢٠. القاموس المحيط، الفيروزآبادي، دار إحياء التراث العربي، الطبعة الثانية، ١٤٢٤هـ.
٢١. لسان العرب، محمد بن مكرم بن علي، أبو الفضل، جمال الدين بن منظور، دار صادر بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤١٤هـ.
٢٢. مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، علي بن أبي بكر بن سليمان الهيثمي، تحقيق: عبدالقادر أحمد عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ
٢٣. مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيمية، جمع وترتيب الشيخ عبدالرحمن بن قاسم،.
٢٤. مدارك التنزيل وحقائق التأويل، عبدالله بن أحمد النسفي
٢٥. المستدرك على الصحيحين، أبو عبدالله محمد بن عبدالله النيسابوري، المكتبة العصرية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ

٢٦. مسند الإمام أحمد، أحمد بن حنبل، مؤسسة قرطبة، مصر، د. ط. ت.
٢٧. معالم التنزيل في تفسير القرآن، البغوي، تحقيق: عبدالرزاق المهدي، دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ.
٢٨. معجم مقاييس اللغة، أحمد بن فارس، تحقيق: عبدالسلام محمد هارون، دار الفكر، بيروت، ١٣٩٩هـ.
٢٩. مفردات اللغة، الراغب الأصفهاني،.
٣٠. منهج الدعوة إلى الله في القرآن والسنة، راجح السباتين، من موقعه على الإنترنت.

فهرس البحوث

• **بحث: اسم الله "الرحمن" في القرآن الكريم-جَمْع و دراسة.**
د. محمود محروس محمود إبراهيم.

المقدمة ٧
المبحث الأول: الدراسة اللغوية ٩
المبحث الثاني: مواضع اقتران اسم الله "الرحمن" باسمه "الرحيم" .. ١٧
المبحث الثالث: مواضع انفراد اسم الله "الرحمن" ٢٦
الخاتمة ٤٥

• **بحث: الرحمة بالأطفال وآثارها التربوية من خلال السنة النبوية.**
محمد عباس محمد عرابي.

المبحث الأول: الإطار العام للدراسة ٥٧
المبحث الثاني: مظاهر الرحمة بالأطفال في السنة النبوية ٦٦
المبحث الثالث: التطبيقات التربوية المستفادة من الرحمة بالأطفال في السنة النبوية ٧٤
الخاتمة ٨٥

• **بحث: الرحمة في ضوء القرآن الكريم.**
د. قسيم محمد عليان وردات.

المقدمة ٩٥
المبحث الأول: مفهوم الرحمة ١٠١
المبحث الثاني: الرحمة وموجباتها في ضوء القرآن الكريم ١٠٥
المبحث الثالث: جوانب رحمة الله تعالى في ضوء القرآن الكريم .. ١١٩
المبحث الرابع: رسائل ١٣١
الخاتمة ١٣٨

• **بحث: الرحمة والأسباب الجالبة لها في القرآن الكريم.**
د. نادية بنت إبراهيم النفيسة.

المقدمة ١٤٩
المبحث الأول: التعريف بالرحمة ١٥٢
المبحث الثاني: الرحمة في حق العبد ١٥٩
المبحث الثالث: الرحمة في حق الله تعالى ١٦٧
الخاتمة ١٨١

• **بحث: المنهج النبوي في تعزيز قيمة الرحمة لدى الصحابة رضي الله عنهم.**
الدكتور أنس سليمان المصري.

المقدمة ١٩١
المبحث الأول: المنهج النبوي في الكشف عن خلق الرحمة لدى الصحابة رضي الله عنهم ٢٠٢
المبحث الثاني: المنهج النبوي في تعزيز خلق الرحمة وتنميته وصقله ٢٠٦
المبحث الثالث: المنهج النبوي توظيف خلق الرحمة في الدعوة واستغلاله لخدمة الدين ٢٢١
الخاتمة ٢٢٦

• **بحث: حديث جعل الله الرحمة مائة جزء - دراسة تحليلية.**
د. عبدالرحمن عبدالناصر سيد سلطان.

المقدمة ٢٣٥
التمهيد: ماهية الرحمة في السنة النبوية ٢٤٠
المبحث الأول: دلائل الرحمة في حديث جعل الله الرحمة مائة جزء .. ٢٤٥
المبحث الثاني: مناقشة أثر اختلاف ألفاظ الحديث في تعدد أوجه الرحمة ٢٥٤
الخاتمة ٢٦٢

• **بحث: رحمة الله تعالى بعباده أسبابها وآثارها في ضوء القرآن الكريم.**

أ. د عبدالفتاح محمد خضر.

المقدمة ٢٧٣
المطلب الأول: تعريف الرحمة في اللغة والاصطلاح والمناسبة بينهما ..٢٧٥
المطلب الثاني: أسباب رحمة الله لعباده سبحانه ٢٧٧
المطلب الثالث: آثار رحمة الله بعباده ومظاهرها ٢٩٣
الخاتمة ٣٠٩

• **بحث: رحمة النبي ﷺ بأعدائه دراسة قرآنية.**

أ. عبير مشبب محمد آل جعال الأحمري.

المقدمة ٣١٥
التمهيد: مفهوم الرحمة ونظائرها في القرآن الكريم ٣١٩
المبحث الأول: حرص النبي ﷺ على هداية أعدائه، وعفوه وصفحه عنهم ٣٢٣
المبحث الثاني: تحسر النبي ﷺ وأساه وحزنه على عدم هداية الكفار ..٣٣١
المبحث الثالث: وصف النبي ﷺ بأنه رحمة للمنافقين، واستغفاره لهم ..٣٤٠
الخاتمة ٣٥٠

• **بحث: مظاهر الرحمة في حفظ الضرورات الخمس من خلال سورة البقرة.**

• **د. عبدالله بن سالم بن يسلم بافرج.**

المقدمة ٣٦١
التمهيد: بيان معنى الرحمة واشتمال سورة البقرة عليها ٣٦٧

المطلب الأول: مظاهر الرحمة في حفظ الدين من خلال سورة البقرة ..٣٧١
المطلب الثاني: مظاهر الرحمة في حفظ النفس من خلال سورة البقرة ..٣٧٧
المطلب الثالث: مظاهر الرحمة في حفظ العقل من خلال سورة البقرة ...٣٩١
المطلب الرابع: مظاهر الرحمة في حفظ النسل من خلال سورة البقرة ...٤٠٠
المطلب الخامس: مظاهر الرحمة في حفظ المال من خلال سورة البقرة ..٤٠٥
الخاتمة ٤١٤

- **بحث: مظاهر الرحمة في مواقف النبي ﷺ من اجتهادات الصحابة الفقهية.**

أ. حمد بن حسين بن صالح الجعيدي.

المقدمة ٤٢٥
المبحث الأول: مظاهر الرحمة فيما أقره النبي ﷺ من اجتهادات
الصحابة مطلقًا ٤٣٤
المبحث الثاني: مظاهر الرحمة فيما أقر النبي ﷺ الجميع عليه،
ولكن بعضهم حظه من الصواب أكبر من الآخر ٤٤٩
المبحث الثالث: مظاهر الرحمة، الرحمة فيما أقر النبي ﷺ من
أصاب في اجتهاده وتنبيه من ابتعد عن الصواب ٤٥٥
المبحث الرابع: مظاهر الرحمة فيما نبه النبي ﷺ على خطأ
الاجتهاد فيه وتشريع البديل ٤٥٧
الخاتمة ٤٦٠

- **بحث: معالم الرحمة في الدعوة إلى الله في القرآن الكريم "مع سورة الأعراف أنموذجًا".**

أ. د. خالد بن عبدالله بن عبدالعزيز القاسم.

المقدمة ٤٧١
التمهيد: معاني الرحمة والدعوة إلى الله ٤٧٤
المبحث الأول: معالم الرحمة في الدعوة إلى الله في القرآن الكريم ٤٧٩
المبحث الثاني: معالم الرحمة في الدعوة إلى الله في سورة
الأعراف أنموذجًا ٤٩٩
الخاتمة ٥١١